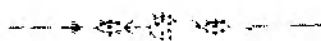


محاضرات المجمع العلمي العربي بدش



الجزء الاول



وفيه قسم من المحاضرات التي أقيمت في ردهه المجمع العلمي
الكبرى في المدرسة العادلية بدمشق سنة ١٩٢١ و ١٩٢٢ م
(الموافقة لسنة ١٣٣٩ و ١٣٤٠ و ١٣٤١ هـ)



طبع على نفقة المجمع العلمي العربي
وحقوق إعادة طبعها وترجمتها محفوظة له

المطبعة الحديثة في دمشق سنة ١٣٤٣ هـ و (١٩٢٥) م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اما بعد فان مجعنا العلمي العربي بدمشق مازال منذ اول عهده يقيم في ردهته الكرى حفلات اسبوعية للمحاضرات اشهدا جمهور كبير من اهل الفضل والادب ثم عزز محاضرات الرجال بمحاضرات اخرى تلقى على السيدات وجعل لها موافقت معلومه . ولم يخص المجمع اعضاءه بالقاء هذه المحاضرات بل كان يدعو احيانا كثيرة غيرهم من الفضلاء المقيمين بدمشق والطارئين عايها ممن عرف بالاخصاء في القنون المختلفة ان بنفضلوها بمحاضرات يلقيونها على من يجتمع في ردهته كل اسبوع للاستفادة . وكما كان المجمع مجهد في تنظيم هذه المحاضرات وتنويع موضوعاتها كان الجمهور بزداد اقبالا عليها . واعجابا بفائدتها . حتى تمنوا لو تسر في المحله او في كتاب على حدة وما كان يتيسر للمجمع نشرها في المحله لكنرتها وضيق مجلته الشهرية عن استيعابها . ولم يكن استحسن نشرها على حدة لان طبعها كلها يقتضي نفقات طائفة . ولان معظم هذه المحاضرات لم تكن اثرأ من آثار المجمع الخاصة وانما

هو محصول عقول الطبقة المستنيرة من فضلاء أبناء الوطن . على
ان كثيراً من هذه المحاضرات كان يكتب بلغة مراعى فيها حالة
الجمهور المستمع وفيهم من يعسر عليه فهم الكلام الجزل . والاسلوب
الفحل . فطائفة من هذه المحاضرات - وحالها ما وصفنا - لا يمكن
طبعه ونشره الا بعد حذف ما طال من ذيوله .

غير ان الجمع اخيراً لما لم ير عذراً هذا . قبولا لدى الفضلاء الذين
كانوا يلحون في طبع محاضراته قرر في جلسته المنعقدة في ٣١ تشرين
الاول سنة ١٩٢٤ ان يكتفي بطبع ما وصل اليه من نسخ المحاضرات
الحديثة بالنشر وها هو يقدم لقراء العربية الكرام الجزء الاول
منها وفيه سبع عشرة محاضرة راجياً تحقيق ما يؤمله من النفع العام
والله المستعان .

دمشق : في رجب ١٣٤٣ هـ و كانون الثاني سنة ١٩٢٥ م

الجمع العلمي
العربي

معلقة طرفة بن العبد^(١)

أيها السادة !

كُلفت ان اتكلم على مئة بيت شعر ونيّف من كلام عرب الجاهلية . وضربت لي مدة للكلام لا أراها تكفي لذلك لان الابات تحتاج الى شرح و تفسير معنى . ومن دون ذلك لا يكون للحاضرة معنى . مئة البيت هذه هي التي تسمى (معلقة طرفة بن العبد) .

ومعلقة طرفة واحدة من معلقات سبع . والمعلقات السبع بعض شعر الجاهلية . وشعر الجاهلية طائفة من الشعر العربي . والشعر العربي فن من فنون الادب العربية . فاذا حاولنا ان نلم بهذه المقدمات نفد الوقت قبل الوصول الى (معلقة طرفة) . فالاجدر بنا اذن ان نعمد الى تلك المعلقة التي هي موضوع محاضرتنا ونهجم عليها توّاً من دون تعريج على شيء آخر سواها :

(لما ذا سميت المعلقات معلقات ؟)

غير ان هناك أمراً احييت التعرض له وهو لما ذا سميت هذه القصائد بالمعلقات ؟ المشهور انها سميت بذلك لانها كانت معلقة على جدران الكعبة او مرقومة على ستارها وانكر قوم ذلك . ومنهم (ابو جعفر النحاس الفهوي) من رجال القرن الرابع للهجرة . فقالوا — في سبب التسمية — كان الملك في الجاهلية اذا أعجبته قصيدة قال لهم علقوا لنا هذه . يعني اكتبوها لتبقى محفوظة في خزائنه مع الاعلاق النفيسة . وربما أيد هذا القول ان قريناً كانوا قومًا حمسًا اي شديدي الحماسة والتعصب لديانتهم . وناهيك بمنزلة الكعبة وقد استها في نفوسهم . فبعد ان يسمحوا بتعليق شعر فيه تصريح بالشعش والعهر احيانًا — على كعبتهم المقدسة .

(١) اول محاضرة ألقى في قاعة مجعنا العلمي لاحد اعضائه «المغربي» وذلك

مساء الاحد الواقع في ١٧ نيسان سنة ١٩٢١

وزد على ذلك أن كتاب السيرة النبوية ذكروا أن النبي (صلعم) والصحابة في فتح مكة دخلوا الكعبة وحطموا الاصنام التي فيها وأزالوا عنها كل معالم الجاهلية حتى أنهم كانوا يحملون الماء يترسهم ويصبونه على جدرانها لمحو الصور المنقوشة عليها بالاصباغ . ولم يذكروا أن المعلقات كانت مما أزيل أو أنزل عن الجدران .

(الأسباب التي 'نظمت' معلقة طرفة من أجلها)

أبست محاضرنا في (طرفة) نفسه لنسهب في ترجمته . وإنما نلم من سيرته بما له تعلق في سبب نظم المعلقة .

كان (طرفة) من قبيلة بكر بن وائل التي يضرب بها المثل في العزة والكثرة وكان بيته في الذروة والسنام من تلك القبيلة . وكان هو شاباً جميلاً فصيحاً جريئاً . ومن كان في مثل حالته ومنزلته لا يلبث أن يتصل بالملوك فيكون نديماً لهم وجليساً . وكانت ملك العرب إذ ذاك عمرو بن هند . وعاصمته (الحيرة) . فاتصل به طرفة وناداه . ثم تقم منه الملك بعد ذلك اتسباً وحقد عليه من أحوالها : قالوا : رآه يوماً يتشي بين يديه وهو يتخلج في مشيته أي يتأيل ويتجنى غير حاسب للملك حساباً .

وكان مرة يشربان فرأى طرفة في الحمام (أي الكأس) الذي بيده خيال اخت الملك وكأنها كانت تطل عليهم متوارية فاشد طرفة :

(يا بآبي الظبي الذي ترق شفتاه ولولا الملك الحاس التمني فاه)

ويروى (شنفاه) مكان (شفتاه) فسمع الملك قوله فسكت على غيظ . وبدرت من الملك بوادر منكورة في سياسة بلاده : منها اليومان الملعونان : يوم البؤس الذي كان يقتل فيه كل من يصادفه . ويوم النعيم الذي كان يكرم فيه كل من يصادفه . فنظم طرفة قصيدة انتقده فيها — وكان حريئاً على النقد — منها قوله :

(فليت لنا مكان الملك عمرو رعونا حول قبتنا تدور)

(امرك ان قابوس بن هند ليحلط ملكه نوك كبير)

و (الرغوثة) النافاة أو النعجة الخلوب . و (النوك) الحمقى . فصمم الملك على قتله

فخذه بعض رجاله عاقبة الامر . وخوفه عشيرة طرفة وخاله الشمس الشاعر الكبير المشهور : فإن هذا اذا هجاء أسقطه في القبائل .

فرأى الملك ان يتخلص منهما جميعاً فدعاهما اليه واعطاهما كتابين الى المكبر نامله بالبحرين بأمره بقتلها وأوهمها انه يأمر لها بصلة وجائزة . ثم فطن الشمس للامر فزق كتابه في حكاية ليس هنا محلها وقال لابن اخته مرق كتابك انت ايضاً وانج . معي . فحملت طرفة غرارة التباب على عدم المبالاة وقال لخاله : « لئن كان اجتراً عليك فما كان ليحتريء علي » ثم ذهب طرفة الى عامل البحرين فأطلعه العامل على جليلة الامر . وفسح له مجال الحرب . فلم يفعل أنفة واستكباراً . واتار على شيان عبد القيس — وهي قبيلة بالبحرين — ان يسقوه الحمر وان يفصدوا أكله وهو كتمل . والاكل عرق في القدم . ففعلوا فوات . وكان في حدود العشرين من العمر . ولذلك يقال له (ان العشرين) وقيل انه بلغ ستاً وعشرين بدليل قول — اخته في رثائه :

(عددنا له ستاً وعشرين حجةً فلما توفاهما استوى سيداً ضخماً)

(فجعنا به لما رجونا إياه على خير حال : لا وليداً ولا قحماً)

و القهم المناهي في السن .

وفي معلقة طرفة ابيات اشار بها الى حادثة شربه الحمر في البحرين مع فتيات عبد القيس :

لكن ليس هذا كل السبب الذي حمل طرفة على نظم معلقته . فإن هناك سبباً آخر هاج من قريحته . وحرك من أنفته :

كان الطرفة أخ اسمه معبد . وكان لمعبد ابل ضلت فذهب طرفة الى ابن عم لم اسمه مالك يسأله ان يساعده في استرداد الابل . ولا يخفى ما يكون في بعض ابناء الاعمام احياناً من الصلف والجفاء اذا رأوا ان عم لم يدانيهم ويتجيب اليهم من اجل قضاء أمر ما . فانهزه ابن عمه وقال له « فرطتم في ابلكم ثم جثتم نتعبونني في طلبها » فتأثر طرفة من قوله . وهاجت شاعريته . فقال معلقته . ومن أحسن ما جاء فيها ابياته في معاناة ابن عمه مالك كما سيجي .

والتحقيق ان كل ابيات معلقة طرفة لم تُنقل في سبب واحد . ولا في زمن واحد
ومثلها المعلقات الاخرى : فكان الواحد من اربابها يعرض له السبب الآن فينظم
فيه ابيانا . ثم يعرض له سبب آخر فيقول فيه قطعة من البحر والقافية . حتى اذا
كثرت الابهات ضم بعضها الى بعض . او فعل هذا بعض رواة شعره . وبهذه
الصورة تألف المعلقة وتبرز الى الوجود . ومن قلب نظره في المعلقات وسياقاتها
وجد الامر كما قلنا .

وقد ذهب اكثر علماء الادب الى ان (طرفة) في الطبقة الثانية من ارباب المعلقات :
اي انه بعد امري القيس وزهير والتابعة . لكن (عمرو بن العلاء) — وهو اكبر علماء
اللغة — كان يقول : ان طرفة اشعرهم واحدة . يعني اشعرهم معلقة . بل ذهب ان
مقبل الى ابعد من هذا فقال : (ان طرفة اشعر الناس) .

اما مذهب (طرفة) في الشعر وحسن تصرفه في فنونه وشعاب اساليبه ومزلاته في
ذلك بين رفاقه اصحاب المعلقات — فيتجلى لنا من اعمال مقارنة اجمالية بين معلقته
ومعلقة امري القيس . وحبذا لو اتسع الوقت للمقارنة بينها وبين سائر المعلقات .

(مقارنة اجمالية بين معلقتي طرفة وامري القيس)

معلقة طرفة مئة وتلاتة ابيات . ومطامها :

(حلولة اطلال ببرقة كشمعد تلوح كباقي الوشم في ظاهرا ليد)
هلموا بنا ايها الافاضل نقف مع طرفة على اطلال محبوبته (خولة) ثم سير معه
فخطوف حيث طاف . وسمع منه ما أتى على ذكره من الاحوال والوصاف :
ها نحن نسمعه يصف اطلال خولة ببنتين من الشعر .
ثم نسمعه يصف نياق الطعائن فيسببها بالسفن بثلاثة ابيات .
ثم وصف محبوبته — بخمسة ابيات .
ثم الناقة التي ساعدته على نيل مقاصده — بتلاتين بيتا .
ثم الفلاة التي اجتازها وانها مهلكة — بثلاثة ابيات .
ثم نفسه بتساط العزيمة وكفاية المم — بستة ابيات .

ثم عاد الى ناقته ووصف سرعتها — بثلاثة ابيات .
ثم عاد الى نفسه فوصفها بالجود والشرف وانه يجمع بين الجدة والهزل — بثلاثة ابيات ايضا .

ثم وصف مجلس لهوه مع قينته وندمائه — بأربعة ابيات .
ثم ذكر رأيه في هذه الحياة الدنيا وقال : انما هي شرب ولعب ومسررات . وذم الجمل والبخلاء الذين يضمنون باموالهم فلا ينفقونها في هذا السبيل . وردت على الذين يلومونه في رأيه هذا — كل ذلك بستة عشر بيتاً .

ثم عاتب ابن عمه (مالك) وقص ما وقع بينهما — بأربعة عشر بيتاً .
ثم رجع الى وصف نفسه وسيفه ونحره النياق في سبيل اللهو وما نصحه ابوه به — باحد عشر بيتاً .

ثم انتهى الى نهاية كل حي وهي الموت فاستوقفنا على مصرعه . وعلم ابنة اخيه (معبد) كيف تشدبه . وتبكي عليه . وترثيه بما هو جدير به من القول : لا بما ترثي به ائام الناس وذوي الجمل والتع منهم — بتسعة ابيات .

ثم ختم معلقته بأبيات حكيمة بليغة سارت مسير الامثال .
ويمكن إرجاع هذه المواضيع كلها الى موضوعات ثلاثة كبرى :
(١) وصف نفسه واطواره — بأربعة وثلاثين بيتاً .
(٢) أخلاقه خاصة . وآداب عامة . بثلاثة وثلاثين بيتاً .
(٣) وصف الناقة بخمسة وثلاثين بيتاً .

بهذه المواضيع يمكن ان نعرف الفرق الادبي بين معلقته ومعاقة امرئ القيس :
فان امرأ القيس لم يصرب بسهم في وصف الاخلاق و تقرير الحكم والآداب كما فعل طرفة وانما هو اسهب في وصف أمور قد لا تكون مفيدة كالافادة التي نشعر بها في معلقة طرفة .

انقف مع امرئ القيس اسقط اللوى بين الدخول فحول . ثم نطوف مطافه .
ونسلمع اوصافه :

(١) أسهب امرؤ القيس في وصف النساء ووقائعه معهن — بسبعة وثلاثين بيتاً .

(٢) وفي وصف فرسه - بثمانية عشر بيتاً .

(٣) وفي وصف السحب والامطار - بثلاثة عشر بيتاً .

هذه هي أمهات الموضوعات التي أتى عليها امرؤ القيس في معلقته وقد استغرقت سبعة وستين بيتاً من الواحد والثمانين بيتاً التي هي مجموع أبيات معلقته فبقي أربعة عشر بيتاً : وصف نفسه ببيت . والاطلال بستة . والليل بأربعة . والمفاوز بثلاثة . ولم نسمعه قال بيتاً واحداً في الآداب العامة ولا الاخلاق ولا الحكم . على العكس من طرفة الذي أسمعنا من ذلك الكثير الطيب . وكان من اكبر مزايا معلقته ما عمنته من هذه الحكم والامثال .

فنائدنا الادبية والاجتماعية من معلقة (طرفة) اعظم وأجزل منها حيث معلقة امرئ القيس . اللهم الا ان يدعي مدّح بأفضالية هذه من حيث الصناعة الشعرية . وربما كان في هذا التفضيل ايضاً نظر يتحقق لكم أيها السادة بعرض نموذجات عليكم من معلقة طرفة مفصلة ومتأيزة بعنوانين خاصة بها .

(توارد المعلقة اي موافقتها لغيرها)

توارد طرفة مع امرئ القيس في قوله :

(وقوقاً بها صحبي علي مطيهم يقولون لانهالك أئى وتجدد)

وقال امرؤ القيس :

(وقوقاً بها صحبي علي مطيهم يقولون لانهالك أئى وتحمل)

فهل هذا من قبيل توارد الخواطر على معنى واحد من دون ان يسمع احدهما ما قاله الآخر . او هو سرقة . وبعبارة أنه اقتباس ! وأيها الذي اقتبس من الآخر ؟

ووفاة طرفة كانت سنة ٥٥٠ للميلاد . وفي دائرة المعارف الفرنسية سنة ٥٧٠

وهي السنة التي ولد فيها محمد «ص» . اما امرؤ القيس فكانت وفاته سنة ٥٦٠

(أرق بيت في معلقة طرفة)

(ووجه كأن الشمس ألت رداها عليه . نقي اللون . لم يتخذ)

اي لم يتشقق وانحف ويلتصق لحمه بعظمه . بل هو بض ممتلي سمنآ .

(تشبيهاتها البديعة)

هي كثيرة وأحلاها موقعاً قوله يصف النياق والظعان :

(كَأَنَّ حُدُوجَ الْمَالِكِيَّةِ غَدُوءٌ خَلَايَا سَفِينٍ بِالنَّوَاصِفِ مِنْ دَدٍ)

يريد بالحدوج النياق وما عليها من الهوادج . وبالحلايا السفن العظام . وبالنواصف
الاماكن الرحبة او الاباطح . و « دد » مكن .

وقوله في وصف السفائن :

(يَتَشَقُّ حِجَابُ الْمَاءِ حِيزُومَهَا بِهَا كَمَا قَسَمَ التُّرْبُ الْمَفَايِلُ بِالْيَدِ)

« حجاب الماء » سطحه او فقاقيعه . و « حيزوم السفينة » صدرها وجوؤها .

و « المفايل » اسم فاعل من « الفيال » ضرب من اللعب عند الاعراب : يجمع اللاعب
التراب ويدفن فيه شيئاً كخاتم مثلاً . ثم يقسمه باليد نصفين . ويسأل الآخر عن الدفين
في ايهما ! فمن أصاب قمر . ومن اخطأ قمر . فالفيال على هذا مشتق من مادة
(الفأل) .

وقوله في صفة عيني الناقة :

(وَعَيْنَانِ كَالْمَاوِيَتَيْنِ اسْتَكْنَتَا بِكَهْنِي حِجَابِي صَخْرَةٍ قَلَّتْ مَوَدِدُ)

« الماويتان » المرأتان و « استكننا » استقرتا و « الحجاج » بفتح اوله العظم الذي
ينبت عليه شعر الحاجب وال « قلت » نقرة في الصخرة يستمع فيها ماء المطر .

يقول ان عينيها صافيتان كالمرأتين . وقد اودعتا حجابي من رأس كصخرة ذات
نقرة كالنقرة التي يتجمع فيها ماء المطر : فيكون قد شبه عينيها بالمرأتين اولاً ثم بماء
القلات « جمع قلت » ثانياً عما فيه من تشبيه حجابيها بالكهنين ورأسها بالصخرة .
وقوله في صفة تجتر الناقة في المشي :

(فَذَالَتْ كَمَا ذَالَتْ وَلِيدَةٌ مَجْلِسٌ تُتْرَى رِيَّهَا أَذْيَالُ سَحْلٍ مَدَدٌ)

« ذالت » مأخوذ من الذيل وهو ان يمشي المرء وهو يجر ذيله و « السحل » ثوب

قطن ابيض .

كانت ناقة طرفة اذا ضربها بسوطه ذالت اي نشرت ذيلها على فخذيها . كما
تفعل الوليدة وهي الجويرية في مجلس تسي فيه ربها اي سيدها الحمر . أو انها تفعل
ذلك حين ترقص أمامه . فهي تجر ذيل ثوبها من القطن الابيض .
وقوله في صفة وثاقة خلق الناقة .

(كقنطرة الرومي اقسام ربها لتكتنفن حتى تتاد بقرد)
بقرد متعلق بتكتنفن . وتتاد ترفع . اي لا يزال بذأوها الرومي يحيطها
بالآجر حتى ترتفع .
وقوله في وصف ذنبها .

(كأن جناحي مضرحي تكتنفا حنافيه 'شكافي العيب بمسرد)
(المضرحي) النسر الابيض و (حنافيه) اي في جانبي الذنب و (العيب)
عظم الذنب و (المسرد) المخرز .
وقوله في صفة القينة . وهي المغنية

(اذارجعت في صوتها خلت صوتها تجاوب أظاري على ربيع ردي)
يقول اذا رددت تلك القينة صوتها وهي تغني حسبته لحسنه حين نياق تجاوب
من أجل فصيل لها مات .
ومما تفحش به قوله .

(ندأ ماي يبيض كالنجوم وقينة تروح علينا بين برد ومجسد)
(رحيب قطاب الجيب منها رفيقة بجس الندامي بضة التجرد)
(المجسد) قميص بلي الجسد او قد صبغ بالجسد وهو الزعفران و (قطاب الجيب)
مخرج الرأس منه .

يقول ان شق جيب صدرها واسع حتى اذا مدت الندامي أيديهم للجس رفقت
ورضيت . وهذا كل ما جاء فيها من الهنات .

ومن تعابيره الرشيقه قوله في صفة إسراع الناقة وأديها وخوفها من لدع سوطه .
(وإن شئت لم ترقل وإن شئت أرقلت مخافة ملوي من القيد محصد)
(ترقل) تسرع و (الملوي) يعني به السوط و (محصد) محكم القتل

- (وإن شئت سامي واسط الكور رأسها وعامت بضبعيها نجاء الخفيدد)
 (سامي) بلغ في الارتفاع (واسط الكور) أعلى الحدج . والحدج للبعير كالسرج
 للفرس و (نجاء الخفيدد) أي مثل اسراع الظليم وهو ذكر النعام .
 (تباري عتاقاً ناجيات وأتبعن وظيفة أوظيفاً فوق مَورٍ معبّدة)
 (تباري) تعارض وتسبق (ناجيات) نيساقاً سريعات و (الوظيفة) مستدق
 عظم الساق و (المور) الطريق المستوي الموطوء .
 وقوله في صفة حالته مع ابن عمه (مالك) .
 (فمالي أراني وابن عمي مالكا متى أدن منه ينأ عني وبعده)
 وقوله في صفة سيفه :
 (حسام إذا ما قت منصرفاً به كفى العود منه البدء : ليس بمعضد)
 (منصرفاً به) أي منقفاً به لنفسه ، يقول : إن الضربة الأولى به تغني عن
 ضربة ثانية . وليس هو بمعضد أي سيف يمتن وتقطع به الأشجار .
 (ما فيها من الشؤن التي تهّم الباحث في تاريخ العرب)
 (يتق حباب الماء حيزومها بها كما قسم الترب المفايل باليد)
 مرّ شرح هذا البيت وهو يفيدنا شيئاً مما كانت عليه العرب في ألعابهم وملاهيهم .
 وقوله :
 (كقنطرة الرومي أقسم رأيا لتكسفن حتى تشاد بقراً مد)
 يفيدنا هذا البيت أن اليونانيين كانوا مشهورين بالحدق في فن المعمار لدى عرب
 الحاضرية بحيث يضرب بهم المثل .
 وقوله في صفة الناقة :
 (وأتلع نهاض إذا صعدت به كسكتان بوصي بدجلة مصعد)
 (وخذ كقرطاس التامي وشنر كسبت الياني : قدّه لم يجرّد)
 (وأروع نهاض أخذ مللم كورداء صخر في صفيح مصمّد)

(اتلع) عنق (سكَانَ) دفة السفينة (بوصي) معرب (بوزي) السفينة او النوتي
 (مشفر) شفة (سبت) الجلد المدبوغ (قدّه لم يجرد) اي لم يقع في قطعه اضطراب
 (اروع) يعني به قلب الناقة الذي يرتاع من كل شيء (أخذت) سريع الحركة
 (مرداة) حجر مستطيل يكسر به الصخر (صفيح) حجارة رقيقة و يعني بها اضلاع الناقة .
 وقد استفدنا من هذه الايات اموراً من الاعمال والصناعات :

الملاحة في دجلة . وصنع الورق في السام . والجلد المدبوغ في اليمن . وأن العرب
 قبيل الاسلام كانوا يكسرون الصخور بالمرداة كما كان شأنهم في الدور الحجري .

(ما في المعلقة من الادب والحكمة)

هذا الضرب من الشعر استوفاه طرفة وأجاد فيه ، ونقسم ابيات الادب في
 قصيدته الى أقسام : منها ما جرى مجرى الامثال :
 (الا أيها هذا الزاجري أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلي)
 (اممرك ان الموت ما أخطأ الفتى — اكاد طول المُرّحي وننياه باليد)
 (ما) هي المصدرية التوقيتية : اي ان شأن الانسان في هذه الحياة الدنيا
 كشأن ناقة لها زمام مرخي أطيل لها لترعى . وكن طرفيه مثنيان في يد صاحبها فهو
 لا يلبث ان يجذبها اليه . وهكذا الموت ما دام هو لا يصيب الفتى لا يقال إنه ناج
 منه . فهو في صدد أن يجذبه اليه : كصاحب الدابة والدابة :

(وظلمُ ذوي القربى أشدُّ مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند)
 (أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى بعيداً غداً : ما أقرب اليوم من غدا)
 (أعداد) جمع عدد بكسر العين وهو الماء لا ينقطع مدده . ومراده الغد المستقبل
 الذي يموت فيه الانسان . يقول ان الموت كالمنهل للوراد : يردونها واحدا بعد
 آخر . وهي لا ينفذ مددها .

(سبدي لك الايام ما كنت حاملاً و يأتيك بالاحبار من لم تزود)
 (و يأتيك بالاحبار من لم تبع له بتاتاً ولم تضرب له وقت موعد)
 (تبع له) تستري وتبتاع لاجله بتاتاً) هو كساء المسافر وأداته . و يروى أنه

(صلعم) أنشد هذا البيت (سبدي الخ) بين يديه فقال : (هو من كلام النبوة)
اي على طريقة كلام النبوة .

(أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي عقيمة مال الفاحش المتشدد)
(أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة وما ينقص الايام والدهر ينفد)
(يعتام) يختار وهذا على حد قوله والموت تقاد الخ (الفاحش) المبالغ في البخل
و ' عقيته ماله العزيز عليه . والمعنى أن ايام العمر كالكنز من المال : يؤخذ منه للنفقة
كل يوم . وما كان هذا شأنه لا بد ان ينفد أخيراً .

(التمدح والفخر)

(اذا القوم قالوا : من فتى ! قلت : أني ' عنيت ' فلم أكسل ولم أتبلد)
(أتبلد) اي اتخير او أخجل . وهذا على حد قول الحماسي :
لو كان في الالف منا واحد فدعوا من فارس ؟ خالم إياه يعنونا
(فان تبغني في حلقة القوم تلقني وان تلتمني في الحوائيت تصطد)
(وان يلتق الحي الحميم تلاقني الى ذروة البيت الشريف المصمّد)
قوله « في حلقة القوم » اي للمسامرة او لأدارة الرأي و « الحوائيت » يريد بها
الخانات . وقوله « وان يلتق الخ » اي يلتقون للمناخلة في أعمال المجد . وقوله « الى
ذروة » اي في ذروة فالى نابت مناب (في) كما هي في كقول النابغة :
فلا تتركني بالوعيد كأنني الى الناس مطلي به القار أجرب
فقوله « الى الناس » اي في الناس . ومنه قولهم « تباست الى القوم » اي فيهم
وقوله « المصمّد » اي المقصود كبيراً .

(انا الرجل الضرب الذي تعرفونه خشاش كراس الحية المتوقد)
(الضرب » اي الماضي النذب واصله الخفيف اللحم . وقوله « خشاش » اي
كثير الدخول في الامور الصعبة .
وقال موصياً ابنة أخيه « معبد » ومعرضاً بآخرين من منافسيه :

(فان مت فانهبني بما انا اهله
 (ولا تجعليني كأمريء ليس همه
 (بطيء عن الجلي سريع الى الخنا
 وشقي علي الجيب يا ابنة معبد)
 كهمي ولا يغني غنائي ومشهدي)
 ذلول بأجماع الرجال ملهد)
 قولهم « ذلول بأجماع » اي أذلته او ذلته كثرة ضرب الرجال له يجمع أيديهم
 فهو « ملهد » اي كثيراً ما يضربونه في ظهره او صدره بقبضات أيديهم .
 (فلو كنت وغلاً في الرجال لضررتني
 « وغلاً » اي لثماً جباناً .
 (ولكن نفي عني الرجال جراتي
 قوله « نفي عني الخ » اي كشفهم ونجهم عن مباراتي في حلبة المجد .
 (لعمرك ما أمريء علي بغمّة
 لعمرك ما أمريء علي بغمّة نهاري . ولا لي علي بسرمد)
 اي لا تعمى علي وجوه إنفاذ اموري وقضاء مصالحني في النهار . كما انه لا
 يطول لي في الغم والحسرة على ما فاني قضاؤه : لاني أكون قد قضيت ونفذت كل
 ما يلزمني عمله . فلم يفتني شيء اتجسر عليه .

(رأيه في الحياة او مذهبه الايبكوري)

« أيبكور » فيلسوف يوناني مشهور . وخلاصة فلسفته أن اللذة أساس السعادة
 في الحياة الانسانية . وانه يجب علينا ان نبذل كل مساعينا في سبيل نيلها
 والحصول عليها .
 قال فينيلون « الافرنسي » مؤلف كتاب تليماك : ان الناس نظروا الى « ايبكور »
 كرجل يرى الانغماس في اللذات ونظم الشهوات ولو كانت سافلة — مذهباً له —
 وهذا ناشئ عن عدم فهم حقيقة فلسفته .
 وحقيقتها ان الملهوذ عنده يجب ان يساعد على ترقية الفكر البشري وان يكون
 تناول اللذات ضمن دائرة الفضيلة والحكمة .
 ومع هذا فقد فهم معظم الناس ان ايبكور يقول بتناول الملهوذات على أية

صورة وقعت . واخذوا يطلقون كلمة ايكوري على كل رجل متعمس في اللذات
والشهوات من دون مبالاة فضيحة أو عار .

و يظهر ان (طرفة بن العبد) كان ايكورياً بدليل ابيانه الآتية :

(وما زال تشراي الخمر ولذتي وبقي وإنتاقي طريفي ومثلدي)
اي ما زال هذا دأبي وديدي .

(الى ان تحامتنى العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبد)
(رأيت بني غبراء لا ينكرونني ولا أهل هذا الطراف الممدد)

(بني غبراء) عني بهم الفقراء الذين ينامون على القبراء وهي الارض . و (أهل
هذا) الخ عني بهم الاغنياء و (الطراف) الخباء من جلد . يقول ان اكبر دليل
على شرفه ومجده وحسن طريقته ان فريقى الفقراء والاغنياء بألفوته ولا يتفرون منه :
الاولون لغمره لم بالعطايا والصلات . واما الآخرون فلمشاركته لم في الشرب
واقتطاف اللذات . وما بقي من الناس غير هذين الفريقين فهم حسدة أغنياء .

(فان كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي)

(فان كنت) أيها اللائم الحاسد من الفريق الثالث .

(ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك لم احفل متى قام غودي)

(هن من عيشة الفتى) اي عيشته اللذيذة او المعنى هن مما لتوقف عليه لذة

عيشه يقول :

لولا هذه الاشياء التي هي منتهى لذة الحياة وسعادتها عندي لما باليت الموت
واذا كنت أرغب في الحياة واتمنى طولها فذاك لاني مولع بهذه الاشياء الثلاثة :

(فمنهن سبقي العاذلات بشربة كيت متى ما نعل بالماء تزبد)

(وكري اذا نادى المضاف - محجباً كسيد الغضا نبتة المتورد)

(المضاف) الخائف المذعور و (محجباً) فرساً في عظامه انعطاف و (السريد)

الذئب و (المتورد) العطشان و ارد الماء .

(واقصير يوم الدجن والدجن معجب بهيكنة تحت الخباء المعمد)

(كريم يزوي نفسه في حياته : ستعلم إن ملنا غداً أيننا الصدي ؟)
و يظهر من هذا ان عرب الجاهلية كانوا يتأثون من شرب الخمر و يعتقدون ان
من يشربها في الدنيا يعطش في الآخرة .

(أرسم قبر نخام بجيلى بماله كقبر غوي في البطالة منسد)
(النخام) البجيل لانه بنخم اي يسعل كما سئل صدقة . و (الغوي) المستهتر لا بابي
اللائمين . و (المفسد) المبدّر .

(ترى جثوتين من تراب عليهما صفائح صم في صفيح منسد)
(الجثوة) كومة الحجارة وقوله في (صفيح) اي انك ترى القبرين في جملة قبور
منضدة كثيرة . و اذا كان قبر البجيل كقبر المنفق في حياته . و كان مال كل منها
أن تكون كومتان من صفائح على قبر يها فهاذا بجيل البجيل ولا يحذو حذو الغوي !

(عتاب ابن عمه مالك)

(يلوم وما أدري على ما يلومي ! كما لامي في الحي قرط بن معد)
(فمالى أراني وان عمي مالك متى أدن منه يبا عني و معد)
(وأيا سني من كل خبر طلبته كأنا وضعناه الى رأس ملحد)
قوله (كأنا وضعناه الخ) اي كأنا وضعنا طلبنا وقدمناه الى ملحد ائنه ميت
مدفون في اللحد .

(وان أدع للجللى أكن من حماها وان يأتك الاعداء بالجهد أجهد)
(أدع) أي إن دعوتني يا ابن عمي و (الجلمى) المطلب العظيم . بالجهد اي
بمسقة لا تطيقها أنت و (أجهد) أجتهد في دفعها عنك .

(وان يقذفوا بالقذع عرضك أسقم بتسرب حياض الموت قبل الهدد)
اي اذا سبوك بأدرهم فاسقمهم من مشروب الموت وأوردهم حياضه قبل ان
أهددهم بالاقوال . اي ان فعلي يسبق قولي .

(فلو كان مولاي امرء أهو غيره لخرج كربي أولاً نظارني غد)

(مولاي) اي ان عمي وقوله (لانظرنني) اي لامهلي .
 (ولكن مولاي امرؤ هو خاني على التكر والتسأل أو أنامنتدي)
 يقول ولكن ان عمي خاني وأخذ بأكظامي على كل حال : سواء شكرت له .
 أو سأله العفو . أو اقتديت منه بال .
 (وظالم ذوي القربى أئسدهم فاضحة على المرء من وقع الحسام المهند)
 (فذرني وخلقني إني لك شاكر ولو حل بيتي نائياً عند خمرغد)
 اي اتركني على ما أنا عليه من الاخلاق والطباع : فانا راضٍ بها . ولا طاقة لي
 بتغييرها . واذا فعلت هذا يا ابن عمي أكون شاكراً لك . مهما كنت بعيداً عنك .
 ولو في جبل خمرغد .

(حال ابيه معه وصبره عليه)

(يقول - وقد تر الوظيف وساقها ألت ترى أن قد أتيت بمؤيد)
 (تر) سقط و (الوظيف) مستدق الساق و (مؤيد) داهية يثقل وقعها على النفس
 (يقول) اي ذلك الشيخ . وقد مر ذكره في الايات السابقة . قال الزوزني هو ابوه .
 لكن ورد في ترجمة طرفة ان اياه مات وتركه صغيراً . وعلى هذا يكون المراد بالشيخ
 عمه او وصي ابيه عليه .
 (وقال : الا ! ماذا ترون تشارب شديد علينا بغيه متعمد ؟)
 اي وقال عمه ايضاً جلسائه المشاهدين عقر طرفة للنياق . و (ترون) اي
 تشيرون .

(وقال : ذروه إنما نفعا له وإلا تكفوا قاصي البرك يزد)
 كأن الشيخ بعدما استشار جلساءه عاد فقال : دعوه فان النياق إرته ونفعها عائد
 اليه . فدونكم ردوا عليه تلك النياق القاصية الساردة البعيدة عنه . والتي أبعدناها
 وأقصيناها نحن عنه . وافي اخشى ان لم نفعلوا أن يزداد غضبه فيعقر النياق كلها .
 ولا يبقى على شيء منها تشفياً وانتقاماً .

(الأبيات المغلقة في المعلقة)

ما كان من هذا القبيل في معلقة طرفة قليل جداً ويمكن أن يُعدّ منه قوله :

(جمالية وجناء تردي كأنها سفينة تجري لاذعرمرُبد)

(كأن علوب النسع في دأياتها موارد من خاتماء في ظهرفردد)

(ونبسم عن ألمي كأن منورا تحمل حُرّ الرمل دعص له ندي)

هذه هي النمودجات التي أحببت عرضها على مسامعكم أيها الأفاضل -- من معلقة

طرفة وهي نصف أبياتها . وإذا لاحظنا معها أن طرفة لما تألما كانت في حدود

العشرين من عمره حكمتنا مع (ابن مقبل) بأن طرفة أشعر الناس . أو لا فمع (عمرو

ابن العلاء) بأنه أشعر أصحاب المعلقات .



الحسبة في الاسلام



لم يقصر العرب في شأن من شؤون المدنية بالنسبة لاعصارهم وكما ارتقت حضارة الغرب وتوفر العاملون من ابناءه اليوم على استخراج دفائن هذه المدنية العربية الاسلامية تحلي اما امور منها ما كنا نحن اصحاب تلك المدنية نعلمه من قبل . من المعلوم ان المدنية انتقلت الى العرب من الفرس واليونان والهند . ولكن جاء الاسلام بما فيه من العوامل القوية والنظام المدني الديع الذي استخرجه اهل الصدر الاول من ربح الكتاب والسنة باجمل مدنية عرفها البشر وما نظمه . مما ارتقى في الازمان الدالة يخرج عن حدها الا قليلا .

لم يترك العرب بابا من ابواب المدنية الا وطرقوه ولا علما من العلوم والصناعات الا وعانوه وبرزوا فيه . وقد تجلت مدنيتهم باحلى مظاهرها في فارس والعراق ومصر والشام والاندلس اكثر من غيرها من الاقطار التي هذبها الاسلام . وكانت العرب اساتذة انائها . والغالب ان قيام دول عظمى اسلامية في تلك الاقطار كان من اول البدواعي الى تحويد مدنيتهما ورفع شأنها بين الامصار على اختلاف القرون والاعصار وللأقليم وطبيعته دخل كبير في تثقيف العقول وتعويد القرائح الابداع والاختراع . ضاعت وأسفاه اوضاع مدينتنا القديمة ومتخذيها الان العرب تمزقوا وتفرقوا بعد استيلاء أناس من الفاتحين على بلادهم كانوا دونهم في سلامة الذوق وجودة الفطرة فافسدوا اخلاقهم بما حملوه اليهم من عاداتهم وثقاليدهم المختلفة حتى اوصلهم الى درجة من الجهالة لو لم يتداركها في القرن الماضي محمد علي باشا في مصر وخير الدين باشا في تونس ومدحت باشا في الشام والعراق لاضمحل عمرانهم وباد سلطانهم .

وبعد فان الناظر في اصول الحسبة في الحكومات الاسلامية السالفة يعلم ان اجدادنا همأوا لمدينهم وسكانها جميع ضروب الراحة والهناء وحاولوا ان يسعدوا عنها

ما امكن الجور والشقاء . والحسبة بالكسر الاجر وهو اسم من الاحتساب اي احتساب
الاجر على الله نقول فعلته حسبة واحتسب فيه احتسابا والاحتساب طلب الاجر
وكانت الحسبة وظيفة دينية من باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو
فرض على القائم بامور المسلمين يعين لذلك من يراه اهلا له فيتعين فرضه عليه ويتخذ
الاعوان على ذلك ويبحت عن المنكرات ويعزر ويؤدب على قدرها ويحمل الناس على
المصالح العامة في المدينة مثل المنع من المضايقة في الطرقات . مع الجمالين : اهل السفن
من الاكثر في الحمل والحكم على اهل المباني المتداعية بهدمها وازالة ما يتوقع
من ضررها على السابلة والضرب على ايدي المعلمين في انكسارها . سيرها من الابلاغ
في ضررهم للصبيان المنعمين — قاله ان خلدون وقال ان تيمية : وسو آدم لا يعيشون
الا باجتماع بعضهم مع بعض واذا اجتمع انسان فصاعدا فلا بد ان يكون بينها انتمار
بامر وناه عن امر واولو الامر اصحاب الامر وذوو القدرة واهل العلم والكلام
فلماذا كان اولو الامر صنفين العلماء والامراء فاذا صلحوا صلح الناس واذا فسدوا
فسد الناس كما قال ابو بكر الصديق رضي الله عنه الملاحسبة لما سأله ما بقاؤنا على
هذا الامر قال : ما استقامت اكم ائمتكم . ويدخل فيهم الملوك والمتابع واهل الديوان
وكل من كن متبوعا فانه من اولي الامر .

وقال ابن الاخوة : الحسبة من قواعد الامور الدينية وقد كان ائمة الصدر الاول
يبأسرونها بانفسهم لعموم صلاحها وجزيل ثوابها وهي امر بالمعروف اذا ظر تركه . نهى
عن المنكر اذا ظر فعله واصلاح بين الناس واختساب من نصبه الامراء نائبه للنظر
في احوال الرعية والكشف عن امورهم ومصالحهم وبياعاتهم وما كولههم ومشروبهم
وملبوسهم ومسكنهم وطرقاتهم وامرهم بالمعروف ونهيه عن المنكر .

وكانت الحسبة (المقتبس ٣ ص ٥٣٧ و ٦٠٩) في الحكومات العربية وحكومات
الطوائف خريبا من ضروب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . ولا يكون من
تسند اليه الا من وجوه المسلمين واعيان المعدلين ولا يحال بين المحتسب وبين مصلحته
اذا رآها والولاية تسد معه اذا احتاج الى ذلك . وقد قسمت الحسبة الى ثلاثة اقسام :
احدها ما يتعلق بحقوق الله تعالى والثاني ما يتعلق بحقوق الآدميين والثالث ما يكون

مستركاً بينهما ويمكن ان نقسم الحسبة الى دينية ومدنية فالدينية منها بطل من بلاد الاسلام منذ اصبحت حكوماتها لا تحافظ على جوهر الدين بالذات . والمدنية استعاض عنها في القرن الماضي في البلاد العثمانية بالثبالس البلدية وبقيت الحسبة معروفة - في مصر الى اواسط القرن الثالث عشر . ولا عجب فمصر آخر ما اضمحل من اقطار العرب واول من نهض .

فالحسبة والحالة هذه اتبه بديوان الشرطة والصحة والبلديات ا عهدنا وكانت المحتسب او صاحب الحسبة يشرف على المعاملات المذكرة في الدين ويجازي عليها في الحال فينكر ما يحده مثلاً من المذكرات في الاسواق ويتد على السوق والباعة في صحة الفناطير والارطال والمثاقيل والبراهم والموزين والمكاييل والاذرع ويجري قواعد الحسبة على الطحانيين والعلافين والقرايين والحسازين والسوائين والقناتيين والكبوديين والسواريين والحزازيين والرواسين والطباخين والشرايين والحراسين وقلائي السمك والزلابية والحلاويين والشرابين والعطارين والشماعين واللبانين والبرازيين والبلالين والحاكمة والحياطين والرمانيين والقصارين والحريريين والصباغين والقنانيين والكنائين والديارفين والمانعة والحامسين والحدادين والاساكنة والبهاترة وسمايرة العهد والجواري والديزاب والنبور والحمامات والسدارين (١) والفصادين والحمامين والاطباء والكهنة والجريين ومؤدبي الصبيان والقومة والمؤذنين والورط والتجمين وعلى اصحاب السفن والمراكب وبنة قدور الخزف والكبران والناخريين والعشاريين والاباريين والمسلاتيين والمراديين والحناءيين والامشاطيين وعلى معاصر السرج والزيت الحار والغرابيين والنباغين والبططيين والموديين والمصرين والتبانيين والحنائين والقشاشين والخباريين والتارين والبنائين الى غير ذلك مما يقصد منه منع غش المبيعات وتدايس ارباب الصناعات .

(١) السدار من الذين يطحنون السدر وهو من المطبرات كالتباون اذا غش يضر ولا ينفع والناخريون والعشاريون هم الذين يصنعون السحاف (الزبادي او السلطانيات) والمرادون الذين يعملون المرادن آلات الغزل القديمة تعمل من خشب السامر او من السبط الاخر والمسلاتيون صانع المسلات .

وكانوا يختصون المحتسب بالنظر في امور احداها اراقة الخمر كلها وكسر المعازف واصلاح الشوارع وذلك باب كبير فيه مسائل احداها امر الميزاب والاو حال والارداغ والدكاينة على الباب ومنع جلوس الباعة عليها ومنع سوق الحمر والبقر للحشابين والآجر بين ونحوهم ومنع ربط الناس دوابهم فيها ومنع عمارة الحيطان في شيء من الشوارع ومنع شغل هواء الشارع بالجنساح ويسمى (برون داشت) ومنع المبرز في الجوار بحيث تكون ازالة النجاسة منه بالوقوف في الشارع ومنع الظلة الى غير ذلك من المصالح مثل النظر بين الحيران في التصرفات المضرة كالنظر وسد الضوء الا فيما يرجع الى الملك كغصب قطعة من الارض ومنع اسبال الازار ونحوه على الكعبين وزحر الرجال عن التشبه بالنساء ومنع النساء عن التشبه بالرجال وامر النبوليين بطهارة مائهم ونقية نورتهم عن الحصة ومنع الناس عن تطهير الحمام ومنع البغايا وتعزيرهن ومنع اوليائهن ومواليهن وازواجهن وامر غير المسلمين بنظير الاداني التي يبيعون فيها المائعات من الدهن واللين وامر الغسالين باقامة السنة واجتناب البدعة في غسل الموتى وحفر القبور والحمل وزجرهم عن الغلاء في اخذ الاجرة ونصب الصلحاء وذوي الخبرة بهذه الامور وتفحص الجامع يوم الجمعة والمصلى يوم العيدين واحلاؤهما عن البيع والشراء ومنع الفقراء عن التخطي ومنع القصاص عن القصص المفتراة ومنع النساء السائلات عن الدخول في المصلى ومنع الصبيان والمجانين منه ودفع الحيوانات المؤذية عن العمرانات كالكلاب العقور والنهي عن النجس والامر بالتنظيف ومنع الناس عن الوقوف في مواضع التهم كتحديث الرجال مع النساء في الشوارع ومنع النقاسين والصاغين والصواغين عن اتخاذ تماثيل ذوات الروح (١) وكبر الصور ومنع المسلمين عن الاكتسابات الفاجرة كتحاذ الاصنام والمعازف والصنج وبيع النبيذ والبخنج (٢) ومنع الناس عن اتخاذ القبور الكاذبة وخروج الناس الى زيارة بعض المنبركين او بعض المساحد على متسabee الخروج الى الحج ومنع النساء عن التبرج والذرج بالخروج الى النظارات وزيارة القبور ومنع الناس عن التصرفات في المقابر

(١) المنهي عنه الصور المجسمة للتعظيم اما الصور النصفية فلا مانع منها .

(٢) البخنج كقنفذ عصير مطبوخ واصله بالفارسية .

بلا ملك ومنع المطلعة والسحر والكهان عن منكراتهم ونهي اصحاب الحمامات عن منكراتهم بتطهير المياه واخلاء الحمام عن المرد ودخول العراة فيه وامرهم باتخاذ الحجب بين الرجال والنساء ومنع الناس عن تعلم علم التنجيم مما لا يحتاج اليه في الدين وتصدق الناس الكهان والمنجمين ومنع الناس عن بدعة ايلة البراءة ومنع الناس اللعابين بالبرد والشرنج ونفريق جمعهم واخذ بساطهم وتماتيلهم ومنع القوابل عن اسقاط جنين الحوامل ومنع الجراحين عن الجب والحصاة في الناس ومنع الناس من الاقامة في المساجد ووضع الامتعة فيها ومنع الذي اصابه اللم عن التكلم بالغيب واجتماع الناس عنده زاعمين انه صادق في اخباره بالغيب ومنع الخطاط ومعلم القرآن ومعلم النحو باجر عن الجلوس في المساجد ومنع المعلم عن اخذ شيء باسم النوروز والمهرجان وينذر المحتسب معلمي الكتاتيب ان لا يضربوا الصبيان ضرباً مبرحاً ولا في مقتل وكذلك معلمو العلوم بتحذيرهم من التفرير باولاد الناس ويقفون من يكون شيء المعاملة فيهنونه بالردع والادب .

وكانت وظائف المحتسب تزيد ونقص بحسب البلد ولا تعدو وظائف المحتسب الامور المشتركة بين اهل كل مجتمع فالمحتسب في بيروت يقضى عليه ان ينظر في امور لا ينظر فيها محتسب دمشق مثلاً ففي بيروت يعنى المحتسب بالاحتساب على السماكين والملح والصير والبوري وقلالي السمك والطيور وصياديهما ونجاري المراكب ونقديرات المراكب وجميع المدن مشتركة مثلاً في الحسبة على الصيادلة والعقاقير والاشربة والمعاجين والفلاسيين والحرارين وصناع التراك والاساكفة وصناع الحفاف وصناعة السرايات والزفاتين والبجساتين والدهانين وغتهم والمكرين وغتهم وكساحي السجاد وجمالته والغرايل ومناحل الشعر والوراقين والمهرجين وفيمن يكتب الرسائل على الطرق والرقاع والدروج وكتاب الشروط والولاية والقضاة وتدايسهم والميازيب ومضرتها والمراصد والمراقب وطباخي الولاثم والحامل وصناعها والروايا والقرب الى غير ذلك مما كان يستدعيه مجتمعهم ودينهم وعاداتهم ومدنياتهم .

وليس هذا كل ما يطلب من المحتسب فقد كان يطلب منه ان يسيطر على العقول ذكر ابن الاثير في المثل السائر من تقليد انشاء لمنصب الحسبة : ٠٠٠٠ واعلم ان

الناس قد امانوا سدا واحيوا بدنيا ، وانفارقوا فيما احبوه من المحدثات شيئا ، واظلم منهم من اقرهم على امرهم ، ولم يأخذهم بقوارع زجرهم ، فان السكوت عن البسطة رضا بمكانها ، وترك النهي عنها كلالا مررتياها ، ولم يات بنا الله الا سعيد الدين قائما على اصوله ، صادقا بحكم الله فيه وحكم رسوله ، ونحن نأمر ان نضفع احوال الناس في امر دينهم ، الذي هو عصمة ما لهم وامر معاشهم ، الذي يتميز به حرامهم من حلالهم ، فابداً اولاً .

نظري العقائد ، واهد فيها الى سبيل الفرقة الناحية الذي هو سبيل واحد ، وتلك الفرقة هي السلف الصالح الذين لزموا . واطن الحق فاقاموا ، وقالوا ربنا الله ثم استقاموا ، ومن عداهم شعب دانوا اديانا ، وعبدوا من الالهوا . او انما ، واتبعوا ما لم ينزل به الله سلطانا ، ولونشا : لا ريسا لهم فلعرفتهم بيسماهم وانعرفتهم في لحن القول والله يعلم اعمالكم ، فمن انتهى من هؤلاء الى فلسفة فاقبله ولا تسمع له قولا ، ولا تقبل منه صرفا ولا عدلا ، وليكن قتله على رؤوس الاشهاد ، ما بين حاضر وباد ، فانكدرت الشرائع بمنى مقانده ، ولا تدنس علومها بمنى اثر جهائنده ، والمنتمى اليها يعرف بنكره ، ويسندل عليه بغلظة كفره ، وتلك قلعة تدرك بالقلوب لا بالابصار ، وتظيرز يادتها ونقدها بحسب ما عند رانها من الانوار ، وما تجده من كتبها التي هي سموه ناقة ، لا باره نافعة ، وافاعي ملففة ، لا اقوال مؤلفة ، فاسناصل شافيتها بالتمزيق ، وافعل بها ما يفعل الله بآلهها من التزيق ، ولا يشعك ذلك حتى تجتهد في تتبع آثارها ، والكشف عن مكان اسرارها ، فمن وجدت في بيته ذليلاً حذ جباراً ، ولينكل بداتها ، وايقل هذا من استكرا سنكباراً ، ولم يرج الله وقارا ،

قلما وتطبيق هذه السدة في بعض الحكومات الاسلامية واللاسف قد دعب الى التناول على كل مخلاف وذهب كثير من ارباب العقل والفلسفة طعنة اللفظ والاستبداد فتأخرت بذلك الامة واشبه المسلمون في كثير من ايامهم المسيحيين في القرون الوسطى بما نوا به من دعوى السحر والكفر فأهلكوا باحكام دواوين الفتيس الديني الوفا ذهبوا حزاء عقولهم التي ارادت ان تخرج عن مستوى محيطهم الضيق .

ومن اجمل التقاليد تقليد رشيد الوطواط في الحسبة وفيه ان اولى الامور بان تصرف اعنة العناية الى ترتيب نظامه ونقص غايات الهمم عن تنمية اتمامه امر يتعلق به تبات الدين وينعطف عليه صلاح المسلمين وهو امر الاحساب فان فيه انقيف الزائفين

عن الحق وتأديب المنهكين في الفسق وتقوية اعضاءه اذ باب التسرع وسواعدها ،
واجراء اعمال الدين على قوانينها وقواعدها ، وينبغي ان يكون مقلد هذا الامر موصوفا
بالديانة ، معروفا بالحيانة ، معرضا عن مراصد الريب ، بعيدا عن مواقف التهم والعيب ،
لا يسأمدارع السداد سائكا مناجج الرصاد ٠٠٠٠٠ وامرناه ان يجعل الزهد شعاره ،
والنقوى دناره ، والعلم معلمه والدين مناره ، ثم يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر و يقيم
حدود الشرع على موجب النصوص والاخبار ، ومقتضى السنن والآثار ، من غير ان يتصور
الحيطان ، ويتسلق الجدران ، ويرفع الحجب المسدولة ، يكسر الابواب المسدودة ، ويسلط
الاولياء على دور المسلمين ، وحرمة المؤمنين ، حتى يغيروا على اموالهم ويمدوا الايدي الى
عوراتهم واطفالهم ، ويظهروا ما امر الله بتره واحفائه ونهى عن اتاعتدوا افتتانه ، فان عبادة
الاوثان خير من ذلك الاحتساب ، والعقوبة الالهية اولى ببأسره من الاجر والتواب .
قال ان فضل الله في التعريف وصية محتسب : وقد ولي امر هذه الرتبة و وكل
اليه النظر في مصالح المسلمين حسبة لله فلينظر في المتيقن والخليل والكثير والقليل
وما يحضر بالمقادير وما لا يحضر ، وما لا يؤمر فيه بمعروف او ينهى عن منكر ، وما يسترى
وباع ، وما يقرب بتعريضه الى الجنة وبعد من النار ولو لم يكن قد بقي بينه وبينها
الا قدر باع او ذراع ، وكل ما يعمل من المعاش في نهار اوليل ، وما لا يعرف قدره
الا اذا نطق لسان الميزان او تكلم الكيل ، ويعمل ليد معدلا لكل عمل ، وعيارا
اذا عرضت عليه المعايير يعرف من جار ومن عدل ، ولا يفتقد اكثر هذه الاسباب ، ويحذر
من الغش فان الداء اكثره من الطعام او الشراب ، ليتعرف الاسعار ، ويستعمل الاخبار ،
في كل سوق من غير اعلام لاهله ولا اشعاره ، ليقيم عليهم من الامناء من ينوب عنه
في النظر ، ويطمئن به وان عاب اذا حضر ، ويأمره باعلامه بما افضله ، ومراجعتة بها
امكن فان رأي مثله افضل ، ودار الضرب والنقود التي منها نبت ، وقد يكون فيها
من الزيف ما لا يظهر الا بعد طول اللبث ، فليتصد لها بصدره الذي لا يخرج ،
وايعرض منها على المحك من رأيه ما لا يجوز عليه بهرج ، وما يعلق من الذهب المكسور
ويرى بص من الفضة ويخرج ، وما اكلت النار كل لحامه ولا بعضه و يقيم عليه من
جهته الرقبا ، وليقم على شمس ذهبه من يرقب منه ما ترقب من الشمس الحرباء ، وليقم

الضمان على العطارين والطرقية في بيع غرائب العقاقير الا ممن لا يستراب فيه وهو معروف، و بخط مطبب ماهر لمريض معين في دواء موصوف، والطرقية واهل النجامة وسائر الطوائف المنسوبة الى ساسات، ومن يأخذ اموال الرجال بالحيلة ويأكلهم باللسان، وكل انسان سوء من هذا القبيل هو في الحقيقة شيطان لا انسان، امنعهم كل المنع، واصدعهم مثل الزحاج حتى لا ينتهر له صدع، وصب عليهم النكال والافاقا تجدي في تأديبهم اداة التأديب والصفع، واحسم كل هذه المواد الحبيثة، واقطع مايحمر ضعفاء الناس من هذه الاسباب الرتيبة، ومن وجدته قد غش مسلما، او اكل باطلا درهما، او اخبر مشتر بزائد، او خرج عن معهود العوائد، اشهره في البلد، واركب تلك الآلة قفاه حتى يضعف منه الخلد، وغير هؤلاء من فقهاء المكاتب وعالمات النساء وغيرهما من الانواع (؟) ممن يخاف من ذنبه العائت في سرب الظباء والحادر ومن يقدم على ذلك ومثله وما يحاذر، ارشقهم بسهامك، وزلزل اقدامهم باقدامك، ولا تدع منهم الا من جربت امانته، واختبرت صيانه، والنواب لا ترضى منهم الا من يحسن نفاذا، ويحسب لك اجر استنابته اذا قيل لك من استنبت فقلت هذا . وتقوى الله هي نعم المسالك، وما لك في كل ما ذكرناه بل اكثره الا اذا عملت فيه بمذهب مالك اه .

واقعد حدثنا التاريخ ان الناس كانوا يقولون الحسبة فانفسهم عندما تضعف الحكومات لان مصلحة اهل كل بلد لانتم الا بدفع الاذى بعضهم عن بعض والنواحي بالحقي والماهل في ذمة العالم والضعيف من حصة القوي . واهل البلد الواحد متضامنون معنى وضمنا اذا لم يتضامنوا هلكوا وهبات ان نتم للفرد فيه سعادة لا لتناول المجموع .

نعم ان تلك الاوضاع قد بلغت عند غيرنا في هذا العصر مبلغا عاليا من الرقي بفضل قاعدة توزيع الاعمال وكثرة الاختصاصين في كل فرع من الفروع التي تشتد حاجة المدنية اليها ولكن ديوان الحسبة وحده كان يقوم باكثر هذه المقومات في المدن الفاضلة فكانت الحسبة آخذة برقاب المنافع دافعة عنق المضار . ومن الغريب ان عصرنا على رقيه لم يصل في بلادنا الى بعض ما كان يتمتع به اهلها في القرون الوسطى وهذا سر الفرق بيننا فسبحان الملهم العظيم .

محمد كرد علي

الوبالت (الملائيا)

« وكيفية الوقاية منها (١) »

ايها السادة :

انثدبني حضرة استاذنا الكبير رئيس المجمع العلمي المحترم لاحادثكم في هذا المساء فلم اجد بداً من الامتنال لرغبته فأثبت أفقتي عن موضوع يدور عليه محور كلامي فوجدتها حافلة بالمواضيع الطبية والعلمية والصحية . ولا عجب فهي بضاعة الطبيب ومنها ينفق ويفيد . وقد كنت اود لو انفسح لي الوقت فالقي على مسامعكم سلسلة من المحاضرات في الفلسفة الطبية والعجائب النسيولوجية والتشريحية التي تقرأ في المدقق حين تحري كل خلية من الخلايا التي يترك منها هذا البناء البشري والمطر اليها وهي ذبغ نظاماً دقيقاً لا تخرج عنه حتى ليمتل الانسان عندئذ ان في جسده عالماً آخر حديداً يتبع انظمة انى اعالمنا هذا الطاهر ان ياتلها دقة وانظاماً . واكن البحث في تلك الموضوعات يستغرق طويلاً من الزمن ويستدعي عشرات من المحاضرات ارجي القاءها الى زمن آخر لانني أرغب رغبة شديدة بان اطالع نائسنا الجديدة التي برحى منها تقدم البلاد ورقبها على ما يجري فيهم من الاسرار والعجائب الحارقات التي يقف عندها اكبر مفكري العالم وهم لا يجدون حل العازها سبيلاً ، وعار على الانسان أن يطمح بعقله الى إدراك ما يحيط به ومعرفة ما هو بعيد بالنسبة اليه وهو يجهل ما فيه من العوامض وخليداني اترك هذه المواضيع الى وقت آخر واختر موضوعاً لكلامي في هذا المساء « الوبالت . وكيفية الوقاية منها »

موضوع رحب متسع الاطراف يتمكن الباحث من الحولان فيه ساعات طويلة

(١) محاضرة الدكتور مرشد بك خاطر احد أعضاء المجمع العلمي ألقاها

في اول تموز سنة ١٩٢١

وموضوع جزيل الفائدة اذا روعي كان سبباً لنجاة مئات الالوف في هذه البلاد السورية وحدها على الرغم من قلة سكانها - ولست اريد ان التي عليكم الآن درسا طبياً في هذه الحمى واعراضها وكيفية تكونها وعاملها المرضي واختلاطاتها وغير ذلك من الابحاث التي يطول بنا شرحها ولا يلزم لكم سماعها لانها من الاختصاصات الطبية الصرفة والكنية أحصر كلامي فقط بالقسم الصحي من الموضوع اي بالنقطة التي يجب على كل فرد من الامة طبيباً كان أم غير طبيب ان يعرفها ويراعيها لان من الواجب على كل انسان أن يكون طبيباً صغيراً أي طبيباً في بيته يدخل اليه من العادات كل حسن ويستأصل منه كل فاسد فاذا حصرت موضوعي بنقط ثلاث اكون قد بلغت الغاية التي اتوخاها فأولى هذه النقاط : أحد الوبالة وأضرارها وانتشارها الجغرافي . وثانيها : طريقة انتقالها ولحمة في حياة العامل الناقل . وثالثها : كيفية الوقاية منها .

الوبالة او (المالاريا) مرض عفني ناتج عن دخول الطفيلي - الذي كسنته لافران سنة ١٨٨٠ مسمي - الى دم الانسان وهذا العامل أيها السادة متى وجد في الدم لا يرضى غذاؤه الا اسرف ما في الانسان . لا يرضى الا بذلك العنصر الحيوي الاساسي ، تلك الكريات الحمراء التي تأخذ بخضابها الدموي (هيموغلوبين) او كسجين الهواء . مهمة في الانسان وظيفته التنفس والاحتراق وهي اسهل لكل حيوة بشرية وحيوانية ونباتية ومتى التهمت هذه الحرنومة تلك الكريات الحية النادرة الحياة في البناء البشري حدثت اعراض في البنية يطول بنا وصفها واهمها فقر دم عميق يليه ضعف كل وظيفة جسمية لان الاعضا التي في الجسد تحتاج الى غذائها وقوتها . وغذاؤها وقوتها يقومان بتدعيمها الكريات الحمراء فاذا نقصت هذه الكريات عدداً أو اختل تركيبها الكيمي فنقصت جوهراً مع محافظتها على عددها ضعفت الاعضا جميعها التي تقص غذاؤها فبدت في البنية اختلالات في الوظيفة أهمها ضخامة الطحال الذي يبلغ أحياناً عشرة اضعاف حجمه العادي فيملاً البطن ويصل الى حدود السلى وترافقه غالباً ضخامة الكبد وهي وإن تكن أخف من ضخامة الطحال لان الكبد لاتبلغ إلا نادراً ثلاثة اضعاف حجمها الطبيعي ، لا يزال حجمها المطلق أكبر من حجم الطحال لان وزنها يعادل اربعة كيلو غرامات مع ان وزن الطحال حين ضخامته

الكبرى لا يزيد على كيلو غرام واحد • هذا عدا التشوشات العظيمة التي تظهر في السكايتين والنقي (الخ العظمي) والمراكز العصبية فيتمتع بسببها لوب الوحه ويعبوه تتحوب شديد فتذبل نضرة الوجنتين ويشبه المصاب بهذه الوبالة انسانا نشر من بين الاموات •

هذه هي الوبالة أيها السادة وهذا تأثيرها رابية وهذه هي أضرارها الحسيمة وهذه هي أسقاطها التي يرزح تحت وقرها جسدنا الحي فاذا صورتها لكم بهذه الصورة الحقيقية أو مثلتها لكم بصورة سفالك عظيم يفك تأثيرات انكربات في الحقيقة الواحدة فاني لا أدرك الحقيقة • وكما ان ضحاياها في الحسد الواحد تعد باللايين فلست أرفع اذا قلت ان ضحاياها في حسد الجموع التسري لا يقل عددا عن ضحاياها في البيسة الواحدة من ذلك الجموع فكما من القرى التي اقدت بتأثير الوبالة وكما من الحيوس التي أهدت لحولها في البطائح والحرب الي مرت هي اكبر بردان على صحة ما أقول ولعل نددا غير قليل منكم أيها السادة رافق الجيوس التركية في غزواتها ووجد معها في تلك المستنقعات السورية والفلسطينية والاباضوية والعراقية فرأى بأمر عينه تلك الوبال الحبيثة التي لم تكن لتميل المصاب بها الا عشرات من الساعات • وكما من المدن التي وهبتها الطبيعة من مائها وجمادها ما ضدت به على سواها ولا تستفد من هبات الطبيعة بل شوهتها فجعلت الماء مرتعا للبعوض فكادت تلك الهبة من البلايا العظيمة على سكان تلك المدينة •

ولو نظرت بطرة عامة أيها السادة الى انكرة الارضية لوحدتم ان الوبالة مستعمرة في كل قارة من القارات فهي لم تترك مملكة الا عرست فيها علمها وشادت قلاعها وان من الممالك ما ناولها وأبلى ايها الحارب الحامية الوطيس وأضعف سيطرتها وحصرها حتى كاد يحرقها ويقاض طابها من بلادها ومثال هذه البلاد البلاد الاوربية فان فرسة مثلا بعد ان كادت تدفع للموتة الصرايب الشديدة توصلت اليوم الى نزع بيرها والقائه بعيدا وبعد ان كادت ولاياتها الواقعة في الوسط لاسيا (السلوية) (Sologne) من البلاد التي مستى فيها الوبالة أصبحت اليوم آمنة معها بفضل علماء الصحة الخبراء وخدمة الحكومة ونشاطها وهكذا فان اوربة جميعها قد خطت خطوة

كبيرة في هذا الامر فما يقال عن فرنسا ينطبق ايضاً على انكلترة والمانيّة وسواهما حتى اننا لو زرنا البلاد الاوربية لا نرى الا اصابات قليلة لا تكاد تذكر في كورسكة (Corse) وساردانية واسبانية واليونان ولم يبق من البلاد الاوربية مملكة متأخرة عن خلق الوبالة الا البلاد الايطالية التي تكثُر فيها المناقع ولا تزال هذالحمى ضاربة فيها اطنابها ومزيلة من وجنات شبيبته نضارة الحياة .

وكذلك اميركة فانها قد حذت حذو اوروبا في خطتها لا سيما الشمالية منها وهي، وان تكن لا تزال متأخرة في هذا العمل عن مجارة اوروبا القديمة العهد والعريقة في العلم، قد أزال قسم كبيراً من سيطرة هذا البلاء في اميركة التماية لم تعد تذكر الوبالة الا في مقاطعات لوزيانا (Lousiane) وفلوريدا (Floride) وتاكساس (Texas) واركنساس (Arkansas) وجورجية (Géorgie) واما في المكسيك فانها لا تزال مستولية استيلاء غريباً كما انها في باما وغانالا (Guatémala) وجزر الانتيل لا تزال شديدة الوطأة .

واما اميركة الجنوبية فلا تزال وكرا للوبالة فان الرازيل والبيره عدا الصرود منها، وغيوانه (Guyanes) وفنازويللا وكولومبية وبوليفية انفسى فيها الوبالة نفسياً شديداً .

والقارات الاخرى من الكرة تلك القارات التي كتب لها التقاء لا تزال متأخرة تروح تحت نير هذه الحمى وسواها من الالوبئة المنفشية فأفر بقية على الرغم مما بذل فيها من العناية لا تزال مرتعا للوبالة ولا يجو منها الا المدن والقرى الواقعة على المرتفعات وان للمحيط تأثيراً كبيراً في نمو بيض البعوض الذي ينقل هذه الحمى ويجعل تلك البلاد رغم اليد العاملة فيها من اكبر الينابيع التي يتدفق منها هذا البلاء على البشرية لان هذه الحمى تهوى البلاد الحارة أكثر من الباردة .

واما اوقيانية (جزائر الاوقيانوس الكبير) فان أكثر جزرها لا تزال معرضة لهذه الحمى أخصها مالازية (Malaisie) وجاوا (Java) وسوترا وبورنايو وموليك (Moluques) وفيلبين .

واما آسيا هذه القارة التي نجن فيها وتحت سمانها نجيا فإنها القارة التي لم تخط حتى

الآن خطوة تذكر في سبيل التخلص من ربة هذا المرض فان الكوشاشين وتونكين والقسم الشالي الشرقي من الصين وكومبودج والعجم وهندستان وسيلان ملوثة بالوبالة تلوثاً لا يرجى منه شفاء الا اذا بذات الحكومة اقصى ما في وسعها في هذا الصدد . ولو نظرنا الى المحيط الذي نحيا فيه بعد ان أرسلنا بنظرنا الى أطراف الكرة الارضية لوجدنا أنفسنا في تأخر عظيم ولست أقصد ان أضع لكم الآن إحصاء عن الوبالة في كل مقاطعة من البلاد السورية فان هذه الاحصاءات لا وجود لها لسوء الحظ واذا وجدت فلا تكون حقيقية بل لا تكاد تبلغ عشر الارقام الحقيقية لان كثيراً من الاصابات لا يذكرها الاطباء فضلاً عن ان العدد الكبير من المرضى يتداوى عند الدجالين او عند نفسه فلا تصل اسماؤه الى ادارة الصحة العامة لتضع احصاءها الحقيقي . ولكني اقول كلمة موجزة تحققت صحتها بنفسى وبواسطة زملائي وهذه الكلمة تهكم معرفتها كما انها تهكم كل سوري ضنين بصحة اهل بلاده وهي ان ثلث سكان هذه المدينة وثلثي سكان القرى المجاورة لما يصابون بهذه الحمى .

ولو اخذت مقياساً لكلامي لفيفكم المجتمع هنا أيها السادة وسألت كلاً منكم اذا كان أصيب بنوبة وبالة فمر بادوارها الثلاثة النافض (العرواء) والحرارة والعرق لما وجدت عشرة في المائة سالمين منها مع انكم من الذين يحافظون على صحتهم ويراعون القواعد الصحية مراعاة دقيقة ولكن ليس الذنب ذنبكم . ولو اخذتم انتم على سبيل الاختبار اي مجتمع كن كما لو اخذت اب الأسرة افراد أسرته ورئيس المدرسة عامة تلامذته ورئيس الدائرة جماع مأموريه ورئيس النادي جميع اعضائه ومدير المعمل لفيف مستخدميه لرأيت ان النسبة تبقى محفوظة او تكاد . اذاً اذا جعلت نسبة الاحصاءات ٣٣ بالمائة اكون قد وضعت رقماً دون الحقيقة .

هذا هو انتشار الوبالة في الارض أيها السادة رسمته لكم بايجاز فما هو السبب يا ترى في انتقالها وما هو عاملها الناقل ؟ ان السبب الوحيد في انتقال هذه الحمى البعوض والشرط الاساسي في حياة البعوض هو المستنقعات والمياه الراكدة او ذات السير البطيء فاذا أزيل الشرط الثاني اتلفنا بيوض البعوض وقضينا على هذه الحمى وخلصنا هذه البلاد من شرٍ عظيم يهددها ويذهب بقوة ابنائنا . أجل : المستنقعات هي النقطة

الاساسية التي يجب ان نوجه اليها انظارنا ولو أخذت مدينة دمشق مثالا على كلامي وذكرت لكم البطائح المتعددة الفسيحة المحيطة بهذه المدينة والموجودة في داخلها لما عجزتم بعد ذلك لكثرة الوبالة وشدة انتشارها ما بيننا .

في دمشق مستنقعات فسيحة مملوءة سماء زعافا تنتشر في الفضاء ذلك العامل الماثل فلا يدع منزلا إلا يدخله ويلتقي سكناه بلقائه المضر فمهما مستنقع (الجبانة) وجنيصة النعنع والمرج والدفردار والزفتية والساحة والقاعة والمستنقع الواقع خارج بوابة الله قرب القدم والمستنقع الواقع في جوار مدافن النصارى واليهود والنهر الانهض الذي يبتدىء من الشاغور ويمر بالحقة والزفتية والساحة حتى المنزل — رحرح الغوطة الواقع شرقي النام . وفي ضواحي دمشق مستنقعات عديدة وبطائح تفسد بماء الذي الواقعة قربها منها ثلاث بطائح قرب بحيرة العتيبة والقرية المسماة باسمها تدافع مياهها ٢٤٠٠ متر مربع .

ومستنقع قرب قرية حوران العواميد والمستنقعات المتكونة في سبخة جبل حرمون كالمستنقع الواقع على بعد خمسة كيلو مترات من قطنا في ذلك الوادي الخصب . ومستنقعات عرطوز وسبع المتكونة من نهر الاعوج وغير هذه من المستنقعات الصغيرة التي لا تعد وكما نأتج من إحلال قنوات الانهر وتسرب المياه منها الى الاراضي المنخفضة ومتى عرفنا أيها السادة ان المستنقع يند صرره الى مساحة لا يتعد قطر دائرتها عن ثلاثة كيلومترات وهي المسافة التي يقوى المعوض على قطعها اذا كان الهواء هادئا ادر كنا اذ ذلك ان دمشق وقراها جميعا دخلت ضمن نطاق الوبالة .

ولا نظن ان بقية المدن السورية اكر حظا من دمشق فلو أرسلت نظاري الى حمص وحماه وحسر الشغور وقراها ولم أتجاوز حدود دولة دمشق لوجدت من المستنقعات عددا عديدا بيت جرابيم هذه الحمى الفتاكة ويمتد الى آلاف ومئات الالوف من سكان القرى المجاورة منها :

مستنقع الغاب : ويسمى ايضا عارة وجه الحبر دعي غابا لكثرة ما يبيت فيه من الاعشاب المائية والقصب حتى أصبح حرجا كنيفا تأوي اليه الوحوش وهو بوردة الدولة

تجيش فيه جيوش البعوض فتنتشر على الجهات المجاورة وتبعث بين سكانها سمومها .
طوله ستة كيلو مترات وعرضه كيلومتران ونصف كيلو متر ومساحة سطحه ألف
وخمسمائة هكتار وسبب تكونه ارتفاع سطح المياه التي طفت من بحيرة القطينة على
الأراضي المنخفضة الواقعة في الجهة الغربية .

ومستنقع نهر السبع : الذي ينبع تحت خرابة اسمها معين قائمة على سفح جبل
لبنان الشرقي ويمتد هذا المستنقع على طول مجرى النهر البطيئ ويحتاز قري مطرية
وسفرحه والناعر والبوينة الغربية ودين وبنهي بمستنقع الغساب فيسم هواء هذه
القري كلها .

ومستنقع كائن قرب حمص بين سد أنشئ حديثاً للعاصي والحسر الحديدي الذي
يز فوّه قطار حمص ودارابلس الحديدي طوله خمسمائة متر وعرضه خمسون متراً .
ومستنقع الميلاس : وهو مأزح مدينة حمص وسبب وبالتها .

ومستنقع السبع : وهو مستنقع آخر يكونه النهر متسع الأطراف يبلغ طوله عشرة
كيلومترات وعرضه عشرة أضعافاً ومساحة سطحه عشرة آلاف هكتار تحيط به
قري العتارنة والعونية وحلة وترمسة وصلبا والصفصافية . وهي من أعمال حماه
وسلمب وجبرملة وديمو من أعمال قضاء العمرانية من منطقة العلوبين .

ومستنقع الغساب : وهو بطيخة أخرى غير البطيخة الأولى المسماة بهذا الاسم
واقعة قرب حسر الشغور واسمها القديم بحيرة افاميا مساحتها أربعون ألف هكتار
وطولها ٤٠ كيلومتراً وعرضها عشرة كيلومترات وهي كائنة في الأراضي الفاصلة بين
حكومة دمشق وحلب وجبل العلوبين تقع في اوطا قرية العتارنة وهي من أعمال حماه
وفي آخرها قرية قرقر من أعمال قضاء الشغور وتحدّها قري جلاب وعمورين
والسقيلية وقلعة المضيق (وهي مدينة افاميا القديمة) والتريفة وحوير والتويني
والناصرية وقرقر وتل العار وحورات ورسم الحرن وتل كمثري وكريم والبارد
ورصيف سطحه . ومما زاد في الطين بلة إقامة سد في معبر المستنقع قرب قرية قرقر
سميت بانسانه الحكومة العثمانية لشركة ملتزمي الصيد منعاً لمرور الجري (الحنكليس)
من الفرار .

خطر عظيم يتهدد الامة ونحن عنه متغاضون وبلاء جسيم سببته المياه الفزيرة ذلك العنصر الحيوي الذي يلقي الحياة حيث مرة اذا احسن استعماله و يسبب الامراض والابوثة اذا لم يذب اليه ونحن عنه لاهون . خير اسورية ان تكون ظمأى وبنوها اشداء اقوياء من ان تندفق الجداول في كل منمرجاتها وتسيل المياه في دورها وبنوها مرضى ساحبون — وعارء علينا ان ندع تلك الهبة التي خصت الطبيعة بها مدينتنا ازاهرة نتقلب الى بلاء وخطر . عارء علينا نحن أحفاد الامم و بين ان تقف وقفة المنفرج إزاء هذا الخطر الحفي كأن الدم الذي يلمتهم ليس بدم ابنائنا والقوة التي نبعثر ليست بقوة نسلنا ، لابل يليق بنا ان نضع حدا لهذا الداء وان نعمل اولي الامر على إتمام ما لا طاقة لنا بصنعه منفردين .

المستنقعات مضره أيها السادة لانها البيئة التي ينمو فيها البعوض و يلقي فيها بهوضه فلا تلبث هذه البهوض حتى وجدت من الحرارة وركود الهواء ما يلائمها ان نفقس ونقلب الى سرفه محشرة فبالغة . فتصبح قادرة على الطيران . و بهذه المناسبة أنبهكم الى امر اسامي خوقاً من الالتباس وهو ان البعوض يقسم نوعين مهمين وان نوعاً واحداً منها يحيا فيه عامل الوبالة وهذا النوع يسمى (الانوفال) . والنوع الآخر عديم الخطر يسمى (كيلاكس) . واليك بعض الاوصاف المميزة للانوفال عن الكيلاكس البالغين : يكون جسم الانوفال عندما تجلط على سطح مائى مكوئاً مع السطح الذي تستوي عليه زاوية تبلغ أحياناً الدرجة التسعين . واما الكيلاكس فان جسمها يكاد يكون موازياً للسطح فاذا رأيتم بعوضة حاطة على حائط او سرير ووجدتم ان رأسها اكثر انخفاضاً من ذنبها اي اذا وجدتوها مائلة فاعلموا ان في خرطومها سمّاً زاعافاً وان لدغها لا يقل خطراً عن لدغ الافعي واذا رأتموها موازية للحائط او لسطح السرير فلا تحافوها فهي تلدغ وتؤلم مكان اللدغة ولا ينتج عن لدغتها الا الم موضعي لا يلبث ان يزول وما قلته لكم من الاوصاف المميزة بين النوعين البالغين من البعوض نجد تشبيهاً له بين الحشرتين والسرفتين الا انني اضرب صفحاً عنها لان ما يقع تحت اعينكم من البعوض هو البعوض البالغ فلما تندفعون الى تتبع البعوض في وكرة والنظر الى سرفاته وهو على وجه المياه — فالانوفال اذا بعد ان تصبح قادرة على الطيران بقي الذكر منها قريباً من

الكان الذي ولد فيه فيتغذى بعصير بعض الاشجار واما انتاه فانها نهمة لا ترضى بسوى الدم غذاء لها فتقتنم فرصة الليل واستغراق الانسان في نومه فتهاجمه وتمتص من دمه غذاءها ولما كانت لا تميز بين السليم والريض فانها متى امتصت من دم مريض مصاب بالوبالة تأخذ مع الدم طفيلي الحية وبعد ان ير هذا الطفيلي بأدوار متعددة في جسمها تنقعه السليم مع الالهاب حين غرز خرطومها فيه والاغتذاء بدمه وهكذا يتم انتقال هذه الحمى من المريض الى السليم . وبدون البعوض لا سهل الى العدوى وبدون المستنقعات لا سهل الى حيوة البعوض .

وبان الانوفال هي العامل الناقل وهي الناقح الوحيد الذي ينقل العامل المرضي من العليل الى السليم رأيت من الواجب ان اعطيكم لمحة عن حياتها واحلافها فاقول :
للبعوض دور من الحيوه يسمى الدور السرفى وهو الدور الذي يلي نفس البيضة ويسبق ز من البلوغ وهذا الدور من ادوار حياة الانوفال ماى صرف اى ان الانوفال تقضيه في الماء . اذا لا أنوفال بدون ماء .

تتحب الانوفال المستنقعات الصغيرة حيث اناء نقي صافى لتاتي بهوضها فيها غير ان ركود الماء ايس شرطاً لازماً فان الماء اذا كان هادئاً او خفيف الجريان كان موافقاً لها ايضا وانه فان قسماً كبيراً من الانهر التي تحترق دمتى مارة في بقع مستوية من الارض او خفيفة الميل يكون سيرها هادئاً جداً حتى انه يخيل للناظر اليها انها بركة لا رين فيها فهذه الغدران جميعها ملائمة كل الملائمة للانوفال وفيها تلقي بهوضها وتنتج نسلها بمئات الملايين وما يقال في هذه الغدران يقال ايضا في ضفاف الشواطىء التي تنمو عليها الاتجار المائية فتعوق سير الماء السريع وتولد قرب جذع كل شجرة مستنقعا صغيراً لا بل تفضل الانوفال هذه المستنقعات الصغيرة على تلك نظراً الى قلة عمقها وصا مائها وهذه كثيرة دمتى تعد بمئات الالوف لان كثرتها معادلة لعدد الاتجار النامية على الضفاف .

وكذلك المستنقعات العشبية والمستنقعات المائية الواقعة في الاراضي الخزفية وكل مستنقعات دمتى التي ذكرت اسماءها منذ هنيهة هي من هذين النوعين ، هي وسط موافق كل الموافقة لنمو الانوفال . ولا ننس ان البرك والبحاري الصناعية التي تحضر

في الجنائن والمنعرجات الواقعة في جوار الجداول وشقوب الحوافر الملقاة حول المسالخ والاتفاق التي يحفرها السرطان المائي والمجامع المائية مهاصرت لاسيما ما ينتج عن فيضان خزانات الماء كما هي الحاماة قرب خزان من خزانات ماء النخبة في دمشق وكسرات القناني وآنية الازهار وشقوق الصخور كل هذه اذا اجتمع الماء فيها كانت موافقة لفقس بوض البعوض وبكثرة واحدة فان الانوفال لا تترك بقعة ماء هادئة او راكدة الا تلتقي فيها ببوضها .

ولا تسمجوا أيها السادة اذا أضفت الى كل ما مضى ماشاهده بعض علماء النخبة المدققين في فلسطين واصلنا نشاهده نحن ايضاً اذا جرتنا حب الاختبار الى التدقيق بان بعض الآبار البيتية نتخذها الانوفال مقراً لها وتلقي فيها ببوضها فمأملوا اذا ما أعظم صولة هذا العدو الخفي الذي يتهددنا وكم ينبغي ان نعد من العدد لمقاتلته وتدمير معاقله المتعددة . ولكن متى عرف الانسان مكان عدوه وادرك طريق عيشته ودرس اخلاقه جيداً سهل عليه الفتك به فمهما كانت الوظيفة شاقة فان من الواجب الملازمة علينا ان نقوم بها لاننا بدونها لا نتوصل الى قطع سافة الانوفال واذا لم نمنع البعوض من هذا المحيط بقي هوأؤنا ملوثاً واجسادنا عالية مها توفرت الاسباب الشحية الاخرى لدينا فكأنكم تعلم ذلك المصيف الجميل الذي يؤمه التساميون اصرف اشهر الصيف فيه وما هي عليه بلودان تلك القرية التي بيت على علو شامخ فاخذت من الهواء نقيته وأتلعت بعنقها الى السهول المنبسطة على اقدامها فاخذت من ازهارها ذلك الشذا الشذي فعطرت به هواءها وانعشت صدورساكنيها ومع ذلك فلا يغيبها موقعها الطبيعي ولا جودة هوائها شيئاً بعد ان أهملت مياهها فولدت مستنقعات في اراضيها أصححت مأوى للانوفال ومصدراً للوبالة التي نفست بين السكان والمصطافين في السنة الماضية حتى ان السواد الاعظم من الدين قصدوا تلك البلدة طلباً للصحة عادوا منها وقد علا وجناتهم اصفرار فقر الدم الوبالي ونهكت قواهم تلك الحمى الشديدة الوطأة . فاذا لم يمدرك الحكومة امر هذا المستنقع ونفجره او تجففه في هذه السنة كانت اتجاع تلك القرية خطراً عظيماً على المصطافين .

وها انا أمرٌ على النقطة الاخرى من موضوعي وهي كيفية الوقاية من هذه الحمى .

الوقاية من الحمى تقوم بأمور ثلاثة : اولها اتلاف سرفات البعوض وثانيها توقي البعوض البالغ حين وجوده وثالثها ادخال علاج الى الدم لا يتمكن طفيلي الوبالة من ان يعيش فيه وبكلمة أخرى جعل الوسط الدموي غير ملائم لحياة العامل المرضي .

اما الامر الاول اي اتلاف سرفات البعوض فيقسم قسمين قسم منه وهو الاكبر يترتب على الحكومة القيام به والقسم الآخر وهو الصغير يترتب على كل فرد من افراد الامة اتمامه . فواجبات الحكومة ان ترسم مصوراً مفصلاً للبلاد التي تتولى شؤونها وان تدرس درساً دقيقاً مجساري الانهر وما يتولد عنها من المستنقعات فتصلح القنوات اصلاحاً منقماً وتجعل بناء السدود محكماً كي لا تتسرب المياه منها في الاراضي المنخفضة الواقعة تحتها ونظر في امر المستنقعات المنفصلة عن مجاري الانهر فاذا كانت المياه التي تصل اليها قابلة للتحويل ، حولتها عنها فجففتها واذا لم تكن قابلة للتحويل ملأتها أو ردمتها او حفرت فيها خنادق عميقة متصلة بمجرى من المجاري النهرية الاكثر قرباً منها ثم غرست فيها اشجاراً سريعة النمو محبة للماء كتشجر الاوكالبتوس مثلاً فلا يمر عليها وقت قصير الا تجف وتصبح الانوفال عاجزة عن ان تجد لها مقراً لتلقي فيه بيوضها . ومن واجبات الحكومة ايضا ان تصلح ضفاف الانهر وتجعل مجرى النهر عميقاً ونقتلع الاشجار التي تعوق سير الماء فلا تدع سبيلاً لتولد تلك المستنقعات الصغيرة التي ذكرتها لكم قرب حذع كل شجرة من الاشجار . ومن واجباتها ايضا معاينة المسالخ وجوارها والمعامل وما يحيط بها والشوارع والازقة وخزانات المياه فلا تدع فيها مجماً صغيراً من الماء ثمكن الانوفال من إلقاء بيوضها فيه . ومن واجباتها وضع قانون يقضي على كل ملاك او مستأجر او مزارع ان يضع في البركة التي في داره او ملكه من زيت الكاز او التربينيتا كل اسبوع كمية مناسبة سطح تلك البركة اي كمية كافية لتكوين طبقة من الزيت على سطح الماء تمنع السرفات عن استنشاق الهواء ونقضي عليها وهي في اوكارها ونقدر هذه الكمية بعشرين سانتيمتراً مكعباً من الكاز في المتر المربع من الماء . وعليها ان تعين مأمورين صهيئين لهذه الغاية وان تعاقب العقاب الشديد كل من يجرأ على المخالفة ؛ وعليها ايضا ان تعين مياه الآبار وترى اذا كانت سرفات الانوفال عائشة فيها فتأمر بما يجففها او بوضع الكاز فيها عادة ايها كالبرك الملوثة .

فواجبات الحكومة كبيرة أيها السادة واذا هي لم تبدأ بالعمل اولا ونقوم بواجباتها فان ما يصنعه افراد الامة منفردين لا يأتي بالفائدة وان حكومتنا الحاضرة وان لم تتم حتى الآن واجبا من الواجبات الصحية المسؤولة عنها فانها قد وضعت القضية تحت الدرس ورسمت الخطط المنوي تطبيقها ولعل الغرامة الحربية التي جعلتها الحكومة المنتدبة تحت تصرف الحكومة الوطنية تصرف لهذه الغاية وكل آت قريب .

اما واجباتنا نحن أيها السادة فبسيطة للغاية يجب علينا ان نساعد الحكومة على اتمام ما تضعه لنا من القوانين الصحية . يجب على كل فرد منا ان ينظر نظرة دقيقة الى بيته فلا يدع في بستانه او داره مجمعا من الماء الا ملاءه والتي فيه كذرا . يجب علينا ان ننظر الى المراحيض فان الانوفال وان تكن ترغب رغبة شديدة بالماء الصافي فانها لا تستنكف عن المالح او القذر فاذا وجدنا تلك المراحيض قد ولدت مجامع مائية فيجب علينا ان نلقي كمية من الكاز فيها . يجب علينا ان نعتبر الاقسام المحيطة ببيوتنا كانهما ملك لنا يترتب علينا ان نحافظ عليهما نحافظنا على مساكننا فنعاملها معاملة دورنا ذاتها ونخفف عن الحكومة قسما من الاعصاب . هكذا يصنع الشعب الراقى المتمدن في كل قطر من اقطار العالم .

واما الامر الثاني من الوناية وهو اتقاء البعوض البالغ حين وجوده فاننا لا نحتاج اليه الا اذا أهملنا الامر الاول كما هي الحالة اليوم في مدينتنا الناعسة ويقوم هذا الامر بوضع شبكة من الخيوط المعدنية الرقيقة على الابواب والنوافذ لا يتمكن البعوض من المرور منها ووضع كلات ذات شبكات رقيقة ايضا على الاسرة ويجب ان تكون هذه الكلات طويلة كي تصل الى الارض وان تثبت حول السرير بقطع من الرصاص كي لا يرفعها الهواء فيدخلها البعوض ويجب علينا ايضا ان نعاين الكلات في كل يوم فاذا حدث فيها تقب صغير يجب ان يراقى حالا لان البعوض لا يدع منفذا . هما كن صغيرا الا دخله . ان الكلة أيها السادة كافية في حالتنا الحاضرة للتوقي من شر هذه الحما الشديدة فمهما غلا ثمنها ومهما قيل فيها فان اهمالها يعد جريمة لا تغفر . ومما الحجت عليكم بتعميم هذه العادة الحسنة في المحيط الذي انتم فيه فلا آفي واجب التبشير بهذه القضية حقه . فليكن كل منكم رسولا في بيته وبين اصدقائه ومبشرا

في كل مجتمع ومعلماً للسذج الذين لا يقدرّون هذا الامر قدره فلا تمر مدّة قصيرة لا يعمّ استعمال الككلات عند الفقير والغني فتتحسن اذذاك الحالة الصحية تحسناً يذكر يعود الفضل فيه اليكم .

وأما النقطة الأخيرة من الوقاية فنقوم بادخال علاج الى الدم لا يتمكن طفيلي الوبالة من النمو فيه . وهذا العلاج أمهسا السادة يعرفه جميعكم ولكن قلّ من يستعمله منكم . هذا العلاج هو الكينين هو الدواء الذي يحقّ لنا أن نحتفل اليوم بهوبله الماسي لان السبرات التي مرت على كتفه مائة سنة وسنة . وهذا العلاج الذي اوجدته العناية الآلهية شعاً للوبالة له خاصّة واقية أيضاً . فكما انه يطغى نار الحمى حين تاججها فانه يجعل ايضاً المحيط الذي يدخله غير قابل للاشتعال . فهو رحمة للبشرية جاء بها بلاتيه وكفاننو سنة (١٨٢٠) وان التاريخ الطبي يحفظ مع الفخر اسمي هذين الكاشفين الجيدين اما استعمال الكينين للوقاية ففضلى طريقه طريقة لافران كاشف الطفيلي وهي نقوم باخذ عشرين سانتيجراماً من كبريتات الكينين في كل يوم او اربعين سانتيجراماً كل يومين مادام الفصل الخطر موجوداً . والفصل الخطر حسب تحديد علماء الصحة هو خمسة اشهر أولها حزيران وآخرها تشرين الاول هذا ما أريد أن أقوله لكم أمهسا السادة عن الوبالة وقاكم الله منها بفضل ما أسدي اليكم من النصائح المفيدة والسلام عليكم .



الحباية في الشام^(١)

أهم مسألة في قيام الدول وسقوطها ان تفرض الاموال على الرعايا بالعقل وتحمي منهم بالعدل وتحسن التصرف في انفاقها على المصالح العامة . وقد كانت الحكومات الاسلامية تعنى بهذا الشأن كل العناية وكانت اذا غنت عن هذا الامر المهم ايام ضعفها تكثرا اشورات أو منقطع عن العمل الرغبات فتحرب البلاد وتنتشر الفوضى ونعم البلوى .

اعتمدت العرب أول التيم في تنظيم دواوين اموالها على الروم في الشام ينظرون لهم في مسائل الدخل والخرج ووضع التوازن بحسب عرف تلك الايام وذلك لان العرب كانوا لأول امرهم نصف أميين أو نصف متحضرين وأهل الشام عرق منهم في الحضارة وما ينبغي لها حتى كان زياد يقول ينبغي ان يكون كتاب الخراج من رؤساء الاناجم العالمين بأمور الخراج .

ولقد كان الاسراف يبدو في الاموال ايام الدف والنعم ويتجلى الاقتصاد فيها على عهد الخدم والاصلاح وذلك يرجع على الاعلب الى من يتولى امر الامة من سليفة أو سلطان أو ملك أو امير فاذا صلح الرأس صلح الجسد كله . واذ كانت دواعي الاتفاق محصورة داخل البلاد وكان النقد أقل من هذه الايام والطبع والدين في ضبط التوءم لانه اقتصادية لم يبلغ مبلغه في القرون الاحيرة وحركة المعاملات والمقايضات محدودة وأضعف من العصور الحديثة كانت المسائل المالية لعهد العرب الى السذاجة لأول الامر شأنهم في طامة أمورهم .

والحباية أول الدولة كما قال ابن خلدون تكون قليلة الوزائع كثيرة الجملة . وآخر الدولة تكون كثيرة الوزائع قليلة الجملة فان كانت الدولة على سمن الدين فليست الا المعامرة التسرعية من الصدقات والخراج والحزبة وهي قليلة الوزائع لان مقدار الزكاة

(١) أُلقيت في ٢٢ دي الحجة سنة ١٣٣٩ هـ و ٢٦ آب سنة ١٩٢١ م .

من المال قليل وكذا زكاة الحبوب والماتية وكذا الجزية والحراج وجميع المغارة الشرعية وهي حدود لا تتعدى وإن كانت على سنن التغلب والعصبة فلا بد من البداوة في أولها . والبداوة تقتضي المسامحة والكرامة وخنض الجناح والتجافي عن أموال الناس والغفلة عن تحصيل ذلك إلا في النادر . قال والدولة تكون في أولها قليلة الحاجات لعدم الترف وعوائده فيكون خرجها وإتفاقها قليلا ويكون في الحباية حينئذ وفاء باز يد منها بل يفضل منها كثير عن حاجاتهم ثم لا تلبث ان تأخذ بدين الحضارة في الترف فيكثر لذلك خراج اهل الدولة ويكثر خراج السلطان خصوصا كثرة بالغة فيزيد في مقدار الوظائف والوزائع ويستحدث أنواعا من الحباية يضر بها على البياعات وينرض لها قدرا معلوما على الاتقان في الأسواق وعلى أعيان السلع في المدينة .

وعد فلا يتصل بها سند صحيح عن مقادير الحباية في هذه الديار قبل العرب أما على عهد حكومتهم فكانت الحباية في السدر الأول تجمع من الحراج والعشور والصدقات والحوالي أي الجزية أي ان لها أربعة موارد رئيسة ثم صارت اصول جهات الاموال السلطانية عشرة الجزية والحراج والعشور والاجور والزكوات وأثمان المبيعات والمقاسمات والغنمة والبي والمعادن . وزادت أنواع الحباية على عهد الخطاط هذه البلاد وسي المتعابون أو الفاتحون « ان تكتير المالك ماله باموال رعيته بمنزلة من يحدن سطوحه بما يقتلعه من قواعد بنيانه » .

قال الظاهري : ان كثرة الاموال وقتلتها بقدر المعرفة باحتلاؤها من جزى مقررة ، ومتاجر معصرة ، وأخرجة محضرة ، وعشور محررة ، وقسم مقدرة ، وغنائم موفرة ، وفي من جهات غير منحصرة ، هذا الى زكوات واجبة ، وأحور لأزمة ، وديات دماء ذاهبة ، ومحور مباحات راتية ، واستخرج معادن غير باهية ، وعدادهم سائمة لاسائية ، ووظائف على أكرمة عاملة ماضية ، الى غير ذلك من تريع مزارع ، وتوزيع قطائع ، وتوسيع مراعي ، وتريع مواضع ، وتوزيع طوالع ، وهذه جهات أموال جعل التسرع بيد السلطنة زمام استخراجها ، ويمكن من استيانتها سنوك داريقها ومنهاجها ، وفوض فيها حقوقا تجب رعايتها ، عند صرفها واخراجها ، اه .

وقال العزالي : وكل ما يحمل للسلطان سوى الاحياء وما يشترك فيه الرعية

قسان قسم مأخوذ من الاعداء وهو الغنيمة المأخوذة بالقهر والنفي وهو الذي حصل من ما لهم في يده من غير قتال والجزية واموال المصالحة وهي التي تؤخذ بالشروط والمعاقدة والقسم التسائي المأخوذ من المسلمين فلا يحل منه إلا قسنان المواريث وسائر الاموال الضائعة التي لا يتعين لها مالك والاقواف التي لا متولي لها اما الصدقات فليست توجد في هذا الزمان - اي في القرن الحسامس --- وما عدا ذلك من الحراج المضروب على المسلمين والمصادرات وانواع الرشوة كلها حرام . وقال ايضا ان اموال السلاطين في عصرنا حرام كلها او اكثرها وكيف لا والحلال هو الصدقات والنفي والغنيمة ولا وجود لها وليس يدخل منها شيء في يد السلطان ولم يبق الا الجزية وانما تؤخذ انواع من الظلم لا يحل اخذها به فإنهم يحاوزون حدود الشرع في المأخوذ والمأخوذ منه والوفاء له بالشرط ثم اذا نسبت ذلك الى ما ينصب اليهم من الحراج المضروب على المسلمين ومن المصادرات والرشا وصنوف الظلم لم يبلغ عشر معشار عشيره .

واول شيء من المال فرض على اهل دومة الجندل وهي في طرف الشام ومعدودة منه يعرف من الكتاب الذي أرسله النبي صلى الله عليه وسلم مع حارثة بن قطن الكلبي من اهل دومة الجندل يقول فيه : هذا كتاب من محمد رسول الله الى اهل دومة الجندل وما يابها من ضوائف كلب انا الناجية من النخل ولكم الصامنة من النخس على الجارية العشر وعلى الغايرة نصف العشر لا تجمع سارحتكم ولا تعد فاردتكم نقيمون لوقيتها وتؤتون الزكاة بحقها لا يحظر عليكم النبات ولا يؤخذ منكم عشر السات لكم بذات عهد الله والميثاق واسألكم الصبح والوفاء وذمة الله برسوله تهدي الله رومن حضر من المسلمين اه .

واختلف مقدار الجبايات باختلاف العصور وكان لاول الفتح ضرب الحراج على الارض والجزية على الرقاب وراعى الخليفة الثاني حال الشام فعمل في نواحيها غير ما عمل في غيرها من البلاد التي فتحت في عهده راعى في كل ارض ما تحمله وكانت الجزية في بدء الامر دياراً في كل حول على كل جمجمة (١) ثم وضعها عمر بن

(١) يقول لامنس ان الرومان ضربوا الجزية على اهالي سورية على المذكور من سن

الرابعة عشرة وعلى الاناث من الثانية عشرة الى سن ٦٥ من عمرهم جميعاً وفرضوا عليهم

الخطاب على الذهب أربعة دنانير وعلى أهل الورق أربعين درهماً وجعلهم طبقات لغنى الغنى وإقلال المقل وتوسط المتوسط وقيل جعل على كل رأس موبس ثمانية وأربعين درهماً ومن الوسط أربعة وعشرين درهماً ومن الفقير اثني عشر درهماً والجزية تؤخذ من غير المسلمين والخراج يشترك فيه كل من يملك أرضاً . وصالح ابو عبيدة بن الجراح نصارى الشام حين دخلها على ان تترك لهم كنائسهم وبيعهم وعلهم ارشاد الضال وبناء القناطر على الانهار من أموالهم وأن يضيفوا من مرائبهم من المسلمين ثلاثة أيام وصالحهم عمر على ضيافة من مرائبهم من المسلمين ثلاثة ايام مما يأكلون ولا يكافهم ذبح شاة او دجاجة وتبيت دوابهم على غير شعير وجعل ذلك على اهل السواد دون المدن .

خراجا جبوه من الاملاك يبلغ في المئة واحداً ورسموا ايضا ضرائب ومكوسا على الواردات والصادرات من السلع الا ان هذه الرسوم مع ثقلها كانت أخف على عائق السوريين من المغارم والسخر التي حمائم اياها ملوكهم سابقا وكانوا ينقاضونها دون نظام معلوم وفي أي آن تساؤوا اه .

وقال غيره كان أهل الولايات الرومانية يؤدون للرومان الجزية وعشر غلاتهم وإتاوة من المال ورسمًا على كل رأس ونائبهم أن يخضعوا لجماع ما يؤمرون به قال شيشرون ان الولايات أملاك الشعب الروماني فاذا اخضع هذا الام بأسرها لسلطانها فذلك طمعاً بفائدتها لا لاجل منفعة الشعوب ولذلك لا يتوخى ان يدير تلك الولايات بل يحرص على استثمارها . قالوا وكان للشعب الروماني في كل ولاية مواد مهمة من الجمارك والمناجم والضرائب والحقول الصالحة لزراعة الحنطة والمراعي يؤجرونها من شركات متعددين يسمونهم العشارين بتعاون من الحكومة حتى جباية الخراج ويجب على سكان الولايات أن يطيعوهم كأنهم وفود الشعب الروماني ويتناول هؤلاء العشاريون اكثر مما يجب لهم أحذه يسايرون الاهلين وكثيراً ما كانوا يبيعونهم كما يباع الرقيق . قال سنيوبوس وكثيراً ما كانوا يأخذون في آسيا حتى السكان بدون سبب وجمع الرومان في بلادهم ثروات الامم المغلوبة ولذلك كانت الدراهم كثيرة جداً في رومية ونادرة كل النادرة في الولايات واضطر سكان الولايات أن يبيعوا حتى التجف والطرف . وقد شوهه أبوان يبيعان ابناهما وبناتها .

ولما مسح عمر السواد وضع على كل جريب (١) عامر او غامر يناله الماء بدلوا او بغيره زرع او عطل درهما وقفيزاً (٢) واحداً والغنى عمر النخل عوناً لاهل السواد واخذ من جريب الكرم عشرة دراهم ومن جريب السمسم خمسة دراهم ومن الحضر من غلة الصيف من كل جريب ثلاثة دراهم ومن جريب القطن خمسة دراهم ثم حمل الاموال على قدر قربها وبعدها فجعل على كل مائة جريب زرع مما قرب ديناراً وعلى كل مائتي جريب مما بعد ديناراً وعلى كل الف اصل كرم مما قرب ديناراً وعلى كل الف اصل كرم مما بعد ديناراً وعلى الزيتون على كل مائة شجرة مما قرب ديناراً وعلى كل مائتي شجرة مما بعد ديناراً وكان غاية البعد عنده مسيرة اليوم او اليومين واكثر من ذلك ومادون اليوم فهو في القرب وحملت الشام على مثل ذلك . وقد ذكر عن بعض اهل المدينة واهل الشام انه تخرج زكاة الحضر من اثمانها على حساب مائتي درهم خمسة دراهم . ولما رأى اهل الذمة وفاء المسلمين لهم وحسن السيرة فيهم صاروا أشداء على عدو المسلمين وعونا للمسلمين على اعدائهم فبعث اهل كل مدينة ممن جرى الصلح بينهم وبين المسلمين رجلاً من قبائلهم يتجسسون الاخبار عن الروم وعن ملكهم فكتب ابو عبيدة الى كل وال ممن حلقه في المدن التي صالح اهلها يأمره ان يرد ما جبي منهم من الحزبة والحراج وكتب اليهم ان يقولوا لهم انما رد دنانيلكم اموالكم لانه بلغنا ما جمع لنا من الجموع

(١) الجريب عشر قصبات في عشر قصبات والقفيز عشر قصبات في قصبه والعنبر قصبه في قصبه والقصبه ستة اذرع فيكون الجريب ثلاثاً آلاف وستائة ذراع مكسرة واما الذراع فسبعة اصناف وهو يختلف باصطلاح كل بلد وقطر . (٢) القفيز مكيال ثمانية مكاكيت جمع مكوك وفي القساموس المكوك مكيال يسع صاعاً ونصفاً او نصف رطل الى ثمان اواق او نصف الوبة والوبة اثنان وعشرون او اربعة وعشرون مداً بمدا النبي صلى الله عليه وسلم او ثلاث كيلجات والكيلجة تسع مثاقيل او ثمانية مثاقيل او ثلث عشرة اوقية والاقية اثنان وثلاثون مثاقيل او ثلث اربعة مثاقيل ونصف والمتقال درهم وثلاثة اسباع درهم والدرهم ستة دوانق والدانق قيراطان والقيراط طسوجان والطسوج حبتان والحبة سدس تين درهم وهو جزء من ثمانية واربعين جزءاً من درهم .

وانكم قد اشترطتم علينا ان نمنعكم وانا لا تقدر على ذلك وقد ردونا عليكم ما اخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم ان نصرنا الله عليهم . فلما قالوا ذلك لهم وردوا عليهم الاموال التي جبوها منهم قالوا : ردكم الله علينا ونصركم عليهم فلو كانوا لم يردوا علينا شيئاً واخذوا كل شيء بقي لنا حتى لا يدعوا شيئاً .

اول من وضع العشور عمر لقوله عليه الصلاة والسلام ليس على المسلمين عشور وانما العشور على اليهود والنصارى وقال يا معشر العرب احمدوا الله الذي وضع عليكم العشور . ولا تؤخذ الصدقات الا مرة في السنة الا ان يجد الاماء فضلاً . وفرض عمر سنة خمس عشرة الفرض ودون النواوين واعطى العطايا على السابقة في الاسلام وفرض لاهل الشام الفين الفين وكانوا يسمون ما يجمعون من الغنائم الا قباض ويقسمونها بين الفاتحين . وأمر عمر عثمان بن حنيف لما ارسله لمنع السواد ان لا يمسح تلا ولا أجمة ولا مستنقع ماء ولا ما لا يبلغه الماء ولا فرض على الرقاب وجعل على من لا يجد اي الفقير اتني عشر درهماً في السنة قال درهم في الشهر لا يعوز رجلاً وكان يأخذ الجزية من اهل كل صناعة من صناعاتهم بقيمة ما يجب عليهم وكذلك فعل علي . ذكروا في الهبة والحراج ان من صولحوا اذا عجزوا يخفف عنهم وان احتملوا اكثر من ذلك فلا يزداد عليهم وان تظالموا فيما بينهم حملهم امام المسلمين على العدل ووضع ذلك الصلح عليهم جميعاً بقدر ما يطبقون في اموالهم واراضيهم ولا يطرح عنهم شيء لموت من مات ولا لاسلام من اسلم منهم ويؤخذ بذلك كل من بقي منهم ما كانوا يطبقونه ويحتملونه قاله يحيى بن آدم . كتب عمر الى سعد حين افتتح العراق : اما بعد فقد بلغني كتابك تذكر ان الناس سألوك ان تقسم بينهم مغائهم وما افاء الله عليهم فاذا اتاك كتابي هذا فانظر ما احلب الناس به الى العسكر من كراع او مال فاقسمه بين من حضر من المسلمين واترك الارضين والانهار لعمالها ليكون ذلك في اعطيات المسلمين فانك ان قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بقي بعدهم شيء . وقد كنت امرتك ان تدعو الناس الى الاسلام فمن أسلم واستجاب لك قبل القتال فهو رجل من المسلمين له ما له وله سهم في الاسلام ومن استجاب لك بعد القتال وبعد الهزيمة فهو رجل من المسلمين وماله لاهل الاسلام لانهم قد احرزوه قبل الاسلام . ولما ولي عمر بن الخطاب سعيد بن عامر بن جذيم حص

وما يابها من الشام كتب اليه كتاباً يوصيه فيه بتقوى الله والجد في امر الله والقيام بالحق الذي يجب عليه . ويأمره بوضع الخراج والرفق بالرعية فأجابه سعيد بن عامر على نحو من كتابه . ولما طعن عمر قال : أوصي الخليفة من بعدي بأهل الامصار خيراً فانهم جباة المال وغيظ العدو وردء المسلمين وان يقسم بينهم فيئهم بالعدل وان لا يحمّل من عندهم فضل الا بطيب انفسهم . واوصى الخليفة من بعده بأهل النعمة وان يوفي لهم بعهدهم وان يقاتل من وراءهم وان لا يكافوا فوق طاقتهم . وكان كثيراً ما يصادر عماله ويحعل اموالهم في بيت المال فمن صادر خالد بن الوليد فاتح الشام لانه اجاز رحالاً اتبعوه منهم الاشعث بن قيس اجاز به عشرة آلاف وسأله عمر من اين هذا الثراء قال : من الاتقال والسهمان مازاد على ستين الفا فلك فقوّم عمر ماله فزاد عشرين الفا فجعلها في بيت المال .

قال الصولي في ادب الكتاب : ارثع خراج الشام على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه خمسمائة الف دينار فلما أفضى الامر الى معاوية قطع الوظائف على اهل المدن فوظف على اهل قنسرين اربعمائة وخمسين الف دينار على الجماع من ذلك الثلاثان وعلى اهل دمشق اربعمائة وخمسين الف دينار على الجماع من ذلك الثلاثان وعلى الاردن مائة وثمانين الف دينار على الجماع من ذلك الثلاثان وعلى فلسطين ممل ذلك ثم جعل بعد ذلك بصطفي الارض الجيدة ويدفعها الى الرحل بجراجها وعلوجها والخراج على اصله لا ينقص منه شيء .

وقد تغير الحال على عهد الخليفة الثالث لانه نشأت له تروة واعطى بعض ولاته حريتهم ومنهم معاوية بن ابي سفيان فصاروا يجمعون المال ويزدرونه وقد دفع هو الى ثلاثة انفس من قر يش زوجهم بناته ثلاثمائة الف دينار فيما قال المسعودي لكل واحد مائة الف دينار وأقطع بني أمية قطائع لمصلحة تعود على المسلمين لانت تلك الضياع كانت خراباً لا عامر لها فسلمها الى من يعمرها ويؤدي الحق عنها واقننى هو وجماعته الضياع والدور وكان في نهاية الجود والبذل في القريب والبعيد فسلك عماله وكثير من اهله طريقته وتأسوا بفعله وكان عثمان على ما يظنر على شيء من السعة قبل الخلافة وكثرت في ايامه اموال الاتقال والغنائم بكثرة التزوح .

والغنيمة ما غلب عليه المسلمون بالقتال حتى يأخذوه عنوة والتي ما صولحوا عليه من الجزية والخراج . قال الذهبي في حوادث سنة ٣٢ : ان الدنيا اتسعت على الصحابة حتى كان النرس يشتري بمئة الف وحتى كان البستان بالمدينة بباع باربعماية الف وكانت المدينة عامرة كثيرة الخيرات والاموال والناس يجي اليها خراج الممالك وهي دار الامارة وقبة الاسلام فبطر الناس بكثرة الاموال والحيل والنعم وفتحوا اقاليم الدنيا واطمانوا ونفروا اه .

واراد الخليفة الرابع ان يرجع في معاملة العمال الى طريقة الشيخين ابي بكر وعمر الا انه لم يوفق الى ذلك واستأثر معاوية بامارة الشام عشرين سنة وبالخلافة عشرين سنة وما كان اعلي بل ولا لعثمان حكم على هذه الديار مع معاوية الدامية الذي دعي بكسرى العرب لكثرة أجهته ونفقته وكانت بذل المال لمن وافقه ولمن خالفه فانشأ للأموال بين ملكا بالشام توارثوه وبنوا القصور والمصانع والمرافق وهذا لا يكون بالطبع الا بتوفر الجباية والتطلع ولو بعض الشيء الى ما في ايدي الناس من الاموال والاغضاء عن بعض الحقوق ولا مجال للانكار ان من خاسد الامو بين من كانوا يحورون على الرعية ومنهم من كانوا يقطعون انفسهم او بعض ابناء بيتهم او خاصتهم الاقطاعات الكثيرة . والجباية كانت تكثر في عهد العادلين اكر من زمن الجائرين وما نقص من مال السلطان زاد في مال الرعية . والاتطاع اقطاعان اقطاع تملك وهو موات وعامر ومعادن واقطاع استغلال وهو عشر وخراج . والمقاج البلد الذي لا يؤدي الى الملوك الاربان والاربان هو الخراج وهو الاتاوة . قال مكحول : كل عشري بالتام فهو مما جلا عنه اهله فاقطعه المسلمون فاحيوه وكان مواتاً لا حق فيه لاحد فاحيوه باذن الولاة . واول من اقطع الارضين وباعها عثمان ولم يقطعها ابو بكر ولا عمر ولا علي .

اوصى الخليفة الرابع احد عماله باهل عمله فقال : اذا قدمت عليهم فلا تبين لهم كسوة شتا ولا صيفا ولا رزقا يأكلونه ولا دابة يعملون عليها ولا تضرب احد منهم سوطا واحدا في درهم ولا تغمه على رحله في طلب درهم ولا تبع لاحد منهم عرضا في شيء من الخراج فانما امرنا ان نأخذ منهم العفو . وكتب للاشتر النخعي : ونفقد امر

الحراج بما يصلح اهله فان في اصلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم ولا صلاح لمن سواهم الا بهم لان الناس كلهم عيال على الحراج واهله وليكن نظرك في عمارة الارض ابلغ من نظرك في استجلاب الحراج لان ذلك لا يدرك إلا بالعارة ومن طلب الحراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ولم يستقم امره إلا قليلاً فان شكوا تنقلاً او علة او انقطاع شرب او وبالة او إحالة أرض اعتمرها غرق او أجمحف بها عطش خففت عنهم بما ترجو ان يصلح به امرهم ولا يثقلن عليك شيء خففت به المؤونة عنهم فانه ذخري يعودون به عليك في عمارة بلادك وتزبين ولايتك مع استجلاب حسن ثنائهم وتبجحك باسفاضة العدل فيهم معتمداً فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من اجامك لهم والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم ورفقك بهم فر بما حدثت من الامور ما اذا عوت فيه عليهم من بعد احتملوه طيبة انفسهم به فان العمران محتمل ما حملته وانما يوتي خراب الارض من اعواز أهلها وانما يعوز أهلها لانفس الولاة على الجمع وسوء ظهم بالبقاء وقلة انتماعهم بالعبراه .

هكذا كان قانون آخر الخلفاء الراشدين وهو من اهم القوانين في اصول الجباية الا ان الامويين الذين قابوا الخلافة الى ملك عضوض كانوا يهتمون بتوفير الجباية مع الظلم لتمكنوا من اعمال العمران التي اقاموها واطعماء الحيوش التي فتحوا بها القاصية وكانت الجباية نقل عندما ينكسر الحراج فلا يحمل شيء كثير منه لخط او زلزال او وباء . واقد كان عمال معاوية يحملون اليه هدايا النيروز والمبرحان فيحمل اليه في النيروز وغيره وفي المبرحان عشرة آلاف . وهدايا النيروز والمبرحان مما رده عمر بن عبدالعزيز كما رد السخرة والعطاء على قدر ما استحق الرجل من السنة وورث العيالات على ما جرت به السنة غير انه اقر القطائع التي اقطعها اهل بيته والعطاء في الشرف لم ينقصه ولم يزد فيه وزاد اهل الشام في اعطياتهم عشرة دنانير ثم رأى ان ينكثها وسماها مظالم . وكتب الى عماله عامة : « اما بعد فان الناس قد اصابهم بلاء وشدة وجور في احكام الله وسنن سيئة سننها عليهم عمال السوء قلما قصدوا قصد الحق والرفق والاحسان » . وبقي العطاء على حاله حتى نقص يزيد بن الوليد الناس من عطائهم فسمي يزيد الناقص .

وبينما كان عمر بن عبد العزيز يقول لأسامه بن زيد وكان على ديوان الجند بدمشق لما بعثه سليمان بن عبد الملك على مصر يتولى خراجها : ويحك يا أسامة انك تأتي قومًا قد ألح عليهم البلاء منذ دهر طويل فان قدرت ان تنعشهم فانعشهم كان سليمان يقول لعامله أسامة : احلب حتى ينفيك الدم فاذا نفاك فاحلب حتى ينفيك القيح لا تبقىها لاحد بعدي . فعمل أسامة في مصر اعمالا جائرة حتى استخرج من اهلها اثني عشر الف الف دينار .

اما عمر بن عبد العزيز فانه لما ولي الخلافة جعل لا يدع شيئاً مما كان في ايدي اهل بيته من المظالم الا ردها مظلمة مظلمة خطب على المنبر ذات يوم فقال : اما بعد فان هؤلاء يعني خلفاء بني أمية قد كانوا اعطونا عطايا ما كان ينبغي لنا ان نأخذها منهم وما كان ينبغي لهم ان يعطونا اياها واني قد رأيت الآن انه ليس علي في ذلك دون الله حسيب وقد بدأت بنفسي والاقربين من اهل بيتي اقرأيا مزاحم فجعل مزاحم يقرأ كتابا كتابا فيه الاقطاعات والضيايع والنواحي ثم يأخذ عمر بيده فيقصه بالعلم اي المقرض .

وقد اجتمع اليه بنو أمية لما عزم عمر بن عبد العزيز على اخذ ما في ايديهم من حقوق الناس ورده على اهلهم وكنوهم فقال : انكم اعطيتم في هذه الدنيا حظاً فلا تنسوا حظكم من الله واني لاحسب سطر اموال بني الدنيا وأمة محمد في ايديكم ظلماً والله لا تركت في يد احد منكم حقاً لمسلم ولا معاهدا الا رددته . قال ان سعد المولي عمر بن عبد العزيز وضع المكس عن كل ارض ووضع الحزبة عن كل مسلم واباح الاحماء كلها الا النقيع وفرض عمر بن عبد العزيز للناس الا للتاجر لان الساجر يستغول تجارتهم عما يباح للمسلمين وسوى بين الناس في طعام الجار وكان اكثر ما يكون طعام الجار اربعة ارادب ونصف لكل انسان . وكتب الى احد عماله ان استري الدواوين فانظر الى كل جور جاره من قلبي من حق مسلم او معاهد فردها عليه فان كان اهل تلك المظلمة قد ماتوا فادفعه الى ورتتهم وما زال عمر بن عبد العزيز يرد المظالم من لدن معاوية الى ان استخلف . اخرج من ايدي درنة معاوية ويزيد بن معاوية حقوقاً . وكتب عمر بن عبد العزيز الى عدي بن ارضاء ومن قبله من المسلمين والمؤمنين : اما بعد فانظر اهل الذمة فارق بهم واذا كبر الرجل منهم وليس له مال فاتفق عليه فان كان له حميم فمر حميمه بنفق عليه وقاصه من

جراحه كما لو كان لك عبد فكبرت سنه لم يكن لك بعد من ان لنفق عليه حتى يموت او يعنق .
وكتب اليه ان ضع عن الناس المائدة والنوبة والمكس ولعمري ما هو بالمكس ولكنه
البئس الذي قال الله ولا تجسوا الناس اشياءهم ولا تعثوا في الارض مفسدين فمن
أدى زكاة ماله فاقبل منه ومن لم يأت فالله حسيبه . وحرّم عمر بن عبد العزيز الكلا
في كل ارض . وان عمر بن عبد العزيز لم يزل رأيّه والذي يتسير به على من ولي هذا الامر
من اهل بيته توفير هذا الخمس على اهله فكانوا لا يفعلون ذلك فلما ولي الخلافة نظر
فيه فوضعه مواضعه الخمسة وآثر به اهل الحاجة من الاخماس حيث كانوا فان كنت
الحاجة سواء وسع في ذلك بقدر ما يبلغ الخمس وانه ربما اعطى المال من يستألف على
الاسلام وانه اعطى بطريقاً الف دينار استألفه على الاسلام . وامر ان لا يؤخذ من
المعادن الخمس وتؤخذ منها الصدقة وانكر التسخير في سلطانه وضرب احدهم اربعين
سوطاً لانه سخر دواب النبط . ومما كتبه الى احد عماله : اما بعد فخل بين اهل
الارض وبين مبيع ما في ايديهم من ارض الخراج فانهم انما يبيعون في المسلمين
والجزية الراتبه . وكتب باباحة الجزائر وقال انما هو شيء انبتّه الله فليس احد احق
به من احد . دخل عامل لعمر بن عبد العزيز عليه فقال كم جمعت من الصدقة فقال
كذا وكذا قال فكم جمع الذي كان قبلك قال كذا وكذا فسمى شيئاً كثيراً من ذلك
فقال عمر : من اين ذاك قال : يا امير المؤمنين انه كان يؤخذ من الفرس دينار ومن
الخادم دينار ومن القدان خمسة دراهم وانك طرحت ذلك كله قال لا والله ما القينه
ولكن الله القاه . وكتب اني ظننت ان جعل العمال على الجسور والمعابر ان يأخذوا
الصدقة على وجهها فتعدى عمال السوء ما أمروا به وقد رأيت ان اجعل شيء كل
مدينة رجلاً يأخذ الزكاة من اهلهما فخلوا سبيل الناس في الجسور والمعابر . وكتب الى
عامله ان لا تقاتلن حصناً من حصون الروم ولا جماعة من جماعاتهم حتى تدعوهم الى
الاسلام فان قبلوا فكفف عنهم وان ابوا فالجزية فان ابوا فابذ اليهم على سواء .
وفي عهد عمر بن عبد العزيز وقد اصبحت عادة للخلفاء « اذا جاءتهم جبايات الامصار
والآفاق بأتيهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس واجنادها فلا يدخل
بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد بالله الذي لا اله الا هو ما فيها

دينار ولا درهم الا أخذ بحقه وانه فضل اعطيات اهل البلد من المقاتلة والذرية بعد ان اخذ كل ذي حق حقه « اي فضل اعطيات الاجناد وفرائض الناس . قال ابن ابي الحديد: رد عمر بن عبد العزيز المظالم التي احنقها بنو مروان فابغضوه وذموه وقيل انهم سموه فمات . اما من جاؤا من قبل ومن بعد من بني أمية فكانوا اشكالا ومشارب منهم الجماعة ومنهم المبدد فقد كان في بيت مال الوليد يوم قتل سنة ١٢٦ هـ سبعة وسبعون الف دينار . ففرقها يزيد عن آخرها .

وكذلك كانت سيرة العباسيين بعد فقد اخذ المنصور اموال الناس حتى مات ترك عند احد فضلا وكانت مبلغ ما اخذهم ثمانمائة الف الف درهم وعدل ابو جعفر المنصور ارض الغوطة غوطة دمشق فجعل كل ثلاثين مداً بدينار بالقاسمي وكان اداء الناس على ذلك وكان الخلفاء من بني العباس يمدون الى ابطال الرسوم عندما يتجلى لهم ضررها ولا يقطعون امراً بدون اخذ آراء حلة الفقهاء في عصرهم فقد امر المعتضد سنة ٢٨٣ بالكتابة الى جميع البلدان ان يرد الفاضل من سباه المواريث الى ذوي الارحام واطل ديوان المواريت . وحلف المعتضد هذا في بيوت الاموال تسعة آلاف الف دينار ومن الورق الف الف درهم . ومن حلف هذه القناطير المقطرة من الذهب لا بدله ان يظلم أمته وان لا يصرف اموالها في وجوه مصالحها وقد كنت ترى في ايام العباسيين عدلاً شاملاً لا مثيل له حيناً وتجد ظلماً شاملاً في دور آخر فعهد الرشيد والمأمون والمهدي والظاهر والمتوكل كان عجيباً في العدل وانتظام الجباية . فقد كتب المأمون سنة ٢١٨ الى اسحق بن يحيى بن معاذ عامله على جند دمشق في التقدم الى « عماله في حسن السيرة وتخفيف المئونة وكف الاذى » عن اهل عمله قائلاً فنقدم الى عمالك في ذلك اسد التقدم واكتب الى عمال الحراج مثل ذلك . وكتب الى جميع عماله في اجناد الشام جند حمص والاردن وفلسطين بمثل ذلك . والمهدي مثلاً افلح امره « انظر في المظالم وبسط يده في العطاء فاذهب جميع ما حلفه المنصور وهو ستائة الف الف درهم واربعة عشر الف دينار سوى ما جباه في ايامه . والمأمون العباسي اقام سنة بدمشق (٢١٤) لمساحة اراضي الشام واجتنب لتعديله مساح العراق والاهواز والري وكان جده ابو جعفر المنصور تشبث بذلك فلم يتم له فبعث بقيق بن الوليد ليمسح اراضي دمشق كما كان نعت اسماعيل بن عياش العنيسي الحمصي

الى دمشق فعدل ارضها الخراجية وعدل احمد بن محمد ارض دمشق والاردن وكان على ديوان الخراج سنة ٢٤٠ وحمل كل ارض ما تستحقه . والخلفاء الأول من بني العباس كانوا اقرب الى الرفق بالرعية فقد كان اسماعيل بن صبيح الكاتب يحدث عن الرشيد انه قال للحسن بن عمران يوم أدخل عليه في الحديد : وليتك دمشق وهي جنة تحيط بها غدر تنكفأ أمواجه على رياض كالزراعي واردة منها كفايات المؤمن الى بيوت اموالي فما يروح بك التعدي لارفاقهم فيما امرتك حتى جعلتها أجرد من الصخر ووحش من القفر قال : والله يا امير المؤمنين ما قصدت لغير التوفير من جهته واكني وليت اقواما تنقل على اعناقهم الحق فنفرقوا في ميدان التعدي ورأوا المراجعة بترك العماراة اوقع باضرار المالك وانوه بالشنعة على الولاة فلا جرم ان امير المؤمنين قد اخذهم بالخط الاوفر من مساءتي . والمهدي اول من نقل الخراج الى المقاسمة وكان السلطان يأخذ عن العلات خراجا مقررًا ولا يقاسم وجعل الخراج على النخل والتبجر . واعاد الظاهر بامر الله سنة ٦٢٢ سيرة الحميرين . قال ابن الانير فلو قيل انه لم يل الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله لكان القائل صادقًا فانه أعاد من الاموال المغصوبة في ايام ابيه شيئًا كبيرًا واطلق الكوس في البلاد جميعها وامر باعادة الخراج القديم وان يسقط جميع ما جددته ابوه وكان كبيرًا لا يحصى وفي ايام ابيه خربت العراق ونفرت اهله في البلاد .

خربت العراق وما اليها من الامصار والاقطار للتدة في قاضي الحباية والنفس في الضرائب وعدم اطرادها على وتيرة واحدة . كتب علي بن عيسى الى عامل ديار ربعة وقد ورد الحضرة قوم من اهلهما ينظّمون من حيف لحقهم في معاملاتهم : « بسم الله الرحمن الرحيم . في علمك اكرمك الله بما امر الله به من العدل والاحسان ونهى عنه من الخور والعدوان وعاقب به الظالمين في سالف الازمان عني لك عن النسبه والموقيف والوعظ والتخويف وفيما رسمته لك متسافيه ومكاتبه في انكار الظلم وارائته واظهار العدائ وافاضته كفاية وبلاغ . وقد ورد الحضرة اكرمك الله جماعة من جود النناء والمزارعين ديار ربعة مظلّمين مما عوملوا به في سني ثلث عشرة وتلتامة من اكراههم على تضمين ثلثات يبادرهم بالخز والمقدير وانزامهم حتى الاعتسار في ضياعهم على الزرع واستخراج الخراج منهم على اوفر غيرة قبل ادراك غلاتهم وتمازهم واكراه وجوههم وتمازهم على

ابتياع الغلات السلطانية بأسعار مسرفة مجحفة فافلقني ما افاضوا فيه من الشكوى وآلني ما انتهوا الى وضعه من عظيم البلوى ووحدته مع قبيح ذكره وعظيم وزره عائداً بخراب الضياع وتقصان الارتفاع فينبغي اكرمك الله ان تجري سائر رعيته على المعاملات القديمة وتحملهم على الرسوم السليمة حتى يعودوا الى افضل حال عهدوها واجمل سيرة حمدها وتزيل السنن الجائرة وتبطلها ونقطع اسبابها وتحسمها وتكتب الي بما يكون منك في ذلك فاني على اهتمام به ومراعاة له ان شاء الله . »

ولو رجعت الى كتب التاريخ والسير لرأيت شيئاً كثيراً من هذا القبيل وفي الكتاب الذي كتبه الامام ابو يوسف صاحب الاماماني حنيفة الى الخليفة هرون الرشيد صورة لطيفة من تلتطف العلماء في انصح الملوك والحللاء . وكتابه دستور في الجبابة تستدل به على ترقى العقول في عصره . وما حالا عصر من علماء يعون على العمال اعمالهم ويحافظون عن دوق الحق في معاملته الامة وقلم كانت المواعظ تفعل الا في المستعدين للخير من الخلفاء فمن دونهم .

وكثيراً ما كان الناس يعذبون في الحراج وقد وقع ذلك في اوائل دولة الأيوبيين بالشام فاحد حمة الحزية يعذبون بعض اهل الذمة ويجعلونهم في الشمس ساعات عقوبة لهم فيمنع عن ذلك الفقهاء وبطل تعذيب المكلفين من ذاك اليوم . ونص الفقهاء انه لا يؤخذ مني من نصرا في اتجر في بلاده من اعلاها الى اسفلها ولم يخرج منها واذا خرج من بلاده الى غيرها من بلاد المسلمين تاجرأ لم يؤخذ منه مما حمل قليل ولا كبير حتى يبيع وقال مالك في النصرا في يكرى ابله من الشام الى المدينة يؤخذ منه في كرائهم العشر بالمدينة قال لا . فان اكرى من المدينة الى الشام راحعا يؤخذ منه ويؤخذ من اهل الحرب ما صالحوا عليه في سلعمهم ويؤخذ من عبدهم كما يؤخذ من ساداتهم . ذكروا ان عمر بن الخطاب قال لاهل الذمة الذين كانوا يتجرون الى المدينة : ان تجرت في بلادكم فليس عليكم في امواكم زكاة وائس عليكم الا جز يتكم التي مرضنا عليكم وان خرجتم وضربتم في البلاد وادرتهم امواكم اخذنا منكم وفرضنا عليكم كما فرضنا جز يتكم فكان يأخذ منهم من كل عشرين نصف العشر كما قدموا من مرة ولا يكتب لهم براءة مما اخذ منهم كما تكتب للمسلمين الى الحول فيأخذ

منهم كلما جاءوا وان جاءوا في السنة مائة مرة ولا يكتب لهم براءة بما اخذ منهم .
 زاد الاجحاف بحقوق الرعية لما توزع ملوك الطوائف البلاد واخذ كل ملك او
 امير يستولي على اقليم صغير من الارض ويجنف على الناس في الجباية ويسمي نفسه ملكا
 من ذلك بنو حمدان في حلب وما اليها فانهم كانوا على جانب من البطش والظلم فقد لحوا
 في الظلم والاستئثار بالاموال وكانت فتنهم مع الروم لا تنقطع فاستأثر القضاء بهلاك
 العباد وخراب البلاد على ايدي المدافعين والمهاجرين (كما سنقف على ذلك في انكلام
 على حلب) . ولي خلافة الرازي سنة ٣٢٤ فبطلت الدواوين والوزارة فكان كل من
 تولى امرة الامراء تحمل اليه الاموال فيتصرف فيها جميعا كما يريد ويطلق للتحليفة
 ما يريد وبطلت بيوت الاموال وكانت الشام اذ ذلك في يد محمد بن طمع . وبينا كانت
 الشام تدافع القرامطة وتشغل بفتن بني حمدان النقع في ايدي الاخشيدية اصحاب
 مصر كانت بغداد في شغب وتعب واذا كانت هي العاصمة فاحر بالاطراف ان تكون
 اسوأ حالا .

وهكذا احتلت احوال المملكة العربية وطرق الجباية فيها لما قال الناس من المعارم
 والمطالم والحكومات لا تعرف واجبها ولا تدري ان الجباية في الدولة اجرة الحماية
 ولذلك تأفف ابو العلاء المعري في النصف الاول من المائة الخامسة من ملوك عصره فقال :

وارى ملوكا لا تحوط رعية

فعلام تؤخذ جزية ومكوس

وقال : عجم وعرب دائلون وكلنا

في الظلم اهل تشابه وحناس

وقال : ارى امراء الناس يمسون نهرهم

اذا خطفوا خطف الزاه الموامع

وسيف كل مصر حاكم فوفوق

وطاع يحايي في اخس المطامع

وقال ايضا : يقولون في المصر العدول وانما

حقيقة ما قالوا العدول عن الحق

ولست بمختار لقومي كونهم

قضاة ولا وضع الشهادة في رق

وقال : بكل ارض امير سوء

يضرب للناس شر سكة

وقال : ان العراق وان الشام مذ من

صفرا ما بها الملك سلطان

ساس الانام تسياطين مسلطة

في كل مصر من الوالين شيطان

من ليس يحفل بخص الناس كلهم

ان بات يشرب خمر او هو مبطان

وقال : وجدت عنائهم الاسلام نهيا
 وقال : مل المقام فكم أعاسرامة
 لملو الرعية واستباحوا كيدها
 ومن قوله : فشتان ملو كهم عزف وتزف
 وهم زعيمهم إنيهاب مال
 لأصحاب المعازف والملاهي
 امرت بغير صلاحها امراؤها
 وعدوا مصالحها وهم اجراؤها
 وأصحاب الامور حباية خرج
 حرام المهب او إحلال فرج

وبعد فقد استقر خراج فلسطين على عهد معاوية على اربعمائة وحمسين الف دينار
 واستقر خراج الأردن على مائة وثمانين الف دينار وخراج دمشق على اربعمائة الف
 وحمسين الف دينار وخراج جند حمص على ثلاثمائة وحمسين الف دينار وخراج قيسرين
 والعواصم على اربعمائة الف وحمسين الف دينار وفعل معاوية بالشام والحزيرة واليمن
 مثل ما فعل بالعراق من استغناء ما كان للملك من الضياع وتصديرها اليه حاصلة واقطعها
 اهل بيته وحاصه وهو اول من كانت له السواقي في جميع البلاد . قال البلاذري وكانت
 وظيفة الأردن التي اقطعها معاوية مائة الف وثمانين الف دينار ووظيفة فلسطين ثمانمائة
 الف وحمسين الف دينار ووظيفة دمشق اربعمائة الف دينار ووظيفة حمص مائة الف دينار
 والكور التي كانت تدعى بالعواصم ثمانمائة الف دينار ويقال سبعمائة الف دينار . وكان
 ارتفاع الشام سنة ٢٠٤ هـ وهي اول سنة جد حسانها في الدواوين بالحضرة لان الدواوين
 احترقت في الفنة ففتنة الامين على مارواه قدامة . بلغ الف وستين الف دينار ارتفاع
 قيسرين والعواصم وارتفاع جند حمص مائتي الف وثمانمائة الف دينار وارتفاع جند
 دمشق مائة الف وعشرة آلاف دينار وارتفاع جند الاردن مائة الف وتسعة آلاف دينار
 وارتفاع جند فلسطين مائتي الف وتسعة وحمسين الف دينار .

قال اليعقوبي ان خراج دمشق سوى الضياع يبلغ ثمانمائة الف دينار وخراج جند
 الاردن يبلغ سوى الضياع مائة الف دينار وبلغ خراج جند فلسطين مع ما صار في
 الضياع ثمانمائة الف دينار وخراج حمص سوى الضياع ايضا مائتي الف وعشرين الف
 دينار . وكان خراج الاردن زمن عبد الملك بن مروان مائة وثمانين الف دينار
 وكان خراج قيسرين على عهد المأمون اربعمائة الف دينار ومن الزيت الف حمل
 وخراج دمشق اربعمائة الف دينار وعشرين الف دينار وخراج الاردن سبعة

وتسعين ألف دينار وخراج فلسطين ثلثمائة ألف دينار وعشرة آلاف دينار ومن الزيت ثلثمائة ألف رطل .

ولما تغلب الموالي من الأتراك وبناتر سالك الخلافة وبقيت الدولة العباسية في الترف وقوي عامل كل جهة على ما يليه كثرت النفقات وقلت الجباية بتغلب الولاة على الأمارات قال المقدسي كانت الضرائب ثقيلة على قاسرين والعواصم زمن سيف الدولة بن حمدان فكان خراج هذا الأقليم ثلثمائة ألف وستين ألف دينار وعلى الأردن مائة ألف وسبعون ألف دينار وعلى فلسطين مائة ألف وتسعة وخمسون ألف دينار وعلى دمشق أربعمائة ألف ونيف .

وأت ترى أن الجباية في الشام كانت تختلف باختلاف العصور والأدوار والتقلبات الجوية ومن الأراضي الحراجية والعشرية التي تدفع العشر لأنها مما أخذ المسلمون عنوة قال أبو يوسف : كل أرض اقنطعها الإمام مما فتحت عنوة ففيها الحراج إلا أن يصيرها الإمام عشيرة والشام في ذلك كمصر والعراق ولأنها كلها فتحت عنوة وفي التارخية أن السلطان إذا دفع أراضي لأمالك لها وهي تسمى الأراضي المملوكية إلى توبه أعطوا الخراج جاز وطريق الحواز أحد تينين أما إقامتهم مقام أملاك في الزراعة وأعضاء الحراج أو الأجارة بقدر الحراج ويكون المأخوذ منهم بخراج في حق الإمام أجرة في حقهم وقال ابن عابدين ومن هذا القبيل الأراضي المصرية والسامية ويؤخذ من هذا أنه لا عشر على المزارعين في بلادنا إذا كانت أراضيهم شريفة ركة لهم لأن ما يأخذهم منهم نائب السلطان وهو المسمى بالزعيم أو النيجاري أن كان عشيراً فلا شيء عليهم غيره وإن كان خراجاً فكذلك .

قال الغزالي أن الأموال المصنعة إلى الحزائن المعمورة أربعة أصناف الصنف الأول ارتفاع المستغلات وهي مأخوذة من أموال موروثة له والصنف الثاني أموال الحزبة والصنف الثالث أموال التركات والصنف الرابع أموال الحراج فهذه هي الأموال المأخوذة وأخذها جائز ويبقى النظر في مصارفها وهي مع اختلاف جهاتها تحويها أربع جهات وفيها تنحصر مصالح الإسلام والمسلمين . الجهة الأولى المرتزقة من جند الإسلام الجهة الثانية علماء الدين وفقهاء المسلمين القائمون بعلوم الشريعة فانهم حراس الدين

بالدليل والبرهان كما ان الجنود حراسه بالسيف والسنان والجهة الثالثة محاويج الخلق الذين قصرت بهم ضرورة الحال وطوارق الزمان عن اكتساب قدر الكفاية . الجهة الرابعة المصالح العامة من عمارة الرباطات والقناطر والمساجد والمدارس . وهذا وجه الدخل والخرج .

ولم تكن الاقطاعات الا في القرون الوسطى قال المقر يزي : وكانت عادة الحلفاء من بني أمية وبني العباس والفاطميين من لدن اميرائهم من عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان يجبي اموال الخراج ثم يفرق من الديوان في الامراء والعمال والاجناد على قدر رتبهم وبحسب مقاديرهم وكان يقال لذلك في صدر الاسلام العطاء وما زال الامر على ذلك الى ان كانت دولة المعجم فغير هذا الزعم وفرقت الاراضي اقطاعات على الجند واول من عرف انه فرق الاقطاعات على الجند بطاء الملك وذي الرسلجوقيين وذلك ان مملكته اتسعت فرأى ان يسلم الى كل مقطع قرية او اكبر او اقل على قدر اقطاعه فعمرت البلاد وكثرت العائلات واقتدى بفعله من جا بعده من الملوك من اعوام بضع وثمانين واربعائة الى اوائل القرن التاسع .

وكانت اقطاعات الشام اقل من اقطاعات مصر في القرن الثامن والتاسع وايس في الشام من يبلغ شأن اكابر الامراء المقدمين بالديار المصرية الا نائب الشام فانه يقار بهم في ذلك . ولخاصة الامراء المقدمين انواع من الانعامات ماعدا المقررات من المتاهرات والاكل والعليق وانكساوي كالعقار والابنية الضخمة التي ربما أنفق على بعضها فوق مائة الف دينار . قال التاج السبكي المتوفى سنة ٧٧١ : ومن قبائح ديوان الجيش الزامهم الفلاحين بالاقطاعات بالفلاحة والفلاح حر لا يد لآدمي عليه وهو امير نفسه وقد جرت عادة الشام بان من تزح من دون ملات سنين يلزم ويعاد الى القرية قهراً ويلزم بتد الفلاحة والحال في غير الشام اسد منه فيها وكل ذلك لا يحل اعتماده والبلاد تعمير بدون ذلك بل انما تحرب البلاد بذلك لانهم يضيقون على الناس .

وما عدا الاراضي التي كان الملوك يوغرونها اي التي يدفع عنها اربابها قدرأ من المال مرة واحدة فتعفى من الخراج وما خلا الاقطاعات التي يستأثر بها اصحابها من ارباب الدولة ولا يؤدون عنها خراجا وعدا ضياع كثيرة تعفى من الضرائب وعدا الصوافي واحدها

صافية وهو ما استخلصه السلاطون خاصته او هي الاملاك والاراضي التي حلا عنها
اهلها او ماتوا ولا وارت لها . ما عدا هذا كان هناك نوع من الاراضي يسمى الجاء اي
يلجأ صاحب الارض الى بعض اكبراء فيسجل ضيعته باسمه تعززا به من عمال الخراج
حتى لا يجوروا عليه فتصبح الضيعة مع الزمن ملكا لذلك الكبير .

قال ابن ابى الحديد : ان من اهل الخراج من يلجئ بعض ارضه وضياعه الى خاصة
الملك وبطائه لاحدا من اهل البيت من حور العمال وظلم الولاة وتلك مبرلة يطهر بها
سوء اثر العمال وضعف الملك واحلاله بما تحت يده واما للدفاع عما يلزمهم من الحق
واليسير له وهذه حلة يسديها آداب الرعية ويسقص بها اموال الملوك . وكان العادلون
من الملوك يعاقبون الملتجئين والمجاليين ولكن الناس يلجئهم املا كهم عند ارباب الصولة
كمن مرفه حريت سور يدا وصدق كبير من اصقاعها بظلم ظالم من عمالها . دكروا ان الحليفة
الحاكم اعنى ولاية حلب من الخراج سنة ٤٠٧ لانها كانت ضعفت بالفتن المتواصلة
وان الب ارسلان لما ولى امره حلب رفع عن اهلها الكلف التي كانت مجددة عليهم
وان نجم الدين ايل غازي بن ارقى (٥١٤) رفع المكوس عن اهل حلب والمؤمن
والكاف واطل ما حددته الطلعة من الحور . الرسوم المكروهة . بالغ الامير حصن
الدولة على بن حيدرة بن منزب الكتامي الذي ولى دمشق سنة ٤٦١ في المصادرات
وارتكب المظالم فلبى اهل البلد من التعجرف والظلم والعسف بعد جيش ابن
الصمصامه في ولايته ما تقوه من ظلم وسوء فعلة تغربت اعمال دمشق وحلا عنها اهلها
وحلت الاماكن من قاطعها والغوطة من فلاحها .

والعالم ان المكوس والضرائب كثرت او اخر حكم العباسيين والعبيديين في
السام ونفي في البلاد رسوم كثيرة حتى ابطاها نور الدين واطل ابقى الصوفي
الاقساط في دمشق وما كان يؤخذ في الكور من الباعة حملة واطل صلاح الدين
مثل مكس مكة وعوض اميرها بحلاب غلة تحمل اليد كل سنة وتعين ضياع . موقوفة
عليها بالديار المصرية . قال ابن ابى طي : ان الذي اسقطه السلطان صلاح الدين والذي
سامحه لعدة سنين آخرها سنة اربع وستين وخمسمائة . بلغه عن نيف الف دينار
والى الف اردب سامح بذلك وابطله من الدواوين واسقطه من المعاملين وكذلك فعل

اخوه ابو بكر بن ايوب فانه ابطال كثيراً من المظالم والمكوس وطبر بلادهم من الفواحيش والجمور والقمار وكان الحاصل من ذلك بدمشق خصوصاً مائة الف دينار الا ان المكوس عادت فأحدثت . ولما دخل صلاح الدين دمشق سنة ٥٧٠ ازال المكوس وكانت الولاية في اهلها قد ساءت وأسرفت واليد المتعدية قد امتدت الى اموالهم وأجغت . قال العماد : اقتصر صلاح الدين في جميع البلاد على الرسوم التي يجباها الشرع وهي الحراج والاجور والزرع . وكذلك كانت من قبل سيرة نور الدين محمود بن زنكي فانه منع ما كان يؤخذ من دمشق من المغارم بدار البطيخ وسوق الغنم والكيالة وغيرها وكن والله زنكي ينهى اصحابه عن اقتناء الاملاك ويقول مهما كانت البلاد لنا فأبي حاجتنا لكم الى الاملاك فان الاقطاعات تعني عنها وان خرجت البلاد من ايدينا فان الاملاك تذهب معها . ومتى سارت الاملاك لاصحاب السلطان لموا الرعية وتعدوا عليهم وغصبوهم املاكهم . قال ابو يعلى : تجمع قوم من السهابة العوام وعزموا على التحريض لنور الدين على اعادة ما كان ابطال وسامح به اهل دمشق من رسوم دار البطيخ وعرصه البقل والامار وصانهم من اعانت نمرار الضمان وصله الاحناد وكرهوا الحف عتقوهم الخطاب وضمنوا القيام بمسيرة آلاف دينار بهض وكبوا بذلك حتى أجيبوا الى ما راموا وسرعوا في فرضها على ارباب الاملاك من المقدمين والاعيان والرعايا فما اهندها الى صواب ولا يجمع لهم قصد في خطاب ولا حوار وعسفوا الناس بجهلهم بحيث تألموا واكثره الفجيج والاستغاثة الى نور الدين فصرف همه الى النظر في هذا الامر فتمت له السعادة وايتار العدل في الرعية الى اعادة ما كان عليه فأمر بإسقاط الرسوم المعنادة الى ما كانت من اماتتها وتعفية ارضائها وأضاف الى ذلك تبرء من نفسه ابطال ضمان الهريسة والحن والبن ورسم يكتب منشور يقرأ على كافة الناس بابطال هذه الرسوم جميعها وتعفية ذكرها . قال السبكي : وقد علم ان المكوس حرام فان ضم الوزير الى احذها الاححاف في ذلك وتشديد الامر فيه والعقوبة عليه فقد ضم حراما الى حرام .

ومع كثرة احنياسج البلاد لال زمن نور الدين وصلاح الدين للاستعانة به على قتال الصليبيين كانت الحبابة الى الرقيق في الحمة بلاد الشام فاطلق نور الدين المكوس والضرائب وأكتفى بالحراج والجزية . واسقط صلاح الدين فريضة الاتبان المقسطة على

اعمال دمشق وضياع الغوطة والمرج وجبل سنير وقصر حجاج والتاغور والعقبة ومزارعها ولما فتح حلب اطلق المكوس والضرائب وسامح باموال عظيمة « ومنها ما هو على الاتواب المجلوبة ، ومنها ما هو على الدواب المركوبة ، ومنها ما هو في المعاش المطلوبة » ومما كتب عنه من منشور ان اتقى الامراء من سمن كيسه واهزل الخلق ، وابعدهم من الحق من اخذ الباطل من الناس وسماه الحق . وكان هذان الملكان من ازهد الناس فلم يخلفا في خزائنها الا التافه وقد حلف الملك العادل ابو بكر بن ايوب اخو الملك الناصر صلاح الدين يوسف في خزائنه وكان يجب ادخار المال ليصرفه حين الحاجة — سبعمائة الف الف دينار وخلف الملك الافضل ستمائة الف الف دينار عيناً ومائة وخمسين اردباً دراهم نقد مصر ومائة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال في عشرة محابس في كل محبس عشرة مسامير وصندوقان كبيران فيهما ابرذهب برسم الخواري والنساء عدا الزياب والطرائف والقطعان والخيول والبغال والرقيق . وهذا مالا يمكن ان يحوزه ملك صغير الا بالضغط على الرعية ولو قليلاً لاستخراج هذه الاموال والتوقف في صرفها على مصالح الامة ومراقبتها . وقد استعمل ملوك الطوائف الشدة في تكثير الجباية وكان ينال المنكر لها من العلماء اذى من ذلك ان نخر الدين بن عساكر انكر على الملك المعظم تصميم المكوس والخمور فعاقبه بان انتزع منه المدرسة النورية والصلاحية بدمشق . وقد فعل عكس ذلك الاتابك طغرل الظاهري صاحب حلب فقد امر سنة ٦١٨ برفع الحمايات ومحو اسمها واهراق كل خمر في المدينة ورفع ضمانها وكتب الى النواحي . قال القفطي : وكان المحصول من ضمان ما اطلق ما مقداره مائتا الف درهم في السنة وان اضيف اليه ما يسغل في السنة الآتية من رخص الكروم وتعطيل صماناتها وقله دخلها بهذا السبب كانت الف الف درهم او ما يقاربها .

ولم نعتد لدمشق عاصمة البلاد على ارتفاع لها خاصة وقد قال ابن ابي طي : حدثني كريم الدولة بن سرارة النصراني وكان مستوفي دار حلب يومئذ انه عمل انقضاء سنة تسع وستائة في الايام الطاهرة دون البلاد الحارحة عنها والضياع والاعمال فبلغ ستة آلاف وتسعمائة الف واربعة وثمانين الفا وخمس مائة درهم قال : ومما

احطت به فلما في ايام الملك الناصر ان ارتفاعها على القاعدة في الارتفاع سيفي آخر دولته مع حلوله بدمشق وخلوها منه كن على ما يفصل . ثم فصل الارتفاع فكان ستة واربعين صنفاً و سطر المجموع ب ٧٦٣٠٥٦٠٠٠ درهم . وكان مسافة ما بين ملك حلب في ايامه وهو الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي من المشرق الى المغرب مسيرة خمسة ايام ومن الجنوب الى الشمال مثل ذلك وفيها ثمانمائة ونيف وعشرون قرية ملك لاهلها ليس للسلطان فيها الا مقاطعات يسيرة ونحو مائتي قرية ونيف مشتركة بين الرعية والسلطان قال ياقوت الحموي : او قفني الوزير صاحب القاضي الاكرم جمال الدين ابو الحسن علي بن يوسف بن ابراهيم الشيباني القفطي اداء الله تعالى ايامه وختم بالصالحات اعماله وهو يومئذ وزير صاحبها ومدير دواوينها على الحر يد بذلك واسماء القرى واسماء املاكها وهي بعد نقوه برزق خمسة آلاف فارس مزاحي العلة موسع عليهم قال لي الوزير الاكرم اداء الله تعالى علوه : لو لم يقع اسراف في خواص الامراء وحماة من اعيان المفاريد لقامت بارزاق سبعة آلاف فارس لان فيها من الطواشية المفاريد ما يزيد على الف فارس يحصل لواحد منهم في العام من عشرة آلاف درهم الى خمسة عشر الف درهم ويمكن ان يستخدم من خواص الامراء الف فارس وفي اعمالها احدى وعشرون قلعة يقام بذخائرها وارزاق مستحفظيها خارجا عن جميع ما ذكرناه وهو جملة أخرى كثيرة ثم يرتفع بعد ذلك كله من فضلات الاقطاعات الخاصة بالسلطان من سائر الجبايات الى قلعتها عساو حيو بما يقارب في كل يوم عشرة آلاف درهم وقد ارتفع في العام الماضي وهو سنة ٦٢٥ من جهة واحدة وهي دار الزكاة التي تجي فيها العشور من الافرنج والزكاة من المسلمين وحق السبع سبعمائة الف درهم وهذا مع العدل الكامل والرفق الشامل بحيث لا يرى فيها مظلم ولا متهم ولا مهتضم وهذا من بركة العدل وحسن النية اه .

ومن هذه النقول تعرف درجة الجباية والثروة في تلك العصور . ولما قبض الاتراك والحرا كسة على زمام الاحكام في الشام في القرن السابع والثامن والتاسع كانت المكوس كبيرة جداً وزادوها هم وبنفونوا في ضرر وبياحت صعب احصاؤها وحفظها وكانت الخمر في سنة ٦٤٣ مضمنة والمكوس شديدة وكان صاحب امين الدولة في مدة وزارته الملك الصالح اسمعيل حصل له اموالا عظيمة جداً من اهل دمشق وقبض على كثير من

املا كههم وابطل الملك الطاهر بپرس سنة ٦٦٥ فثمان الحتيشة وامر باحراقها والغالب ان بعض الملوك لم يكونوا يستنكفون من اخذ الضرائب عن الخمر والمكيفات بل تعدوا ذلك في تلك الحقبة من الزمن الى اخذ الرسوم عن البغايا والمواخير فقد ابطل الطاهر برقوق في جملة ما ابطل من المظالم والمكوس في بر الشام فثمان المعاني اي المغنين والمعنيات في الكرك والتسوك . وثمان المغاني كان معروفا في مصر فابطل سنة ٧٧٨ زمن الاسرف قلاوون ابطله من جميع اعمال مملكته وكان عبارة عن مال كبير مقرر على المعاني من رجال ونساء يؤدونه كل سنة الى الخزانة . وابطل الماصر قلاوون فثمان المعاني ايضا وهو عبارة عن اخذ مال من النساء البعيا وذلك لو خرجت احل امرأة بقصد البغاء ونزلت اسمها عند امرأة تسمى الضامنة واقامت بما يلزمها من الفدر المعين عليها لما قدر اكر من في مصر ان يمنعها عن البغاء وعمل الناحسة وكان يتحصل من ذلك جملة كسرة من المال .

لاجرم ان دولة الترك والجزا كسة في مصر والشام تشبه في كبير من الوجوه دولة الترك العثمانيين التي حلت بعدها وكانت مراسيمها لو كها تصدر الحين بعد الاخر باطل بعض الرسوم والضرائب ولكن مع هذا تجد من الامراء من كانوا يصادرون على ملايين من الدنانير مع سائر اسباب التروة من ناطق وصامت . والدولة التي تحفف عن رعاياها بالاقوال ، والافعال على خلاف ذلك ، هي دولة سيئ ادارتها المالية فقد كان الملك المؤيد شيخ كبير المصادرات للرعة وهو الذي قطع دابر النواص العصابة الذين احرقوا نائب البلاد السامية وحدث في ايامه اتساع كثيرة من ابواب المظالم لما كان يخرج الى التجار يد . والخروج الى التجار يد او الحملات كانت من جملة الاسباب التي تنهيا للملوك الحرا كسة ليسلوا الناس اموالهم ولا تكلفهم التجهيز بدة اقل من نصف مليون دينار فاذا حرد السلطان في حياته عشرين تخر بدة كان المصروف من ذلك في هذا السبيل عشرة ملايين لا تصل الى خزانة السلطان حتى يحجب . ملها من الرعايا المساكين .

وفي سنة سبعة مائة استخرجت الحكومة مالا عظيما من جميع الاملاك والاقواف بدمشق وظاهرها فكان من داخل دمشق حق اربعة اشهر واخذوا من العوطة من كل قرية تكثر اموالها ملت سمانها واخذوا من القرى التي لزراعة القمح والتعير والقطن والحبوب عى ستة مغل سنة ثمان وتسعين وستائة فاعظم ذلك على الناس وهرب

حلق كبير واستغنى جماعة والذين وقعوا بأيديهم قطعوا اشجار الماقين واباعوها
حطباً بحيث اباعوا القنطار بدمشق بثلاثة دراهم . فكان خراب الغوطة بهذا السبب
ومن شدة الطلب وكثرة الظلم والجور .

وفي سنة ٧١٤ اصدر الملك المؤيد صاحب حماة امراً الى جميع نوابه ان لا يقبل
احد حماية لاحد من الكل متساوون في الحقوق ودفع ماسيهم وذلك لان الاستماعيين
كانوا في مصياف لا يدفعون اسلحه اموالاً بدعوى الحماية فأخذت الاموال من الجميع .
وفي سنة ٧٢٤ برزت المراسيم السريفة الى نائب حلب بان يروك البلاد الحلبية
اي يمسحها ويعين عليها مالا كما فعل في البلاد الشامية فراكوا جميع البلاد الحلبية
وجميع البلاد الشامية والحلابة والمصرية في الروك الناصري واطل في هذه السنة مكوس
العلنة الشام وكان مبالغاً عظيماً يؤخذ من ثمن العرارة ثلاثة دراهم ونصف .

ومن جملة ما ابطالوه في أدوار مختلفة من الرسوم وهو ما نوردته مثلاً من حالة تلك
الايام ما ابطاله يرقوق مما كان مقرراً على البردارية في كل شهر من المال وما كان
يأخذه السماسرة على العلال والكيالة وعن الملح في عين تاب وعلى الدقيق في البيرة وما كان
مقرراً للنائب طرابلس عندما يتولى على كل قاض من قضاة البر والولاية بغلة او ثمنها
خمسائة درهم . وأبطل المنصور قلاوون من جملة ما ابطال من المطالم ووظيفة ناظر الزكاة
وهو ان يؤخذ من عده مال زكاته فان مات الرجل صاحب المال او عدم ماله بقي ذلك
القدر المقرر عليه في الدفاتر يؤخذ من اولاده او من ورنه او من اقاربه ولو بقي منهم
واحد . واطل الاسرف صلاح الدين ما كان يؤخذ على كل حمل يدخل باب الجباية
بدمشق من القمح خمسة دراهم من المكس بل ابطال المكوس والضرائب عن سائر
اصناف العلة بجميع الشام وكان ذلك جملة تخرج عن الاحصاء . وتجد الى اليوم على
السواري الاربع القائمة في مدخل جامع بني أمية بدمشق من الغرب اربع وتائق في
اطال المكوس كسبت كل نبقة على سارية . تاريخ الاولى سنة ٨٦٣ على عهد تاييبي
الجزاوي كفل المالك الشامية ابطال بها الرسم المقرر على الاسواق والطواحين وغيرها
من المكوس بدمشق . والثانية كسبت سنة ٨١٥ وهي مما امر به الظاهر ابو سعيد بن
جقمق ابطال المكوس على الاقصة المحصية وفرع الاردية وفرع القطن وغيرها والثالثة

تسارح سنة ٨٥٢ تقول بانه ورد مرسوم من مولا نا السلطان الملك الظاهر ابوسعيد جقمق بابطال بعض المكوس ومنها التمر والعفص والسمك البوري والحناء والقياس المصري . قال وهذا في صحائف الدولة العادلة ! والرابعة فيها ذكر القلي والخروج والقلقاس وجلود الجاموس والماعز .

وكانت العادة ان تنقش على الرخام صورة الامر الصادر من الملك في رفع مثل هذه المطالب فنقش الملك الظاهر ابوسعيد ططر رخامة والصقها على باب الجامع الاموي في هذه المدينة بابطال ما كان لنائب الشام على المجتسب في كل سنة وكذلك ابطال في القدس ما كان يجبي نائب القدس في كل سنة من المال ونقش ذلك على رخامة والصقها باب الجامع الاقصى . وفي سنة ٧٤٦ كتب على باب قلعة حلب وغيرها من القلاع ما تضمنه : مساحمة الجند بما كان يؤخذ منهم لبيت المال بعد وفاة الحندي وذلك احد عشر يوماً وبعض يوم في كل سنة وهذه مساحمة بمال عظيم وكتب بالمساحمة بمثل ذلك على حائط قلعة طرابلس وهذا النفاوت ايام الدوران ما بين السنين التمسية والقمرية . وكثيراً ما كان يصدر الامر في زمن الحرا كسة بجمع الذهب اذا قل او الفضة وتسليمها الى الملك ليضرب بها سكة وتقودا وكر في ايامهم غش الفضة حتى كان سعر الدرهم ينزل كثيراً ويعاب الناس في الشام ومصر بخسائر فادحة وكثيراً ما كانوا يحسرون ثلث اموالهم لان بعض ملوكهم كانوا يغتسون الفضة وينزلون عيار الذهب فكانت المصيبة بالفضة والذهب لهدمهم كالمصيبة بالاوراق النقدية لعهدنا كل يوم في ارتفاع وانخفاض . ولا عجب فقد كانت الدول بعد عصر صلاح الدين وآله في هذه الديار تخطط بدون قاعدة مستقرة والدول التي ينصب لها ملك وهو لم يبلغ الحولين وبتولى المالك امره لا يصدر منها اكثر من هذا كما وقع في سلطنة الملك المظفر ابي السعادات احمد بن الملك المظفر فار كبه فرس النوبة وهو ابن سنة وثمانية اشهر وسبعة ايام وهو يزعم من البكاء ومشت قدامه الامراء حتى دخل القصر الكبير وهو في حجر المرضعة وقبلوا الارض امامه ولما دقت الكوسات بهت الطفل وصار يحول العين .

وكانت ايام الحرا كسة فريدة بثروة عما لها والغالب ان الواحد منهم كان يأخذ رزق مئة الف او مئتي الف انسان على نحو ما كانت الحال في مصر قبل اربعين سنة واكن

التره كانت شيئاً كثيراً في تلك الايام محصورة في الافراد فقد اخذ تيمور من دمشق لما حاءها سنة ٨٠٣ عدا المأكول والمشروب وغيره الف الف دينار فقام بها اهل دمشق من غير مشقة فلم يرض تيمور بذلك وقال ان المطلوب بحساب بلاده وهو عشرة آلاف الف دينار او الف تومان والتومان عشرة آلاف دينار من الذهب فنزل بالناس باستخراج هذا منهم تانياً بلاء عظيم ولما حمل الى تيمور قال هذا المال لحسابنا انما هو ثلاثة آلاف الف دينار وقد بقي عليكم سبعة آلاف الف دينار وظهر لي انكم عجزتم ثم اخذ اموال المصر بين حكام البلاد والتجار الغائبين عن دمشق وافرد على كل رأس من كبير وصغير عشرة دراهم سامية وافرد على اوقاف الخوامع والمساحد اجرة ثلاثة اشهر فترابت البلايا وكانت دمشق يومئذ احسن مدن الدنيا واعمرها على ما قال ابن تغري بردي ولذلك هان عليها ان تجمع عشرة ملايين دينار وهو اذا قيس اعتباره بنسبة هذه الايام لا يقل عن مئتي مليون ليرة .

رجع الى الرسوم والمكوس في القطر الشامي فقد تنوعت انواعها في عهد الحراكة ومنها ما كان الحلف يلغيه على غير ارادة السلف فقد وضعوا على اهل محلة قبر عاتكة ومحلة القبيبات وقرية القابون سيف دمشق سنة ٨٣٢ رحالاً على حاري عادة الفتن فبلغ علاء الدين البخاري احد صلحاء المدينة فانكره وارسل الى النائب فأبطله وفي سنة ٨٣٦ ركب السلطان برسباي الاسرف الى صالحة دمشق لزيارة الشيخ علاء الدين البخاري فوعظه الشيخ وكلمه كلاماً غليظاً فرسم السلطان باطل طرح السكر ونودي في المحرم سنة ٨٣٧ بمرسوم السلطان بان بطل طرح السكر وان ينقش ذلك في الجامع الاموي والقاعة ودار السعادة قال الاسدي فنقش ذلك وعلى الطن الغالب انهم لا يفوا بذلك لما علم من عادة السلطان . وتروى الى اليوم في جامع حلب الكبير عدة سوار في الغاء الرسوم فالسارية الاولى كتب عليها ان الملك دمرداش أبطل سنة ٨١١ مكس البيض من المملكة الحلبية . الثانية أبطل فيها الملك جقمق سنة ٨٥٢ ما كان يؤخذ ظلاماً من الدالين في سوق الحراج . الثالثة في سنة ٨٤٦ باطل الملك الطاهر جقمق مكس الكتان . الرابعة سنة ٨٤٦ باطل ما كان يؤخذ من اهل سرمين . الخامسة بتاريخ سنة ٨٥٧ باطل مكس الزيتون من قري عزاز . السادسة سنة ٨٦٤ باطل ما تجدد

على المصبغة بقلعة القصير عن كل خابية عشرة دراهم وان لا يؤخذ سوى درهم واحد عن كل خابية . وغيرها بابطال مكس السلاح في جميع سوق السلاح ومنها ما كذب سنة ٨٨٢ بابطال مكس الملح الداخل مدينة حلب ومنها بابطال ما على الدباغين بدير كوتس من المكس ومنها ما صدر سنة ٨٩٣ بابطال ما كان يأخذ ناظر الحنة من سوق الخناءة ومنها ما صدر سنة ٩٠٢ بابطال ما كان يؤخذ من مكس القطن ومنها ما صدر سنة ٩٠٢ بابطال مكس المسك والزعفران ومنها بابطال مكس السماق ومنها بابطال ما هو معين عن ختم القماش العراقي والدمشقي والقدس . ومعظم هذه الاوامر المستورة على الاعمدة مشفوعة بحملة ملعون ان ملعون من جردها او يعيدها الى غير ذلك من استلاب اللعنات على من يجردها ومنها كانت الله ورسوله حممه يوم القيامة الى غير ذلك من القيود والعقود .

ويحق لنا ان نستنتج مما تقدم ان المكوس كانت تختلف باختلاف الملاد فما كان في طرابلس لا يجبي مثله في حمص وما كانت في القدس لا عهد للحلب به وما في دمشق لا مثيل له في المدن الاخرى . وهاك ائمة اخرى من هذا القبيل في مدخل جامع طرابلس امر بابطال المطام المحذات على اهل طرابلس من التحجير على قوت العباد من القمح واللحم والحز والفراخ وغير ذلك وذلك في ايام ابي النصر شيخ سنة ٨١٢ وفي مدخل هذا الجامع امر من صاحب طرابلس بابطال منع استيفا رسم الدخا وما يستأديه من يكون منكما في ديوان الحبوبة الكبرى واستاد دارية الديوان الشريف من سكر وحل وغير ذاك ومن طرح الصابون والزيت والبلس (البوتاس) ومن جميع ما يحدث من ديوان الشيابة والديوان الشريف وغيرها ومن جميع الكلف والامداد الحارفة بها العادة قديما واخاداة مستقلا وعلى حائط مدرسة التسمية امر كذب سنة ٨٢٦ بابطال ائمة اسرف برسباني ما على البلاد الطرابلسية من الحيل بالريد ورسم الملك الاسرف بابطال التحكير بالحنات وانكوس على الخطب والتين وغيره وجيز بالنداء بذلك بدمشق بالجامع الاموي ونقش به رخامة وفي سنة ٨٤٦ سوتع عوام القدموس بما على احوال الحياكة وحراج الكروم بالقدموس مسامحة مستمرة على الدوام ونقش رخامة على حائط الجامع الكبير وفي سنة ٨٥١ ابطال ما تجدد على عوام القدموس

والكهف والمنيقة والعليقة والحوابي من الاعمال الطرابلسية من الثياب الخام ودورة الاستاددار . وفي مدرسة طرابلس رسم بابطل ما على النخيرة (المسلخ) بطرابلس من الموجب لديوان النيابة وقدره في كل يوم تمانون درهماً وباطال معلوم كتابة السر احد وعشرون درهماً ومعلوم الحجوبة ثلاثة عشر درهماً وفي حائط تلك المدرسة ايضاً كتابة بتاريخ ٨٨٨ بابطل المظالم وهي الطروحات التي كانت تطرح من التجار والمتسبين بمدينة طرابلس وذلك عن الصابون والكرم والزيت وغير ذلك وفي سنة ٨٨٨ أبطل مكس الدواليب الحرير والقصابة بالكهف والقدموس وابطل مكس نخيرة البقر والجاموس وقطع الضأن وقرم الاسا كفة بالقدموس والحوابي وعلى ذلك الحائط كتب سنة ٩٠٩ بابطل المظالم والحوادث عن فلاحي الوقف ان لا يكرّوا فلاحي الوقف الا الجزية الشرعية والمال المقرر وفي سنة ٨٢١ ابطل ضمان المكس بسوق العطارين بطرابلس الشام وكتب على حائط مدرسة الرفاعية سنة ٨٧٠ ان لا يؤخذ من تجار حماة وغيرها من السمسرة والترجمة الا ما جرت به العادة القديمة وهي على الالف عشرة دراهم لا غير وان لا يتناول الاجرة الا من بانس العمل بنفسه من ابناء السبيل ومنع النصارى من الترجمة والسمسرة وان لا يؤخذ شيء ممن باع سلعته بغير دلال . والغني قانصوه الغوري المكس عن حاكة حمص .

وبذلك رأينا ان الغاء المظالم والمغارم كان على اشده في آخر ايام الجراكسة وكان من اسوأ ملوكهم شعبان قال المؤرخون فيه انه كان متطلعاً الى جمع المال واقام ديواناً برأسه للبدل وفتح باب قبول البدل في الاقطاعات والوظائف وجعل لذلك ديواناً قائماً بالذات وكان يعين البدل في المناسير وهو مبلغ ثلثمائة درهم فما فوقها والخلاصة فان الجراكسة نفقوا في طرح المكوس ومن غريبها في ايامهم مكس القرعان وذلك ان شحصاً من المماليك الجراكسة كتف رأسه في سنة ٨٣٠ بين يدي السلطان فاذا هو اقرع فضحك منه السلطان فقال ذلك المملوك: اجعلني والي القرعان يا مولانا السلطان فاجابه السلطان الى ذلك واخرج له مرسوم سلطاني به وان يكون شيخ القرعان وخلع عليه خلعة فصار يدور في الاسواق والحارات ويكشف رؤوس الناس فمن وجده اقرع يأخذ منه ديناراً حتى اعيان الناس ففجج منه الاس وتسكوه للسلطان فضحك ونادى

بالامان للقرعان وان كل شيء على حاله و كسب ذلك الرجل في هذه الحركة مالا عظيماً .

انتهى دور الجراكسة المحزن المرمض واملت الامة بدخولها في حوزة الترك العثمانيين ان ترى ابام رغد وسعادة لانها دولة جديدة تُتخامى ما امكن الاغلاط التي وقعت فيها الحكومة قبلها ولكن جاء الامر على العكس من ذلك على ما تراه . لما فتح السلطان سليم العثماني الشام ومصر بعد ان كان في ضائقة شديدة اضطر معها الى الاستدانة من بعض التجار قال وقد ملاً خزائنه من اموال الجراكسة : اني ملأت الانابيب بالذهب وكل من يستطيع من اخلافي ان يملأها دراهم فليختم عليها بطابعه والا فتبقى الخزينة السلطانية مختومة بطابعي . هذه كانت وصيته ولذلك كانت خزينة « الاندرون » مختومة بخاتم سليم . لاجرم ان اكثر فتوح السلاطين العثمانيين كان السائق اليها حب الغنائم والنهب ولذلك كانوا يرجعون فتح البلاد في جهات اوربا على الفتح في آسيا لان تلك كانت اغنى في نظره وعلى شيء من الانتظام في الجملة تسد مغائرها نهمة جيوشهم وخواصهم وفيها من الخمال ما يكفي الاتعاب فيتمتع السلطان واهل دولته بمن شاؤا من نوات المغلوبين وبنبيهم ولذلك جاء النسل التركي في الاستانة فقط مزيجاً من الروم والكرج والبشتاق والارناؤد والرومان والصرب والبغار والمجر والطيان والروس والبولونيين وغيرهم من امم اوربا .

ولما فتح السلطان سليم دمشق (٩٢٢) فوض نيابة دمشق وما اليها من بلاد الشرق الى عريش مصر الى جان بردي العزالي على مال معين قال ان طولون قيل قدره مائتا الف دينار وثلاثون الف دينار . وذكر النجم العزي ان هذا السلطان نفق في ضرب المكوس ومن جعلتها المكس على المومسات فتأسف العقلاء واكر الامر اهل الدين والورع . ومن وصل به الطمع في مال الامة الى هذه الدرجة وهو في مبداء تعلبه على البلاد يجب عليه ان يريها شيئاً من العدل ينسيها مظالم الدولة الجركسية يحدث ما شئت ان تحدث عما احدثه اخلافه من البدع في الارتفاعات بعده حتى قال مؤرخو الترك انفسهم ان خراج اباله الشام كله كان يعطي للمرأة السابعة من ساء السلطان ابراهيم وكان الجاني يأتي دمشق فيجيبها بنفسه لان ساء القصر لم يكن يأمن احداً

من الولاة والمتصرفين على جبايتها من الأمة . فتأمل ايلة بل مملكة كهذه تعطى جبايتها لامرأة واحدة من نساء القصر ننفقها على زينتها وازيائها كيف تكون مجايبها عادلة مصروفة في سبلها !

وذكر مؤلفو الترك ان اقطاع الشام كله كان مسانحة مليون اقچه (١) ولا مير لوائها من مئتين الى ثمانمائة الف اقچه وفيها ١٢٨ زعامة و ٨٦٦ اقطاعاً وعدد جندها ٢٦٠٠ من الفرسان . وكانت ايلة طرابلس وارثاها السنوي خمسة يوكات (٢) ولديوان الخاص من ٢١٠ الى ٣٩٠ الف اقچه وحاميتها من الفرسان ١٤٠٠ وايلة حلب وخراجها ثمانمائة وسبعة عشر الف اقچه وديوانها الخاص يرتفع من ٢٠٠ الى ٥٠٠ الف اقچه . وفي هذه الايلة ١٠٤ زعامات و ٧٩٩ اقطاعاً وحاميتها ٢٥٠٠ فارس يخرج منها عشرة يوكات كان يدفعها اولاد رمضان حكام اذنة .

وكانت الدولة تستوفي نصف ايراد الشام على عهد السلطان سليمان الاول اعني في سنة ٩٩٩ هـ ١٥٥٣ م ٢٠٠٦٠٠٠ دوكا والدوكا عشر اقجات والبارة ثلاث اقجات وتصرف الباقي على وقاية البلاد ومحافظةها وكذلك كانت تفعل في مصر تأخذ نصف ريعها وتصرف النصف الآخر في حمايتها .

(١) كل ثلاث اقجات بارة وكل ٤٠ بارة قرش والكيس خمسمائة قرش ذهباً او فضة . وذكر لامنس ان القرش كان يساوي في القرن الثامن عشر في سورية نحو خمسة فرنكات وفي منتخبات الجوائب ان نقود الدولة العثمانية كانت قبل القرن الحادي عشر للهجرة من صنف الدوكات المنسوبة الى البندقية التي كانت مملكة عظيمة مستقلة وكانت وزن كل مئة دوكات ذهباً ١١٠ دراهم اما نقود الفضة فكانت من صنف الريال الجرمانى الذي كان يجلب من المانيا وكان وزنه تسعة دراهم وقيمه ٨٠ اقچه . واول من استعمل الاقچه السلطان بايزيد الاول وذلك في سنة ٧٩٢ هـ (١٣٩٠) اما استعمال البارة فاستمر في سنة ١٠٦٦ هـ وفي سنة ١٠٩١ قر الرأي ان كل ٤٠ بارة تحسب قرشاً وكانت البارة تساوي ثلاث اقجات اما الكيس الذي كان يساوي ٥٠٠ قرشاً ذهباً او فضة على حساب المعاملات فكان يساوي الف دوكات .

(٢) اليوك مبلغ خمسمائة الف قرش .

وما برحت الحال المالية في هذه الديار في ادبار وهي تبع للوالي الذي يتولى زمام الحكم فقد ذكروا ان والي الشام رفع في سنة ٩٩٤ المظالم وأبطل المكوس الزائدة فأبطل مكس الحمارات وكان هذا المكس لكل من كان حاكماً على برا الشاء ثم أبطل اليسق من باب صاحب الشحنة . واليسق كبير الانكشارية يلتزم هذه الوظيفة بمال كبير يدفعه للآغا وللباشا ويكون في باب صاحب الشحنة يقطع الجرائم ويدفع المال عن اربابة يربح ديناراً عثمانيًا كل يوم فاذا كانت الجريمة خمسين ديناراً مثلاً دفعها عمن ألزم بها وله ربحها في كل يوم خمسون عثمانياً فاذا بقيت عليه اياماً حتى يسعى في تحصيلها تضاعفت عليه حتى لا يقدر على الوفاء والتخلص منها فان كان له اسباب او عقار او وقف او غير ذلك باعها او ما كملها لذلك اليسق كيف اراد فادى ذلك الى تمول الانكشارية وتملكهم كثيراً من الاملاك وأبطل اليسق من باب القاضي ورتبت الانكشارية مالا على البضائع المجلوبة . وأبطلت المكوس التي كانت تؤخذ على اللبن الداخل الى دمشق وعلى الموازين .

وفي سنة ١٠٠٤ طالبت الحكومة الرعايا بعوارض سنئين جديدة وعتيقة وطالبوا الاسرائيليين بمال عظيم . وهذا كثيراً ما كانت تعمد اليه حتى الى عهد قريب تطلب المال قبل استحقاقه وتسلب اموال الصيارف والمرايين بحجة الاستدانة منهم وحدث ان بعض الامراء والملوك صادر والنصارى واليهود خاصة كما فعل الملك الاشرف تايتباي فصادرهم مرتين في ايامه . وفي سنة ١٠٠٨ تولى السيد محمد باشا ولاية دمشق وامر بتغيير المعاملة فيها وجعل كل سلاطاني بثمانين قطعة جديدة زنة كل قطعة قيراطان ونصف قيراط وهبطت الاسعار وحصل الرخاء . وذكر بعضهم ان نحر الدين المعني كان يجبي تسعمائة الف ليرة ويزيد ذلك بزيادة التجارة فكان دخل صيدا يأتي الدولة سنوياً بمائتي الف ليرة . ويدفع من جبايته لاسلطان ثلاثمائة واربعين الف ليرة فقط وكان الامير بشير كالا مير نحر الدين يحب البذخ وقد ضاعف خراج لبنان اربعة أضعاف . وغرّم احمد حافظ باشا سنة ١٠١٨ وكانت كافل الشام اموالا طائلة وصادر جماعات في دمشق واخذ اموالاً منهم بغير حق ولذلك كانت المصادرة عامة لتداول من في صندوقه مال ايا كان مذهبه .

وهكذا انقضى القرن الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر في سلسلة مغارم

ومطالم فقد تولى احمد باتا الجزار دمشق لأول مرة سنة ١٢٠٠ و كانت مدة حكمه فيها خمس سنين لم يرتج شهر أو احدى من طلب المال ظلماً ومن طرح النقود و طرح البضائع المتنوعة ينهبها من جهات و يطرحها على أخرى باسعار زائدة ومن مظالمه انه اذا و احد قتييل في احد الانهار يلحقون جميع القرى التي تشرب من ذلك النهر و يأخذون منهم مالاً غزيراً و كان لا عمل له الا القبض على الاغنياء و مصادرتهم على اشبع صورة فصدق فيه قول الشاعر :

قد بلينا بامير ظلم الناس وسج فهو كالجزار فيهم يذكر الله و يذبح
قال ان آق بيق في حوادث سنة ١٢١٢ شغل السام بالظلم و اكرامية الباشا من البلاد و اشتغل حسن آغا بالظلم في دمشق و ارهاق القرى بالطردحة و الاكراميات و اقراض الدخائر و معاونة الجردة و غير ذلك من المظالم التي لم يسمع لها اثر في السابق .
وفي سنة ١٢٤٧ كانت محاولة سليم باشا و الي السام وضع «مصريتين» ضريبة على كل سكرة اي عقار في دمشق من جملة اسباب قتله حرقاً مع جماعته .

و قال ان عابدين : ان غالب الغرامات الواردة على القرى في هذا الزمان (اي في اوائل القرن الثالث عشر) ليست لحفظ املاك و لا لحفظ ابدان و انما هي مجرد ظلم و عدوان فان غالب مصارف الوالي و اتباعه و عمارات منزله و منزل عساكره و ما يدفعه الى رسل السلطان الواردين باوامر و نواام و امثال ذلك كله يأخذه من القرى و يسمون ذلك بالذخيرة تؤخذ في بلادنا في السنة مرتين و يزيد فيها دراهم كثيرة رشوة لاعوانه و حواشييه من اعيان البلدة و قد جرت العادة بقسمة ذلك كله على عدد فدان القرية و تارة يقسمونه على مقدار حق الشرب بالساعات الرملية فمن كان له فدان مثلاً يؤخذ منه ما يخصه او من له ساعة يؤخذ منه ما يخصه سواء كان رجلاً او امرأة او صبياً و كذا يجعلون منها على رقاب الرجال الساكنين في القرية الذين لا ملك لهم فيها .

و مما اخترعه العثمانيون « الزعامة » وهي عبارة عن قرى يقطعها من يعطاها و تحمن على الاقل بعشرين الف درهم عثماني كل سنة و اخترعوا العوارض وهي مظلمة سلطانية تؤخذ من البيوت في السام في كل سنة و يقال انها من محدثات الملك الظاهر بيبرس اشار اليها الاكرم بقوله :

لحس الله ايام العوارض انها هموم لروءياها تشيب العوارض
 يضيق لها صدري واني اتساعر ضليع وبيتي ما عليه عوارض
 قلنا وهذا من جملة الدواعي التي انقلبت بها في القرن الماضي قرى رمزارع كبيرة في
 سهول الشام وجباله الى ارباب النفوذ فخرج اهلها عن مدكها ورضوا بالاستعباد على ان
 يكونوا احراراً مالكين وذلك فراراً من ظلم الحكومة وتحلصا من الصرائب الثقيلة التي
 لا تحمّلها نفس بشرية وكثيراً ما كان الشيوخ يقصون علينا قصة الطلبة يوم تدق في
 قريتهم ويحیی اعوان الظلمة لاخذ المظالم من اهلها وهناك كنت تسمع من المولات
 وضروب الظلم في طرق الحجاية ما تسأل الله معه السلامة وتستغرب كل العراة
 من جنس هذا النساطق المتمرّد ومن طرز ادارة العثمانيين التي تعرف كيف تسهّف
 دماء الامة واموالها وقلماء فكرت فيما يجلب لها الثروة ويحفظ عليها الحق وبقية
 بينها قسطا ط العدل .

ولما فتح جيش محمد علي باشا المصري بلاد الشام كان الاجنبي اذ ذاك يعطي رسوم
 كارك وضرائب اقل مما يدفع الوطني بكسير ولذلك اضطر بعض التجار الى اتباع
 حماية الاحاب حتى يستطيعوا ان تحروا وهذا كان مبدأ استمداد الامتيازات الاجنبية .
 كذب اللورد دوفرين الى حكومته سنة ١٨٦٠ يقول : في مقدمة اسباب ضعف
 الادارة العثمانية في الشام ان الباب العالي كان يعتبر هذه الولاية منذ بضع سنوات
 كأيلة اجنبية يقتضي الانتفاع منها ما يمكن ولذلك طرح منصبها في المزاد ولم يول عليها
 الا الزائد الاخير ومن الطبيعي ان كل وال جديد لم يكن يفكر الا في تعويض ما دفعه
 من المال وجميع الثروة فيسلب اهالي ولايته لدن وصوله مبتزاً منهم الاموال ومثقلات
 كما هلم بالصرائب الجديدة . وبعد ان ذكر كيف كان الوالي يرثي جماعة الاستانة
 لتسليم له الولاية مدة يواصل فيها اسراف الاموال واملاء جيوبهم بها . قال :
 فداً عن ذلك مظالم لا تطاق وابتزاز اموال لا تحصى وتعاقب على الايلة ولا
 غير اكفاء للمنصب جائرون مرتشون ظماعون في جمع المال لا تشبع بطونهم خالون
 من ادنى اهتمام بالمصلحة العامة اه .

تبدلت الاوضاع الادارية في هذا القطر مرات على عهد العثمانيين وفي سنة ١٢٧٢ هـ

كانت تقسم الى اياتين اياة دمشق واياة صيدا ودخل الاولى التي هي عارة عن دمشق ومرج الغوطة ووادي الحجم ووادي بردى وجبل قلمون وحماة وحمص وبعبك ومعرّة النعمان وعجلون والباق وحاصبيا وراشيا وهوران وجبل الدروز وحصن الاكراد والقنيطرة وايكي قهولي من الحراج والاعشار والبدل العسكري والرسوم المختلفة ١٨٠٥ اكياس يضاف اليها ٩٠٠ كيس كانت تدفعها الخزينة الى الاوقاف وذلك عدا ما كان يؤخذ من حماة وهوران وحمص وجبل الدروز وحصن الاكراد ومعرّة النعمان وعجلون عينا من الاعشار والرسوم وهو ١٨٢٥٩ اردنا من القمح ٢٥٨٨٤ اردنا من الشعير ٩٥١ من الذرة ١٣٣٩٣ اوقية سمن و ٣٢٠ اوقية حرير و ١٣٠٠٠ رأس غنم . وكان دخل اياة صيدا وقائم مقاميتي لبنان الدرزية والمسيحية ويدخل فيها بيروت وطرابلس واللاذقية ونابلس وعكا وحيفا وساحل عنتيت والاقضية الشمسية ١٥٤ ٣١ اكياس ماعدا المستوفى عينا من القمح والشعير والذرة والكرسنة والسهم والعس والسمن والزيت والفيالج والقطن .

وكان مجموع دخل اياة دمشق ١٨٥ الف ليرة على ذلك العهد واياة صيدا ٥٠ الفاً وكان لبنان يؤدي للدولة سنوياً ٣٥٠٠ كيس جزية وخراج . كتب المستر برانت قنصل انكلترا في دمشق الى سفير دولته في الاستانة عن حالة اياة دمشق في ١٤ حزيران ١٨٥٨ من كتاب مايا تي : « ان الضرائب كانت باهظة على عهد الحكومة المصرية على ان استتباب الامن وعدم نخل الحكومة على الشعب كذا يكفيان لاقتناعه ان في وسعه تحمل وقرها دون ان يرزح تحتها وكان الدخل يدار براعة واقتصاد ولدى الحكومة المصرية جيش وافر العدد ويقوم بكل نفقات ادارة الايالة المتوقع ازديادها تدريجاً اما حالة اليوم (اي على عهد الحكم التركي) فهي على عكس ما تقدم من جميع الوجوه فالضرائب عبء ثقيل لا يطاق (١) مع انها اقل من ذي قبل والامن مفقود والدخل يقل كل يوم لاهمال القرويين حراسة الاراضي وكل ما يتم جمعه ينفق باسراف او يسرقه

(١) قال بيريه ان الضرائب التي وضعها ابراهيم باشا المصري على السور بين كانت شديدة وما كان القوم يتحملونها لولم يكونوا من عناصر واديان مختلفة قلنا ومن حسنات ابراهيم باشا انه ابطال الرشى والاصطناع وابطل المصادرات وقرر حق التملك .

الموظفون والاموال اللازمة لادارة الحكومة تطلب من الاستانة وصار من الجلي ان المالية تزداد اختلالاً وفساد الادارة مستمر .

« كانت حكومة محمد علي فرضت على كل ذكر ساكن في المدينة ضريبة جديدة تدعى ضريبة الفردة تختلف بين ١٥ قرشاً الى ٥٠٠ قرش حسب حالة كل انسان وكانت مجموعها يبلغ عشرين الف ليرة انكليزية ولما عاد الاتراك الى البلاد لقوا مقاومة شديدة في جبايتها فابدلوها بضرريبة على البيوت تستوفي دون حدوث اضطراب كبير او قتال على ان مجموعها لا يتجاوز العشرة آلاف ليرة انكليزية وقد جرت بعض احتسكارات وفرضت ضرائب جديدة على البنائات المحدثات للاستعاضة عن الدخل الذي اسرفوا به وكانت الحكومة المصرية تستوفي نحو ٥٥ الف كيس ولا يتأخر لها بارة وهذا المبلغ يساوي ٢٧٥ الف جنيه فهبط الدخل اليوم الى ٣٥ الف كيس قيمتها ١٤٣ الف وخمسمائة جنيه يجبي منها عشرة آلاف كيس وبقى زهاء ٤١ الف جنيه في ذمة الاهالي وهذه يتعذر جباية قسم منها .

هذا ما قاله رجل غريب عن البلاد واصرح منه ما كتبه مدحت باشا ايام كان والياً على الشام بتاريخ ١٧ آذار ١٢٩٥ شرقية من لائحة في سياسة الشام واموالها ومما قاله : ان الاوامر التي تصدر من الاستانة الى الشام محصورة في طلب المال والجند فقط وبذلك بطل العمل بالقانون والاصول المرعية وفتحت ابواب سوء الاستعمال وما عدا بعض الرحال من الموظفين اصبح كبار العمال وصغارهم لا يلتفتون الى غير مصالحهم فطراً على المعاملات خلل و بسوء تأتير ذلك فسدت اخلاق الناس وكثر القتل والنهب والغارة على الاموال والعروض في كل مكان واختل الامن كل الاختلال . قال واذا ألقينا نظرة على واردات الدولة نرى الجراج والاموال قد نزل ارتفاعها الى النصف وخربت مسائل الاعتسار البلاد وقلّ البديل العسكري وحدثت ماسئت عن بلية « القائمة » فمن اجل سقوط اسعارها نزلت الواردات في العام الماضي الى النصف وبقي النصف الآخر في باب النفقات بدون تسديد .

وكلام مدحت باشا يشمل ولايتي سورية وبيروت لان الولايتين في عهده كانتا ولاية واحدة فكلامه يتناول معظم سورية وفلسطين وبالطبع كانت فلسطين اقصى

الجنوب وحلب في أقصى الشمال على هذه الصورة أو أشد لأن روح المملكة كانت واحدة وهي المركزية التديدة وكانت في الدور الذي سلف لامركزية ولكنها استبه بالفوضى . ولم نغير الحالة المالية عن عهد مدحت باشا بل ظلت تعسة الى آخر سقوط الشام ورحيل الاتراك عنها وان كانت الارتماعات زادت في العقود الاربعه الاخيره لانتشار الامن في الحملة بنأسيس المحاكم النظامية التي قضت على الاشقياء بعض الشيء وكفت البادية عن العيت في البلاد القريبة من المعمر بعد ان كانت تأتي لاخت الحوة من القرى القريبة من الخواضر الكبرى ولزيادة النفوس بقلعة الاوبلة وتخفيف بعض البطائح وسد العجز المالي ولا سيما في الساحل بما ادخله المهاجرون الى اميركا وغيرها من ابناء الشام فكانوا وما زالوا يحملون الى هذه الديار مبالغ طائلة تدخل في تحسين الزراعة والصناعة وتراد بها الحركة التجارية . وكانت النولة العثمانية كبا سلفت عنها الولايات انما تزد في مقدار الحماية والمطام على بلادها فالسجل ينقص على الدوام سلع الممالك من جسمها والحرج يزد لان اهل الاستانة ناله على اهل الولايات يتقى هؤلاء ايسر اولئك وينو القديور ويتنعموا لولدان والخور .

وله يكف الحكومة العثمانية زيادتها في العصور حتى بلغت ثلاثة عشر اربعا في المئة تؤخذ من الحاصل والخصول ندما ما تلحقها من ظلم الملتزمين والعشارين وهو قد بلغ عشرين في المئة في بعض الانحاء ولم يكن لها زياده الاموال والضرائب الاخرى الا ضعفين بل الى اضعاف ما كانت قبل عشرين سنة بل زادت في العشر والحراج زيادة مهمة مدة الحرب العامة دفع ما احده من التكاليف الخربية واستاتته من اموال الفلاحين وعروضهم ومواسيهم ولولا ارتفاع الاسعار ودخول ملايين من الايراني التي اقترضتها الدولة من المانيا لمعقها على الخمس الذي جمعته وتبليته من القاصية لولا ذلك ابقي عسرة في المئة فقط من قرى هذا القطر عامرا ولا تحت الحال اتعس مما كانت قبل سنين او سبعين سنة ايام كان الفلاحون لا يستطيعون زراعة اراضيهم اقله الايدي العاملة فيجدون اناس من العبيد لا يخدمونهم في الحرت والكرث .

وبعد الحرب كبرت الحماية والمغارة في بلاد الشام خصوصا اقله الذهب في الابدي والاستعاضة عنه بالورق القدي فزادت الجباية في بعض النحال اربعة اضعاف فعمت

التكوى واخذت اسعار البياعات تعلو وتسفل في المدة القليلة والمقرر على الرعايا بنزل ويرفع على تلك النسبة فتضرر الناس من ذلك وكان البلاء في ذلك عاماً في كل البلاد التي لم يستقر سعر ورقها المالي على وتيرة واحدة اذ تواز قيمته قيمة الذهب واضطرت حكومات الشام الى الاتفاق اكثر من ذي قبل على صفار عمالها وكبارهم لئلا تترك لهم مجالاً الى الرشي والتلاعب بحقوق المساكين والضعفاء وان تقوم ببعض الاعمال اللازمة في الحكومات المتقدمة فانقرجت مسافة الخلف بين الدخل والخرج ثم تعادلا واحذت الحكومة تفكر في الغاء طريقة الاعشار والاستعاضة عنها بال مقطوع وزادت الضرائب على العقارات بنسبة احورها .

لا جرم ان الاموال اذا حبيت كما تجبي في البلاد المتقدمة بالرفق وبحسب طاقة المكافئين يتوازن مع الزمن الدخل والخرج بل قد يزيد الاول على الثاني اذا وقع الاقتصاد في وجوه النفقات كأن تكفي الشام بما تحرقه لها ارضها و يفيض عليها ما تنصرفه على الخطوط الحديدية ورحف الطرق وتعيدها في المدن و بين القرى وعلى الاسلاك الترفية والكهربائية والهاتفية وتخفيف البطائح واصلاح طرق الري واقامة معالم العلم ودور التهذيب . وكل مملكة تسد عجزها بالاقتراض ولا تستمر بايدي رحاها ما في سطحها وبطنها من الخيرات يكون مصيرها الى الاستعداد الاقتصادي وهو اشع ضرر الاستعداد في هذا العصر . وما لا تستطيع ان تعمله لنفسك ليس في مكنة غيرك ان يحمله اليك . وكل امة لا تفرض الجباية بالعقل ، ولا تجبيها بطرق العدل ، ولا تنذل على المرافق العامة منها الفصل ، نحل بل تشعل .

محمد كرد علي



القضاء في الاسلام^(١)

رأيت ايها السادة ، ان يكون الحديث في هذا الاجتماع ، عن القضاء في الاسلام
لاسباب اربعة :

اولاً — ان القضاء هو افضل مظهر يمتثل به العدل . وحمل العدل الذي جعل به
ارسطو « قوام العالم » الاربعة اركان المثلث الوطيد ، لا يقبض له بيان الا عليه .
ولا يستقيم للدول امر الا معه . ولا سيما ان تأسيسها واولئ نتائجها كالتنا
الحاضرة . فاذا لم يكن قضاء حر ، مستقل ، نزيه . فلا عدل . واذا لم يكن
عدل ، فلا سبيل الى البقاء .

ثانياً — ان هذا القضاء كان منذ كان . الى ان جعلوا يخرجونه عما وضع له . وتناولونه
على غير ما أريد به ، خير قضاء عرفه الناس . ممتلا لروح العدل ، متكاملاً
مع المكان ، متمشياً مع الزمان . وكان قضاؤه حتى منتصف العصر العباسي ،
انزه قضاة عرفهم التاريخ ، لامستنيها احداً من مشارق الارض ومغاربها .
في حاصر الانام وغابرها .

ثالثاً — ان النهضة العلمية الاخيرة ، قد حدرت التنا الذي كانت سداته القرون الوسطى
قرون الجحول والجمود على حضارتنا السابقة ، فعرفنا كثيراً عن اسلافنا
مما يدعوا الى الاعجاب والمفاخرة غير . ان اكثر ما عرفناه فملاً لنا به الكتب
الحديثة ، كان في الادب ورجاله . والآداب الرفيعة وذوئها ، وما الى ذلك .
اما القضاء ورجاله فقد ظل خبرهما مجهولاً عندنا ، الا قليلاً مما لا يغني الغناء
كله ، بل مما قد تكون معرفته شراً من جهله . فاذا كانت الناشئة اليوم ،
تعرف رجالات الادب . والتاريخ في العرب . محري بها ان تعرف شيئاً

(١) أقيمت هذه المحاضرة يوم الجمعة ٢٣ ذي القعدة ١٣٣٩ هـ و ٢٩ تموز ١٩٢١ م .

صحيحة عن القضاء وتاريخه ورجاله . وكيف كان ، والى اية حال صار . اتماما
للتأديب وخدمة للتاريخ .

رابعاً - اما وان كنا نعلم ان الاتحاد التاريخي القديمة ، لا تكفل الامة ارتقاها
وتعزيز مكتسباتها ، ان لم يمس الاله على سنن الآباء ، و يصفوا الى تليد
انجد طريقه . فلسنا ننكر ان التحدث بالجد ، داع الى النشاط . اعم
لهم من مراقدها . تراخ بالنفوس . وقد عرفت سابق سرها . وانق
غرسها . الى الاقتداء بالسلف الصالح ، والجري على آثاره . ولعل ال
العربي الكريم لم يرد غير ذلك يوم قال : « الشرف معون » .

ب . د .

ولا اري لي بدا قبل ان اخوض في هذا الموضوع من ان اقول ان هذا
القضاء قائم بنفسه ، لاصله البنية . الشريعة الزممانية . اما الدين يذهب من الى ان الشريعة
الاسلامية ، هو في جملة الشرائع التي استمدت اصولها واحكامها من هذه الشريعة .
فاما يذهبون مذهباً لا ينرض به حجة ، ولا يؤيده دليل . ومع هذا فقد اصاب
مدعاؤنا من القيمة في بعض العقول والنفوس . ولكي لا يحجب قولنا مجرداً عن البرهان
كما جاء قول النخعي ، نعززه بالادلة الآتية :

١ - ان القضاء في الاسلام . وان كان احقر شيء مدة . تبلغ الترتين . فليس
يصح ان يقال فيه ، انه نقل عن الشريعة الزممانية ، ما دام لم يوضع دفعة واحدة .
بل لما مع الحاجة وعلى الايام . حتى ولا ان يقال : انه استمد منها ، ما دامت مدادته
معروفة : الكتاب ، والسنة صريحة او استنباح او قياساً . ثم اسبغ الى ذلك
الاجماع .

وبل يصح في شرح عرفت مصادره ، ويثبت فيه طرق الاستدلال وهو حواء القياس .
ان يقال فيه : انه شرح نقل عن غيره او استمد منه .

٢ - ان التاريخ ذكر لنا ما احذه العرب في النهضة العباسية عن غيرهم من الامم .
من العلوم بعضها او كلها . كالفلسفة والطب والعلوم والعلوم الكونية .
فعرفنا اسماء المرحمين والمعربين . في كل فن وناب . وعرفنا المصادر التي احذوا منها . والمعارف

التي نقلوا عنها . ولم يذكر انه حصل شيء من ميل ذلك في القضاة .

٣ ان العلوم المنقولة بقيت سارية عليها في لغتها . حجة من الترجمة ، وفي مترادفها الناطق
نفسية عن العربية . خلا هذا القضاء . فقد جاء عربها صحيحا مفردا . مركبا . فادا
وقع فيه لفظ غريب . فليس اكثر مما هو في بعض الفنون العربية المحنة كالادب مثلا .
وهذه الالفاظ اكثرها فارسي . جاء به المولعون بالفرس . ثم انقلبت منهم الى من اخذ
عنه . او كانت مما اقتضته الصناعة والتجارة والزراعة .

٤ اذا كان بين التريعتين تشابه في بعض الاحكام ، فدا ان التريعه في
كل امة تعتمد في مصادرها اذنا على العرب والعادات ، والامالات الطبيعية . ويكثر
ان تسترك كثير من الامم ، في كثير من هذه الامور . وليس ادل من ذلك مما عسى
اهل الدائرة من الاحكام التي يكاد يكون بعضها ، كقوانين الموضوعة .

ثم لو صرح ان تكون الشريعة الاسلامية استقت من القوانين الروماني ، لما كانت سميت
من ان تسترب اليها او الى عقول اصحابها ، شيء من الخزعبلات التي كانت تجري في
مواطن هذا القانون ، لذلك العهد وما بعده . كمن يحاكمه الحيوانات ، والقضاء عليها .
او تعذيب الرضاب . وكسبت الموتى . ونحو كمنها . واصدار الاحكام عليها . وهذا ما تعانت
عده هذه الشريعة عوا كبيرا .

٥ لو صرح ان يكون القانون الروماني ، من مصادر الشريعة الاسلامية . لحق ان
يكون موطن الاستدراج الاسلامي ، او احد مواطنه . سيفي اقل ما يكون . للامم
من البلاد التي كانت خاضعة لسلطان روما ، نازله على احكامها . وهذا ما لم يكن
شيئا .

ونمة وجه آخر لا يحد السكوت عنه . وهو ان القانون المعروف بالقانون الروماني ،
كان من قبل مشهورا معقدا . لم يطور بشككه الاخير الا بعد ان لاسست الفرنجة العرب
في الاندلس . اخذت العلم عنهم . وقد قال بهذا كرون واوردوا عليه أدلة عقلية
ونقابة . اس من عرفه بالآن ان نأتي بها . وادان نحن ارضا بين هذين الرأيين : رأي القائلين
بان الشريعة الاسلامية استقت من القانون الروماني . وهو رأي قد تكشفت مقاتله .
ورأي القائلين : ان الشريعة الاسلامية هي التي أمدت هذا القانون فصيرته ماعدا .

لكانت كفة هذا الرأي هي الراجحة . وحجة القائلين به ، أقرب للعقل . وأوزن في النقل .
لذلك نستطيع ان نقول : ان القضاء الذي نكلم عنه ، هو قضاء لا اثر للنقل فيه .
ولا فضل في وضعه لغير ذويه . ولسلفه من قبله .

وسيدور بحثنا على أربعة أمور :

(١) القضاء في العرب قبل الاسلام .

(٢) القضاة ، والقضاء وما يؤخذ عليه .

(٣) آداب القضاء والقضاة .

(٤) مقارنة بين القضاء في الاسلام ، والقوانين في هذه الايام .

القضاء قبل الاسلام - كان العرب يسمون القضاء حكومة . والقاضي حاكم .
بل تكن الحكومة عملاً مستقلاً الا في قرى . فكانت عنده في جملة المصالح الخمسة
عشر التي كانوا يمولونها قبل الاسلام . وكان ممن تولى الحكومة فيهم دائم من عديمات ،
واسم عبد الله ، واطالب بن عبد المطلب ، والعاص بن وائل .

واما في سائر القبائل ، فقد كان الحكم صاحب الرأي فيها . فاذا وقع خصومة
احتكموا اليه ، ويفصل بينهم بما أوتي من الحكمة والعقل ، وما جرت عليه العادة .
كما كنتم من صيقي ، الذي كان يعد من رؤساء المحكمين . والحاجب بن زرارة والاقربح
بن حابس في تميم .

وكانوا يرجعون ايضاً في خصوصتهم الى الكهان . اذ كانت الحكومة تدرج تحت
علمهم الذي هو الكهانة . كسطيح الدثني ، المعروف بسطح الكاهن . وثقي امار .
اما حيث كان يكون ملك او امير ، فكان اليه مرجع الامور كلها وفي جماعتها
الحكومة . الا ان يكل ذلك الى غيره .

وكانت الحكومة عنده فطرية سادجة ، بحسبهم الاجتماعية . ليس لها قوانين
موضوعة ، ولا شرائع منبوعة ، الا ما كان من قبيل العرف والعادة . واعل الحكومة
كانت محمولة عنده في القول المأثور عن قس بن ساعدة « البينة على من ادعى واليمين على
من انكر » وهو قول لم يبتدعه الرجل ابتداءً ، ولكنه استخلصه من الحكومة التي كانت

حارية في ايامه وقبلها . وهي انهم كانوا يسألون البيعة من ادعى ، واليمين على ادعى عليه .

القضاة . والقضاء في الاسلام لما جاء الاسلام ، ظلت الحالة في بادئ الامر على ما كانت عليه من قبل . فلا يكن في ايام الرسول حكم غير . وكذلك كانت الامر ايام حليفته ابي بكر .

والسبب في ذلك ان الاسلام كان لذلك العهد قلاً ، منحصرأ في جنوبي الجزيرة . وكان قد نمت في روع الناس آدانا سامية . وبعث فيهم أخلاقاً عالية . جلبت لب من دخل فيه إغماً وافتناً . وحركت قلوبهم رحمة وحناناً . وملك عليهم عواطفهم . فقلت الخصومات في تلك الفترة . وحف الغدا هو لا الناس بعضهم على بعض . وكان اذا وقع شيء من ذلك احتسبوا في صاحب الرسالة فيقضي بينهم ، او استأنوا أصحابه ، ونزلوا عند قضاياه .

ل بلغ الامر فوق ذلك ، وكانت الرجل اذا احترم جاء من ذات نفسه ، يقول : يا بني الله : لقد كن مني كيت وكيت .

ان زوما هذا شأنه ، لا يحتاج الى قضاة اخصاء . ولا الى قوانين محددة . بل كان حسه ما كان فيه . من كتاب الله وسنة نبيه .

فلما امتد سلطان خلافة الى العراق والشام . واتسعت رقعة الملك . انتقلت تلك الصراحة التي كانت في بأناة الاسلام . عد ان دخل فيه كثير من الاقوام رغبة او رغبة . لذلك ، ولاشغال الخيفة عمر تشدير امر هذا الملك ، رأى ان يجعل القضاء عملاً مستقلاً خاصاً . فعهد فيه الى ثلاثة تجيرهم من اهل الدين والعلم . فجعلوا الدرداء معه في المدينة . وبعث تريحاً الى البصرة . وولى ابي موسى الاشعري بالكوفة . فكما وا اول قضاة في الاسلام ، كما كانت عمر على اصح الروايات . اول من دفع القضاء الى غيره .

وكتب عمر الى عمرو بن العاص ، عامله في مصر ، ان يولي على القضاء كعب

ان يسار بن ضنه العبسي ، وكان حكماً في الجاهلية . فابي كعب (١) . فولى عمرو ، عثمان بن قيس بن ابي العاص (٢) فاتخذها عمال مصر سنة . فكانوا هم يولون القضاة . واستمر ذلك الى ايام بني العباس . فلما قام ابو جعفر المنصور جعل لنفسه هذا الحق ، فولى عبد الله بن طليعة الحضرمي على مصر سنة ١٥٥ هـ . اما الوظيفة (٣) التي كان يجرى بها عمر على القاضي ، فمئة درهم كل شهر ، وموئته من الخنطة . وهكذا فعل عثمان وعلي . فولى الاول زيد بن ثابت . وولى الثاني سريجاً ، واما الاسود الدؤلي .

وجاء بنو أمية فوضوا على ذلك ، فجعل معاوية على قضائه فضالته بن عبيد الانصاري . فلما مات . استقضى ابا ادريس الحولاني . غير ان وظائف القضاة زادت ايام بني أمية زيادة مذكورة ، فبلغت الف دينار في السنة .

وكان عدد القضاة ، يكثر ويقل حسب الحاجة . حتى ان بغداد لما تكاثرت عدد سكانها . وكثرت خصوماتهم . ولى عليها الرشيد جماعة من القضاة . وجعل ابا يوسف المشهور ، قاضي القضاة — وهو اول من تلقب بهذا اللقب — وفوض اليه تولية قضاة بغداد . ثم قضاة سائر الامصار . وجعل ابو يوسف للقضاة لباساً خاصاً يتميزون به . اما وظائف القضاة في ايام بني العباس فقد كانت اقل منها في عهد بني أمية . اذ حطت الى ثلاثين ديناراً في الشهر . حتى بلغت ايام المأمون مائتين وسبعين ديناراً في السنة . فلما ملك ابن طولون ، أعادها الى مثل ما كانت في عهد بني أمية . اي الف دينار في السنة . غير ان المطلب بن عبد الله الحزاعي ، والي المأمون على مصر ، أجرى على قاضيه الفضل بن غانم مائة وثمانية وستين ديناراً في كل شهر . وهو اول قاضٍ أجرى عليه هذا . وكان عيسى بن المنكدر مقلداً . فأجرى عليه عبد الله بن طاهر ، والي مصر سبعة دنانير كل يوم ، (١) وفي « اخبار قضاة مصر » : ان عمرأ قال لكعب لا بد من السمع والطاعة لامير المؤمنين فانقض حتى اكتب لامير المؤمنين فقضى لكعب حتى اعفاه عمر . وكان قضاؤه فيها شهرين .

(٢) وفي اخبار القضاة قيس بن ابي العاص بدلاً من عثمان بن قيس ولعل ما نقلناه هنا اصح لانه عاد فيما بعد فقال عثمان بن قيس .

(٣) الوظيفة ما يقدر لصاحب العمل من طعام او رزق .

او اربعة آلاف درهم في الشهر . وهو اول فاضل أُجري عليه ذلك . واجازه بالف دينار . واجرى المتوكل على بكر التقي في الشهر مائة وثمانية وستين ديناراً . وكان ابوالجيش خمارويه بن احمد بن طولون يحل قاضيه محمد بن عبدة بن حرب ويعظمه ويميري عليه كل شهر ثلاثة آلاف دينار .

ثم اخذت وظائف القضاء — وقدمت في الدولة من الضعف والوهن ما وقع — لتقلب من حال الى حال . حتى اصبح القضاء تجارة واصبح القاضي يبعث القضاء على مال معلوم يقدمه كل سنة .

مصادر القضاء :— قلنا ان للقضاء في الاسلام مصادر خاصة استقى منها واعتمد عليها وهي :

- (١) الكتاب الكريم . وهو القرآن
 - (٢) السنة الشريفة: وهي اقوال الرسول وافعاله .
 - (٣) الاجماع: وهو اتفاق مجتهدي الامة بعد النبي في عصر من العصور على امر من الامور .
 - (٤) القياس: وهو حمل معلوم على معلوم: اي الحاقه به في حكمه لمساواة بينهما . وهو انما يستنبط من الثلاثة الاول .
- كان الرسول يرجع في قضائه في الامور الدينية والمدنيوية الى الكتاب الكريم، والى ما نلتجئ له فطنته ويوحيه اليه الحق . فلما توفي: كانت اقواله واعماله هدى لمن قضى بعده . فاضيف بذلك الى الكتاب — وهو المصدر الاول للقضاء — المصدر الثاني وهو السنة . ثم كانوا اذا اشكل عليهم امر فلم يجدوا له نصاً في كتاب ولا سنة . فاسوه بما شابهه: فكان القياس وهو قد بدى به قبل الاجماع: وان اخروه بالترتيب عنه لما ذكرنا من انه يستنبط ايضاً من الاجماع . يؤيد ذلك ما قاله الامام عمر في كتابه المشهور الى ابي موسى: يوم ولاء الكوفة:
- « اللهم: فيما يتلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة . ثم اعرف الامثال والاشباه: وقس الامور بنظائرهما . . »

فنحن نرى ان القياس بدى به منذ ذلك التاريخ او قبله . يوم لم يكن اجماع بل

يوم كانت القضاة السابقون والخلفاء الراشدون، يحكمون كل حسب رأيه واجتهاد وقياسه . وكثيراً ما كانت تختلف احكامهم واقوالهم . لاختلاف في الآراء : او طرق الاجتهاد : او مناهج القياس .

وقد جاء في الوسيط :

« انقضى زمن الخلفاء الراشدين : ولم يدون فيه كتاب : الا ما كان من امر كتابة المصحف . وكان مرجع الناس في امر دينهم وديارهم كتاب الله وسنة رسوله . فاذا اشتبه عليهم امر من الامور ، رجعوا الى الخلفاء وفقهاء الصحابة ، او استخاروا الله فيه ، واستهظروا باجتهادهم رأياً عملوا به . وقد كانوا لا يكتبون اقوال النبي — صلى الله عليه وسلم — وفتاوى الصحابة ، خشية ان يجرم ذلك الى الاعتماد على الكتب ، واهمال حفظ القرآن الكريم والسنة . ولان الكتاب عرضة للضياع والتصحيف والتعريف . »

« ثم لما حدثت الفتن ، وتعددت المذاهب والفحل ، وكثرت الاقوال والفتاوى ، والرجوع فيها الى الرجال والرؤساء ، ومات اكثر الصحابة . خافوا ان يعتمد الناس على رؤسائهم ، ويتركوا سنة رسول الله . فاذن امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لابن بكر محمد بن حزم — نائبه على المدينة في القضاء والولاية — ان يدون الحديث ، بعد ان استخار الله اربعين يوماً . فدون ما يحفظ عن الرسول في كتاب بعث به عمر الى الامصار . فلم يكن للقضاة الى ايام ابي جعفر المنصور مراجع مدونة ، يستمدون منها ويقيسون عليها ، غير القرآن وكتاب ابي بكر هذا . »

فلما كان العصر العباسي ، نهض ابو جعفر المنصور نهضته المباركة . وجعل يحث الأئمة والفقهاء على تدوين الحديث والفقه . ولم يدخر وسعاً في الحواجز السنية في هذا السبيل . فمضوا فيما رغب فيه . واقبلوا على الجمع والتدوين والتصنيف في العلوم الاسلامية ، ومنها القضاء . وكانت القراءة والفقه والتفسير والحديث في اول الاسلام علماً واحداً . فجعلت تميز على توالي الايام ، الى ان اصبح كل علم مستقلاً عن الآخر . فلما استقل الفقه سمي اصحابه الفقهاء وكانوا قبل ان يعرفون بالقراء ، تعظيماً لشأن القراءة التي كان يجيهاها العرب في اول امرهم .

قال العلامة ابن خلدون :

« وانقسم الفقه فيهم الى طريقتين : طريقة اهل الرأي والقياس ، وهم اهل العراق . وطريقة اهل الحديث ، وهم اهل الحجاز . وكان الحديث قليلاً في اهل العراق فاستكثروا من القياس ومبروا فيه ، فلذلك قيل لهم اهل الرأي ، ومقدم جماعتهم الذي استقر المذهب فيه وفي اصحابه ، ابو حنيفة . وامام اهل الحجاز ، مالك ابن انس ، والشافعي من بعده . » ثم دخل اهل الحجاز العراق . ونقلوا اليه الحديث . فتساوى الفرقان في معرفته . وتساوى ذلك عدة مذاهب . اشهرها : مذهب الشافعي ، ومذهب الحنبلي ، فسكانا والمذهبيين الاولين : الحنفي والمالكي ، والمذاهب الاربعة المشهورة ، التي رخصها الأمة في امر دينها ودنياها الى يومنا هذا .

وجاء في الوسيط :

« اما الامام الاعظم ابو حنيفة (١) فقد اخذ كل علمه عن شافه الصحابة ونقل عنهم . واستنبط فقهه من القرآن الكريم . وما صنع عنده من الحديث على قلته ، مع استعمال الرأي والقياس »
« وتابعه في ذلك اكثر ائمة العراق لقلة رواية الحديث الصحيح بينهم »
« واما الامام مالك (٢) فقد اعتمد في فقهه على الحديث »
« والشافعي (٣) استنبط مذهبه من القرآن والحديث والقياس والرأي . فكان مذهبه وسطاً بين اهل الرأي من اصحاب ابي حنيفة . وبين اهل الحديث من امثال مالك واحمد »
« واحمد بن حنبل (٤) استنبط مذهبه من السنة متوابعاً بشي من القياس والرأي »
المواطن التي انتشرت فيها هذه المذاهب

قال ابن خلدون :

« اما احمد بن حنبل . فمقلده قليل . لبعده مذهبه عن الاجتهاد واكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها ، وهم اكثر الناس حفظاً للسنة ورواية للحديث . واما ابو حنيفة فمقلده اليوم اهل العراق ومسلمة الهند والصين ، وما وراء النهر وبلاد العجم

(١) ولد سنة ٨٠ — وتوفي ١٥٠ (٢) ولد سنة ٩٥ — وتوفي سنة ١٢٩ (٣) ولد سنة

١٥٠ — وتوفي ٢٠٤ (٤) مولده سنة ١٦٤ ووفاته سنة ٢٤١

كلها لما كان مذهبه أخص بالعراق وكان تلميذه (١) صحابة الخلفاء من بني العباس ، فكثرت تأليفهم ومناظراتهم مع الشافعية وحسنت مباحثهم في اختلافيات وجاؤا منها بعلم مستظرف وانظار غريبة . »

« واما الشافعي فمقلدوه بمصر أكثر مما في سواها ، وقد كان انتشر مذهبه بالعراق وخراسان وما وراء النهر . . . ثم درس ذلك كله بدروس المشرق واقطاره . »

« واما مالك فاخص بمذهبه اهل المغرب والاندلس . وان كان يوجد في غيرهم . الا انهم لم يقلدوا غيره الا في القليل . لما ان رحلتهم كانت غالباً الى الحجاز ، وهو منتهى سفرهم . والمدينة يومئذ دار العلم ، ومنها خرج الى العراق . ولم يكن العراق في طريقةهم ، فاقصروا عن (٢) الاخذ عن علماء المدينة ، وشيخهم يومئذ وامامهم مالك ، وشيوخه من قبله وتلميذه من بعده . فرجع اليه اهل المغرب والاندلس ومقلدوه دون غيره ، ممن لم تصل اليهم طريقته . وايضاً ، فالبدوة كانت غالبية على اهل المغرب والاندلس ، ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لاهل العراق ، فكانوا الى اهل الحجاز اميل ، لمناسبة البدوة . ولذلك لم يزل المذهب المالكي غصاً عندهم ولم يأخذوا لتفج الحضارة وتبذيرها ، كما وقع في غيره من المذاهب »

هذا ما قاله العلامة ابن خلدون ، بياناً لمواطن هذه المذاهب الى يومه . وتعليلاً لانتشار بعضها دون بعض .
اما في يومنا هذا :

فان المذهب الحنفي ، منتشر في ما كان يعرف بالبلاط العثمانية الاوربية والاسيوية . وفي تركستان ، وهندستان ، وبلاد التتر .

والمذهب المالكي في المغرب كلها اقصاه واوسطه وادناه
والشافعي في مصر والهند .

والحنبلي في بعض بلاد العرب وفي مدينة بلخ

(١) لفظة صحابة وردت في النسخ الثلاث التي وقفنا عليها وهي مصدر في الاصل . فيجوز ان تطلق على المفرد . ولكن الكلام الوارد بعدها بصيغة الجمع ، يرشح كون تلميذ وردت من خط النساخ ، وكان حقها ان تكون تلاميذ . (٢) هكذا ورد في الطبعة البيروتية .

بقي ان ما اورده ابن خلدون ، تعليلاً لا انتشار مذهبي ابي حنيفة ومالك — مع ما فيه من وجود الصواب — ليس بالسبب الذي استعمل بهذا الامر . بل اعل السبب الذي اتى به الفيلسوف ابن حزم اوجه واقوى قال : (١)

« مذهب ابن انتشرافي مبداء امره بالرئاسة والسلطان . مذهب ابي حنيفة : فانه لما ولي قضاء القضاة ابو يوسف يعقوب : صاحب ابي حنيفة . كنت القضاة من قبله . فكان لا يولي قضاء البلدان من اقصى المشرق الى اقصى افريقية الا اصحابه والتمتعين اليه والى مذهبه . ومذهب مالك بن انس عندنا فان يحيى بن يحيى كان مكياً عند السلطان مقبول القول في القضاة ، فكان لا يولي قاض في اقطار الاندلس الا بمشورته واختياره . ولا يشير الا باصحابه ومن كان على مذهبه والناس سراع الى الدنيا . فاقبلوا على ما يرجون بلوغ اغراضهم به . على ان يحيى لم يزل قاضاً قط ولا اجاب اليه . وكان ذلك زائداً في جلالته عنده : وداعياً الى قبول رأيه لديهم »

ومثل ذلك ما اتفق لمذهب السافعي : من نصرة محمود بن سبكتكين ونظام الممالك في بلاد المشرق . وصلاح الدين الايوبي في مصر

فلما وضع هؤلاء الائمة الاربعة قواعد الفقه . وقف النقباء بعدهم . ونظروا الى ما وضع كأنه قطعة من الوحي . لا يجوز تعديله ولا تبديله ولا الخروج عنه ولا الزيادة عليه . وصرفوا همته الى وضع الشروح والتعليق والحواشي . على ما كانت كتب من قبل . فكان ذلك حجر عثرة في سبيل طلب الفقه : لما فيه من التطويل الممل : والابحاث العقيمة : مما يضيع على الطالب فكره ووقته .

ولم يقف ضرر هذه المطولات عند التشويش على الافهام : والتضييع في الاوقات . بل كان علة من دلت الجمود والانحطاط . قال السيد عبد الله جمال الدين : قاضي قضاة مصر في كتابه « السياسة الشرعية » وهو يعدد اسباب الانحطاط :

« سادساً تعمق الابحاث وتضيق الكتب حتى خرجت بالشرعية الحنيفية السمحاء عن الرفق والسذاجة »

وفي هذا الصدد والمعنى : يقول بن قيم الجوزية في كتابه « الطرق الحكيمة » : معترضاً على الذين قصر واعقولهم واعمالهم على ما كان من احكام السلف : غير مراعين تبدل الاحكام وتغير الازمان :

« وهذا موضع مزلة اقدام ومضلة افهام . وهو مقام ضنك : ومعتك صعب فرط فيه طائفة فعملوا الحدود وضيعوا الحقوق . وجرأوا اهل الفجور على الفساد . وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد : محتاجة الى غيرها . وسدوا على نفوسهم طرقاً صحيحة من طرق معرفة الحق والنفية ظانينهم منافاة التواعد الشرع »

وهو يقول في موضع آخر من كتابه المنوه به :

« واقد كان عبد الله بن عمر اذا احتجوا عليه بابيه يقول : ان عمر لم يرد ما يقولون فاذا اكثروا

عليه قال : افرسول الله احق ان يتبع ام عمر ؟

والمقصود : ان هذا وامثاله سياسة جزئية : بحسب المصلحة : تختلف : بخلاف الازمنة .

فظنهم من ظنها شرائع عامة لازمة الى يوم القيامة »

ومن هذا الباب : ما ذكره المحلوي قال : (١) « كان ابو عبيد علي بن حسين البغدادي

قاضي مصر - يذاكر في المسائل فاجبته يوماً في مسألة فقال لي : ما هذا قول ابني حبيفة . فقلت

له : ايها القاضي او كما قاله ابو حنيفة اقول به . قال ما ظننتك الا مقلداً . فقلت له : وهل قلد

الاعصبي . فقال لي او غي . فطارت هذه الكلمة في مصر حتى صارت مثلاً »

وكان ابو عبيد من قبل يذهب الى قول ابني ثور ثم صار يختار . فجمع احكامه

بمصر باختياره .

فغريب : ان يضيق الناس بعد ذلك على انفسهم هذا الضيق . فيزعموا

ان ليس لهم ان يروا رأياً لم ينص عليه من سبقهم . ولا ان يستنبطوا حكماً لم يقل به من كان

قبلهم . ولو انهم نظروا نظرة صادقة ، لرأوا ان الاحكام انما توضع تبعاً للحاجة . ولو انه جاز

للسلف ان يضع الخلف احكاماً في امور دنياهم ثابتة راسخة . لا تتغير ولا تبدل . لكان ذلك

حقيقاً بأئمة الصدر الاول من الخلفاء الراشدين . بل بالرسول نفسه . اما وانهم لم يفعلوا ولم

يفعل . فذاك ان لكل زمان حوادثه . ولكل حوادث احكامها

واهم مما قدمناه وادل على مخالفة الرأي حتى مع من هم فوق الأئمة والمجاهدين :
ما جاء في كتب السير :

« اراد النبي — صلى الله عليه وسلم — في بعض الحروب ان يعطي نصف اثار
فخيل مدينة لقبيلة من قبائل العرب لثلاثي مجاربوه مع قریش . فلما سمع السعدان : سعد بن
عبادة رئيس الحزرج ، وسعد بن معاذ رئيس الاوس . قالوا : يا رسول الله . هل
ذلك بوحى من الله ام رأي رأيته . قال بل رأي رأيته . فقالوا : لا وحقك لا
نعطيهم نصف ثمة . فاجابهما الرسول الى ما رأيا .

ومن ذلك يعلم ان ما كان يراه الصحابة وجميع المسلمين واجب التنفيذ غير قابل
للقض والتغير . انما هي السنة المنفذة المنصوصات .
ومن هذا القبيل :

« ان القافة (١) دلت عليها سنة الرسول . وعمل خلفائه الراشدين . والصحابة
من بعدهم منهم : عمر بن الخطاب وعلي بن ابي طالب وابو موسى الاشعري وابن عباس
وانس بن مالك ولا يخالف لهم في الصحابة . وقال بها من التابعين : سعيد بن المسيب
وعطاء بن ابي رباح والزهري واباس بن معاوية وقتادة وكعب بن انس واصحابه . ومن
بعدهم : الشافعي واصحابه واحمد واصحابه واسحق وابو ثور واهل الظاهر كلهم »
فلم يمنع هذا الاجماع المتصل المتسلسل . اباحيفه واصحابه من بعده ان يخالفوه فيقولوا :
ان العمل بالقافة تعويل على مجرد الشبه . وهو قد يقع بين الاجانب . وينتفي بين الاقارب .
واحسن ما قيل في هذا الباب قول ابن عقيل :

« السياسة الشرعية ما كان فعلاً يكون معه الناس أقرب الى الصلاح وأبعد
عن الفساد . وان لم يضعه الرسول . ولا نزل به وحى . فان اردت بقولك — الا ما وافق
الشرع — اي لم يخالف ما نطق به الشرع . فصحيح . وان اردت — ان لا سياسة
الا ما نطق به الشرع — فغلط . وتغليط للصحابة .

لقد سمع المتأخرون تلك الاقوال التي فيها من الرخص والاستقلال ما فيها .
ورأوا تلك الاحكام التي أقدم عليهم سلفهم مخالفة لسلفه . فلم يجروا مع هذا كله

(١) الطرق الحكمية . والقافة : الحاق الابن بابيه لمشايبته له .

على شيء من مثلها . وان قضت به حالة زمانهم . بل جبنوا عما ليس فيه مخالفة . ولكنه مجرد اجتهاد في الرأي .

لقد خاف الائمة على الناس ان يذهبوا قبائل في آرائهم . و يفسروا الشريعة حسب اهوائهم . فاحتاطوا للامربان جعلوا للاجتهاد باباً محدداً لا يفتح على مصراعيه . ولكن الناس كانوا على انفسهم اشد تضيقاً فصاروا الى ماصاروا اليه . واستمر القوم في جمودهم هذا وتقليد الملامى . حتى ضاقت حلقات الاحكام . عن ان تتسع لحاجات الايام . والزمان لتجدد احواله . والعالم لتغير اوضاعه . سنة الله في هذا الكون . فاضطر السلطان عبد المجيد في ٢٦ شعبان سنة ١٢٥٥ هجرية . و ٣١ تشرين الثاني سنة ١٨٣٩ ميلادية . ان يصدر مرسوم الاصلاح المعروف (بخط كلخانة) . فانشئت منذ ذلك الزمن المحاكم النظامية مستقلة عن المحاكم الشرعية . واخذت الدولة تقلد اوربا في قوانينها بل ترجمها قانوناً قانوناً . وفي كثير من الاحيان فصلاً فصلاً ومادة مادة . وانحصرت الاحكام الفقهية في المحاكم الشرعية وفي نطاق الحقوق ايضاً . غير انهم الفوا من الاحكام الفقهية خلاصة . وجزة . سموها « الحجة العدلية » ثم قيدوا ذلك وبينوا وجوه المحاكاة فيه ، بكتاب نقلوه عن الفرنسية — كما كثر ما نقلوا من القوانين — عرف بد (اصول المحاكاة الحقوقية) .

٣ آداب القضاء والقضاة — هذا مجال يقف فيه القلم عاجزاً ، واللسان قاصراً . واي امرىء مما أوتي من ضروب البيان . يستطيع ان يصف ما هو عليه هذا القضاء من العدل . وما كان عليه ذروه من قبل من الزاهاة والفضل . وحسبنا ان نقول : انه قضاء هو العدل بعينه بل العدل نسخة عنه .

يكثر — في كل أمة وفي كل زمان — ان يدعى الناس لانفسهم كثيراً من فضائل الاخلاق وهم منها براء . وينسبوا لوضاعهم الشرعية والاجتماعية انها المثل الاعلى في الكمال وهي اوضاع خرقاء . وقد يتفق ان تكون الانظمة عادلة فاضلة من حيث الوضع فحسب . ويكون بين القائمين بها وبين العدل والفضل . ما بين الشرق والغرب لذلك لاتقف عند ذكر ما اودعه هذا القضاء من الفضائل بل تتعداه الى ذكر

آداب القضاة انفسهم . حتى يعرف هذا الخلف العاثر حقيقة ذلك السلف الناهض
فلقد شرطوا على القاضي ان يكون :

موثقاً به في عفاه وعقله وفهمه وصلاحه ، وعلمه بالسنة والآثار . واقفاً على المسائل
الفقهية ، مقتدرآ على فصل الدعاوي . مهيبآ وقوراً . وحكياً وجيهاً صبورآ . يثق الله
ويقضي بالحق . ولا يقضي هوى بضله ، ولا لرغبة لغيره ، ولا لرغبة تزجره .
لا صغيراً ولا معتوهاً ولا اعمى ولا اصم .
وجعلوا من آدابه .

ان لا يطلب القضاء بقلبه ولا يسأله بلسانه .
وان لا يكون فظاً غليظاً . بل شديداً من غير عنف . ليناً من غير ضعف .
وان لا يجلس للقضاء وحده ، لان ذلك يورث التهمة .
وان لا يُسلم ، ولا يُسأَم عليه في مجلس الحكم .
وان لا يقدم رجلاً جاء غيره قبله .
وان لا يسار احد الخصمين ولا يشير اليه ، ولا يكلمه بلغة لا يفهمها خصمه .
وان يقضي - - اذا امكن - من غير ان يوغر الصدور ، وان يبين للمقضي عليه وجه قضائه .
واوجبوا عليه رد الهدية . ولو تأذى المهدي بالرد ، يعطيه مثل قيمتها . ولو تعذر
ازد لعدم معرفته ، او لبعده مكانه . وضعها (اي القاضي) في بيت المال .
ومن آداب هذا القضاء واصوله . انه جعل القاضي ضامناً اذا اخطأ . وهذا الضمان :
يكون تارة في بيت المال ، وهو اذا اخطأ في حد ترتب عليه تلف نفس او عضو . وتارة
يكون في مال المقضي له ، وهو اذا اخطأ في قضائه في الاموال . وتارة يكون هدرآ وهو
اذا اخطأ في حد ، ولم يترتب على ذلك تلف نفس او عضو . كحد شرب مثلاً . وتارة
يكون في ماله (اي مال القاضي) وهو اذا تعمد الجور .

وهذه قطعة من كتاب عمر (رض) الى ابي موسى الاشعري حين ولاه قضاء
الكوفة . ولعله من امتع الكتب في هذا الباب . واجمعها لآداب القضاة والقضاء .

« ان القضاء فرضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم اذا ادلي اليك ، فانه لا ينفع تسكُم
بحق لا تنفذ له . وآس بين الناس في وجهك وبجاسك وعدلك . حتى لا يطمع شريف في

حيثك ، ولا يأس ضعيف من عدلك . . . لا يمنعك قضاء قضيته امس ، فراجعت اليوم فيه عقلك ، رهديت فيه لرشدك ، ان ترجع الى الحق ، فان الحق قديم . ومراجعة الحق خير من التماذي سيف الباطل . . . واياك والقلق والتجبر ، والأنف بالخصوم ، فان استقرار الحق في مواطن الحق ، يعظم الله به الاجر ، ويحسن به الذكر .
ومن ذلك ما كتبه الامام علي ، الى الاشرع النعمي عامله في مصر :

« ثم اختر للحكم بين الناس ، افضل رعيته ممن لا تفيق به الامور . ولا تمسكه الخصوم . ولا يتماذى في ازالة . ولا يحصر من اني الى الحق متى عرفه . ولا تشرف نفسه على طمع . ولا يكتفي بادنى فهم دون اقصاه . او قفهم في الشبهات . واخذهم بالحجج . واقلهم تبرما . ومراجعة الخصم ، واصبرهم على تكتشف الامور ، واصبرهم عند انضاح الحكم . ممن لا يزدنيه اطرا . ولا يستمليه اغراء . . . تاكبر تعاهد قذانه . وافسح له في النذل ما يزيل نذره ، وتقل معه حاجته الى الناس . واعطه من ازالة لهيك ، ما لا يطمع فيه غيره . ومن خاصتك ، لياأس بذلك اعتيالى الرجال له عدلك »

هذه طائفة من الآداب ، التي اوجبها الشرع وحماته على القضاة . نبي نايان ان انظر الى هؤلاء فرى ، اقلما بحق هذا الامر ؛ ام كان نايان سطرته بطون الكتب وظل العمل به من قبيل الخيال ، او تدوير الخيال ، شأن العلماء سرته وغربه ، في كثير من الامور رلا سيما ما يتعلق منها ، بالامثال والآداب .
جمعوا من شروط التوايه كاسبق فذكرناه . ان لا يطالب القاضي التقيا بقلبه ولا يسأله بلسانه .

ولكن قضائنا السابقين ، لم يقنوا عند هذا الحد ، بل تماموا القضاء . واحذوا في ذلك كل عذاب وبلاء .

فلقد كتب عمر بن عبد العزيز الى نايان به : اعراف وهو ندى من اوطاة :
« ان اجمع بين اياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة الترسى . مول قضاء البصرة اتدما . خضع بينهما .

فقال له اياس : ايها الامير ! سل عني . عن القاسم فقيهي المصير . الحسن البصري ومحمد بن سيرين . وكن القاسم ياتيها واياس لا تاتيها . فعيا القاسم انه ان سألها آثارا به

فقال: لا تسأل عني ولا عهد ! فوالله الذي لا اله الا هو ان آياس بن معاوية افقه مني وأعلم بالقضاء . فان كنت كاذبا فما يجعل لك ان توليني ، انا كاذب . وان كنت صادقا فينبغي لك ان تقبل تولي . فقال له آياس انك جئت برجل واثمة على سبب جهنم فنبى نفسه منها يبين كذبه . سمعنا الله منها ونخبر مما يخبر . فقال ندي بن ارضاة اما اذ فهمتها كانت لها . واسئلة قضاء (١)

واراد يزيد بن شهر بن هيرة النزازي . امير العراقيين زايام مروان بن محمد آخر بني أمية . اوحى اليه على قضاء الكوفة ، فابى فغضب به مائة سوط وعشرة اسواط : كل يوم . عشرة اسواط ، وهو على الامشاج . فلم رأى ذلك منه . حتى سبيله .

قال الزبير :

" رايت المنصور ، ينازل احنيفة في امر انصا . وهو يقول : اتق الله ! ولا ترع في امالك الا من شاف الله . ودمعنا بما يؤمن الرضا ، فكيف يكون مأمون الغضب . ولواتجه اسكن . انت ما تهدي . بمرقني في الثرات اولى احكم . لا خبرت ان اغرق ، ولان حاشية . من يركبهم لك ، ولا اصلي لك . فقال له كذبت انت تصليح . فقال له : نعم حكمت . على نفسي . كذب يجعل لك ان تولي قاضيا على امانتك وهو كذاب ؟ (٢)
ثم دسي اوحيفة ان القضاء مرة مائة ، فدا . حتى استتبر اصحابي ، فاستشار ابي يوسف . فقال لو سميت . تحت امانس . نظر اليه ابو حنيفة نظر المغضب وقال : ارايت لو سميت ان اصر اشر . ساحة . كنت اقدر اليه ! ومات وهو على الالباء .
ودني محمد الشيباني الى القضاء فابى . حتى قيد وحبس واضطر فقبل .

ومن غرور من القضاء عد الله بن وهب بن مسلم استبد عباد بن محمد بن حيان . الى المؤمنين على مصر سنة ١٩٦ ان يوايه قضا . ما فاسنارمه . قال احمد بن عبد الرحمن وتعب . نبي . من يحسن حرمله . فبه عباد بعض داره . قيل وسمع ان وهب اتاه ذات يقول : يا رب يقدم عليك اخواني عدا عليا . حلوا فقهاء . واقدم عليك قاضيا لا يارب دلو قروفت . بالمراض .

وكن جمع آراءه وادله فسارده فقالوا له : نعل ان يغيا اسق على يدك فقال لهم :

(١) . شرح مقامات الخواري للشريسي وابن خلكن (٢) ابن خلكن .

أكله في بطونكم اردتم ان تأكلوا ذهبي .

وحياة أرادته على القضاء يزيد بن حاتم امير مصر من قبل المنصور فقال حياة : لست أفعل فافعل ما انت صانع . فتركه وولى ابا خزيمه الرعيي وسمع حياة يقول بعد ذلك : ابو خزيمه خير مني اختبر فصيح ولم أختبر .

وسعيد بن ربيعة اخذه الوليد بن رفاعه بالقضاء فامنع فقيل لسعيد : استعهم عليهم حتى يكون لنا عذر ففعل ولم يقض بين اثنين .

وسفيان الثوري ، كتب له المهدي عهداً على قضاء الكوفة ، وان لا يعترض عليه في حكم ، فرمى به في دجلة وهرب . وعلي بن معبد بن شداد العبدى عرض عليه المأمون قضاء مصر فامنع ثم اراده المتوكل على قضاء مصر فابى ايضاً فأكرهه اصحابه .

وفي هذا الالباء عن تولى هذا المنصب — على ما كان من رفعة وعظيم شأنه وسعة وظيفته — دليل على ما كان في قلوب هؤلاء الناس من القهرج والتأثم ، ان يشبه لهم ، فيخرجوا في احكامهم عن محبة الحق والصواب . وتخوفوا على نفوسهم مما قاله الرسول (ص) : « من ولي القضاء ، فقد ذبح بغير سكين » . واقلواه :

« القضاء ثلاثة ، اثنان في النار وواحد في الجنة : رجل عرف الحق ف قضى به فهو في الجنة . ورجل عرف الحق فلم يقض به وجار في الحكم فهو في النار . ورجل لم يعرف الحق ف قضى للناس على جهل فهو في النار . »

اما وقد نوهنا بهذا النفر ممن ابو ان يتولوا القضاء فقد حق لنا ان نذكر قطعة من اخبار من ولي هذا الامر لتدل على مبلغ العدل من نفوسهم ، وكيف انهم تقيدوا بالآداب التي اشترطها عليهم القضاء تقيداً تاماً . وعدلوا عدلاً نقصر المحبة عن ان تطامع الى ما وراءه . بل تعجز النفوس — مهما بلغ منها العدل — ان تطمع في مثله .

وقع خلاف بين امير المؤمنين ابي جعفر المنصور وزوجته ام المهدي بنت يزيد الحميرية — والغوث بن سليمان الحضرمي على قضاء مصر — فاستقدمه الخليفة وقال له : « يا غوث ! ان صاحبكم الحميرية ، خاصمتني اليك في شروطها ، قال غوث : فقلت ايرضي امير المؤمنين ان يحكمني عليه ؟ قال نعم . فقلت : ان الاحكام لها

شروط أفصحتم لها امير المؤمنين؟ قال نعم . قلت يأمرها امير المؤمنين ان توكل وكيلًا وتشهد على وكالته خادمين حريين يعدلها امير المؤمنين على نفسه ففعل . فوكلت خادمًا وبعثت معه كتاب صداقها وشهد الخادمان على وكالتها . فقلت قد تمت الوكالة فان رأى امير المؤمنين ان يساوي الخصم في مجلس فانحط عن فرشه ، وجلس مع الخصم . قال غوث ودفع الي الوكيل كتاب الصداق ، فقرأته عليه وقلت . يقر امير المؤمنين بما فيه ؟ قال نعم . قلت ارى في الكتاب شروطًا مؤكدة بها تم النكاح بينكما ارايت يا امير المؤمنين ، لو خطبت اليهم ولم تشترط لهم هذا الشرط اكانوا يزوجونك ؟ قال لا . قلت فهذا الشرط تم النكاح : وانت احق من وفي لما بشرطها (١)

وعن يحيى بن عبد الصمد قال :

« خوصم امير المؤمنين الهادي الى القاضي ابي يوسف في بستان . وكان الحكم في الظاهر للهادي وفي الباطن خلاف ذلك . فقال الهادي لابي يوسف — ما صنعت في الامر الذي تتنازع اليك فيه ؟ فقال خصم امير المؤمنين يسألني ان احلف امير المؤمنين : ان شهوده شهدوا على حق . فقال له الهادي وترى ذلك ؟ قال فقد كان ان ابي ايلي يراه . فقال اردد البستان عليه . وانما احتال عليه ابو يوسف لعله انت الهادي لا يحلف (٢)

وكان ابو يوسف على ما مر بنا قاضي الرشيد ، بل قاضي القضاة في ايامه . ولقد نال عنده المازلة التي لا يتعلق بها درك . ومع هذا في فقد قضي عليه خصومة بينه وبين نصراني . وروي انه قال حين ادركته الوفاة :

« اللهم ! انك تعلم اني وليت هذا الامر فلم امل الى احد الخصمين ، حتى بالقلب الا في خصومة نصراني مع الرشيد لم اسوء بينها وقضيت على الرشيد ، وبكي (٣) وشهد عنده يوماً من الايام ، الفضل بن الربيع وزير الخليفة فود شهادته فعانبه الخليفة في ذلك قائلاً : لم رددت شهادته ؟ قال :

« سمعته يقول لك انا عبدك فان كان صادقاً فلا شهادة للعبد وان كان كاذباً فكذلك » (٤)

(١) اخبار قضاة مصر (٢) الطرق الحكيمة (٣) حاشية ابي عابدين (٤) ابن خلكان

واقبل صاحب خراسان يشهد عند اس فقال له : مالك وللشهادة ؟ انما يشهد
السوقة . قال صدقت وانصرف ، فقليل له خدعك انه لا يقبل شهادتك . (١)
ولما ولي القضاء على مصر ، توبة بن نمر الحضرمي مستهل صفر سنة ١١٥ دنا
امراته عنيرة الأسجعية وقال لها : (٢)

يا ام محمد ! اي صاحب كنت لك ؟ قالت خير صاحب واكرمه .
قال فاسمعي ! لا تعرضن لي في شيء من القضاء ولا تذكري بخصمه ولا تسألني عن حكمه .
فان فعلت شيئا من هذا فان طاق . فاما ان تقبلي مكرمة ، واما ان تذهبي زهد .
فكنت ل ترى دواته قد احتاجت الى الماء فلا تمر بها ان تمدد خوفا من ان يرحل
عليه في يمينه نبي .

وسرط محمد بن صالح الهاشمي العباسي ناوولي قضاء الفد سادة بغداد وأخيه اليه
قضاء مصر والشام وغيره ، سره من فيها ان لا يمارس على الفد سادة سوا ولا يدس في شاة
في فعل ما لا يجوز ولا في ايهات حق .

وقد بلغ من استقلال القضاء في آرائهم ، وعد انقيادهم الى اسماء الشان السنان
ان احدهم كان يربأ بنفسه ، ان يزل على امر سطانة ، اذا خالف معتقده . وقد كان
عن احمد بن طولون صاحب مصر انه كان يبالغ في اكرام قاضيهما تكرر من تقييد نسبي ،
حتى انه كان يدفع له كل سنة الف دينار غير المقرر له . فكان تكرر يدركها شيئا ولا
يتصرف فيها . فلما دنا من حلق الموفق بن المنوكل ، وهو والد المعتمد ، من ولاية العهد .
امتنع بكار (٣) فاعتقله احمد ، ثم حازه بمدة المبلغ الذي كان يتخذ كل سنة .

(١) العقد القوي بد (٣) اخبار القضاء (٣) وفي ذيل اخبار القضاة ان بكار اجاب
الى حلق الموفق من ولاية العهد . واما ما ذكره اسهد على دسه فهو سائر قضاة الشام والعمور
واكنه امتنع عن اعنه وكان احمد قد امد به . فبالج عليه فاحصر تكرر على الامام الى ان ابل
الا له الله على الظالمين . فقال ان شاء الله كان تقييد الطالبين بمصر : ايها الامر انه
عاداك . فغضب به احمد وامر بتزيق يان وجرحه وايس عليه الاسراويل وخزان
وقلنسوة ، مساوب الديار تحمل من يديده الى السجن . واقامه للناس يطالبونه بظامه
يدعونها عليه وكان النحاوي يقول ما تعرض له احد فافلح بعد ذلك .

اليه بجمعه ، وكان نائبة عشر كيتاً . فاستى احمد منه . وكان يظن انه اخرجها
وانه يجوز عن القمام بها . (١)

هذا قليل من كثير عن عدل هؤلاء القضاة ومتين اخلاقهم ، وانى يخاف امرؤ
ان يضيع عندهم حقه وهم بهم وحالهم . اراى ينأى الخلفاء واصحاب السلطان الذين اليهم مرجع
الامر . بقى ان نرجع بصرنا قليلا الى ذلك العهد . ارى ما هي الاسباب التي سمت بهذه النفوس
فرفعت الى ذلك المستوى الباذخ . حيث نزهت عن الاغراض وتجردت عن المآرب .
ان ذلك يرجع الى اسباب عدة . منها :

- ١ — الفطرة الخالصة التي كان قروباً عهدها .
 - ٢ — الدين وما كان من اثره في النفوس من حيث التريتين الدينية والدينية .
 - ٣ — ما كان عليه دور السلطان : خلفاء وامراء ولا سيما في الصدر الامر ،
من العدل والحيث الذي كان مثلاً لقضايتهم ولذين جاؤا من بعدهم على الاثر :
 - ٤ — ما كثر عليه الامة من الانفة ان تستكين الى جور او انما على مظلمة .
 - ٥ — تميز القضاة من رحالات لهم من ابناء النفس وسرف الصيت وصحيح
العلم ، ما يخافون معه على عرضهم ان ينانه لسان بحق .
ونحن نقص على مسامعكم شيئاً يؤيد ما قلناه .
- « جاءت عمر بن الخطاب برود من اليمن . ففرقها بين المسلمين . فخرج في نصيب
كل رجل برود واحد . ونصيب عمر كمنصيب واحد منهم . قيل ، واعتلى عمر المنبر
وعليه الرد وقد فصله قميصاً . فمدت الناس الى احباده . فقال له رجل لا سمعاً ولا
طاعة . قال عمر : ولم ذلك ؟ قال الرجل . لانك استأثرت علينا : لقد خرج في
نصيبك من الابرار اليمنية برود واحد ، وهو لا يكفيك توباً ، فكيف فصلته قميصاً .
وانت رجل طويل ؟ فالتفت عمر الى ابنه قائلاً : اجبه يا عبدالله . فقال عبدالله لقد
ناوتك من بردي فاتم قميصه منه . قال الرجل : اما الآن فالسمع والطاعة (٢) . »
- وحديث من اراد ان يقوم اعوجاجه بحد سيفه مشهور .
ولما ضرب ابن ملجم علياً جمع الامام ابناءه وقال لهم :

« يا بني عبد المطلب ! لا الفينكم تخوضون دماء المسلمين خوفاً ، تقولون : قتل امير المؤمنين الا لا تقتلن بي الا قاتلي . انظروا اذا اقامت من ضربته هذه ، فاضربوه ضربة بضربة . ولا يمثل بالرجل . فاني سمعت رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — يقول : اياكم والمثلة ولو بالكلب العقور . »

ودخل علي بن ابي طالب مع خصم له ذمي ، الى القاضي شريح فقام له . فقال : « هذا اول جورك »

وشكته ذمية الى عمر بن الخطاب فقال له : يا ابا الحسن الى خصمك فقام مغاضباً فقال له وقد نفى بينها — اساءك يا ابا الحسن ان ادعوك الى خصمك وانت مكذوب عليك ؟ قال كلا يا امير المؤمنين لم يسوئي هذا وانما ساء في ان تدعوني يا ابا الحسن ، اهل الخصم يداخله شيء من الرهبة او التحفظ ان كنت كنيثي .

ومثل ذلك ، ما وقع للأمو ، في قضية رفعتها اليها امرأة على ابنه العباس في حديث طويل مشهور . ونحن نجتزئ بهذا القدر حتى لا يطول نفس الكلام .

ولقد بلغ من تحفظ اولياء الامر والقضاة ، انهم رأوا ان قضاء احد هريجه موجب للتهمة ، فجعلوا ينصرفون عنه فاقد روي عن ابي بكر انه قال : لو رأيت رجلاً على حد من حدود الله لم آخذه حتى يكون معي شاهد غيري

وعن الضحاك ان عمر اختم اليه فيما يعرفه فقال للطالب ان شئت شهدت ولم اقض . وان شئت قضيت ولم اشهد وعن الشعبي . انه قال : لا اكون شاهداً وتاضياً (١)

٤ ما يأخذونه على القضاء — اكثر ما يأخذونه على هذا القضاء — حتى بالنسبة الى المصدر الاول —

الشهادة : فيما يتعلق بالمرأة ، وبغير المساء
أشهادة المرأة : يقولون : ان القضاء الاسلامي امتن المرأة وصغر من شأنها
اذ جعل شهادتها على النصف من شهادة الرجل
ومن نظر نظراً صحيحاً رأى ان ذلك لم يكن احتقاراً لها ولأنها اعجز في ذاتها من

الرجل — واقل ثقة منه . بل لان النساء يعذر غالباً حضورهن مجالس المحاكم . وحفظهن وضبطهن دون حفظ الرجال وضبطهم . قال ابن قيم الجوزية :
 « انا لانسلم ضعف شهادة المرأتين اذا اجتمعتا . ولهذا نحكم بشهادتهما مع الرجل .
 وان امكنه ان يأتي برجلين . فالرجل والمرأتان اصل لا يبدل ، والمرأة كالرجل في
 المصدق والامانة والديانة . الا انها لما خيف عليها السهو والنسيان ، قويت بمثلها . وذلك
 قد يجعلها اقوى من الرجل الواحد او مثله . ولا ريب ان الظن المستفاد من رجل واحد
 دونها ودون امثالها . »

وقبل كثير من ائمة الفقهاء ، شهادة انساء ليس معهن رجل . ولقد سئل الامام
 احمد في الرجل يوصي ولا يحضره الا النساء ؟ قال أجزى شهادة النساء . فظاهر هذا
 انه يثبت الوصية بشهادة النساء على الاقتراد اذا لم يحضره الرجال .
 وذكر الجلال عن احمد : انه سئل عن الرجل يوصي بأشياء لا تاربه ويعتق ، ولا
 يحضره الا النساء هل تجوز شهادتهن ؟ قال نعم تجوز شهادتهن في الحقوق .
 وقد حكموا بشهادة امرأتين و يمين المدعي . في الاموال وحقوقها وهذا مذهب مالك .
 فانظر ! اين هذا من قول العابثين على هذا القضاء ازدراء المرأة . ثم اليس هذا الذي
 يأخذونه على هذه الشريعة . يرد على غيرها من الشرائع والقوانين ؟ أليست هذه
 الشهادة هي اليوم ايضاً موضع بحث رجال القانون في اوربا ؟
 وهذا المسيو (كيلر) الحامي امام محكمة باريز الاستثنائية ، عقد في كتابه
 (السر في خطأ القضاء) فصلاً خصيصاً للمرأة ابان فيه ما يعرض لها من الوهم . وما ينبعث
 عن ذلك من الخطأ في الحكم . وتوسع في ذلك توسعاً لا يقف عند تحديد شهادة المرأة .
 ولكنه يقضي على هذه الشهادة من حيث هي .

٢ شهادة غير المسلم : اما شهادة غير المسلمين على المسلمين . فقد غلب فيها
 المنع . لانه اشترط في الشاهد ان يكون عدلاً ، ولما كان كل دين آداب خاصة . فقد يكون
 العدل في دين ، غير عدل في دين آخر . وعلى هذا استند القائلون بانه « اذا
 اختلفت المال لم تجز شهادة بعضهم على بعض » (١)

(١) روى ذلك بن ابي شيبة عن ابن عيينة بن يونس عن الحسن .

يؤيد ما قلناه ان القضاء كانوا يقبلون شهادة النصارى على النصارى واليهود على اليهود ويسأل عن عدالتهم في اهل دينهم (١) ولكن هذا المنع لم يكن جازماً باتاً في كل حالة . فلقد قال مالك « تجوز شهادة الطبيب غير المسلم على المسلم للحاجة » (٢)

وفي الكتاب الكريم سورة المائدة : « يا ايها الذين آمنوا شهداء بينكم اذا حضر احدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم . او آخران من غيركم ان انتم ضربتم في الارض » قال ابن قيم الجوزية : في كتابه (الطرق الحكيمة)

« قال شيخنا رحمه الله : وقول الامام احمد في قبول شهاداتهم (يريد غير المسلمين) في هذا الموضع . هو ضرورة ، يقتضي هذا التعليل قبولها في كل ضرورة : حضراً وسفراً وعلى هذا لو قيل : يحلفون في شهادة بعضهم على بعض ، كما يحلفون في شهاداتهم على المسلمين في وصية السفر لكان متوجهاً . ولو قيل : تقبل شهادتهم مع ايمانهم ، في كل شيء عدم فيه المسلمون . لكان له وجه . ويكون بدلاً مطلقاً . »

فيرى المنصف ، ان امر هذه الشهادة ، سواء أكان في حق المرأة ؟ ام غير المسلم ؟ لم يجيء ازدراءً وتعصباً ، ولكن كان له مواضع خاصة . وعلل واسباب لا ينكرها امروء اوتي الرشد والنصفة .

وهل ادل على ان هذا الشرع ، انما شرع للعدل المطلق ، وان الاولين لم يقيدوه بقيود بتخرجه عن الطريق اللائق والصراط القويم ، من قول ابن قيم الجوزية : « والمقصود ، ان البيئة في الشرع تكون اربعة شهود . وتارة ثلاثة بالنص في بيئة المفلس . وتارة شاهدين . وشاهداً واحداً . وامراً واحداً . ونكولاً ويميناً . او خمسين يميناً . او اربعة ايمان . » الى ان يقول :

« فاذا ظهرت امارات العدل . واسفر وجهه باي طريق كان . فتم شرع الله ودينه . والله سبحانه اعلم واحكم واعدل من ان يخص طرق العدل وامارته واعلامه بشيء . ثم يبنى ما هو اقوى دلالة ، وابين اماره . »

(١) اخبار قضاة مصر (٢) ابن قيم الجوزية .

٤ القضاء في الاسلام ، والقوانين في هذه الايام — جا — هذا القضاء بكثير من الاصول والاحكام التي يزعم اكثرنا انها كانت مجهولة لولا القوانين الحديثة . واذا كان في هذا الشرع الذي اقبل بابه منذ مئات من السنين ، نقص عن حاجات هذا الزمن ، فان فيه كثيراً مما يوافقها ، بل فيه ما قصرت عنه مثله هذه القوانين . واليكم ادلة على ما نقول .

الادعاء العام — فوض القانون الى المدعي العام ، ان يتابع الجرائم ، فيقيم الدعوى على فاعلها . وان يدافع عن الحق العام . ويخاصم كل من يعيث به . وهو يكاد يتدخل في كل دعوى جزائية . واما في الدعاوي الحقوقية . فقد نص على خطته في المادة (٦٥) من اوضاع المحاكم النظامية . وخلاصتها : انه يتدخل في كل ما يندرج تحته اسم الحق العام ، صراحة او ضمناً . كـ أموال الدولة ، والمؤسسات العامة ، وصكوك الوصية التي تعود لجهة الر . ورد المحكام . والتكوى منهم . ودعاوي من هم قيد الوصاية ، والغائبين . الخ

وهذه الخطة لم يغفل الشرع امرها . وقد سماها الاصوليون حقوق الله . وعرفوها بانها ما تعلق نفعه بالعام ، ويجب على ولي الامر اقامتها : مثل جزاء السارق ، وقاطع الطريق ، واللص وغيرهم من اهل الفسق والفجور . قال ابن تيمية في كتابه (السياسة الالهية) ما نصه :

« الحدود والحقوق هما قسمان : فالاول الحدود والحقوق التي ليست لقوم معين ، بل منفعتهما لامة المسلمين ، او نوع منهم ، وكلهم يحتاج اليها وتسمى حدود الله ، وحقوق الله مثل : حد قطاع الطريق ، والسراق ، والزناة ونحوهم . ومثل الحكم في الاموال السلطانية ، والوقوف ، والوصايا التي ليست لمعين . فهذه من اهم امور الولايات . »
ففي هذا الكلام خطة المدعي العام . فالشق الاول حدد وظيفته في الامور الجزائية . والشق الثاني اشار الى ما ينبغي عليه في الامور الحقوقية « المدنية » . وهي تكاد تكون — ووظيفته في هذه الايام — وظيفة واحدة . ثم قال :

« وهذا القسم (اي الحد الذي يتعلق به حق الله) يجب على الولاة البحث عنه . واقامته من غير دعوى احده . وكذلك تقام الشهادة فيه من غير دعوى احده . وان

كان الفقهاء قد اختلفوا في قطع يد السارق ، هل ينظر الى مطالبة المسروق به . اكنعم
منفقون على انه لا يحتاج الى مطالبة المسروق بالحد . بل اشترط بعضهم المطالبة بالمال
لئلا يكون للسارق فيه شبهة »

نزيد على ذلك ان المدعي العام يسمى في القوانين التي نقلنا قوانيننا عنها (وكيل
الامبراطور) او (وكيل الملك) . فهم قد جعلوا هذا الحق الى ولي الامر وكذلك هو
الشرع الاسلامي واذا كان الامبراطور او الملك ، قد وكل عنه من يتولى خطة
الادعاء العام . فقد سبق للخلفاء ففعلوا ذلك ، وسموا وكيلهم في هذا الشأن صاحب
الشرطة . وجعلوا اليه المطالبة بحقوق الله . وهي ما قلنا عنها انها الحق العام نفسه .
وكما ان المادة ال ١٥٥ من اصول المحاكم الجزائية ، فوضت الى المدعي العام ،
ان يطلب تنفيذ الحكم من الجهة التي تعلق به ، فكذلك كان امر صاحب الشرطة
في تنفيذ الاحكام .

الحق الخاص والعام — ليس رجوع المدعي عن دعواه بمؤثر ، في ما يتعلق به
الحق العام — الا في امور معينة — وكذلك في الشرع لم يجعل رجوع المدعي عن
دعواه سبباً بترك من اجله او الحق الالهي الذي هو الحق العام جاء في (السياسة الالهية) :
« وفي الصحيحين عن عائشة (رض) ان قریشاً اهتمت بأن الخزومية التي سرق
فقالوا من يتكلم فيها عند رسول الله (ص) فقبل : ومن يجترئ عليه الا أسامة بن
زيد . قال يا أسامة ! اتشفع في حد من حدود الله ؟ انما هلك بنوا اسرائيل انهم كانوا اذا
سرق منهم الشريف تركوه . واذا سرق فيهم الضعيف اقاموا عليه الحدود . والذي
نفس محمد بيده ، لو ان فاطمة بنت محمد سرق . لقطعت يدها . »
ومثل ذلك ما رواه بن تيمية ، في كتابه هذا قال :

« كان صفوان ابن أمية نائماً على رداء له . فجاءه لص فسرقة . فأقْبى به الرسول .
فامر بقطعه . فقال يا رسول الله . اعلى ردائي لقطعه ؟ اني اهبه . قال ففلا قبل ان تأتيني
الاستنطاق — وكذلك يقال عن الاستنطاق ، فلقد كان الامام علي اول من
اجراه على ما يقرب من اصوله الحاضرة ، بل على هذه الاصول عينها . ذلك ان شاباً
شكا اليه نقراً فقال :

« ان هؤلاء خرجوا مع ابي في سفر ، فعادوا ولم يعد ابي . فسألتهم عنه فقالوا مات . فسألتهم عن ماله فقالوا ما ترك شيئاً . وكان معه مال كثير . وترفعا الى شريح ، فاستعملهم وخالى سبيلهم (١) فدنا علي بالشروط فوكل بكل رجل رجلين . واوصاهم ان لا يمكنوا بعضهم ان يدنوا من بعض ، ولا يمكنوا احداً يكتب . ودعا كاتبه . ودعا احدهم فقال : اخبرني عن ابي هذا الفتى ، اي يوم خرج معكم وفي اي منزل نزلتم ، وكيف كان سيركم ، وبأي علة مات ، وكيف اصاب بماله ؟ وسأله عمن غسله ودفنه . ومن تولى الصلاة عليه واين دفن ؟ ونحو ذلك . والكاتب يكتب . ثم دعا آخر بعد ان عيب الاول عن مجلسه ، فسأله كما سأل صاحبه . ثم الآخر كذلك حتى عرف ما عند الجميع فوجد كل واحد منهم يخبر بصدقه ، والخبر به صاحبه . فضيق عليهم . فاقرروا بالقصة : فاغرمهم المال ، واناد منهم بالقتيل »

التريق بين الشهود — وكان الامام علي ، يفرق بين الشهود ، ويستشهد كلاً على حدة . وهذا وفاق المادة القانونية القائلة « ان الشهود يؤدون الشهادة فرداً فرداً » السجن بالدين — وكان لا يحبس بالدين ، ويقول انه ظلم — الا ان يظهر بقريشة انه قادر مماطل — وهذا ما جرت عليه القوانين الحديثة . وكذلك كان خير بن نعيم الحضرمي قاضي مصر يسجن بالديون ثم يكشف عن امره اذا ادعى العدم فان شهد له به اطلقه من ساعته .

الاوراق الرسمية — ان الاصول الحديثة ، تعد المحاضر والاعلامات والاوراق الرسمية صحيحة ، الى ان ثبت تزويرها . وهذا ما كان يفعله القضاة . فقد قال ابن قيم الجوزية : « وقد كان القاضي يحيز كتب غيره من القضاة ، بغير محضر الشهود . فان قال الذي حي عليه بالكتاب ، انه زور . قيل له : اذهب فالتمس المخرج من ذلك » الترجمان — في اصول المماكمة الجزائية المادة ال (٢٨٦) ما نصه :

(١) وفي لسان العرب : ورفع الى علي رضي الله عنه امر رجل سافر مع اصحاب له فلم يرجع حين قفلوا الى اهلهم فأتته اهل اصحابه فرفعوه الى شريح فسأل الاولياء البينة فعجزوا عن اقامتها . واخبروا علياً بحكم شريح فتمثل بقوله :
اوردها سعد وسعد مستمل باسعد لا تروي بهذاك الابل

« اذا لم يحسن المتهم او الشهود او احدهم ، التكلم باللسان الذي يتكلم به الآخرون . ف رئيس المحكمة يعين ترجماناً رسمياً يكون له من العمر لا اقل من احدى وعشرين سنة . ويحلف انه يترجم واقع الحال الخ . »
وفي الفتح : اذا كان الحاكم يعرف لسان الخصم يكفي له ترجمان واحد . فاذا لم يعرف لسانه فلا يقبل فيه الا عدلان كالشهادة »

وفيه عن مالك : « و يشترط في الترجمان ان يكون ثقة ، عدلاً ، اميناً ، عتيقاً . »
فالشروط التي اشترطها الشرع تشمل الاغراض التي رعى اليها القانون ، ونفصلها من وجوه .
انواع الجرائم — جعل الفقهاء الجرائم وعقوباتها على نوعين :

« العقوبة المقدرة للجرائم الكبيرة . وهي تكون بالقود والقصاص والحد — ويغلب عليها اسم الجناية — والعقوبة غير المقدرة لما دون ذلك . ويرجع امر تقديرها للحاكم . ويكون التأديب فيها : بالحبس او الضرب او الصفع او الكلام العنيف وما اشبه . وأطلق بعض الفقهاء عليها اسم الزلة — وكذلك قسموا القتل الى عمد وشبه عمد وخطأ . وعرفوا كلاً منها تعريفاً جميلاً »

درجات المحاكم — جعلت القوانين المحاكم درجات ، صيانة للعدل .
« وكان الامام علي قد انشأ ديواناً سمي (ديوان المظالم) كان يلجأ اليه المتظلمون من الاحكام التي تصدر عليهم . وتابعه في ذلك بنو أمية ثم بنو العباس . غير ان عبد الملك بن مروان أفرد لهذا الديوان يوماً معلوماً يتصفح فيه قصص المتظلمين وكان اذا وقف منها على متكل رده الى قاضيه ادريس الاودي فينفذ فيه الحكم . وكان ادريس المباشر وعبد الملك الآخر (١) . وكان سائر الخلفاء بين من يجلس هذا المجلس بنفسه ، كالفعل الي نابي طالب وعمر بن عبد العزيز من بني أمية والمهدي والهادي والرسيذ والمأمون ثم المهدي من بني العباس .

وفي المنهج المسبوك : لما قضى ملك السام الى الملك العادل نور الدين بن زنكي بني له داراً في قلعة دمشق سماها دار العدل ، فكان يجلس فيها فيتصفح قصص المظلومين ويفصل بين المتنازعين ولديه الفقهاء وأئمة الدين فيرجع اليهم ما أشكل عليه من امور الشرع (٢) .

وبين من يكله الى قاضيه »

الظنين واليمين — حظرت القوانين ان يحلف الظنين او المتهم . وعدت ذلك أثراً من آثار الحمجية . لان الرجل يقف عندئذ بين احدى خطتين : كذب كاسر من نخوته ، او صدق مضيع لحرته ، متلف لنفسه .

وقديماً قال ابن القيم الجوزية ، في كتابه (الطرق الحكيمة) :

« وقد استثنى من التحليف في الحدود صورتان : احداها اذا قذفه فطلب حد القذف . فقال القاذف حلفوه انه لم يزن فذكر أصحاب الشافعي فيه وجهين . والصحيح قول الجمهور انه لا يحلف ، بل القول بتحليفه في غاية السقوط . فان الحد يجب بقذف المستور ، وليس من شرطه ان لا يكون قد اتي بالفعل في نفس الامر . ولهذا لا يسأل الحاكم عن ذلك ولا يجوز له سؤاله . ولا يجب عليه الجواب . وفي تحليفه تعرضه للكذب واليمين الغموس ، ان كان قد ارتكب ذلك . او تعرضه للضيعة نفسه ، واقراره بما يوجب عليه الحد . او فضيخته بالنكول الجاري مجرى الاقرار . »

ادغام العقاب — لما ارتقت الهيئة الاجتماعية رقت قوانينها — فكان من وراء ذلك ان جعلت الجزاء اصلاحاً وتأديباً . لا انتقاماً وتعذيباً — وجاءت المادة الـ (٢٩٩) من اصول المحاكمة الجزائية تقول في شقها الثاني :

« اذا ارتكب المتهم عدة جنایات وجنحات معاً . فتجزم بالجزاء المعين للجرم الاشد عقوبة »

ومثل ذلك ما قاله ابو يوسف في كتابه (الخراج) .

« وان لم يكن القاذف ضرب للاول ، حتى قذف آخر ، فانه يضرب لها جميعاً حدّاً واحداً . »

« فان كان القاذف عبداً ، ضرب حد العبد اربعين . فان لم يكن ضرب بعدما قذف حتى اعتق ، ثم قدمه الى الحاكم فانه لا يزیده على الاربعين لانها هي التي كانت وجبت عليه يوم قذف »

وهذا وفاق ما ننظر اليه الاصول الحديثة ، اي الى الحالة التي كان عليها المجرم يوم وقوع الجرم »

« فان لم يكن ضرب بعد الاعتق ، حتى قذف آخر . ضرب الاول وللثاني ثمانين . اي انه عوقب للجرمين بعقوبة أشدهما فقط . وكذلك لو ضرب من الحد اسواطاً ، ثم قذف آخر . كمل له الحد فقط . ويحتسب بما مضى . ولا يضرب ثمانين مستقلة ما بقي من الحد سوط . فان كملت له الثمانون ، ثم قذف آخر . ضرب لذلك ثمانين أخرى بعد ان يجبس حتى يخف الضرب »

« وكذلك لو سرق غير مرة ، قطع مرة واحدة لتلك السرقات كلها . »
السرقه وانواعها — للمادة (٢٣٠) من قانون الجزاء ذيل جعلت احدى فقراته للسرقه
 وسوء الأئتمان واخذ المال بالحيلة مما يقع على الاشياء الخسيسة . عقوبة دون غيرها .
 « وفي الشرع لا يقطع السارق في الشيء النافه » وفي الحديث لا قطع في الدغرة ؛
 وهي اخذ الشيء اختلاساً .

فيكون الشرع جعل الاختلاس أخف عقوبة من السرقة . وهو ما جرت عليه القوانين
 الحديثة . اذ رتب على السرقة نفع (اخذاً ونشلاً) جزاء اخف من السرقات العادية .
 ومن هذا القبيل الفرق بين السرقة تقع في مكان محرز ، وبينها تقع في مكان غير
 محرز . فاجبوا القطع في الاولى فقط . وهذا وفاق تقسيم السرقة الى جنائية وهي
 ما صاحبها خلع او كسر او فتح بآلة خصيصة . والى جنحة وهي السرقة العادية .
 على انهم اشترطوا في القطع ان تبلغ قيمة المسروق عشرة دراهم فصاعداً . وهذا
 القيد خير من الاطلاق الذي جرى عليه القسانون . لان رجلاً يدفعه الجوع فيفتح
 باباً بمفتاح او آلة فيسرق رغيفاً يدافع به الموت عن نفسه كما كان يقع ايام الحرب .
 يكون من الجنائية ان يعد فعله جنائية .

السرقه بين الاصول والفروع — في قانون الجزاء .
 « اذا اخذ الزوج او الزوجة مال الآخر في حالة الاجتماع او الافتراق . واخذ الاولاد
 وسائر الفروع مال آبائهم وامهاتهم وسائر اقربائهم من الاصول . واخذ الآباء والامهات
 وذوي القربى من سائر الاصول مال الاولاد وسائر الفروع . يسترد المأخوذ ويعطي
 لاصحابه . »

وقال ابو يوسف في كتابه (الحراج) :
 « ولا يقطع احد بسرقة من ابيه . ولا من أمه ولا من ابنه ولا من اخيه ولا من أخته
 ولا من زوجته ، ولا من ذي رجم محرم منه . ولا تقطع المرأة في السرقة من مال زوجها . »
المحاولة — جعل القانون لمن صمم على جنائية — ثم حالت اسباب ناهية دونها —
 عقاباً خاصاً هو دون ما يترتب على تلك الجنسية لو انجزها خرجت الى حيز الفعل . وهذا
 ما افطن له الفقهاء من قبل . فقد قال ابو يوسف في كتابه (الحراج) :

« ومن وجد قد نقب داراً او حانوتاً . ودخل فجمع المتساع ولم يخرجه . حتى ادرك . فليس عليه قطع . ولكنه يوجع عقوبة ، ويجبس حتى يحدث توبة »
ومثل ذلك ما قاله ابن تيمية في كتابه (السياسة الالهية) .
« واما اذا اشتهروا بالسلاح ، يريد الاعراب وفسقة الجند وغيرهم (ولم يقتلوا نفساً ، ولم يأخذوا مالاً . ثم اغمدوه او هربوا . وتركوا الحرب . فانهم ينفون . واختلفوا في النفي فقليل هو تشريدكم فلا يتركون في بلد . وقيل هو حبسهم ، وقيل هو ما يراه الامام اصلحة من في اوحبس او نحو ذلك .

المشاركة — جاء في المادة (٤٥) من قانون الجزاء :

« اذا ارتكب عدة اشخاص متحدين ، جناية او جنحة . او كانت احدهما . مؤلفة من عدة افعال . فاتي كل منهم فعلاً او بعضاً من هذه الافعال قصد حصول الجرم . عدوا مشتركين في الجريمة وعوقبوا كلهم عقاب الفاعل المنقل »
وقبل ذلك جاء في نويز الابصار ، باب السرقة :

« تشارك جمع ، و اصاب كلا قدر نصاب ، قطعوا . وان اخذ المال بعضهم . » وفي الدر المختار : (ولو فيههم صغير او مجنون او معتوه او محرم لم يقطع احد) وزاد في الحاشية قوله : قال في الفتح (وانما وضعها في دخول الكل ، لانه لو دخل بعضهم لكنهم اشتركوا بعد ذلك في فعل السرقة ، لا يقطع الا الداخل ان عرف بعينه . وان لم يعرف عزروا كلهم وابد حبسهم الى ان تظهر توبتهم)

وفي هذا الاستدراك ، الذي استدركه صاحب الدر ، من الرحمة والصواب مافيه .
الرشوة — في المادة (٧٧) من قانون الجزاء .

« اذا اكره انسان ، واضطر اضطراراً صحيحاً ، ان يرشو آخر ، صوتاً لنفسه وماله وعرضه . وبالاجمال لكل منفعة مشروعة . ثم اعلم الحكومة بامره . استردت نقود الرشوة واعيدت لصاحبها . وعوقب آخذها عقاب المرتشي . »
وهذا وفاق ما ورد في السياسة الشرعية قال :

« وللرشوة نوع آخر ، هو دفع شيء الى الظالم بالاضطرار لرفع ظلمه ، او لتخليص المال والنفس من شره . وهذا لاشك في انه حرام على الآخذ الظالم ، واما الدافع

المظلوم فلا يدخل تحت الوعيد ، اذ الرجل مأمور بجعل ماله وقاية لنفسه ودينه ، في مواضع الضرورة . كما يدل الحديث الشريف : اجعل مالك دون نفسك ، ونفسك دون دينك . فالرشوة من هذا القبيل ، لما كانت لا تستند الى سبب شرعي من اسباب الملك ، تسترد من المرتشي وترد الى صاحبها .

اسقاط الحق العام — رأى اصحاب القانون في الفترة الاخيرة انه كثيراً ما يقع خلف بين ذوي العلاقة والقربى ، فتحمل الطرفين او احدهما نزوة من نزوات الغضب ، فيرفع الامر الى الحاكم . فاذا انتهت القضية اليه ، فلا بد من حكم يكون فيه غالب الاحيان ، سبباً في توسيع الخرق واستحكام حلقة العداء . فاستدركوا الامر ابقاء للمودة وحفظاً للحقوق ، بان جعلوا للمادتين الـ (١٧٩) والـ (٢١٤) فقرتين اجازوا فيها اسقاط الحق العام ، تبعاً للحق الخاص ، في كثير مما تشمله هاتان المادتان .

واذا دققنا في اقوال الفقهاء ، وجدناهم ما يقرب من هذا كثيراً ، بل ما يرد واياه شرعة واحدة . ففي حاشية ابن عابدين . يبحث (هل للقاضي العفو عن التعزير) : « قال : لا خير يا زاني ! فقال الآخر بل انت . حداثاً لغلبة حق الله (الحق العام) فيه . بخلاف ما لو قال له مثلاً يا خبيث فقال بل انت . لم يعزرا . لانه حقهما ، وقد تساوا اما اذا تشامتا بين يدي القاضي ، او تضاربا ، لم يتكافأ لهنك مجلس الشرع »

الاقرار — في الاصول القانونية لا يكون مداراً للحكم .

« وقد قال ابو يوسف — من ظن به او توهم عليه سرقة ، او غير ذلك فلا ينبغي ان يعزر بالضرب والتوعد والتخويف فان من اقر بسرقة او بجدا او بقتل وقد فعل ذلك به فليس اقراره ذلك بشيء . ولا يحل قطعه ولا اخذه بما اقر به . وعن عمر انه قال ليس الرجل بمأمون على نفسه ، ان اجعته او اخفنه او حبسته ، ان يقر على نفسه . »

« وكذلك لا يعتبر اقرار الرجل عما وجب عليه فيه الحد ، ما لم يردده . ثم يسأل عنه ، هل به لم ؟ هل به جنون ؟ هل في عقله شيء ينكر ؟ فان لم يكن في عقله شيء من ذلك وجب عليه الحد »

الانتهام والتبرئة — ولقد منعت الاصول الحاضرة ، ان يحكم على رجل اتهمته يتهم بها ، او بينة قلقلة ترد عليه . واوجبوا في كل قضية يتردد فيها وجدان الحاكم بين البراءة والحكم

بل بالغوا في ذلك، حتى قالوا : ان تبرئة جماعة من المجرمين اولى من تجريم بريء واحد .
ولقد جاء في هذا الشرع :

« ادروا الحدود بالشبهات ما استطعتم . والخطأ في العفو خير من الخطأ في العقوبة .
وقال عمر لئن اعطل الحدود في شبهات . خير من ان اقيمها في الشبهات . »

تخليه السبيل والكفالة -- شرعت تخليه السبيل بالكفالة، صيانة للمحررة الشخصية ان
تقضي عليها الشبهات . ورحمة بالظنين او المتهم في بعض الحالات . وهو تدبير عدل جرت عليه
الام الراقية كافة . ولم يذهب هذا الامر عن بال القائلين بهذا الشرع . قال ابو يوسف :
« ولا ينبغي ان تقبل دعوى رجل على رجل في قتل ولا سرقة . ولا يقام عليه حد الا
بينة عادلة . او باقرار من غير تهديد من الوالي له او وعيد . ولا يحل ولا يسع ان يحبس
رجل بتهمة رجل له . كان الرسول لا يأخذ الناس بالقرف . ولكن ينبغي ان يجمع
بين المدعي والمدعى عليه فان كانت له بينة على ما ادعى . حكم بها . والا أخذ من المدعى
عليه كفيل . وخلي عنه فان اوضح المدعي بعد ذلك شيئاً ، والا لم يتعرض له . »
ولم يجوزوا السجن بالتهمة .

« الا اذا كان المتهم من ذوي التهمة السابقة ، او من اجلاف يتوقع منهم صدور
مثل تلك الافعال . ولم يجعلوا مدة معينة للسجن في هذه الحالة ، فتحدد مدته راجع الى
الرأي والاجتهاد »

جلب الظنين — ان القانون الذي نجري عليه في يومنا ، قد اوجب على الظنين ان يحضر
الحاكم بنفسه . ولا يسوغ له ان يرسل وكيلاً يدافع عنه في اساس القضية اذا كانت الدعوى
التي اقيمت عليه من دعاوي الجنحة او الجناية : وكانت تستوجب — ان هي ثبتت عليه —
جزاء الحبس . ولا ينكر ما في هذا القيد من التشديد ، اذ لا يندر ان تكون الدعوى — انما
اقيمت نكايه بالظنين وخطا من كرامته . فالقضاء عليه ان يحضر بنفسه والا يمتنع حق التوكيل
ويحاكم غياباً — فيه اجحاف وظلم كبيران . ولقد كان الشرع في هذا ، اصح من القانون
وانصف اذ كان مالك . على . اجاء في كتاب الحراج : ممن يرون ان حضور مجلس الحاكم تعويق
من جنس الحبس فلا يجب حضور الخصم المطلوب بمجرد الدعوى . بل لا بد للمدعي
ان يبين ان للدعوى التي يدعيها اصلاً .

الافتراء والذم — في قانون الجزاء عن الافتراء ما خلاصته :

« من عزا الى آخر جرماً لغرض ما وهو يعرفه بريئاً او اختلق على ذلك الرجل آثاراً ودلائل مادية لكذا جرم يجبس الخ... »
وفيه عن الدم والتحجير .

« من ذم انساناً باسناده اليه ما يجعله عرضة لاحتقار الناس وخصوصتهم . يجبس او ما يحبط من قدره وناموسه يجبس الخ »

قالوا : ويتم الافتراء ايضاً اذا ورد الاخبار في لائحة دعوى مكتوبة او مطبوعة او في ضبط يودعه المخبر اخباره .

واليكم ما قاله الفقهاء في هذا المعنى :

« قال مالك واشهب لا ادب على المدعي الا ان يقصد اذية المدعى عليه وعيبه وتسمه . فيؤدب »

فالحكمان الشرعي والقانوني في هذا واحد . من حيث الجوهر والروح . كلاهما يجازي حيث يراد الافتئات على آخر ، والنيل من كرامته .

الحامل والجزاء — في المادة الثامنة عشرة من قانون الجزاء : « المرأة المستحقة جزاء الاعداء ، اذا اخبرت بانها حامل وتحقق ذلك وتبت تنفيذ فيها العقاب بعد وضعها »

وفي رد المختار على الدر المختار : ويقام الحد على الحامل بعد وضعها . فان كان حدها الرجم ، رجمت بعد الوضع . الا اذا لم يكن للمولود من يريه ، فمقتى يستعفى . وان كان الجلد فبعد النفاس (

الحرمان من الحقوق المدنية — لاشهادة لمن حكم عليه بالحرمان من الحقوق المدنية ، وقرب من ذلك ما ورد في الشرع (من ان الرجل اذا حد في قذف ، لم يقبل شهادته) سن المجرم — راعت — المادة (٤٠) ، من قانون الجزاء — سن المجرم . من حيث نوع العقوبة وتطبيقها قال الفقهاء :

« ولا يقام له الحد على غلام لم يبلغ الحلم »

الدفاتر والسجلات — وكان القضاء يتخذون دفاتر وسجلات يقيدون فيها اقصيتهم .

واول من فعل ذلك منهم سليم بن عتر النخعي (١) قاضي مصر : وذلك انه اختصم اليه في ميراث فقضى بين الورثة ثم ثناكروا فسادوا اليه فقضى بينهم وكتب كتاباً بقضائه واشهد فيه شيوخ الجند . ثم جاء المفضل بن فضالة فطوّل السجلات ونسخ فيها كتب السحايا والوصايا والديون ولم يكن ذلك قبله (٢)

هذا وقبل ان نختتم الكلام نرى حقاً ان نسير الى بعض اصول ، تجري ايها اليوم وقد سبق للسلف ان جروا عليها من قبل . من ذلك :

كتابة العدل -- فهي ليست مما حدثه المتأخرون . بل كانت قديماً . اخذها الفقهاء من الكتاب الكريم . وصيروها عملاً مستقلاً كاد يكون كما هو اليوم . قال ابن خلدون : « العدالة . . تابعة للقضاء . وحقيقة هذه الوظيفة القيام عن اذن القاضي بالاشهاد بين الناس فيما لهم وعليهم عند النزاع وكتاباً في السجلات تحفظ به حقوق الناس واملاكهم ديونهم وسائر معاملاتهم . وشرط هذه الوظيفة . الاتصاف بالعدالة الشرعية ، والراءة من الحرج ، ثم القيام بكتابة السجلات والعقود من جهة عباراتها ، وانظام فصولها ومن جهة احكام شروطها الشرعية وعقودها . فيحتاج حينئذ الى ما يتعلق بذلك من الفقه . وينحى على القاضي تصفح احوالهم واكتشف عن سيرهم . . فيقولون (اي القضاة) غالباً ايها (اي بالبيانات الموثوقة) على هذا الصنف . ولهو لا ، في سائر الامصار دكاكين ومضايط يختصون بالجلوس عليها ، فيتعاهدهم اصحاب المعاملات للاشهاد ونقبيده بالكتاب .

دار القضاء -- كن الآنكم قبل الاسلام والقاضي في الصدر الاول . يؤتى في بيته فيحكم بين المتخاصمين . او كن حيث يكون فيمنالك مجلسه . ثم اتخذ القضاة المساحد ندوة للحكم ، يقضون فيها بين المسلمين ، فاذا جاء العصر جلسوا على باب المسجد يقضون بين غير المسلمين او جعلوا لهم يوماً في منازلهم . فلما انتهى قضاء مصر -- ايام الرشيد -- الى محمد بن سروق ادخل النصارى المسجد الجامع في خصوصياتهم .

السجن -- كان الرسول يسجن في المسجد ، وتبعه في ذلك ابو بكر وعمر

وعثمان . ثم احدث علي سجنًا خاصًا . وأجرى على من لا مال له ولا شيء له ، ما يقوته من بيت المال . ومضى على سننه الخلفاء من بعده .
وكتب ابو يوسف ، مخاطبًا امير المؤمنين الرشيد في شأن السجناء :

« فمر بالتقدير لهم ما يقوتهم في طعامهم وادمهم . وصير ذلك دراهم تجري عليهم في كل شهر . فانك ان أجريت عليهم الخبز ذهب به ولالة السجن وول ذلك رجلاً من اهل الخير . يثبت اسماء من في السجن . ممن تجري عليهم الصدقة شهراً فشراً . ويقعد . بدعو باسم رجل رجل . ويدفع ذلك اليه في يده وكسوتهم في الشتاء قميص وكساء . وفي الصيف قميص وأزار . ويجري على النساء مثل ذلك . وكسوتهن في الشتاء قميص ومقنعة وكساء . وفي الصيف قميص وأزار ومقنعة »

« ونهوا عن غل السجين . الا اذا خيف فراره . وعن ضربه الا اذا أقيم عليه حد . وأذنوا له اذا كان عليه ديون ان يخرج فيخاصم . »

* * *

هذه صفحة من هذا القضاء . قضى عليها الدهر بان تكون مطوية ، مع ما لاصحابها في نشرها من حسن الاحدوثة وطيب النشر . وأنا لا أدعي اني قد أحطت بهذا الموضوع من جميع وجوهه . اذ قد يكون ما قلني ذكره ، لا يقل عما ذكرته دقة وعدلاً ، من حيث الاداب . وموافقة لروح العصر ، ومما شاة للقوانين الحاضرة ، من حيث الاصول .

ولقد كانت الامور الجزائية اكثر ما تعرضت له في هذه المقارنة لسببين : (اولاً) لان القانون المدني عندنا هو المجلة ، وهي مستمدة بجملتها من الشرع . فليس ما يدعو الى التنبؤ به ، وهي لا تزال واحكامها هي . لا يعوزها الا قليل من التعديل . حتى تتجدد تضاربتها . وتصبح خليفة ان ينسج في القوانين على منوالها .

(ثانياً) ان اهل العصر الحاضر ، يزعمون هذا الشرع غربياً عن قضايا العقوبات جملة . دع الاصول الحديثة . بعيداً عن روح العدل في هذا الباب . على حين رأيتم

ما بينهما من الصلة والعلاقة . ولو انه أتيح هذه الشريعة خلف سار على سنة ذلك السلف . لا تفردت عن الاشباه ونزهت عن النظائر . وهو وان كان شرعاً اسلامياً فقد كفل العدل والنصفة لكل من نزل على حكمه مسلماً كان او غير مسلم .

لهذا ولا مثاله لقبت هذه الشريعة بالشريعة السحرة وهذه هي المفاخر الصحيحة التي يعرفها التاريخ الحق لا تلك البدع العريقة بالوهم . فاذا استفاق الخلف . واقفى سنة السلف . ونبت القشور . وعاد الى اللباب . فقد عاد الى هذا الوطن . عصره الاول . الاغر المحجل .

عارف النكدي



(١) العلم

لاجره ان العلم الصحيح الكامل وسيلة الى كل فضيلة وصلاح وسلم ارتقاء الام الى اعلى درجات النجاح والفلاح . به يتميز الانسان على الانسان كما يتميز على غيره من انواع الحيوان بالعقل والبيان . ولذلك وصف بانه حياة النفوس وضياء البصائر و بان رتبته ارفع الرتب . ووصف العلماء بانهم ورثة الانبياء وامناء الله على خلقه ومصايح الهداية وكواكب الارض . كما وصف الجبل بانه موت النفوس وعمى الازدهار وظلام العقول . ووصف الجاهل بانه بهيمة في صورة انسان و بأن عينيه في ظهره . ورأسه في معدته . وقد كان للعلم شأن عظيم عند كل أمة من الامم السالفة واول من استغل به البابليون او الكلدانيون فكان علماءهم ينقنون رصد الكواكب بمنتهى التدقيق واخترعوا لها المزاويل المضبوطة وكان لهم باع طويل في الطب وشهرة واسعة في الصنائع النفيسة كالنقش والحفر والتصوير . ثم انتقل العلم الى النرس والفينيقيين والصينيين والهنود واليونان والرومان وكما سطعت انواره في أمة ارفع شأنها وعظم عمراتها . وكما تقلص ظلمه من مملكة نقاص معه مجدها وافل سعدتها وتزعزت اركانها وتهدم بنيانها كما حدث للشعوب التي مرت ذكرها . فلما جاء العرب ادر كوا ما للعلم من المنزلة العالية في الحالتين المدنية والسياسية وعرفوا شدة الحاجة اليه في الشؤون الاجتماعية وعنوا بنشره في البلاد العربية فسطع ضياؤه في الشام والعراق ومصر والمغرب والاندلس ولا سيما في زمن الخليفة العباسي المأمون الذي انتقى افضل الكتب الفلسفية اليونانية وامر بترجمتها الى العربية وحرص الناس على مطالعتها وتعلمها حتى حفلت بغداد بالعلماء والمصنفين وزخرت خزائنها بالكتب النفيسة وامتدت شعلة الطلب والتدريس الى سائر البلاد الاسلامية . وفي زمن الخليفة الاموي عبدالرحمن الملقب بالناصر الذي جعل مدينة قرطبة داراً للعلم على نحو ما كانت بغداد في المشرق والقيروان في المغرب والقاهرة في مصر وحشد الكتب من افرريقية وبلاد فارس ومصر وسائر الآفاق العربية حتى

جمع في ما يقال اربع مئة الف مجلد وقيل اكثر وانتشرت هذه الرغبة في جميع الكتب حتى كانت من انفس ما ينبغي به . وقد قيل ان الاندلس كان فيها في اوائل القرن الخامس للهجرة سبعون مكتبة حافلة .

وكان للعلماء عند العرب مقام سام حتى ان الخلفاء انقسمهم كانوا يصبون الماء على ايدي العلماء ويقضون اوقانهم بين الحماير والدفاتر و يبنون بيوت العلم كما يبنون بيوت العبادة . ورغب علماء العرب في العلوم الطبيعية والفحوا فيها واخذوا عن اليونان مبادئ الفلك والهندسة والحساب والجبر والطب والنبات وغير ذلك من العلوم وحسنوها كلها وما زالت انوار المعارف ساطعة في آفاقهم حتى دالت دولهم فألقيت مقاليدها الى الغربين وقد كانوا خاطبين في ظلمات الجهل فاهتدوا بما اقتبسوه من علوم العرب واجتهدوا في انقائها وزادوا عليها وبعد ان كانوا تلاميذ العرب اصبحوا بمجدهم ومنابرتهم وثباتهم اساتيد العالم بأسره وقادة الافكار البشرية كلها وتوصلوا بفضل فروع العلم المختلفة الى الاتيان باعجاب الاختراعات والاكتشافات واعظم الاعمال التي تحير العقول وتكاد تشبه المعجزات واستخدموا كل ذلك في ما يؤول الى خير البشر وراحتهم وسعادتهم . ولا بد لي في هذا المقام من ذكر خلاصة المنافع التي جناها العلماء من حقائق العلم واهدوها الى المجتمع البشري وهي : (١) تحسين الصحة العامة فان العلماء كجذرو باستور وكوخ وغيرهم اكتشفوا ادوية وافية وشافية من الجدري والحناق والهواء الاصفر والحميات المتنوعة . والجراحين تفننوا في الاعمال الجراحية وبلغوا في انقائها درجة سامية فاصبحوا قادرين ان يفتحوا البطن ويستأصلوا بعض الاعضاء بدون تعريض الحياة للخطر وساعدوا على النجاح في اعمالهم استعمال مضادات الفساد التي اوصلهم العلم الى كشفها حديثا فقلت الوفيات بتقدم الطب والجراحة ومراعاة القوانين الصحية و طال معدل العمر كما ثبت ذلك بالاحصاء الدقيقة وشهادة الخبراء العارفين . قال احد ساسة اليابان انه قبل انتشار العلم في بلادنا كان اكثر من ثلثي اطفالنا يموتون لجهلنا وسائط التربية وقوانين الصحة وكانت الاوبئة تفكنا بنا فتكاد يربعا لجهلنا طرق الوقاية منها وسائط منع انفسها اما الآن فان المدارس والمستشفيات والاطباء والوسائط الفنية قد افادتنا فوائد جمة لا يسع احدا انكارها فتحسنت عندنا الصحة العامة وزادت مواليدنا على وفائنا . وهو قول حري بالاعتبار وكفى به دليلا على ان العلم لم ينتشر في بلاد الافاد اهلها فوائد

صحية عظيمة والصحة أساس كل خير ونجاح وهي أهم من كل شيء ولا يغني عنها شيء .

(٢) تقوية العقل وترقيته بتمرينه على الحذر والانتباه والملاحظة والاستقراء والاستدلال والقياس والتدقيق والتحقيق والاستنباط والاختراع ورد النتائج الى اسبابها الحقيقية وادراك النسبة بين العلل والمعلولات . وجملة القول ان العقل المستدير بغياض العلم الصحيح يكتسب مضاء وقوة و يتحرر من عبودية الحرافات والحزبيلات والترهات الي كانت تحيف الناس كلاعقاد ان الحسوف والكسوف وظهور ذوات الاذئاب وهبوط النيازك مما يؤثر في احوال البشر و يجلب عليهم الحروب والابوثة والمجاعات وغيرها من البلايا . وكما ان الرياضة البدنية بالاعمال المتنوعة والاعمال المختلفة تقوي البدن كذلك الرياضة العقلية بدرس العلوم المختلفة تقوي العقل وتزيل عنه الجمود والجمول والوهن وتقوّم كل اعوجاج فيه . فعلم الهندسة بقي الذهن من التشتت وعلم المنطق يعصمه من الخطأ في الفكر و يدرّبه على إقامة الحجج . وعلم الحقوق يعينه على استمضار القضايا والاستشهاد باقوال الفقهاء وانبات السعادي بالنصوص الشرعية والقانونية . غير ان الرياضيات أشد العلوم ثقيفاً للعقل لانها قائمة بالقياس والبرهان ومتعمنة احسن ما يهيئ به العقل للاستدلال واقامة الحجة .

(٣) اصلاح الآداب فان الذين تعلموا العلم الصحيح يعرفون ما لهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات فيما فظون على حقوقهم و يقومون بواجباتهم و يحترمون أنفسهم فيعتزلون المنكرات و يترفعون عن الدنايا و يتزبنون بالاخلاق الحسنة و يتسابقون الى الاعمال الشريفة والمسامي الحميدة فلا ريب ان العلم الصحيح يصلح الآداب و يحسن الصيت و يحصل الحصال و يقلل الجرائم في البلاد . ولذلك قيل اذا امنلأت المدارس فرعت السجون . وكما بعد الناس عن العلم وتوغلوا في الجهل ساءت اخلاقهم وفسدت آدابهم و فبحت أعمالهم كما يري ذلك في القبائل المتوحشة كقبائل اواسط افر يقية التي تأكل لحوم البشر وتعمل القبائح التي لا يليق ذكرها بلا خوف ولاحياء لان غير المتدنيين لا يفرقون عن الوحوش المفترسة الا بكونهم يقبلون العلم والتهديب اذا أتيح لهم ذلك وتوفرت لديهم الوسائط الكافلة به . فان قيل ان بعض اهل العلم ذوو اخلاق فاسدة

وآداب ساقطة قلت ان علمهم غير صحيح او غير كامل لان العلم الصحيح الكامل مقارن ابدأ بالاخلاق الفاضلة فلا يصدر عنه الا الصلاح فهو كالشمس التي لا بد من نورها الا النور

(٤) اخضاع الامور الطبيعية اسلطة الانسان فالدين تعمقوا في العلم عرفوا كثيرا من اسرار الطبيعة وكتشفوا خفاياها واطلعوا على سننها وخباياها وشاهدوا عجائبها وغرائبها واستسطوا دخانها ومكنوناتها واستخدموا لمافعهم قوايتها فسفروا برك السماء وتسلطوا على الماء والهواء واخترقوا الحجب ببعض الاشعة فراوا ما خفي على الابصار وولدوا بقوة الماء بدائع الانوار وتمكنوا من احداث كثير من الفوائد ورفع كثير من الاضرار وانما توصلوا الى كل ذلك بفضل الطبيعيات وهي علوم التجربة والاستقراء .

(٥) توفير الثروة فان العلم هو الذي حسن مصادرها اي الزراعة والصناعة والتجارة فوفرت الاموال وحسنت الاحوال باصلاح الاعمال وبيان ذلك ان العلماء توصلوا بعلم الزراعة وهندسة الري الى تزييد علال الارض كما يشاهد ذلك في اكثر بلاد العرب وبعض بلاد الشرق كمصر التي اصبحت تفيض ذهباً وهاها على سكانها بفضل تحسين الري فيها . ويعلم المعادن استخرجوا كنوز الارض التمنية وذخايرها المدفونة . ويعلم الكيمياء رقوا الصناعة وبنفونوا فيها على اساليب شتى حتى انهم انتفعوا بالنفايات كالحرق البالية والاقذار الجارية والعظام وقصاصه الجلد ونشارة الحشب والامعاء فصنعوا منها الورق الابيض الصقيل والطيوب الذكية ومقايض السكاكين واوتار آلات الطرب الى غير ذلك من الاشياء التي ينفع بها وباتقانها . وحازت المانيا قصب السبق في هذا الميدان فكانت تصدر من الاصباغ الكيماوية المستخرجة من قطران الفحم في كل سنة ما يبلغ ثمنه اربعين الف دينار فوق ما كانت تستعمله في بلادها وقد نابت تلك الاصباغ منا - النيل الذي كان يستعمل من قديم الزمان لهذه الغاية . وجملة القول ان العلم هو الذي افاض الغنى العظيم على سكان اوربة واميركة وهو الذي فتح لهم خزائن الارض وهو الذي حول الماء والتراب والنبات ومعادن الرصاص والحديد والنحاس الى ذهب وهاج والفرق بينهم وبين اكثر الشرقيين هو انهم هم يحتالون على الارض ليستخرجوا الذهب من تراها ومائها ومعادنها ونباتها واكثر الشرقيين يحتالون على الثروة الموجودة في ايدي الناس

ليسلبوها بالغش والخداع ولذلك كانت ثروة الغربيين تزداد بالاجتهاد في العلم وثروة الشرقيين تنقص بالكسل والجهل .

(٦) تسهيل طرق المعيشة وتوفير اسباب الراحة باستئدام القوات الطبيعية مثل قوة الماء وقوة الهواء بدلاً من قوة الحيوان كما في ادارة الارحية بهما بدلاً من ادارتها بالايدي واستخدام البخار لتسيير القطر في البر بدلاً من الخيل والجمال والسفن في البحر بدلاً من الاشرعة وتسخير البرق لنقل الانباء الى اطراف المعمور في طرفة عين بواسطة الاسلاك المعدنية وبدونها بدلاً من البريد والسعاة . واناارة البيوت والشوارع بالاضواء اللوامع بدلاً من الشموع والسررج وتسيير المركبات وتدوير الآلات والقيام بها كثر الحاجات كالغسل والطحن والعجن والخبز والكبس وغير ذلك مما كان يمل باليد اصحبت قوة الكهرباء تعمله بدون مشقة وكل ذلك بفضل العلم . وزد على ذلك اختراع الآلات العديدة التي تخفف التعب وتوفر الوقت كآلة الحياطة وآلة النسيج وآلة الطبع وغيرها مما تضيق المجلدات عن وصفه . فالمطبعة تطبع في ساعة ما لا يستطيع الانسان ان يكتبه في شهر والمنسجة تنج في يوم ما لا يقدر الانسان ان ينجه في سنة وعلى ذلك فقس . وخلاصة ما يقال في هذا الشأن ان العلم يمكن الانسان من السفر الى اقصى الارض في ايام قليلة ومعرفة اخبار العالم في ساعات معدودة ومخاطبة من يشاء على امد الوف من الاميال في لحظة والحصول على الوف من الكتب باثمان زهيدة . وقدم له الجليد في ايام الحر الشديد والدفء في ايام البرد القارس وحمل اثقاله وسهل اعماله واراح جسده وافكاره وازال من سبيل سعادته اكثر العقبات وهوّن عليه في حياته اعظم الصعوبات .

(٧) الابهاج بآيات الله في خلقه فان العلم بما في هذا الكون العجيب من الآيات البيّنات من ا كبر دواعي المسرات لانه يكسب صاحبه لذة عقلية تفوق كل لذة جسدية بمقدار ما يفوق العقل الجسد فاذا طاف عالم الحيوان والنبات الحقول والغابات بسمت له الازهار ورحبت به الاتجار واطربت سمعه الاطيوار لانه درس خصائصها وعرف طبائعها واذا رفع عالم الفلك بصره الى القبة الزرقاء في ليلة زهراء او رصد كواكبها او تأمل عجائبها شعر بلذة لا يعبر عنها بلسان ولا يشعر بها الا اولو العرفان وكذلك يهتز الشاعر طرباً لنفيس الاشعار ويترنم الموسيقي عجباً لنغمات الاوتار و يجد كل عالم او

مؤمن في علمه او فنه سروراً عظيماً لا يقدر الجاهل ان يعرفه او يشعر به فحياة العالم سعيدة وايامه بهيجة اذ لا شيء يبهج القلب ويملاه حبوراً مثل العلم ولا صحة لقول بعضهم من زاد علماً زاد همماً لان زيادة العلم تزيد المسرة واللذة وذلك ثابت بالبدية لانه كما ان النور يبهج البصر يكشفه المرئيات كذلك العلم يبهج القلب يكشفه الحقائق الثمينة للعقل فكما زادت المعرفة زادت اللذة .

(٨) رفع شأن الافراد والجماعات والامم فقد رفع العلم كثيرين من وهددة الهوان الى ذروة المجد فبعد ان كانوا خطابين او خزافين او صانعي احذية ارتقوا الى مراتب الوزراء والسفراء اورواء ساء الجمهوريات . والامم التي عنيت بالعلم ورفعت الويتة في بلادها باغت اعلى ذرى العز والنعمة والنجاح والسيادة والتاريخ اكبر شاهد على ذلك فان مملكة الرومان لما كان العلم فيها مشرقاً اتسع نطاقها وعلا سوء ددها وخدمها السعد قروناً فمدت صولجانها على الخافقين ولكن لما انطفأت شعلة العلم فيها تمزقت شذر مذر وكذلك جرى للملك السالفة وللدول العربية فانها لما عنيت بالعلم سادت وشادت وبلغت من المجد ما ارادت ولما أهملته انحط شأنها وتهدم عمرانها . والدول العظمى في عصرنا الحاضر لم تبلغ ما بلغته من العز والقوة والجاه والسطوة الا بفضل العلم وحسبنا اتياناً لهذه القضية مانراه من البون التاسع الادبي بين اليابان والصين وهما في بلاد الشرق الاقصى فان الصين على اتساع ارضها وكثرة عدد سكانها ليس لها شأن يذكر بين الدول المعظمة . واليابان على ضيق ارضها وقلة عدد سكانها لا تقل شأناً عن دول اوربة العظمى وكفاها فخراً انها غلبت أعظم الدول الغربية واكبرها جيشاً وما سر غلبتها الا العلم فلا تطمع أمة او مملكة في العز والصولة والمجد والعظمة والسيادة والقوة مادام الجهل ضارباً اطنابه فيها وذلك من البديهييات التي لا ريب فيها عند العقلاء . قال زوج الملكة فكتوريا في احدى خطبه حين كان رئيساً للمجمع العلمي البريطاني « ينبغي ان يزيد الثنات الدولة الى العلم كما نرجو وستجد فيه عنصراً جوهرياً من عناصر قوتها ونجاحها » . وقال الفيلسوف جول سيمون « ان الامة التي تعلم بنيتها التعليم الاكثر تصير العظمى بين الامم ان لم يكن في اليوم في الغد » . وقال واشنطنون في خطابه الوداعي لبلاده « أحلوا اهل المراكز العلمية المحل الاول فان الحكومة التي تقصد الاعتماد على رعاياها يجب ان

تهذب عقولهم قبل ذلك» . وقد حفظ الامير كيوت هذه الوصية واهتموا بنشر العلم اهتماماً عظيماً وانفقوا في هذا السبيل الاموال الطائلة حتى ان الحكومة وقفت على ترقية العلوم في الولايات المتحدة مئة وخمسين الف الف فدان من اراضيها الزراعية وكذلك اهتمت دول اوربة بترقية المعارف في بلادها وانفقت قناطر من الذهب على المدارس والجامع العلمية والمكاتب العامة لتيقنها ان العلم هو امدامة الكبرى في بناء الممالك والسيادة الوحيدة الموصلة الى درى الجدد والعظمة فلا عنى عنه في السياسة كما انه لا غنى عنه في الزراعة والصناعة والتجارة . هذه هي خلاصة منافع العلم ذكرتها بالايجاز ولو شئت الاسباب لما استطعت الى ذلك سبيلاً لانه يستغرق السنين الطوال ويملاً الجلدات الضعفة . وهنا يحذر بنا ان نسأل ما ذا كن نصيننا من تلك المنافع واي اختراع او اكتشاف مفيد ينسب اليها في هذا العصر ؟ ان لاديسون الاميركي الذي لا يزال حياً يرزق نحو النفي اختراع مفيد غير بها حالة المجتمع البشري ورقى شؤون العالم العمرانية وهو رجل واحد فهل اختراع اهل بلادنا اختراعاً واحداً كما هم وهم يعدون بالوف الالوف ؟ أليس البتسر كما هم من طينة واحدة فلماذا نرى هذا الفرق العظيم بيننا وبين الغربين ألعلمهم أسرف مناصولاً ام اسى عقولاً ام اصنى أذهاناً ام اقوى أبداناً ام أعز نفوساً ام أكر رؤوساً ؟ لا اميري فقد أثبت الاختبار ان السوري اذا توفرت له وسائل الارتقاء وجال في ميدان العلم حارى غيره ولم يقصر عنه وبعض السور بين الذين دخلوا جامعات اوربة واميركة سقوا رفقاءهم من ابناء الغرب وامتازوا عليهم بالتحصيل ف نحن لا ينقصنا الا الاجتهاد والاتحاد والثبات . اننا لا ننكر ان حاننا العلمية اليوم أحسن مما كانت عليه منذ مئة سنة وذلك بفضل الحكومة السابقة والحكومة الحاضرة والبعثات الاجنبية . فبعد ان كان ظلام الجهل محيماً في ربوعنا حتى انه لم يكن فيها من يعرف القراءة والكتابة الا افراد يعدون على الاصابع كانوا يتيمون عجياً بتلك المعرفة القليلة ويمشون في الارض مرحاً زاعمين انهم وسعوا كل شيء علماً وبعد ان كانت بلادنا خالية من المدارس العالية والمطابع والصحف السياسية والمجلات العلمية بزغت فيها انوار العلم فتشيدت المدارس المختلفة من ابتدائية وعالية وطبية وتجارية وصناعية وحقوقية تخرج منها كثيرون من شبان البلاد النجباء فشغلوا احسن

المناصب في سورية ومصر وغيرها وانتشت الصحف والمجلات وظير في هذا القطر
 الكتاب والخطباء والصيدلة والاطباء والحامون والعلمون والمهذبون كما يشهد هذا
 المخمل الحافل . ولكن اين نحن من الغربين الذين جاؤا بالعجب العجيب وحيروا باعمالهم
 الابواب فجعلوا البر بجرأ والبحر برا وذلك بفتح الترع كترعة السويس وترعة ناهما العجيبة
 واشاء المرائى كمرقا بيروت ومرقا نيويورك وكثير غيرها ومشوا على وجه الماء وغاصوا
 في لجج الدماء وركبوا على مناكب الهواء بالمناطيد والطيارات وساحوا بين كواكب
 السماء بالمراسد والنظارات وقاسوا ما بينها من الابعاد بادق الآلات وصنعوا من
 الادوات الحديدية المختلفة الاشكال والحجوم ما يفوق الحصر ويدهش العقل من
 آلات الساعة الدقيقة التي لا تكاد ترى بالعين المجردة الى القاطرة البخارية التي تجر
 وراءها سلسلة مركبات ضخمة لا يدرك الطرف آخرها الى الجسر العظيم العجيب كسر
 بروكلين الذي تجري عليه الفطر وتسير من تحته السفن . قيل ان بناء هذا الجسر شغل
 نحو ثلاث عشرة سنة ونفقاته بلغت ثلاثة آلاف الف ليرة انكليزية وهو من اسلاك
 قوة كل منها اثنا عشر الف وسق وعليه طريقان حديديتان وطريقان لترامواي
 وصر يقان لمركبات الحيلية وطريق لممتاة عرفها ثلاث عشرة قدما فهو من غرائب
 المصنوعات البشرية . وقد فتحوا الاتفاق الطويلة في الجبال وتحت الانهار والبحار
 لتسيير مركبات البخار وبنوا الخزانات الكبيرة لحفظ المياه الغزيرة والانتفاع بها وقت
 الحاجة . وحملوا القول انهم دكوا الاطواد وانطقوا الجماد وعمروا البلاد ورقوا العباد
 بل جعلوا الصم يسمعون والعمي يبصرون والموتى يتكلمون فاين نحن منهم بل اين نحن
 من اسلافنا العرب الذين وسقوا اسباب الحضارة في جميع الاقطار وخفقت اعلام مجدهم
 على كل الامصار فقد القوا وصنفوا واستنبطوا واكتشفوا وضربوا في مناكب الارض
 بحثا عما ودعتها الطبيعة من الآثار وتطلعوا الى آفاق السماء طلبا لمعرفة ما فيها من
 الاسرار وكانت عندهم من بديع الصنائع وغريب الفنون واتساع التجارة وعمو الزراعة
 ما لا يتسع المجال لذكره في هذه المحاضرة المختصرة . وبكفي ان أقول ان العلم كان
 مصاحباً لجنودهم في كل بلاد افتتحوها حتى امتدت حضارتهم من أطراف آسية الى
 أقاصي أفريقيا وقلب اوربة . فلم ينشبه بهم في طلب العلم ونشره ! ولم نرض

بالتأخر عن مجاراة الامم الغربية الراقية في سلم التمدن الصحيح والتهذيب الكامل وماهي أسباب عدم رواج العلم في بلادنا ياتري ؟ لا ريب ان لذلك اسباباً كثيرة اخصها ما يأتي :

١ — اعتقاد اكثر القوم عندنا ان العلم غير ضروري لكل الناس وانما هو ضروري للذين يريدون ان يشتغلوا به لاكتساب الرزق فقط كأساتيد المدارس والكتاب والمشئين والاطباء والمحامين وغيرهم من أرباب الصناعات العلمية اما التجار والصناع والزراع وسائر العامة فهم في غنى عنه لانهم يستطيعون ان يكتسبوا الرزق بدونهم . وهذا الاعتقاد خطأ عظيم لان العلم ضروري لكل فرد من أفراد الامة كبيراً كان أم صغيراً اذ يحتاج اليه الصعلوك كالملك والفقير كالغني والمرأة كالرجل فلا احد يستغني عنه . قال عبد الملك بن مروان لبنيه « يا بني تعلموا العلم فان كنتم سادة فقم وان كنتم وسطاً سدتكم وان كنتم سوقة عشتكم » . وقال بعض البلغاء « تعلم العلم فانه يقومك صغيراً ويقدمك كبيراً ويصلح زيفك وفاسدك ويرغم عدوك وحاسدك ويقوّم عوجك وميلك ويصح همتك واملك » . وقال مصعب بن الزبير « تعلم العلم فان يكن لك مال كان جمالاً وان لم يكن لك مال كان لك مالاً » . وقال بعضهم اذا اراد الله بالناس خيراً جعل العلم في ملوكهم والملك في علمائهم لان العلم عصمة الملوك فهو يمنعهم من الظلم ويردهم الى الحلم ويصدهم عن الاذية ويعطفهم على الرعية . والخلاصة ان البشر كلهم على اختلاف طبقاتهم واحوالهم واطوارهم منفقرون الى العلم فارباب السياسة يحتاجون الى معرفة التاريخ وفلسفة الاجتماع وحقوق الدول وسائر العلوم العمرانية ليستطيعوا ان يسنوا الشرائع العادلة الكافلة بسعادة الامة وينفذوها بالعدل والنزاهة والعفة .

وارباب التجارة يحتاجون الى معرفة علم الاجتماع وعلم الاقتصاد السياسي وعلم مسك المدفاتر وسائر العلوم التجارية ليستطيعوا ان ينجحوا في تجارتهم نجاحاً تاماً .

واهل الصناعة ينفقرون الى معرفة الرياضيات والطبيعات لكي يتمكنوا من انقان صناعاتهم والنفنن فيها حسب الحاجة . والزراع يلزمهم ان يدرسوا العلوم الزراعية لكي يعرفوا خواص التربة وطرق الحراثة والتسميد واساليب الري وانواع الزرع والفرس والتطعيم والتلقيح وتربية المواشي وغير ذلك مما لا بد منه لتحسين الزراعة وتوفير الغلال

والنساء يفتقرن الى علم التربة وعلم الثمر يرض وعلم تدبير المنزل لكي يستطيعن ان يربين اولادهن تربية صالحة ويخدمهم في اوقات المرض الخدمة النافعة ويدبرن بيوتهن التدبير الكافل براحة ازواجهن وسعادتهم . والرجال بالاجمال محتاجون الى العلم ليعرفوا مايجب عليهم لازواجهم واولادهم ووطنهم وحكومتهم ويقوموا بواجباتهم كلها حق القيام فاذا نالت الامة كلها نصيباً وافراً من العلم صلحت اعمالها وحسنت احوالها واعتزت حكومتها وارنتى وطنها الى اسمي درجات العمران . فلا احد يستغني عن العلم بوجه من الوجوه لانه حياة الافراد والجماعات والشعوب . ولا ينكر هذه الحقيقة الا الذين اعشى الجهل بصائرهم ولم يفهموا معنى الآية الكريمة « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

٢ — زعم فريق كبير من الناس انه لا فائدة من العلم بدون مال وان المال هو الغاية التي يجب على الانسان ان يسعى لها لانه قاضي الحاجات ورافع الدرجات فهو يغني عن العلم وعن كل شيء وعلى ذلك قول بعضهم :

ان الدراهم في المواضع كلها تكسو الرجال مهابةً وجلالا
فهي اللسان لمن اراد فصاحةً وهي السلاح لمن اراد قتالا
وقول الآخر :

فصاحة سحبان وخط ابن مقله وحكمة لقمان وزهد ابن ادم
اذا اجتمعت في المرء والمرء مفلس ونودي عليه لا يباع بدرهم

وهذا الزعم ضلال مبين واقوال الشعراء بهذا المعنى مخروقة وتضليل . والحق ان العلم هو الذي يرفع شأن الامة لا المال . قال علي بن ابي طالب : « العلم خير من المال . العلم يحرسك وانت تحرس المال . العلم حاكم والمال محكوم عليه » .

لا احد ينكر ان المال قوة عظيمة اذا كان بيد من يحسن استعماله ولكنه لا يرفع شأن الجاهل فالجاهل حقير وان كان غنياً والعالم شريف وان كان فقيراً . وما يؤيد ذلك اننا اذا نظرنا في العلم منفرداً رأينا خيراً محضاً لانه علة الاتحاد والالفة والتعاون والناصر . واذا نظرنا في الغنى منفرداً وجدناه شراً محضاً لانه داعية الجري في ميدان الشهوات المحرمة والتمساع والتفريق بين الاهل والاصدقاء . واذا نظرنا في العلم . مقترناً بالغنى رأينا

المال خادماً للعلم نافعاً به فالغني العالم منهل عذب وشجرة مثمرة والغني الجاهل بلية عظيمة واضرارته للناس جسيمة وكفى بما قدمناه دليلاً على ان العلم خير من المال وينبغي ان يكون غاية لا واسطة بل هو أشرف الغايات عند العقلاء ولو كرهه الجهلاء .

٣ — توهم بعضهم ان العلم كله يقوم بمعرفة القراءة والكتابة وبعض قواعد الصرف والنحو وأعمال الحساب الاولى وحفظ بضع قصائد وحكم فاذا تبسرت هذه المعرفة لاحد الناس لقب نفسه بالعالم وادعى التفوق على غيره وطلب التصدر في المجالس وطالب الامة باكرامه وتعظيمه واحقر العلماء الكبار واستخف بالعلوم الحديثة التي يتوقف عليها عمران البلاد ونجاح العباد وانكر الحقائق العلمية الثابتة بالادلة الراهنة كدوران الارض حول الشمس وحاول البرهنة على انها ساكنة غير متحركة او انها مستقرة على قرن الثور وكل ذلك من الاغلاط الفاضحة لان معرفة الاشياء المذكورة وان كانت ضرورية ونافعة ليست الا جزءاً صغيراً من العلم فلا تغني عن غيرها من المعارف المفيدة ولا تكفي لتسمية صاحبها عالماً ولا تحرر عقله من الخرافات ولا تعرفه قدر نفسه وانما العالم الحقيقي من تطلع من العلم على اختلاف انواعه الطبيعية والرياضية والتاريخية وغيرها وعرف على الاقل نظام الارض وخواص اترتها ومعادنها وترتيب بلدانها واصناف سكانها وحواصل اقاليمها وعجائب حيوانها وتركيب مائها وسنن هوائها وتوار يخ اجيالها القديمة وممالكها العظيمة وعرف مع كل ذلك قدر نفسه ولم يستكبر على ابناء جنسه . فمعنى العلم عند المحققين أوسع مما يتوهمه المدعين وما أحسن قول الشاعر :

قولوا لمن يدعي علماً ومعرفةً عرفت شيئاً وغابت عنك اشياء

٤ — ادعاء شرذمة من الناس ان العلم يناقض الدين ولذلك رفض بعض البسطاء من اهل الدين حقائق العلم خوفاً على دينهم من الفساد واحقر بعض المشتغلين بالعلم حقائق الدين ظناً منهم انها تخالف العلم . وكلا الفريقين مخطئان لان العلم الصحيح لا يمكن ان يناقض الدين القويم وانما هما حليفان كل منهما يؤيد الآخر ويخدمه ولي على اثبات ذلك أدلة . الاول انه لو كان العلم والدين تقيضين للزم عن ثبوت احدهما بطلان الآخر ولكن كلاهما ثابت بالادلة القاطعة الجلية فلا تناقض بينهما لان مصدرهما واحد فالدين وحي الله على محيا الشريعة والعالم وحي الله على صفحات الطبيعة . وبين الدين

والعلم رابط شديد وهو الايمان وهذا مما يستغربه السامع لاول وهلة لان الشائع بين القوم ان الايمان مخصص بالدين والحق انه من لوازم العلم ايضاً فكما يؤمن اهل الدين بالحقائق الروحية ويسرون في حياتهم الدينية بقوة الايمان فيعملون خيراً لأعمال وأعمال الخير كذلك يؤمن اهل العلم بالحقائق الطبيعية ويسرون في حياتهم العلمية بقوة الايمان فيحيثون بعجائب اختراعات وغرائب المكتشفات . فالايان من أعظم قوى العالمين وبه تم كل شيء نافع في عالم العلم وعالم الدين وهو بينهما رابط متين .

الثاني : انه لو كان العلم مناقضاً للدين للزم عن ذلك ان كل عالم كافر وكل دين جاهل وهو خلاف الواقع لان كثيرين من اهل العلم متدينون وكثيرين من أهل الجهل كفرون . بل ان الله يتمسكون بالدين حق التمسك هم العلماء لا الجهلاء وما أحسن قول القرآن الكريم : « انما يحشى الله من عباده العلماء » . وحسبنا تبتاً لذلك ان نذكر بعض المتدينين من اهل العلم المتقدمين والمتأخرين . فن المتقدمين ابو جعفر المنصور الذي كان مع كنهه بعلم الفلسفة وعلم النجوم متديناً بارعاً في علم الفقه . وهرون الرشيد الذي امر ان تبني بجانب كل جامع مدرسة ليسير الدين والعلم معاً لانه كان يعتقد انها حليفان لا تقيضان . والمأمون الذي كان أعظم الخلفاء واعلمهم وكان عارفاً من اللغات اليونانية والعبرية والهندية والفارسية فضلاً عن تجرؤه في الفلسفة وعلم الفلك ومع ذلك كان نقيماً ورعاً . ران سينا الذي اشتهر بالعلم الطبيعي وعلم الطب وغيره وكان له نحو مئة تصنيف كتب ايضاً مشهوراً بالعلم الالهي والتمسك بدينه . ونظر الدين الرازي عبدالله المعروف بابن الخطيب الذي فاق اهل زمانه في علم الاوائل والمعقولات وكان له عدة تصانيف كان ايضاً اماماً في علم الكلام نقيماً متعبداً . ومن المتأخرين فيلسوف الانكاز العظيم اسحق نيوتن مكتشف ناموس الجاذبية والعلامة الاميركي المشهور بعلم طبقات الارض الدكتور دوسن . والناطقة الاميركي الذي خدم سورية سنين عديدة بالتطبيب والتدريس والتأليف العلامة فاندريك . فان كل هؤلاء وكثيرين غيرهم من وطنيين وأجانب كانوا من فحول العلماء وكبار الانقياء . والعالم اليوم مملوء بالرجال الذين يعدون بالوفى بالوفى وكاهن من العلماء المتدينين فليس كل عالم كافراً ولا كل دين جاهلاً ولا تناقض بين العلم والدين . فان قيل ان كثيرين من العلماء مرقوا من الدين

قلت ان مروقهم لم ينشأ عن العلم بل عن فساد قلوبهم وخبث نفوسهم الامارة بالسوء وما كان العلم الا كاشفاً لذلك المروق لاسباباً له وعدم التناقض بين العلم والدين لا يستلزم ان يكون كل عالم ديناً كما ان عدم التناقض بين العلم والغنى لا يستلزم ان يكون كل عالم غنياً وكفى بذلك دليلاً لمن يريد الاذعان للحق .

الثالث : انه لو كان العلم مناقضاً للدين للزم عن ذلك ان المرء كلما تجر في العلم توغل في الكفر وهو خلاف الحقيقة لان الاختبار اثبت لنا ان المتدين كلما تجر في العلم زاد تدبناً اذ ان العالم يعينه على كشف أسرار الكون و كلما كشف منها سرّاً تقرب من رب الاسرار وعالم الخفايا جل جلاله كراقي سلم قصر شاهق كلما صعد درجة تقرب من المقيم بأعلى غرفة فيه . وقد شهد العلماء الانقياء ان العلم لم يزدحم الا ايماناً بخالق الاكوان لانهم قرأوا آياته البينات في كتاب الطبيعة كما قرأوها في كتاب الشريعة . وهم الذين اثبتوا وجوده تعالى وجلوا آيات كونه ورفعوا أعلام عظمتهم ومزقوا حجب الظلمات عن محيا حكمته وقدرته وجودته . منهم العلامة كلفين احد أعيان الانكايذ المتوفى سنة ١٩٠٧ الذي اشتهرت مباحثه الكهر بائية في الاقطار وجاء بالبدع العجيبة في معرفة اعماق البحار وقد نسب اليه العلماء اعظم المسائل المتعلقة بالجواهر الفرد والاثير وغيرها فهذا الرجل الجليل الذي فاق اقرانه في المباحث العلمية لم يكتف بكشف الاسرار المادية بل أخذ يبحث في المعقولات والمشيمة والاختيار والعواطف والانفعالات والقوة والعقل والعلة العاملة وامثال ذلك من الموضوعات العقلية وأثبت في كل من تلك المباحث آيات القصد والحكمة في العالمين ومما قاله في ذلك « ان الاشياء كانت اما بالانفاق (الصدفة) واما بالضرورة واما بالقصد وكل من الاول والثاني باطل . اما الاول فلانه يقتضي كون معلول بلا علة . واما الثاني فيقتضي ان الاشياء على ما هي عليه الآن كانت كذلك منذ الازل . والواقع خلاف ذلك على ما ثبت في مباحث التكوين فكيف توزعت عناصر العالمين على نسبتها المعلومة ولما ذا كان الذهب أقل من الحديد والحديد من الصلصال . وكيف استنسبت الكرة الارضية في خواص موادها وصفاتها ومقدارها وتوزعها على مقتضى حاجة الاحياء وانتشارها ونموها وكيف نشأت الحياة في الجماد ؟ ما ذلك الا لان كل حي قائم بعناية خالق حكيم ضابط الكل فالعالم مخلوق فثبت الخالق » .

وهذا من الأدلة العلمية التي لا يسع الكفرة انكارها فالعلم الحق لا ينافي الدين الحق ولا ينفيه بل يثبت ويؤيده ويقويه . واما الذين كفروا بالله وآياته فقد كان كفرهم لقلة علمهم قبل ان يقفوا على بينات الدين فلما تعمقوا في العلوم اشتغلوا بهادون غيرها فتمكن منهم الكفر الى حد لم يستطيعوا عنده الرجوع عنه ولوعرفوا ضرره فمثلهم مثل الذي آدم المسكرات حتى صار شربها من طبعه واخلاقه فيستمر عليها ولا يرجع عنها مع معرفته ضررها . وجملة القول ان التعمق في العلم يزيد المؤمن ايماناً والكافر كفراً . فلا تناقض بين العلم والدين بل هما حليفان ولو كره الكافرون . ومما يؤيد ذلك ان كلاً منهما نافع للآخر فالعلم افاد الدين بانه ازال عنه كثيراً من البدع والخرافات التي شوهت محاسنه واثبت كثيراً من حقائقه بالاكتشافات المتعددة . والدين افاد العلم بتشديد معاهده ونشر كتبه ورفع اعلامه باموال المتدينين كما تشهد المدارس القديمة في دمشق وغيرها من البلاد العربية فان الذين اسسوها ووقفوا عليها الاراضي والابنية كانوا من اهل الدين . والمدارس التي اسستها البعثات الاجنبية في انحاء الارض المختلفة انما تأسست باموال المحسنين من اهل الدين ايضاً . فالعلم والدين كنا ولا يزالان حليفين ينصر احدهما الآخر ويؤيده لا يناقضه ولا يفسده فالاسباب التي يتورك عليها المستخفون بالعلم والغائفون منه كلها باطلة والتحجج التي يوردونها كلها فاسدة . واذ قد اثبت ان العلم من قومات الحياة العقلية والادبية والاجتماعية والسياسية ووضحت فوائد المعنوية والمادية ومكانه من الجامعة الانسانية اتقدم الآن الى بيان الواجب المفروض على الطلاب والعلماء والوالدين والحكومة والامة كافة في هذا الشأن . فاقول على طلاب العلم ان يدخلوا بيوتهم من ابوابها ويأخذوا فروعهم من اربابها ويجهدوا في الدرس والمطالعة والتأمل والمراجعة ويواظبوا على كل ذلك بلا ملال ويحترزوا من الكسل والاهمال متذكرين قول من قال :

ومن طلب العلوم بغير درس سندر كما متى شاب الغراب
وعليهم ان يفهموا ما يقرأونه لئلا يكونوا كالبيغاء ويحفظوا ما يفهمونه لان العلم في
الصدور لا في السطور . والعرب تقول حرف في قلبك ولا الف في كتبك وما احسن
قول الشافعي :

علمي معي حيثما نمت ينفعني صدرى وعالاه لابطن صندوقي
ان كنت في البيت كان العلم فيه معي او كنت في السوق كان العلم في السوق
وعليهم ان لا يقتصروا على نوع واحد من العلم بل ليشاركوا في فروع كثيرة منه . قال
يحيى بن خالد لابنه : « عليك بكل نوع من العلم فخذ منه فان المرء عدو لما جهل وانا اكره ان
تكون عدواً لشيء من العلم » وقال الشاعر :

ما حوى العلم جميعاً احد لا ولو مارسه الف سنة

انما العلم بعيد غوره نخذوا من كل علم احسنه

ويجب عليهم ايضاً ان يعاشرُوا العلماء و يذاكروهم في المسائل العلمية و يستفيدوا
من اختباراتهم الكثيرة » قال الشاعر :

واطل في العلم مذاكرة فحياة العلم مذاكرته

و يحسن بهم ان يدونوا ما يسمعون من الفوائد لان الانسان عرضة للنسيان و يثابروا
على ذلك الى نهاية الحياة مذللين كل عقبة في سبيلهم وغالبين كل صعوبة تقبض عزائمهم
وغير معتذرين بضيق الوقت او كبر السن فان الانسان يقدر ان يجد وقتاً كافياً للتعلم
اذا اراد ان يجد وقتاً كافياً للملاهي المضرة او البطالة والراحة او التلذذ باشباع الشهوات
ولا احد يكبر عن العلم ولو بلغ الثمانين من سنه . قيل ان فكتور يا ملكة الانكليز
شرعت في درس اللغة الهندية وهي في الثالثة والثمانين من عمرها . ومئات من العلماء المشهورين
لم يشرعوا في تحصيل العلم الا بعد ان تجاوزوا العشرين او الثلاثين او الاربعين من
اعمارهم كما بي بكر الرازي فقد قيل انه لما سرع في تعلم الطب كان قد جاوز اربعين سنة من
العمر . ومنهم من درسوا العلوم وهم في المعامل او المتاجر او المزارع لعدم تمكنهم من
تخصيها في المدارس ايام الحداثة . وكل من جد وجد فلا تبي يمنع المجتهد من اكتساب
العلم مهما حال دونه من العقبات . ويجب على العلماء ان يكونوا عاملين بعلمهم باذلين
جهدهم في زيادته ونشره ورفع لوائه وتعزيز منزلته لانهم كلما في التي تعكس النور فان لم
يفيدوا غيرهم او يستفيدوا منه كان عليهم عقياً . والعالم الحقيقي من لا يجل بالافادة
ولا يستنكف من الاستفادة . وعليهم ان ينهضوا الهم الوانية و يقودوا العزائم الواهية
و يدعوا الناس الى ورود مناهل العرفان و يحببوا اليهم السير في مناهج الفضيلة و يبينوا

لهم مزايا العلم الحميدة ومنافعه العديدة ويحذروا العجب والكبرياء ويحذروا التملق والرياء فان ذلك ينافي الفضل ويدل على الجهل . قال الامام عمر بن الخطاب « تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم وتواضعوا لمن تعلمون ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم » .

و يجب على الوالدين ان يعثروا بثقيف عقول اولادهم وتهذيب اخلاقهم كما يعثرون بتربية اجسادهم ويختاروا لهم افضل المعلمين المقتدرين الامناء المعروفين بطهارة السيرة ويضعوهم في ارقى المدارس التي تفتح في تلاميذها روح الرجولية وتلقنهم المبادئ الشريفة التي تؤهلهم للحياة النافعة الصالحة . ومن قصر في ذلك كان قاتلاً بل شراً من القاتل لان قتل العقل افظع واخر بالمجتمع من قتل الجسد ولان يهلك الرجل ولده بالسيف اخف جرماً من ان يميت عقله بالجهل فيكون شر الظالمين السفاكين .

و يجب على الحكومة وهي المقامة لصيانة الوطن واعلاء شأنه وتنظيم احوال الامة بتوفير اسباب الراحة وتمهيد سبل السعادة ان تعنى عناية عظيمة بنشر العلم الصحيح في كل بلد وقرية بين الذكور والاناث لان الامة لا تحيا سعيدة ولا تجاري الامم المتقدمة الا بانتشار المعارف فيها وتمزق غياهب الجهل عنها . ولا بد للوصول الى ذلك من اتفاق الاموال الطائلة لزيادة عدد المدارس الابتدائية بحيث يتسنى لكل ولد ان يجد مدرسة قريبة منه ليتلقى العلم فيها . وحينئذ تتمكن الحكومة من جعل التعليم الزامياً مجانياً فلا يمر وقت طويل حتى يصبح افراد الشعب كلهم متعلمين . وجميع ما ينفق من الاموال في هذا السبيل يعود على الدولة بالربح الجزيل لانها تعد بذلك خير الرجال الذين يعززون شأنها ويشيدون بنيانها . وقد عرفت الحكومات الغربية هذه الحقيقة فخصت مبالغ طائلة من دخلها للاتفاق في سبيل العلم والتعليم . فحكومة الولايات المتحدة تنفق نحو عشرين الف الف ريال في السنة على مدارسها وقد ضمت الى دراوين الزراعة والمساحة اكبر علمائها وقطعت لهم الرواتب الطائلة . وحكومة فرانسه تنفق على التعليم اكثر من الف الف دينار في السنة . وحكومة انكلترة تبذل في سبيل المعارف نحو خمس نفقاتها كلها ومثلها حكومة بلجيكة وامتازت حكومة سويسره باتفاقها نحو ثلث دخلها في هذا السبيل . وفي ما ذكر كفاية لبيان اهتمام دول الغرب بنشر المعارف بين رعاياها وهي تعضد

كل مشروع علمي كالمدارس الاهلية والاندية الادبية والمجامع اللغوية وغرف القراءة وتنشيط المؤلفين واصحاب المجلات وغيرهم من ذوي الاقلام وتكافئهم باعطايا الجزيلة لانها تحسب ذلك من افضل الذرائع الى نشر العلم والآداب في الاوطان ومن امثن الدعائم التي يبنى عليها العمران . وقد حذت حكومتنا الرشيدة حذو الحكومات الراقية في الاهتمام بنشر المعارف في هذه الربوع على قدر ما مكنتها الاحوال فاستحقت الثناء الطيب . الا ان البلاد لا تزال في حاجة شديدة الى زيادة عدد المدارس الكافلة بتعميم العلم بين الشعب وانهاضه الى مساواة الشعوب الغربية ولا ريب في ان الحكومة الحاضرة ستبذل جهدها في سد هذه الثلمة في القريب العاجل بمنه تعالى وحسن توفيقه .

اما الامة فيجب عليها ان تستيقظ من غفلتها ونهض من كبوتها وثيقن انه لا حياة لها الا بالعلم وان العلم لا ينال الا بالاجتهاد والمثابرة والسخاء فلا يجوز للشعب ان يتكاسل في هذا الامر الخطير ولا ان يتوقع من الحكومة ان تقوم وحدها باعباء هذا العمل العظيم بل يجب على الافراد والجماعات ان يساعدوا الحكومة على بث المعارف بتأليف الجمعيات العلمية وتأسيس المدارس الاهلية والاندية الادبية التي تنور الازهان وتنشر العرفان . وعلى الاغنياء خصوصاً ان يبذلوا شيئاً من اموالهم لمعاودة المشروعات التي تنفع الاوطان وتضمن لها النجاح وعلو الشأن ذلك خير من بذل اموالهم في سبيل التمتع بلذاتهم او كنزها في الصناديق الحديدية او المصارف التجارية بحيث لا ينفع بها احد في حياتهم بل يستولي عليها الورثة بعد مماتهم وربما بذروها في ارتكاب المعاصي او خزنوها كما فعل اسلافهم الذين ورثوها عنهم فلم ينتفعوا هم بها ولا نفعا غيرهم . ان بعض الاغنياء في بلادنا قد شعروا بوجوب الاتفاق في سبيل العلم ومدوا ايديهم الى مساعدة المشروعات العلمية والاعمال الخيرية فاستحقوا الشكر ولكن باقي الاغنياء لا يزالون مهملين هذا الواجب غافلين عنه وهم يباهون بايلاهم والوائهم الفاخرة وركوب الخيول المطهمة بينما يباهي اغنياء الغرب بوقف اموالهم الطائلة على انشاء المعاهد العلمية ومعاودة الملاجئ الخيرية ولا يقتصرون على معاونه اوطانهم بل يرسلون باموالهم الى غير بلادهم لتأسيس المدارس الابتدائية والعالية والجامعة خدمةً للانسانية كما تشهد آثارهم في هذا القطر وغيره من افطسار الارض البعيدة والقريبة فتى يهتم اغنيائنا

بتأسيس مدرسة كلية في وطنهم تشبه الكلية الاميركية او الكلية اليسوعية في بيروت بل متى يهتمون بزيادة عدد المدارس الابتدائية الاهلية في البلدان التي لا يزال الوف من سكانها يجهلون القراءة والكتابة . ربما يعنذرون بان ثروتهم قليلة بالنسبة الى ثروة اغنياء الغرب فلا يمكنهم ان يقوموا ببذل اعمالهم ولكن قلة ثروتهم لا تمنعهم من القيام بشيء من الاعمال النافعة لبلادهم والامة لا تطالبهم بما هو فوق طاقتهم بل الموقع منهم ان يتعودوا البذل في سبيل العلم شيئاً فشيئاً الى ان يستطيعوا القيام بعمل كبير نافع وما ذلك عليهم بعسير . فيا أيها السوريون النجباء والاخوان الادباء اجبهوا فداء محب مخلص يدعوكم الى نشر العلوم والمعارف والآداب والفضائل في الوطن العزيز . وسيروا في سهل التمدن الحقيقي بالمجد والنشاط والعزم والتبات تبلغوا ذروة النجاح . وانفوزوا بالخير والفلاح . والله المسئول ان يوفقكم لكل سعي مشكور . ويعضدكم في كل عمل مبرور . انه ولي الامر والتدبير . وهو على كل شيء قدير .

عصر القيقر قد مضى واتاكم	عصر بانوار التقدم ساطع
فدعوا التواني وابذلوا مجهودكم	سنة العلم ان العلم فيه منافع
وابذلوا المدارس وانشروا الكتب التي	تد النهي والفضل فيها يانع
فالجهل ايل ماله من هازم	الا صباح بالمعارف لاعم

انيس سلوم



الحقوق المدنية

في العالم القديم ومنابعها الثابتة (١)

الحقوق المدنية عنصر من عناصر المدنية العامة للعالم القديم وحال ملازم له في اول ادوار التجمع البشري وقد اهتمت اليها فطرة الانسان قبل ان يعنى بامرها ماوقفنا عليه من الكتب السماوية . ولها منابع ثابتة مطردة عند جميع الامم لا تخرج عن ثلاثة بقدر البحث والاستقراء .

اولها الحاجة

هذا الاصل كما انه من اصول الصناعة والتجارة وغيرهما فهو اصل من اصول الحقوق المدنية وهو اصل ثابت في كل زمان لما هو حاجي من الاحكام المدنية . ولذلك اقرته الشريعة الاسلامية . وقد اشتير على السنة العموم ان الحاجة اصل الاختراع . ومن هذا الاصل استنبط الناس قديماً مبادلة العروض بالعروض ، وبما يستنبط منه حق الزواج لبقاء النوع الانساني وحق الطلاق لتحصيل الراحة من النزاع العائلي الدائم .

ثانيها ارشاد الفطرة

ومحصل هذا الاصل اتفاق آراء العالم كافة او اهل محيط بتمامه على الحكم باستحسان الامر الذي يكون وسيلة لتحصيل مقصد من مقاصد الحياة العامة وهو اصل يعم الحاجيات والكماليات من الحقوق والارنفاقات وقد استنبط منه قسمة المشترك . او المهادنة زماناً او مكاناً على الانتماع به قالوا ومن ذلك توريث الابن مال ابيه . وهذا الاصل هو الذي سمي بلسان الشريعة الاسلامية الاجماع وقد تخصص العمل به فيها بحالة فقدان النص من الكتاب او السنة اللذين اعتبرهما الاصلين الاولين لانواع الشرائع والاحكام .

(١) المحاضرة التي القاها الشيخ سعيد مراد الغزي استاذ المجلة في المعهد الحقوقي وذلك في ردهة المجمع العلمي في ١٣ تشرين الاول سنة ١٩٢١ م

الثالث التجارب والممارسة

ومحصله ان الاجتماع البشري لما كان قديماً وأعلى من المعاملات الكيالية ما لا يكون مبرماً مع عدم اتفاق الآراء والنظر على تعيين ما يقع ملائماً من صورها وكييفياتها لم يروا مندوحة عند طلب الكمال عن الاخذ بآية صورة تحيط لاي محيط من صور تلك المعاملة التي يتصورها العقل وتطبق اية كيفية يتمكنون من تطبيقها فيما بينهم لتحصيل المقصد الحيوي من تلك المعاملة ويغلب وجود هذا الاصل في المعاملات الاختيارية مثل الزكاة وانواع التجارات والوكالات والمزارعات .

وبعد ان تظهر ملائمة تلك الصور والكييفيات لمصلحة الذريقتين المنفقتين على ايجاد تلك المعاملة بينها ويتضح انه لا ينشأ منها خلاف في الاغلب تعتبر في ذلك المحيط اصلاً من الاصول لما تدخله من المعاملات المدنية مقبولة عند جمهورهم يرجعون اليه مرة في تقرير الحق وأخرى في تحصيله من وجب عليه ان هو حق له .

وقد سمي هذا الاصل بلسان التشريع الاسلامي « العرف والعادة » وقد اقرته الشريعة الاسلامية عاملاً في غير المنصوص من الاحكام على عمر الايام وهو من اهم الاصول والقواعد للشرائع الزمنية في كل جيل من الاجيال وعصر من العصور .

علاقة اصحاب الشرائع السماوية بالحقوق المدنية

مما تقدم يتكون بلا ريب سؤال ملخصه ماهي اذن علاقة الشرائع السماوية بالحقوق المدنية . والجواب عنه حسبما يتضح من اساليب الكتب السماوية المقدسة ان المقصد الاساسي من انزالها ومن ارسال الرسل المظام التي نشرت تعاليمها انما هو تربية النفوس بالاخلاق الفاضلة وتطوير الامم من محقق الانحطاط الادبي الى ذروة الكمال العقلي وتقوية الروابط القلبية فيما بيني البشر وسوقهم من طريق الرغبة وحب الخير الى ارفع الخصال وجعلهم يتركون المساوىء والقبائح باختيارهم بعداً عن اضرارها وعندئذ يستعدون لوضع ما يحتاجون اليه من نافع القوانين .

وقد اقتدر كل واحد من السارعين على ان يطور بنفسه وتلامذته الملايين من

الناس في اقل من ربع قرن مع ان تطوير الامم باصول التربية العامة لا يمكن حصوله قطعاً في ثلاثة امثال هذه المدة كما قرر في علم الاجتماع .
وهذه هي خاصة الشارعين المشتركة فيما بينهم التي لا يمكن ان يجاريهم فيها احد سواهم من اكبر الفلاسفة واناظم نوابغ الامم .

الحقوق المدنية الشرقية وفي ضمنها العربية قبل الاسلام

مما تقدم علم انه لا بد لاية أمة من ان تكون ذات حقوق مدنية حيث لا يمكنها الحياة الاجتماعية بدونها غير ان التماثل بين الامم انما يقع في حسن انتخاب هذه الاصول وايضاً في نبراتها حسب درجة الامة الاخلاقية وصحة احتياجها او فسادها وماوصلت اليه من درجة البعد عن التمسك واحترام حقوق الافراد والجماعات عندما تريد ان تستخرج بارشاد فطرتها احكام القانون وحسب درجة ما اعتادته من احكام المعاملات في الحسن والقبح .

ثم ان اول ما عرف فيما وصل اليه البحث والاكتشاف من الحقوق المدنية الشرقية شريعة حمورابي المسماة باسم الملك السادس من ملوك الدولة الاولى من دول بابل المؤسسة قبل الميلاد بثلثين واربعمئة وستين سنة والتي هي من اصل عربي عند اكثر المؤرخين فمن هذه الشريعة في حقوق الزواج ان كلا من الرجل والمرأة انما يقتربان من بساويه في الطبقة الاجتماعية لا من هو فوقه او انزل منه طبقة .

وقد كان يقع نادراً اتحاد السراري بطريق الملك غير انهم كانوا يستثنون من ذلك عبيد القصر الملوكي فيجوزون لهم الزواج بنات الاحرار .

وكان زواجهم بعقد يكتب ويدون كما هو الحال في احدث الشرائع السماوية وعند ارقى الامم اليوم وكانت حقوق الزوجية عندهم متبادلة على نحو قريب مما هو معروف عن الشريعة الاسلامية ومن احكامهم عقوبة الزاني بالقتل ذبحاً ويستثنى من ذلك المرأة التي يغيب زوجها في الاسر ولا تجد من ينفق عليها فيسوغ لها ان تلجأ الى من لتأخذ زوجاً فاذا عاد الزوج الاول كان احق بها وان اولادها الثاني اولاداً فهم له وكان الزوج يقدم مهرأ يسمى ثمن العروس والزوجة تحضر من بيت ابيها ايضاً وكلا المالبين يحفظان لزوجة عند الزوج للحاجة .

ومن احكام هذه الشريعة ان الطلاق بيد الرجل فقط وحينما يستعمله يرجع مهر الزوجة اذا كان محفوظاً عنده ويطاقتها اما هي فيجب عليها تربية الاولاد في مقابل حصة معينة من كسب الاب فلا يحق له طلاقها في حال المرض بل يتزوج سواها ان اراد وتبقى نفقتها عليه طرل حياتها .

ثم ان الزوجة اذا كانت متضررة من معاشرة الزوج ترفع امرها للقاضي فينزعها من الزوج جراً اذا ظهر صدقها والا طرحت في الماء .

ثم انه يتشكل من الزواج في هذه الشريعة عقد كفالة متبادلة بين الزوجين في جميع الحقوق المدنية . ولانفرق هذه الشريعة في الارث بين الذكر والانثى وللوالد ان يمنع من اولاده من وقع منه سبب معقول يوجب منعه من الميراث من ارثه ومن احكامها في المعاملات العامة تسعير الحكومة اقيم السلع وتقدير اجور الصناع حتى من ذوي الحرف الرفيعة مثل الاطباء والمحامين .

وكان عندهم عقود وصكوك للمعاملات العامة .

ثم مضت اعصار وادهار ما بين هذه الدولة صاعبة هذه الشريعة وبين عرب الحجاز الذين ظفر فيهم الشارع الاعظم محمد صلى الله عليه وسلم وقد كانت حالتهم الحقوقية على درجة من الانضام ارقى بكثير من حالتهم الاجتماعية العامة والادارية وقدورتوا عن هذه الدولة ومن بعدها من الدول الشرقية العربية كثيراً من قواعد الزواج والطلاق غير انهم ساء نظام الطلاق عندهم وصاروا يستعملونه مع عدم شدة الحاجة اليه بل اخترعوا الظهار والايلاء لقهر واعنائ الزوجات وفشا عندهم تعدد الزوجات بداع وبدونه بسبب توالي الحروب ما بين قبائلهم وما نتج عنها من ازدياد عدد النساء على عدد الرجال في القبيلة الواحدة من سبايا الحرب اما في قسم الحقوق المدنية العامة فقد كان نظامهم جيداً جداً لا يوجد له نظير عد دول الارض العظيمة في ذلك العهد مثل دولة الفرس والرومان .

ومن ذلك ان اصول القضاء عندهم كانت من اعدل ما يمكن في ذلك العصر وقد كانوا يأخذون عن منابع الحقوق الثلاثة المقدمة ما يحتاجون اليه من الاحكام المدنية

بدن ان يدونوا شيئاً من تلك الاحكام الجزئية وطرق القضاء واثبات الحقوق انحصرت في قول شاعرهم : فان الحق مقطعه ثلاث شهود او يمين او جلاء . وقد كان عندهم حكام في الاموال وآخرون في الدماء وحكام في النسب لاثبات من يكون من الابناء متولداً على غير عمود النسب واصول الزواج العامة وحكام في دعاوي التجاوز على العرض .

ومع ذلك فقد كانت حالتهم الادارية ونظام حياتهم الاجتماعي على درجة من البساطة بسبب قلة المقتنيات وضعف الصناعة والتجارة وانحصار الكسب في طرق بسيطة كقتيل من النسخ وتربية المواشي وما شاكلها .

الحقوق المدنية عند الرومان من قبل القرن السادس الميلادي « لاواسط القرن الحادي عشر »

اما الرومان اصحاب الملك الضخم والمالك النفيسة فقد كانت الحقوق المدنية وفي جملتها دلائل القضاء عندهم على اتعس ما يمكن ان يتصوره الانسان . فقد اعتبروا من ادلة القضاء المصارعة ما بين شخصين قوهين من اخضاء المتداعيين وامتحان الحق من الباطل في الدعاوي بالحديد المحمى في النار الذي كانت يستعمل للاقرار بالجرائم مرة وبالحقوق أخرى والطرح في الماء البارد في الشناء حتى وبالصاب احياناً وهو ان يقف الشخص على هيئة الصليب ماداً يديه مدة معينة من الزمان لامتحان الصدق من الكذب في دعواه او التهمة او البراءة فيما يدعى عليه من الجرم كما بسطه المؤرخ الشهير موسيم الجرمني في تاريخ الكنيسة . ولا يستراب في ان الرومان اخذوا ذلك عن برايرة افريقيا .

وقد بقي القانون الروماني على هذه الحالة لم يتغير في اساسه تغيراً يذكر لاواسط القرن الحادي عشر الميلادي اي بعد ظهور الاسلام باربعة قرون ونصف .

الحقوق المدنية في الاسلام ومنابعها الجديدة

سبق القول في ان البحث عن القوانين المدنية ليس لازماً من لوازم الشرائع السماوية ولا مطرداً من كافة الرسل العظام .

ومن الدواعي على انه اوحى للشارع العربي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم جملة صالحة في الحقوق المدنية انه قد اكمل عمله الاساسي وبعد التطوير الاخلاقي للمحيط الذي ظهر فيه في الثلاثة عشر سنة التي اقامها بمكة بعد ما بعث رسولاً وعليه وجد عنده من الوقت متسع لان يعلم الناس اصولاً عامة في الحقوق المدنية كما فعل الحكيم سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم لعين السبب .

غير ان ما اوضحه الشارع العربي من ذلك كان اغزر مادة واطول حياة بنسبة رقي الانسانية المطرد حسب سنة التدرج .

ومن الدواعي ايضاً ما كان عليه جيران محيطه الفرس والرومان من فساد النظام القضائي كما مر التنبيه على بعض ذلك . وعدم تمام استفادة العرب مما كانوا عليه من النظام القضائي بداعي فساد نظامهم الاجتماعي والادبي بما كان قد حمل اليهم عمرو بن لحي الخزاعي حاكم مقاطعة الحجاز قبل بعث الرسول محمد صلى الله عليه وسلم . بقرنين نقر بياً من عادات وعقائد الهنود عندما توجه لطبريا مستنطباً من مياهها المعدنية .

ثم ان الاسلام بعد ما نظر نظرة عامة للشرائع الماضية قبل ما وجده منها ملائماً للمصالح العامة من ذلك المضاربات والشركات والرهون وعقوبة الزناة وقتلة النفوس والبغاة وهذا النوع لا يحصر كثرة .

وعدل ما يصير نافعاً وصالحاً ببعض تعديل كالبيوعات والاجارات التي ادخل عليها من الشروط في المعقود عليه والعاقدين ما يضمن مصلحتها ويرفع النزاع فيما بينها ومن هذا النوع القسم الاعظم من احكام الشريعة الاسلامية كما يتضح لمن احاط بفروعها ملماً بما كانت عليه حالة العالم القديم في هذا النوع من المعاملات كما انه ابطال ما هو مضر من الاحكام القديمة من ذلك ابطاله حكم تأييد الظهار والايلاء وابداله بايقاع الطلاق على المظاهر والمولى فيما لو بقي مصرّاً على قوله ولم يرجع عنه واوجب عليه عند الرجوع كفارة غليظة يقصد منها الزجر عن الدخول في مثل هذا العمل والتجاسر عليه .

وشرع احكاماً جديدةً لاعمد للعالم القديم بها نافعة جداً مثل اللعاب ما بين

الزوجين الذي عاقبته الفراق الدائم فيما بينهما عندما يرمي الزوج زوجته بتهمة الفاحشة من دون ان يكون له على قوله دليل تقع به القناعة .

وقد كانت عرب الجاهلية تنزع في مثل هذه الحادثة للكهان يستطلعون رأيهم اعتقاداً بان لهم صلة مع الملأ الاعلى في الوقوف على الحقائق العامة التي فقدت الاسباب الظاهرة للوقوف عليها .

وشرع الاخذ بالشفعة وحدود درجات الاهلية والمسؤولية في كافة انواع الحقوق وسائر اصناف الجرائم .

ووسع طرق القضاء واوضح اسبابه على وجه لم يعرف في شرائع العالم القديم تفصيل ذلك والاحاطة به متيسر لمن وقف على المدونات الحقوقية الاسلامية وعرف ما كان عند العالم قبل الاسلام من ذلك .

ثم ان الاصول والمنابع الحقوقية في نظر الشريعة الاسلامية اربعة ندمج فيها الاصول الثلاثة العامة المتقدمة لكافة الامم وهذه الاصول هي ان كتاب اي القرآن المجيد والسنة اي اقوال الرسول واعماله ونقريه ما يراه من عمل غيره ويعبر عن هذين الاصلين بالنص التشريعي وما في معناه .

والاجماع وهو عبارة عن اتفاق علماء الشرع الواقفين على اصوله على الحكم في الحادثة الغير الواضح حكمها بوجه خاص من النص التشريعي ويعبر عن هؤلاء العلماء ايضاً باهل الاجتهاد القادرين على استنباط احكام الحوادث الجزئية من المنابع العامة والمنبع الرابع القياس المختص الاستئادة منه بهؤلاء العلماء المتقدمين في الاجماع ومن هذا يتضح ان الشريعة الاسلامية اثبتت اصولاً ثابتة للاحكام المدنية يمكن ان يستفاد منها كل ما يحتاج اليه في كل عصر كما ان نصوصها قد صرحت بمراعاة الاعراف والعادات في التشريع وبمباشرة الحاجات والمصالح المختلفة باختلاف العصور المتحددة بتجدد اطوار الحضارة والعمران .

الحقوق المدنية الرومانية من اواسط القرن الحادي عشر الميلادي للآن

في اوائل هذا القرن وجد غريبرت اي السلوفر الثاني الافرنسي الذي جلس

كرسي ماري بطرس لغاية سنة ١٠٢٤ ميلادية وكان مع اخوان له من انصار العلم والحق معاً يتلقون سائر العلوم التي كان سوقها رائجاً في مدارس الاندلس الاسلامية وفي جملتها الفقه الاسلامي المأخوذ من منابعه الاربعة المتقدمة في العنوان قبل هذا بعد ان برعوا في اللغة العربية وكانوا يترجمون دروسهم الى لغتهم فبسبب ذلك وبسبب رداءة حالة القضاء عندهم كما تقدم الاشارة الى بعض ذلك في هذه المقالة .

وعليه فكروا في ان ينقلوا ما يلائمهم ويوافق محيطهم من احكام تلك الحقوق واقنعوا بضرورة ذلك ملوك الجهة الجنوبية من بلادهم .

وبعد ان اتفق رأيهم على ذلك بشرط عدم عزو المأخوذ عن الشرائع الاسلامية لمنبعه الاصلي خوفاً من نفرة العسامة من المسيحيين الذين كانوا بواسطة رؤساء الدين ينفرون من كل شيء مصدره الاسلام مما كان حسناً ونافعاً فاجمعوا من اجل ذلك على تسمية ما يأخذونه عن الشريعة الاسلامية من تلك الحقوق (الشرائع الرومانية) او (القانون المدني) وان يعزوه لاجتهادات علماء الحقوق منهم بنتيجة البحث والدرس .

وهذه الحقيقة على هذا الوجه ثابتة من مصدرين احدهما مصدر شرقي اسلامي وهو ما يأتي :

قد جاء في مجموعة رسائل في شوارد المسائل للعالم الباحث المنقب مفضل بن رضى الاسفركاني ما نصه :

كتب ابو العباس الكركري من تلامذة بهمنيار وهذا تلميذ الشيخ الرئيس ابي علي بن سينا في رسالته لمفتي مرو احمد بن عبد الله السرخسي في معنى كمال الفقه ان ابا الوليد محمد بن عبد الله بن خيره نقل في تعليقاته على النهاية شرح الهداية ان طلبه العلم من الافرنج الذين كانوا يسافرون الى غرناطة لطلب العلم اهتموا كثيراً بنقل فقه الاسلام الى لغتهم لعلهم يستعملونه في بلادهم لرداءة الاحكام فيها خصوصاً في المائة الرابعة والخامسة من الهجرة فقد برعوا في اللغة العربية منهم هربرت والبرت فانها طلبا مساعدة العلماء لابرار مقصدها وقد ساعدها حتى دونوا الفقه كاملاً وحوروه الى ما يوافق بلادهم ولذلك ترى احكام القوانين والقضاء لانزل رديئة وسيئة في العدو الشمالية من بلاد

الافرنج اه المقصود نقله من عبارة الاسفرنكاني من علماء الفرس المعبر عنهم بعلماء ما وراء النهر . والمصدر الثاني غربي وغير اسلامي وهو ما يأتي :

قال العلامة المؤرخ الشهير موسيم الجرمني في تاريخ الكنيسة المترجم للعربية بمعرفة العالم هانري جيب الاميركاني المطبوع في بيروت في كلامه عن القرن العاشر الميلادي مانصه : ان هربوت الفرنسي المعروف بين الاحبار الرومانين بسلفستر الثاني كان مديوناً على بعض معرفته ولا سيما الفاسفة والطب والتعليمات لكتب عرب اسبانيا ومدارسهم لانه مضى الى اسبانيا في طلب العلم وكانت تليذ علماء العرب في قرطبة وسفلا (اشبيلية) وربما أثرت سفرته في الاوربيين المتشوقين للعلم وخاصة للطب والحساب والهندسة والفلسفة فكان لهم من ذلك الوقت فصاعداً رغبة عظيمة في ان يقرأوا ويسمعوا علماء العرب الساكنين في اسبانيا وبعض نواحي ايطاليا وترجم كثير من كتبهم الى اللاتينية وذهب كثير من التلاميذ الى اسبانيا ليتعلموا رأساً من خطب علماء العرب . وحق علينا ان نقول ان العرب ولا سيما عرب اسبانيا هم اصل وينبوع كل معرفة من الطب والفلسفة والفلك والتعليمات التي يزغت في اوربا من القرن العاشر فصاعداً اه كلام المؤرخ حرفياً .

ولا يخفى ان علم القوانين هو من أهم التعليمات التي اشتهرت في اوربا في تلك الاوقات وان ما أخذوه من القوانين المدنية والاحكام القضائية هو عين ما لقبوه بالقوانين المدنية الجديدة الرومانية للسبب الذي تقدم بيانه والذي يؤيد صحة هذا الاستنتاج البسيط الواضح من هذين المصدرين التدقيق في احوال وتطورات القانون الروماني الى ما قبل رحلة اولئك العلماء من الافرنج الى اسبانيا وذلك موضع قرناً بعد قرن في كتاب موسيم المحدث عنه وعدم تجويز العقل ما يلفقه بعض مؤرخي الافرنج من مسألة ظهور القانون الروماني فجأة بعد اختفائه مدة اربعة او خمسة قرون فانه من المحال ان تجهل أمة تانونها هذه المدة ثم يظهر فجأة على شكل لا يتفق مع القسانون المعروف قديماً بوجه من الوجوه ولولم يدون في صحيفة واحدة فان ذلك لم يعرض لامة من أم الارض القانونية في الغرب والشرق مع ان الحاجة لتطبيق القانون على الحوادث المستمرة داعية لدوام معرفته والوقوف على احكامه . والمخلاصة انه لا يوجد سند تاريخي ثابت

يدل على وجود القانون الروماني على الوضع الموجود به الآن او قريب منه قبل رحلة سلفستر ومن معه من الطلاب لمدارس اسبانيا .

ولا ينظر وجود مصدر من المصادر الافرنجية من صحة قولنا بان القانون الروماني أخذ من الفقه الاسلامي أصرح مما تكلم به المؤرخ موسهم مع الجزم بأنه ما كان من الممكن للآخذين التصريح الواضح بنسبة ما أخذوه لمصدره المأخوذ عنه لانه تقوم عليهم قيامة رؤساء الاكليروس الكبرى وتضطرهم ضوضاء الامة المنقادة اليهم للعدول عما يرونه من انفع الاعمال لبلادهم ومن اكبر الخدمات لمصلحتها ولو كان في الطب والفلسفة المصرح بانها أخذت من علماء العرب شيء من الصبغة الدينية لما رأينا التصريح يأخذ ذلك عنهم .

كما ان عبارة مغفل الاسفرونكاني المنقولة عن تلميذ تلميذ ابن سينا الذي هو من علماء اواسط القرن الخامس انما دونت لتدوين حقيقة ما كان يختلف فيها اثنان في ذلك العصر الذي لم يقل من علمائه احد بخلاف هذه الحقيقة وان علماء الافرنج انما اكتتموها عن قومهم قصداً لمقصد سام لا يعابون في الكتمان من أجله بل يمدحون وانما أحدث الاصرار على اخفاء هذه الحقيقة من القرون الوسطى فصاعداً تارة بدون قصد لعدم وجود التصريح بها في مأخذ علمائهم وأخرى بقصد لمن وقف عليها من المأخذ العربية حباً في الصيت وتدوين المؤرخ الآثار الحسنة لامته ولا يحلو التاريخ من هذه الوصمة على جماله حتى فيما بين الاحزاب المختلفة من أمة واحدة ناهيك بما يكون من ذلك ما بين الشرق والغرب .

وانني لموقن بأنه قد قرب الوقت الذي يعترف فيه الشرق بكل ما للغرب من المزايا ويعترف كذلك الغرب بكل ما للشرق من المزايا ويجلس الفريقان على سرر متقابلين متأخين متحابين بقوة الله وانتشار العلم وحسن المقصد .



حقائق تاريخية

عن دمشق وحضارتها (١)

توطئة في بلاد الشام وسورية — دمشق — اسماء دمشق واشتقاقها — سكانها
واجناسهم — حضارتها وعمرانها .

١

توطئة في بلاد الشام وسورية

ان قطر الشام العزيز منسوب الى سام « بمعنى اسم (٢) » ابن نوح (راحة) ف قيل
في اسمه الشام لان السين والشين تبدلان في اللغات الشرقية الشقائق . ولما اشتهر
بشغره الذي كان مدينة صور (صخر) سمي سورية نسبة اليها . وقيل ان اليونانيين
افتتحوه فرأوا الاشوريين يتولون شؤونهم فنسبوه اليهم وقالوا (اشورية) ثم حذفت
الهمزة وأبدلت الشين سيناً ف قيل فيها (سورية) واول من ذكرها بهذا الاسم
هيروdotus المؤرخ اليوناني وبقي الاسمان متعاقبين الى يومنا . على ان الشام اكثر
استعمالاً عندنا لقدمها والافرنج يستعملون الثاني منهما اي (سورية) .

وكانت سورية تقسم بحسب موقعها الطبيعي الى ثلاثة أقسام: (أولها) سورية
الشمالية وهي تبتدئ من جبال طورس شمالاً وتنتهي عند مدخل حماة جنوباً ومن
أهميات مدنها الداخلية انطاكية وحلب وحماة . ومن أهمياتها الساحلية اسكندرونة
ومرسين واللاذقية . و (ثانيها) سورية المتوسطة وهي التي أطلق عليها الكتبة
المتأخرون اسم سورية الخوفة تعريب كلمة (Cœlé-Syria) والاولى ان يقال

(١) المحاضرة التي ألقاها الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف أحد أعضاء مجمعنا

العاملين مساء الجمعة في ٢٧ تشرين الاول سنة ١٩٢٠ م .

(٢) وضع المحاضر معاني بعض الاسماء بين هلالين لئمة للفائدة .

في تعريبها وادي سورية كما قيل وادي النيل في ارض مصر ووادي الرافدين اي الفرات ودجلة في العراق . وهي تبتدى من مدخل حماة شمالاً وتنتهي جنوبي صور جنوباً . ومن أهمات مدنها الناخلية دمشق وتدمر وبعبك وحمص . ومن أهماتها الساحلية طرابلس وجبل وبيروت وصيداء وصور . و (ثالثها) سورية الجنوبية وهي ما بقي من سورية ويدخل فيها ما عرف قديماً باسم بلاد كنعان (المنخفض) واليوم فلسطين (المتغربين) وسميت بعد ذلك بارض الميعاد والارض المقدسة . واشهر اسمائها اليوم فلسطين عند العرب والافرنج وتمتد من مياه الحولة شمالاً الى العريش جنوباً ومن مدنها الناخلية اورشليم او القدس الشريف وحبرون اي الخليل والناصرية وطبرية ونابلس . ومن الساحلية عكا وحيفا ويافا وغزة والعريش .

ومعدل طول هذه البلاد جمعاء من الشمال الى الجنوب نحو سبعمائة كيلومتر وعرضها من الشرق الى الغرب نحو اربعمائة وخمسين فيكون مجموع مساحتها ١٠٩٥٠٩ — اميال مربعة . وبلغ عدد سكانها في القديم من عشرة ملايين الى خمسة عشر مليوناً واليوم لا يتجاوز المليونين والنصف . فمعدل سكانها ٢٥ نفساً في كل ميل مربع . ولقد حددوا الشيخ عبد الغني النابلسي قدس سره بقوله :

وحد الشام طولاً من عريش الى ارض الفرات المستقيماً
ومن جسر المسبح يقال عرضاً الى طرسوس للبلد المراد
ومن يافا كذلك الى معان فشام كل ذلك من بلاد

وقيل لسكان هذا القطر الآراميون تغلباً نسبة الى آرام (المرفع) وهو ابن سام ان نوح الذي اشتهرت فيه قبائله ولا سيما انها كانت آخر سكان القدماء عند فتح اليونانيين فبقي اسمهم متداولاً . ولكن اليونانيين والرومانيين سموا القسمين سورية . والعرب جاروهم بذلك ثم غلبوا اسم الشام . ومما يؤثر عن هذا القطر ان الملك هرقل لما غادر انطاكية الى القسطنطينية على اثر فتح العرب في عهد خلافة الامام عمر بن الخطاب (رضه) ودع البلاد بلغته اليونانية قائللاً (سوزة سورية) اي (كوفي بسلام يا سورية) . وكانت عاصمتها منذ القديم دمشق .

٢

دمشق

ان مدينة دمشق هذه موضوع الكلام في هذه المحاضرة هي اقدم مدن سورية لان القبائل التي هاجرت الى هذه البقاع اقامت اولاً في هذه الانحاء لتوفر خصبها بكثرة مياهها ثم انفرت وسترور في ما يأتي ادلة قاطعة تثبت قدمها . حتى ان استرابون المؤرخ ذكر مغاورها في العصر الظرفي (الحجري) ولا تزال آثارها فيها وحولها فلهذا كانت هذه المدينة العريقة في القدم اشهر مدن سوريا وانغمها آثاراً (ماعدا مدينة بعلبك) واوفرها خصباً واغناها خيرات واكثرها منزهات واغزرها مياهاً ولقد ذكرتها آثار قصر الكرنك المحفورة على جدرانها في مصر منذ القرن السابع عشر للميلاد ثم مراسلات تل العمارنة بعد قرنين كما ذكرتها التوراة وكثير من الكتب التاريخية القديمة . وعلوها عن سطح البحر الرومي الفان ومائتان وستون قدماً وموقعها في مستوى من الارض يشرف عليها جبل قاسيون المعروف بجبل الصالحية نسبة الى الصالحين الذين هم من بني (جماعة) من الكنعانيين النابلسيين المنتسبين الى مسجد ابي صالح (١) خارج الباب الشرقي منها لنزولهم فيه ولما انتقلوا الى سفح ذلك الجبل نسب اليهم فقيل له جبل الصالحية والى هذا اشار الشاعر بقوله :

الصالحية جنة والصالحون بها اقاموا

وبقيتهم هي اليوم آل النابلسي عندنا . وعلو قاسيون ٣٧٠٧ اقدام . ويشرف عليها ايضاً من الغرب الجنوبي جبل الثلج او جبل الشيخ المعروف قديماً بجبل حر ووت (القمة العالية) وعلوه — ٩٤٠٠ — قدم وهو يرطب جوها بندهاء الليل المحمول

(١) ان مسجد ابي صالح قديم كان يلزمه ابو بكر ابن سيد حمدي الزاهد وقيل انه جدده ثم خلفه فيه ابو صالح صاحبه فنسب اليه ويسمى الآن قبر الشيخ صالح وهو بين الباب الشرقي و باب توما قرب التيج ارسلان خارج السور ولما حوصرت قرية جماعيل النابلسية في ايام الحروب الصليبية ترك آل جماعة هؤلاء بلادهم وهاجروا الى دمشق فنزلوا فيه كما ذكرت اعلاه .

على اجهة النسيم وحولها القوطتان الشرقية والغربية وهما من منزهات الدنيا الاربعة لانها حدائق رائعة وجنان غناء ينساب فيها نهر بردى (الباردا او الوردى) (١) وينضم اليه نهر الفيجة (الينبوع) فيدخل المدينة ويتوزع عليها انهرأ سبعة بهندسة بديعة فيروي جميع الارض التي حوله والمدينة بجميع احيائها ولذلك سماه اليونان بلغتهم مجرى الذهب (Chrysorrhoeas) لخصب ارضه وبه لقب يوحنا الدمشقي من قدماء العلماء الدمشقيين الذين نبغوا في ايام الدولة الاموية لفصاحته فليل له (مجرى الذهب) . والمدينة مسورة بسور عظيم منيع فيه ابواب حديدية ضخمة وبقي سورها وابوابها الى زمن ابراهيم باشا المصري (١٨٣١ — ١٨٤٠ م) فسلمه السكان مغايب المدينة عندما فتحها ودخل من (بوابة الله) مع حاكم لبنان الامير بشير الشهابي الكبير وولده الامير خليل وامن الاهلين فبقي الآت بعض السور والابواب وكانت قلعة دمشق قديمة محصنة بابراراج ولها سور وحولها خندق يرد عنها الغارات فجددت في العصور المتوسطة ولا تزال ابنيثها ماثلة في غربي المدينة .

ولقد جمعت اسماء المؤلفات في هذه المدينة مما سمي باسمها فكانت اكثر من خمسين واكبرها تاريخ ابن عساكر المشهور وهو من مخطوطات المكتبة الظاهرية الشهيرة طبع منه خمسة مجلدات مؤخرأ مختصرة ورأيت في كثير من تلك المؤلفات تاريخ الشام ودمشق وعمرائها وحوادثها . ولكن كل واحد نقل عن قبله في الغالب دون تعييص وتحقيق فتكرر الكلام والخطأ وخطب الباحثون في تفسير الاعلام وبقي الاشكال غامضاً فخبذا لو اعتمدنا على فلسفة التاريخ ودرسنا علم الآثار القديمة او العاديات ومعارضة اللغات واشتقاقها فان في ذلك مغناً للمؤرخ يحقق فيه الآراء ويصحح النقول فيعتمد الآتون على اقواله . والله در لوقيان القائل : « من العيب العظيم في التاريخ ان لا تفرق بين ماهو حقيقي ثابت وما هو خيالي واهن » . وياقوت الحموي الذي عقب على قول من قلحل لكلمة اصبيان وجوهاً غريبة في اشتقاقها (معجم البلدان ١ : ٢٧٠) بانصه : « وما اشبه قوله هذا الا باشتقاق عبد الاعلى القاص حين قيل له : لم سمي العصفور . قال : لانه عصي وفر . قيل له : فالطفشيل . قال : لانه طفا وشال — اهـ » .

(١) نسبة الى (لود) اخي ارام وهو الذي يسميه المصريون (روت) كما سترى .

فأريت في أول محاضرة اندببت لائقاتها على منبر هذه الردهة بعد عودتي الى هذا المجمع العلمي ان اتخذ تاريخ دمشق موضوعاً لي محصاً — على قدر ما فسخ لي الوقت ووصل اليه الذرع — بعض ما كان مستوراً بحجاب الاهیال في تحلیل الاسماء والتعلیل عن الحوادث . على انني لم اتعرض الا لتحليل الاعلام الاعجمية لاننا ندرکها بابداهة راجياً من لطفکم ایها الکرام الاغضاء عن الهفوات . فلیس ما تسمعونہ الآن من الآراء الحديثة في التاريخ الا نذیبها الى البحث والتنقیب للتحقیق والتمحیص لیكون تاریخنا کاملاً مبنیاً على الحقائق والراہین الدامغة . فلا تحملوه یارعاکم الله على غیر حسن القصد والله حسبي .

٣

اسماء دمشق واشتقاقاتها

من الفوائد التاريخية الدالة على تحقیق بعض الآراء في التاريخ الصحيح تحلیل الاسماء القديمة ومعرفة معانیها وأصول مبانیها واشتقاقها فهي اشبه بالآثار القديمة في تأیید الحقيقة او التقرب منها على قدر الطاقة وعلى هذا أحلل الآن أسماء هذه المدينة وهي كثيرة ذکر منها القلقشندي المشهور في معلمته (صبح الاعشى) المطبوعة حديثاً — دمشق وجلق وحكى في الروض المعطار تسميتها جيرون والعذراء . الخ . اولها الشام = ان هذا الاسم اقدم اسائها لانه اسم أب الذين احتلوها واختطوها من اللوذين والاراميين كما سترى قريباً . وهو الغالب على السنتنا الى اليوم . ولا سيما عند العامة حتى انهم قلما يقولون (دمشق) . ومعنى سام بالعبرانية اسم فهو بلا شك اب الاسماء واسم أب الآباء الذين تديروها . ولقد ذكره النابغة الجعدي عند فتح هذه المدينة في ايام العرب وتعبير ابي الزهراء القشيري باصابة رجله في مواقعها . فقال النابغة يخاطب المعير :

فان تكن قدم (بالشام) نادرة (١) فان بالشام اقدماً واوصالا
وان يكن حاجب ممن فخرت به فلم يكن حاجب عما ولا خلا

(١) اي زالة وواقعة .

فتكون تسمية عاصمة الشام باسم بلاد الشام من باب تسمية الجزء باسم الكل مجازاً .
وقال صاحب مرصدا الاطلاع : مسجد الشام في بخارى العجم . والشام موضع في بلاد
مراد . والشام محلة في تبريز مشهورة وهو يدل على انتقال هذا الاسم مع سكان
البلاد الساميين الذين حملوه في هجرتهم وسموا به الا ما كن التي نزلوها تيمناً باسم
جدهم (سام) .

اننيها دمشق لقد أول المؤرخون هذا الاسم تأويل شتى والاقرب في هذه التسمية
انها لودية او ارامية (اي كلدانية او سريانية قديمة) ذكرتها آثار الكرنك وكتابات
تل العمارنة باسم (تماشكو) باللغة الهيروغليفية (اللغة المصرية المقدسة) ومعنى الكلمة
المزهرة او المثمرة تسمية بغوطتها الحصينة . ولقد ذكرها كثير من العرب بهذا الاسم
منهم ابو عبيدة الجعفي بقوله .

اما دمشق فقد ابدت محاسنها وقد وفي لك مطربها بما وعدا

اذا اردت ملأت العين من بلد مستحسن وزمان يشبه البلدا

ومن هذا الاسم اخذ اليونانيون كلمة (Damascus) وعندهم نقل الافرنج تسميتهم
للمدينة وصناعاتها كما سيأتي .

واما قولنا (دمشق الشام) فليس الا تمييزاً لها عن غرناطة الاندلسية المسماة
(دمشق العرب او الاندلس) لان سكانها كانوا من طواري دمشق الذين ذهبوا اليها
مع من ذهب الى المغرب فاختراروها سكناً لهم لكثرة مياهها وحدائقها ولجبل الثلج المطل
سايها فكانت اشبه بمدينةهم الاصلية . واكن ابن جببر الكناي الرحالة فرّق بين
الدمشقيين بقوله :

يا دمشق الغرب ها تيك لقد زدت عليها

تحمك الانهار تجري و (هي) نصب إليها

وورد اسمها مؤنثاً في شعر عبد الرحمن بن صهيل الحميمي لما حاصر عسكر يزيد
ابن ابي سفيان هذه المدينة بقوله :

فبلغ ابا سفيان عنا باننا على خير حال كان جيش يكونها

وانا على بابي (دمشقة نومي) وقد حان من بابي (دمشقة) حينها

الثالث جلق — لقد غمض استئناق هذه الكلمة عن كثيرين فلم يهتدوا الى اصله والذي اراه (إما انها) يونانية تحريف (Jinic) ومعناها امرأة اذ كان فيها كنيسة بهذا الاسم ذكرها ابن عساكر وغيره ولعلها كنيسة باسم مريم ام المسيح (عيسى) وهي غير المريمية الكبرى وقرب الكنيسة باب الجنيق المسدود في زمن ابن عساكر فقليل فيها (جنق) ثم بالابدال (جندق) و (إما انها) فارسية من كلمتين هما (كل) اي زهرة او وردة و (لك) بمعنى مائة الف فيكون مجمل معناها مائة الف زهرة اشارة الى غوطتها ثم عدلوا عن الضم في اولها الى الكسر واتبعوا اللام للتخفيف فقالوا (جلق) وعلى هذا الرأي تكون من تسمية الفرس الذين امتلكوها في القرن السادس للميلاد ولذلك كانت شائعة في زمن حسان بن ثابت الانصاري فذكرها بهذا الاسم في قصيدة وصف بها آل جفنة الغساسنة حكام دمشق اذ ذاك منها قوله :

لله درء عصابة نادمتم يوماً (يجلق) في الزمان الاول

يسقون من ورد (البريص) عليهم بردي يصفق بالرحيق السلسل

واما البريص او البريص الذي ذكره حسان هنا فهو اما منزله او قصر وربما كان معروفاً عن كلمة (Baradisos) اي براذيسوس اليونانية ومعناها المنزله او الفردوس ولعل اسم برزه من هذا وكان البريص يسمى ايضاً المقسلاط (ولعله منحوت من مقام الصلاة) وهو موضع النحاسين الآن . وارى اسم بردي من هذه الكلمة وقال في مرصد الاطلاع : (جلق) ناحية بسرقسطة بالاندلس يسقي نهرها ٢٠ ميلاً وقيل واد في شرقي الاندلس . ثم قال : (جليقية) ناحية قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمال الاندلس في اقاصه من جهة الغرب . (اه) وهذا دليل آخر على حمل الهمزة في هذا الاسم معهم الى الاندلس تحبها وحينئذ الى وطنهم الاول .

الرابع جيرون . اطلقه بعضهم على المدينة من باب تسمية الكل باسم الجزء مجازاً لانه من ابواب جامعها الكبير ايام كان هيكلًا لليونانيين فالكلمة يونانية Jiron بمعنى فناء الدار او الهيكل ومنها اسم فناء الكنيسة او سورها عند الافرنج اليوم . وكان اسم جيرون الباب الشرقي من ابواب الهيكل وهو المعروف اليوم بباب (النوفرة) وهي الفوارة المنتشة سنة « ٤١٧ هـ ١٠٢٦ م » . ولا تزال آثار السور الذي كان يمدق به

ظاهرة في الزقاق الذي على يمين الداخل الى الجامع من ذلك الباب وهو الموصل الى الظاهرية وقبله زقاق آخر الى يمين الداخل وفيه أعمدة تمتد حتى المدرسة الباذرائية . وفي داخل باب جيرون « محل الجيرونية » كما تسمى الآن . وعلى جانبي باب جيرون عمودان ضخمان يدلان على عرض السوق في ذلك العهد وكانت الاروقة قائمة على هذه الأعمدة لسير الناس والسوق بينهما للعجلات والحيوانات . وحوله كابات يونانية على يمين الداخل في موضعين (١) . وعلى اليسار حانوت صغير فيه باب على اسكفته « عتبة العليا » نقوش بدیعة يدل على ان الارض قد ارتفعت عن مساحة ارض الشارع القديمة الى اكثر من نصف الباب علواً : ومثالها الى شرقي الجامع عند باب الريد ثلاثة أعمدة عليها طنن وكثيراً ما ذكر الشعراء باب جيرون فقال بعضهم فيه :

باكر « دمشق » بشق اقلام الحيا زهر الرياض مرصعا ومكلا
واجرد « بجيرون » ذيولك واختص مغنى تآزر بالعلی وتسربلا
وقال بعضهم ان اصل جيرون فارسي تعريب « جروند » بمعنى السراج وهو بعيد
كما لا يخفى .

ومن اغرب ما وصفت به جيرون قول صاحب مرصد الاطلاع : جيرون سقيفة مستطيلة على عمد وسقائف حولها مدينة تطيف بها وهي بدمشق في وسطها كالمحلة . وقيل جيرون قرية الجبابرة في ارض كنعان « اه » . ولا تزال آثار الأعمدة حولها ظاهرة .

(١) في ربيع سنة ١٩١١ م كنت في دمشق فرأيت كتابة في بيت ابي عثمان الحموي في القميرية بجوار البئر الذهبي على يمين الداخل الى الجامع من باب النوفرة « جيرون » طبرت في الجدار العربي عند ترميم البيت وهي يونانية تدل على ان تلك الغرفة بناها مينودورس الان الاصغر لزينوفوس امين صندوق الهيكل . وهناك حروف غير ظاهرة . وفي بيت البردري على يمين الباب في اول بيت كتابة يونانية وراء الدرج الذي يؤدى الى البيت طمست بالبناء فوقها . وكذلك في بيت السمان في القميرية كتابة أخرى يونانية كنت اول من اطلع عليها ونسخها وفيها اشارة الى عبادة المستري « جوبتير » وهي على قاعدة عمود من الحجر الابيض .

قلت : واما جيرون فلسطين فلم نر لها اثرأ في ماوصلت اليه بد البحت ولكننا نظن انها تصفحت على المؤلف فالاولى ان تكون هي « حبرون » المسماة قرية اربع بل مدينة اربع وتعرف اليوم باسم « خليل الرحمن » وتصحف حارون « جيرون » .
 الخامس اسماؤها الأخرى سميت دمشق باسماء أخرى كثيرة تشير اليها لثمة للبحث فساها يولييانوس الروماني « عين الشرق كله » لعمرانها . ومن اسمائها العربية « إرم ذات العماد » وانكر ذلك كثير من المؤرخين وقالوا ان اسم إرم هو لقبيلة لالمدينة والذي أراه ان العرب لما رأوها كثيرة الأعمدة وعرفوا شأن الاراميين فيها سموها « مدينة ارام ذات العماد » ثم حذفت كلمة مدينة وعربت ارام الى إرم . ومنها « ناصمة أرام » و « أرام دمشق » تميزاً لها عن « أرام صوبة » في وادي سورية المجوفة . و « مدينة العازر » وهو خادم ابراهيم الخليل المنسوب الى دمشق و « مدينة زلمان السرياني » وهو احد سكانها . و « بيت رامون » نسبة الى هيكلها الذي كان باسم الاله رامون اللودي ومنه اسم برمانه في ظاهر دمشق . و « حاضرة الروم » و « حصن الشام » و « بيت ملكهم » و « باب الكعبة » و « فسطاط المسلمين » و « العذراء » ولعلها نسبة الى مريم العذراء التي فيها كنيسة القديمة المعروفة بالمرميمة . و انما تعريب كلمة جنين بمعنى العذراء كما مر آنفاً . و « قاعدة وادي سورية » المعروفة بسورية المجوفة في اصطلاح مؤرخينا الآن . ومن القابها « الفيحاء » لاتساعها و « الغناء » لانناف اتجارها الكفيفة و « جنة الارض » لكثرة حدائقها وغزارة مياهها .

وفي تسميات احيائها وضواحيها اشتقاقات تكشف القناع عن وجه كبير من الحقائق الغامضة التي يتمثلها المؤرخون ويتكهن بها اللغويون . فمن الاسماء باللعنة الفنبقية « دمر » تحريف دامور او تامور او تامار وهو عندهم الاله الحامي فكأنهم اتخذوا حبساً له فيه تمثاله للدفاع عن المدينة التي كانت محطة لتجارتهم الشهيرة . و « بلاط » تحريف « بعل باليت » . وفي جبل القلمون قرية « فليطة » وهي من هذا الاشتقاق .

والاسماء الآرامية أكثر من غيرها مثل (بيت لهما) اي بيت الالهة . و (المعرة) بمعنى المغارة . و (ديرمُرَّان) اي موران بمعنى سيدنا و (آيون او قابون) بمعنى ابنا لدير كان فيها و (حلبون) بمعنى الحصيبة و (معربا) بمعنى المغرب و (تلفيتا) اي تل التي

الكثرة غاباته . و (معرونة) اي المغارة الصغيرة .
 ومنها الاسماء الحثية مثل (الشاعور) بمعنى الصغير . و (قطنا) تحريف (كنا)
 وهو اسم الحثيين وكذلك (الغوطه) فانها تحريف (الكنته) .
 و (الهبوسية) مثل (هبوس) و (كذر بيبوس) نسبة الى الهبوسيين من الكنعانيين .
 و (جديدة الجرش) نسبة الى الجرجاشيين منهم ايضاً .
 و (اليونانية منل) (بلاس) بمعنى قصر . و (بيت اوراس) اي بيت الدماء وهي الآن
 احتلال خربة . و (عين ترما) اي الحمة وهي العين الحارة المياه . و (اقتريس) تحريف
 (فاراتريس) اي ضارب الاعداء ومبدهم وهو من اسماء المشتري . و (الفيجة) وهي تحريف
 (فيجه) بمعنى اليبوع . و (مقرا) من منزهاتها اصحابا يوناني (مكرا) بمعنى المستطيلة .
 و (نهر تورا) اي نهر النظر في اليونانية وقيل انها باسم حكيم اسمه (تورا) او نسبة
 الى تاج الملك (توري) .
 و (الرومانية منل جبل) (القلون) بمعنى الملاح اي جودة الهواء . و (بانياس) من بان
 اله العبابات وهو من اسماء انهارها اليوم .
 و (العرانية (المزة) وهي باسم حفيد عيسو ومعناه «الخوف» او هي يونانية بمعنى التله
 او الربوة وقربها (الربوة) المدينة الحربية الآن بعد احراق الصليبيين لها .
 و (الفارسية (جور) من جو بار بمعنى مسيل النهر الصغير . و (خرستا) من (خر)
 بمعنى الشمس او حور اسم اله و (روستا) بمعنى سواد وقرى اي قرى الشمس ومنها
 «عرب الرستاق عندنا» (منين) فانها مركبة من (مه) كبير و (نين) زحل فمعناها
 زحل الكبير او من امي) بمعنى الحمر فتكون بمعنى باخوس .
 و ذكر ان عساكر كبراً من اسماء القرى العربية مثل (صحاء) وهي حربة الآن
 دون المزة مساة باسم (صحاء اليمن) العربية . وملها قرية (الحمر بين) الحربة وفيها مسجد
 كان مشهوراً وهذا من الادله على ان اليمنيين تديروها .

(١) هو زوج زمرد خاتون ام شمس الملوك تحت الملك دقاق توفيت سنة ٥٥٧ هـ

(١١٦١ هـ) وهي مؤسسة المدرسة الخاتونية البرانية في دمشق المنسوبة اليها .



سكانها وأجناسهم

كانت قبائل العمالة وفروعها محتلة سورية منذ اوائل الزمن التاريخي . ومنهم الجرجاشيون وغيرهم من ابناء أعمامهم كالبوسيين . ولما حدثت زلازل شديدة ارتعدت لها فرائص الارض على ضفاف خليج العجم وماليها في القرن العشرين قبل الميلاد دأبت قلوب سكانها من القبائل السامية والياثية والحامية ففرتوا منذعرين من نقويض مساكنهم وتدمير عمرانهم فباحوا في الارض الى ان رأوا نجعتهم ضواحي دمشق لخصبها واتساعها فاستظفروا على سكانها من الكنعانيين وتولوا شؤونها ومنهم النيبدييون الذين غلبهم اللوديون والآراميون والعبرانيون فتمازجت اصول قدماء السكان في سورية ووثقت اواصر النسابة بينهم المصاهرة ولكنها لم تغنهم قليلاً فنشبت بينهم مشاحنات ونمت ضغائن قضت عليهم بالحروب المستطيلة .

ومن سكت عنهم المؤرخون أو أغفلوهم أو أشاروا اليهم من طرف خفي (١) اللودانيون اخوة الآراميين لان سام بن نوح رزق خمسة ابناء هم عيلام وأشور وارفكشاد ولود وأرام .

وبما ان مملكة ارام كانت المملكة الاخيرة من هذه القبائل شاع ذكرها على السنة المؤرخين فأشاروا اليها بالتفصيل وأغفلوا ذكر مملكة لود الذي كان أكبر من ارام فملك قبله واشتهر . وكان ابني لود مواقع حربية عظيمة وآثار عمران كثيرة في شمالي سورية ومتوسطها وجنوبها . فأسسوا مملكتهم الضخمة ونزلوا دمشق قبل اخوتهم الآراميين او معهم وأسسوا حضارتها وشيدوا أبنيتها العظيمة ولا سيما هيكل رامون المنيع الذي حوّل الى هيكل المشتري (جوبيتر) ثم الى كنيسة القديس يوحنا المعمدان ثم الى الجامع الاموي الكبير المشهور بآثار بنائه الفخم وهندسته الرائعة . ولهذا أفرد هذه الصفحة لتحقيق تاريخهم وحسر اللثام عن اصلهم ولم أر احداً تعرض لوصفهم بالتطويل

(١) راجع ليرمان ومسبرو المؤرخين الفرنسيين وبعض تواريخ مصر ولا سيما الاترية منها . وكتب السياحة ونحوها .

غيري في مانشرته في مقنطف السنة الماضية بعنوان (اقدم سكان سورية اللوديون) وهو بحث مستفيض .

نقرر في هذا العصر تحقيق التاريخ بالآثار القديمة وتحليل الاسماء ونحوها فلماذا اذا استنطقنا هيكل الكرنك في مصر أرانا صفحات جدرانها لنطالعها فنقرأ فيها اخبار غزوات الفراعنة لهذه القبيلة التي يسمونها (روتنو) لان اللام والدا ل تبدلان في اللغة الهيروغليفية بالراء والياء فيقال في اللودان الروتان . مما يثبت ان سكان سورية حين غزا تحوتموس او توطميس الاول من الدولة الثامنة عشرة المصرية هذه البلاد سنة ١٦٥٠ ق م كانوا هم اللوديين او الروتيين لا غيرهم وان شئت فقل اللودان او الروتان .

وقد شمل اسم اللودان القبائل التي لم تخضع للمصريين . وكانت قبائلهم تقسم الى لودان المغرب او الاسفل وهم سكان دمشق هذه وما اليها وبلاد فلسطين . والى لودان المشرق او الاعلى وهم سكان سورية الشمالية وجزء من غربي ما بين النهرين . فلماذا كانت دمشق عاصمة اللوديين وحصنهم المنيع في (بلودان) اي بيت اللوديين وهي مشهورة بمناعتها الطبيعية فارثاءها ٤٥٠٠ قدم . وموقع قلعة الشقيف على علو ٦٨١٠ — اقدام منها فهي تشرف على جميع المضائق والطرق التي تأتي منها جيوش الاعداء ولا سيما المصريين الذين حاربوهم . وكلمة الشقيف كلدانية بمعنى الصخرة وأرادوا بها الحصن المنيع كالصخر او المشيد على الصخر . ومثلها شقيف تيرون في جنوبي سورية .

ولما استظهر المصريون على اللوديين وملكوا منهم وادي سورية اي سهل بعلبك والبقاع وما يتصل به اقاموا حصناً على مضائق وادي يحنوفا لدفع غزوات اللوديين لهم من دمشق وضواحيها وسموه (بريتان) اي بيت الروتيين بلقتهم المصرية كما سبق وهي الى اليوم قرية عامرة . وقرية قرية (حور تعله) وهي مركبة من (حور) الاله المصري الذي يقابل (ابلون) عند اليونان و (تعله) بمعنى تعالى . مما يدل على نزول المصريين فيها واتخاذها هيكلًا لألهتهم . ومن غريب ما قرأت في تاريخ ابن عساكر ان قرية (حور تعله) من ضواحي دمشق كان فيها مسجد ينسب اليها وذلك يدل على ان نفراً من الروتيين جاؤا من بعلبك واستعمروها وسموها باسم بلدتهم كما هو الحال في كثير من التسميات مثل (تربل) في البقاع . فان سكانها في زمن الابطور بين (الجلبين) الذين غلبهم بومبي القائد

الروماني في منتصف القرن الاول للميلاد وكانت حاضرتهم كلشيس او خلقيس (مدينة النحاس) اي عنبر اليوم في البقاع . امتد ملكهم الى السواحل فجاء نفر من جبل تريبل فوق مدينة طرابلس الشام وسكنوا هذه القرية فسموها باسم موطنهم الاول .

واذا اردنا التوسع قليلاً بامتداد الامة الرومانية في انحاء سورية نرى ان اسم (بيروت) يقرب من (بيت روت) فكأنها كانت ثغرهم البحري للدفاع عن بلادهم . وهذا اول من سميتها « بالابار » كما يقول المؤرخون لان معظم المدن الساحلية لا ينبع فيها بل ابار فقط . ولما اذ خصت بيروت بذلك الاسم دون غيرها . واسمها في الآثار المصرية « باروتا » وهو اقرب الى هذا الوجه منه الى الابار .

ومن اوجه ما هنالك ان نير الليطاني الذي تتخلل سهل بعلبك والبقاع ليس الا تحريف كلمة لوداني او روتاني وان شئت فقل « لوتاني » فهو منسوب الى هذا الشعب القادان في ذلك السهل الافيج . وكذلك نير الرذوني المتخلل زحلة ونير بردى الذي ينساب في هذه المدينة يتروح انهما من هذا الاستنقاق فقيل نير « بيت روده » ثم نحت وابدل فصار بروده او بردى وحذفت كلمة النير . و يوجد في سهل بعلبك قرية حوش بردى او (حوش الذهب) والاسان من اسماء نير دمشق كما مر . وتوجد قرية برقي في جزين ايضا وهي من هذا القبيل وقس عليها .

والمرجح ان اللوديين هم الذين سيدوا الحصون والمعاقل الفخمة في مشارف سورية وفلسطين مثل قلعة كركيس وحلب وسيزرو قدس وحماة وحمص ودمشق وكرك السويك وغيرها اكثر غزوات المصريين لهم . وكانت لهم عاصمتان عظيمتان هما (كركيش) المركبة من (كركو) اي حصن و (كموش) الاله القاهر . ومنها قرية (عر حوش) في البقاع قرب زحلة وهي خربة اليوم تعرف بالفيسة . وعرفت كركيش هذه باسم هيرابوليس اي المدينة المقدسة عند اليونان ثم حرف اسمها الى جيرا بوليس فجرا بوليس كما هم الآن .

وعاصمتها الثانية كانت قادش او قدس بمعنى المقدسة وهي على ضفة بحيرة باسمها تدعى الآن (قطينة) نسبة الى الحثيين الذين سمو (كتهين) وهي في محل النبي مندو

في جوار حمص حيث البعثة الاثرية الفرنسية تحنقرو الآثار الدالة على حضارة تلك العصور (١) .

ومن البراهين الدامغة على صحة رأينا في هذه القبائل اللودية او الروتية ان الآثار المصرية لم تدون في مادونه من اخبار غزوات ملوكها الاولين الا اسم الروتنو اسي اللوديين . ولم تذكر الحثيين والاراميين الا في زمن الدولة التاسعة عشرة . وذلك لان الحثيين استظهروا على اللوديين بعد ان دانوا لهم زمناً طويلاً ودفعوا لهم الجزية التي ضربوها عليهم فانتهز الاراميون — الذين امتزج بهم ابنا عمهم اللوديون — الفرصة للاقتصاص من غالبي انسابهم فضربوا الحثيين ضربات قاضية واشتهر ذكر الاراميين من القرن الثامن قبل الميلاد الى فتح اليونانيين للبلاد في القرن الرابع قبله . فلذلك نقل اليها اليونان ذكر الاراميين في منازلهم ايامهم ولم يذكروا اللوديين لانهم كانوا قد اندغموا بهم وزالت مملكتهم بيد الحثيين كما مر .

وكان من تأثير غلبة اليونان للاراميين انهم بدلوا اسم بلادهم (ارام) باسم (سورية) كما سبق لنا تعليل ذلك في صدر المحاضرة فذكر هيرودوتس البلاد بهذا الاسم الجديد وشاع بيننا .

فلماذا كانت حضارة دمشق القديمة من قبائل العمالة ولا سيما الجرجاشيين والبيوسيين كما مر ثم توالى عليها ملوك اللوديين والحثيين والاراميين واليونانيين والرومانيين الى الفتح العربي وتمازجت اصول تلك القبائل بالمصاهرة .

وكانت قبائل اليمن العربية قد اندفعت الى هذه البلاد على اثر اندفاق سيل العرم في بلادها اليمنية فكانت منهم قبائل الضجاعم والفساسنة والقضاعيين والاياديين والايطوريين وغيرهم متخللين حكم تلك الدول باماراتهم وملوكهم .

(١) راجع صفحة ٣١٦ من الجزء العاشر لمجلة المجمع العلمي في سنتها الاولى وهذا تفصيل ما وعدنا به هناك . ولقد جاءت بعثة افرنسية سنة ١٨٩٤ م الى هذا المحل واحفرتة ثم عادت في ربيع السنة الماضية . واستأنفت عملها في خريف هذه السنة وستزبل اكتشافاتها كثيراً من الالتباس والاشكال في تاريخ الامم اللودية والحثية وغيرهما .

وغزا ملوك اشور و بابل هذه البلاد ولا سيما عاصمتها دمشق هذه وكان تغلبت فلاسر تاني ملوك اشور قد حاصرها وافتتحها سنة ٧٣٢ ق م وحلا ثمانية آلاف من سكانها الى بلدة قير في العجم وقتل ملكها رصين . ثم حاصرها سمناصرو ضايق اهلها وقطع اشجارها . وكانت الدول العبرانية قد ضمعت نفوسها اليها ففتحها داود الملك وحالفتهم ثم انتفضت عليه بارسال نجدة من قومها الى هدد عرر ملك صوبة الذي حاربه داود فاوغر ذلك صدره عليهم وقتل من ارامي دمشق ٢٢ الفا واستولى على البلاد واقام محافظين في ارام دمشق فاستعبد سكان هذه المدينة الاراميون مدة طويلة للعبرانيين وادوا الجزية لهم .

وكانت دمشق مدة بيد الاشور بين الى سنة ٧٢١ ق م فانفق سكان دمشق مع اليهود على الاشور بين ثم استولى عليها البابليون والفرس . وقال استرابون : ان دمشق كانت اسير مدن سورية في الدولة الفارسية . وكنزت الجاليات الى دمشق من البلدان التي لها علاقة بفاتها . واسفل بعض سكانها الى ثلاث الاصقاع سمة الله (وان تجد لسنة الله تبديلا) .

ولما ملكها اليونان كانت هذه الحاضرة مدينة عظيمة لا يفوقها الا انطاكية . من بعض الوجوه .

وفي عهد استيلاء الدولتين اليونانية والرومانية عليها قدم كثير من رعاياها وامتزحوا سكانها وخفيت اصولهم الا بعض البيوتات التي حفظت انسابها مثل آل سرحوز الذين تقدموا عند الدولة الاموية في ديوان الانشاء ومنهم نشأ القديس يوحنا الدمشقي الفيلسوف الشهير الملقب باسم نهر بردى (مجرى الذهب) كما سبق القول آنفا . ويقال ان بيت هذه الاسرة الوطنية القديمة هو اليوم محل دير الانبا اليسوعيين قرب باب توما وان هذه الاسرة لها بقية في صافيتنا تعرف فيها باسم آل الخوري الكثرة الكهنة الذين تأسسوا منها والله اعلم .

وكان انقلاب عظيم عند تنصر اليونان والرومان في هذه المدينة ولا سيما في ايام يودوسيوس الكبير الذي شدد النكير على الوثابة وابطل عبادة الاصنام وهدم بعض هياكلها ثم هدم ابنه اركاديوس بعض هيكل رامون في هذه العاصمة ثم رممه وجعله

كنيسة مار يوحنا المعمدان المعروفة اليوم (بمقام سيدنا يحيى) داخل حرم الجامع الأموي وفي وقت قصير تنصر أهلها كلهم ما عدا اليهود فكثر بينهم الخصومات .

وفي سنة ٥٤٠ هـ فتحها العرس ودمروا معظم أبنيتها فزادوها خراباً ثم عادت بعد قليل إلى الرومان وعمالهم الفساسنة مجددوا شيئاً من حضارتها وأبنيتها .

ولما كان الفتح العربي سنة ١٣ هـ (٦٣٤ م) حدث انقلاب آخر في الحاضرة فهاجر منها واليهما كثير من العرب والأمم الأخرى التي فيها فتنازحت أصولهم . ولم يطل الوقت حتى هاجر كثير من سكانها أيضاً إلى المغرب والأندلس . ثم كب فيها العباسيون الأمويين فحربوا مساكينهم وقتلوا منهم خلقاً كبيراً فزادت المهاجرة منها إلى الأقطار السحيقة .

وعند تشييد الجامع الأموي في زمن الدولة الأموية استقدم آلاف من الصناع البيزنطيين إليها وسكنوا فيها بأمرهم ونشروا فيها الصناعات الحليمة .

ولما كانت الحروب الصليبية وحوصرت النعمان والمدن رحل كثير من الأمم الإسلامية إلى دمشق مثل آل النابلسي وبقاياهم فيها إلى اليوم وقد سبقت الإشارة إليهم .

وفي خلال تلك العصور القديمة وما بعدها كثرت الفتن بين اليهود والسوريين الوطنيين . والقباسيين أو المصريين والجنين . والأمويين والعباسيين . والمشاركة والمعارضة . والسنة والتبعة . إلى أن كانت حوادث الاكتسار والقبهقول فاضطرب حبس سكانها وهجرها كثير منهم وحل غيرهم محلهم من أمكنة مختلفة .

ومن أكره سكانها سرور تيمورلنك (الانسراج الحديدي) فضايق النعمانيين وتشدد عليهم وأمنهم حتى سلموا وبينهم أن حلدون المؤرخ المشهور وكان من دهائه أنه قال له : دعني أقبل يدك التي أناملها الأقاليم الخمسة . وأراد بذلك أنه كان قد فتح خمسة أقاليم .

فدخل تيمور المدينة ولم يؤذها أولاً ولكنه حاصر القلعة وبكت بوعده . فتكب الأهاليين شريرة وسلب أموالهم وأحرق البوت وكان يعذب الأمراء فيسقيهم الرماد ويعطيهم الماء والملح والكس ويكويهم بالنار ليقرؤا له ناموالهم فاستخرجها منهم استخراج الزيت بالمعاصر . ثم أمر بالنهب العام والسبي والفتك والقتل والأحراق والأسر على الإطلاق ففرق شمل السكان كل ممزق وسبي الخدعات وبقي على هذه الحسالة من الضغط ثلاثة أيام فاحرق المدينة وغادرها ملهبة غيظاً ونقل جميع صناع السيوف والزجاج والأواني

الفاخرة والاعيان . ففرّ من بقي من سكانها خوفاً وبعد ان وثقوا بعدم عودته الى البلاد عاد قليل من سكانها القدماء . وجاء المدينة اقوام من المدن الاخرى ولا سيما حماة فان كثيراً من سكان دمشق اصلهم منها منذ ذلك العهد وكذلك من الانحاء الاخرى . وكانت الفتن قد كثرت في حوران ولا سيما بين القيسيين واليمنيين فقصدوها كثير من الأسر المسيحية فلبثوا فيها مدة وبعضهم غادرها الى حمص وحماة وحلب وعكا والحصن ولبنان وغيرها . وهي اليوم معظم الأسر . وكثرت المهاجرة اليها والى لبنان على اثر الفتح العثماني في اوائل القرن السادس عشر للميلاد . فلهذا نشأت اصول أسرها وسكانها ممزوجة في الغالب . فهي مختلفة الاجناس والمذاهب بين عرب وشراكسة واكراد وترك وفرس ويهود وكرج وقبط وسريان وارمن ويونان واوربيين . وبين هذه الأسر المختلفة كثير من ارباب النسب الصحيح واهل البيوتات المعروفة والبيوت العلمية على اختلاف فروعها ولا سيما الطبية فيقال ان آل بختيشوع المسيحيين لهم فيها بقية قليلة في الصالحية اليوم تعرف بالالحكيم قدمت اليها من بلاد العجم . وآل الرحي من اطبائها المسلمين المشهورين نالوا منزلة رفيعة في خدمة مستشفياتها ومدارسها . واشتهر من غير هاتين الاسرتين كثير من اطبائها وعلمائها ومؤلفيها ومشاهيرها من الطائفتين .

اما الصناعات فيها فكانت راقية كما ستري ولذلك ترى معظم اسماء أسرها مما يدل على صناعاتها القديمة مثل آل بولاد والسيوفي وجوهرو جوهري ومسابكي وصيقل وحاداد ونحاس وقزاز ومباردي وقساطلي وساعاتي وهو ابني ومنبر وخوام ومراياقي وجراحي وطرايشي وحفار وطباع ونحات ومساميري ومشاطي وصباغونو بلاقي ومحاري وصائع وخياط وترزي وبارودي وبنّا وحكيم ومسديّة ودقاق ونقاش وحجار وسمّاك وفرّا وفراية ونجار وقصار وحائك ومخشن وقباقيبي ونشواتي واشباهها . وكلها مختلفة الاجناس والاصول كثيرة الفروع والاسماء متلبسة احياناً بصناعاتها المتوافقة واصولها المتخالفة مما فصلته في كتابي (الاخبار المروية في تاريخ الاسر الشرقية) وهو في ثمانية مجلدات كبيرة لاتزال مخطوطة معدة للطبع .



حضارتها وعمرانها

لقد أسس حضارة دمشق اللواديون والروتيون والاراميون والفينيقيون والحثيون والعيرانيون والاشوريون والبابليون والماديون (الفرس) والمكدونيون (اليونان) والرومانيون والعرب ومن جاء بعدهم من الامم الاخرى .
ومما يدلنا على قدم الممالك الاولى ان اسم دمشق والشام ارامي والتاغور (الصغير) والقوطة وقطيا حتي ودمر بمعنى تamar اي الاله القادر فينبقي . وهكذا بقية الممالك التي تعاقبت عليها . على ان الدول اليونانية التي بقيت ٢٤٨ سنة والرومانية التي تولت شؤونها ٢٠٠ سنة والعربية التي اتخذت هذه المدينة حاضرتها احدى وتسعين سنة (١) كانت حضارتهم اساسا لما بعدها لانهم استجروا في العمران .

وعما لا ريب فيه ان حضارة دمشق القديمة كانت وتمة فشيدت فيها الابنية الضخمة منها « هيكل رامون (٢) » ونحتت التماثيل ونقشت الكتابات مما ذكره كثير من مؤرخي العرب وفي مقدمتهم ابن عساكر في تاريخه المطول فانه ذكر وجود تماثيل وكتابات يونانية وكذلك باقوت في معجمه والارمن نازي في تاريخه اذ تعززت حضارتها في عهد السلوقيين خلفاء الاسكندر المكدوني . وفيها محل كان يعرف « بصفة بقراط » حيث كان يجلس هذا الفيلسوف فيه كما قيل وهو في غربي الصالحية تحت قبة السيار .

ولكن الرومانيين تساهلوا مع سكان سورية ولا سيما الفينيقيين والاراميين بعبادتهم فكرموا هياكلهم اخصها هياكل دمشق وبعلبك فامتزجت العبادات الفينيقية باليونانية والرومانية امتزاجا تدل عليه الاساطير القديمة وتحليل اسماء المدن والقرى الباقية الى عهدنا مما فصلته في كتابي « تاريخ سورية المجوفة (٣) » فكان الفينيقيون يعبدون علهيُون وهو

(١) من سنة ٤١ — ١٣٢ هـ الموافقة لسنة ٦٦١ — ٧٤٩ م

(٢) كان محل الجامع الاموي الكبير .

(٣) هو تاريخ مطول في نحو ٨٠٠ صفحة مخطوطة بقطع كامل يشتمل على تاريخ وادي العاصي وبردى والليطاني وما اليها بحسب علم الآثار القديمة والاساطير الدينية

زُحل عند اليونان فكرمه هؤلاء كما اكرموا مينرفه الهة الحكمة عند اليونان وهي سيميه عند الفينيقيين . وفي اسمي قريتي (علين) قرب زحلة التي منها اسمها و (بسمية) في وادي الزبداني وغيرهما دلالة صريحة على هذا الامتزاج .

ولما انتصر اليونان والرومان تقضوا الحضارة الوثنية وهدموا هيكلها العظيمة وحطموا تماثيلها واستبدلوها بالحضارة المسيحية فعصبتها القبائل المنتصرة ومعظمها كان من غسان وقضاة واباد من السلاسل العربية .

ومن آثار النصرانية فيها الكنيسة المارمية الكبرى وهي من بناء اركاد يوس قيصر المتوفى سنة ٤٠٨ م ذكرها كثير من المؤرخين مثل ابن عساكر والرحالة ابن جبير ، وخربت مراراً ورمت الى ان احترقت في حادثة سنة ١٨٦٠م فذهب ما بقي من روائعها القديم طعمة للنار فرمت على طراز حديث ولا تزال المحلة القريبة منها تسمى (القميرية) وهي على ما يلوح لي بقية كلتي (ايكوز — ماريا) اليونانيتين اي بيت مريم . وكذلك محلة (الآسية) بقية كلّة (كلبسية) اليونانية بمعنى الكنيسة . ومنها كنيسة القديس يوحنا (في الجامع الاموي) ايضاً وقربها محلة (الكلاسة) ولعلها تحريف اكلبسية اليونانية بمعنى الكنيسة ايضاً الى غيرها من الديارات (الاديار) والكنائس التي في دمشق وخارجها مما وصفه المؤرخون مثل دير خالد او دير صليبها مقابل باب الفراديس . ودير مران ودير هند ودير ايا (ولعلها هي اليوم داريا) . ودير قانون ودير مقرن في وادي بردى الغربي .

وفي دمشق من هذه الآثار الباقية مقام (بولس) الرسول حيث تدلى من السور لما سجن في دمشق وهو باب مسدود له مقام . وكذلك محل (حنانيا) الرسول في الزقاق الى يمين الداخل من الباب الشرقي وفيه كنيسة بيد الآباء الفرنسيين وكان وقربها جامع خرب .

ولكن الفرس غزوا هذه البلاد ولا سيما نحو سنة ٥٤٠ م فخرّبوا ابنتها وغيرها

ومعارضة اللغات وفيه تراجم العلماء وتفصيل الحوادث على اسلوب عصري في التاريخ والجغرافية والتراجم والمباحث العمرانية وفلسفة التاريخ .

اسماء مدنها (١) بلغتهم وصادروها حتى كاد ذكرها يعني .

ولما فتحها العرب سنة ١٤ هـ « ٦٣٤ م » اشتهرت حضارتها في عهدهم ولإسبها في زمن الدولة الاموية التي اتخذت دمشق حاضرة لها فصكت فيها اول النقود العربية يزمن عبد الملك بن مروان . وانشأ معاوية الاسطول المؤلف من ١٧٠٠ سفينة مجهزة بالاسلحة والجنود وزعه في سواحل الشام والمغرب والاندلس . وذكر ابن النديم في الفهرست : ان اول من حفل يجمع الكتب من امراء المسلمين خالد بن يزيد الاموي فانشأ « مكتبة » في هذه الحاضرة وامر بترجمة كتب الطب والكيمياء من اليونانية والقبطية فانشأ (دار الترجمة) وكان عنده راهب مسيحي يتولى ذلك . ولقد ظهر في قبة الجامع الاموي كتب واوراق قديمة على رفوف بالعربية والسريانية والعبرانية والقبطية واليونانية نقلت الى المانية وبعضها في متحفنا السوري في دمشق (٢) . ثم بنى الوليد الجامع الاموي الشهير بفخامته ورونقه وانفق عليه خراج مملكته تسع سنوات مما تعادل قيمته الف الف ريال من تقودنا اليوم . وذكر ياقوت الحموي وغيره : انه تم عمله في تسع سنوات كان يشغل فيها عشرة آلاف رجل كل يوم بقطعون الرخام . ولما شكا الناس من انفاقه هذا من بيوت مال المسلمين اجابهم : نقولون ونقولون وفي بيت مالكم عطاء ثمانى عشرة سنة اذالم تدخل لكم فيها حبة قمح . فسكت الناس . وقال الجاحظ في كتاب البلدان : وهو مبني على الاعمدة الرخام طبقتين التحتانية اعمدة كبار والتي فوقها صغار ، في خلال ذلك صورة كل مدينة وشجرة في الدنيا بالفسيفساء والذهب الاخضر والاصفر . فاذهب حريق سنة ٤٦١ هـ روثقه . وقد توالى عليه الحرائق

(١) لقد مر بنا من تسميات الفرس (جلق) و (جوهر) و (حرساومنين) في صفحة ١٤٩ . وبقيت اسماء كثيرة منها اسم (الزبداني) ومن رأي صديقي ورحبني الاستاذ انيس افندي سلوم انه فارسي مركب من كلمتي (سيب) بمعنى رائحة التفاح و (ستان) او (دان) بمعنى محل اي مغرس التفاح فحرف بالزبداني . ويعضد ذلك قول العرب : من زار الزبداني فاحت منه رائحة التفاح . وقيل ان الاسم عبراني بمعنى الهبة مثل كفر زبد وزبدل ويزبدين في انحاء سورية ولبنان . وروى غير ذلك ايضا .

(٢) راجع صفحة ٣٩٥ من المجلد الاول من مجلة المجمع العلمي العربي .

فشوهت محاسنه وفي حريق ماحوله في ٢٦ نيسان سنة ١٩١٢ م ظهر كثير من
الاعمدة الكبيرة التي كانت حول الهيكل وجدران رومانية كثيرة .

ولقد شيد الوليد ابنة اخرى فاستقدم الصناع الى دمشق من بزنطية (القسطنطينية)
ومن العجم وغيرهما فاشتهرت فيها الصناعات النفيسة منذ ذلك العهد ولا سيما الترصيع
بالفسيفساء . ومن الابنية التي شيدها بيت المال والدار الخضراء الى جنوبي الجامع
و بلاط معاوية ودار سليمان بن عبد الملك ودار عمر بن عبد العزيز ودار هشام ودار
ابنه مسيلة وهذه كلها حول الجامع الكبير ايضاً . وعقد الوليد ميداناً لسباق الخيل كما
هو جار اليوم عند الافرنج ولا يزال ذلك المضمار الى يومنا يعرف (بالميدان) وهو من
احياء المدينة المشهورة في غربها الجنوبي .

وحولت فيها الدواوين من اليونانية الى العربية فرتبت على نمط جديد ووضع ديوان
الحتم وحزم الكتب والبريد وغيرها .

وكان اليمينيون الذين احتلوا دمشق منذ القدم قد نقلوا اليها صناعة الشفار والنصال
اي السيوف وهم مشهورون بها قانقنها الدمشقيون على يدهم وذاعوا بها شهرة فكانوا
يستخرجون حديدهم من ضواحي المدينة ولا سيما من دار با حيث آتار المعامل . ولا تزال
محلة المسبك في احياء النصارى من شرقي المدينة تدل على سبكها وكذلك اسم بني المسابكي
من أسرها المسيحية . واشتهر فولاذ دمشق بغرابة سقايتها وصلابته ورونقه حتى يقال
ان بني (بولاد) الاسرة المسيحية اشتهرت بصنعه فنسبت اليه ، ولهم حارة باسمهم ولعلها
كانت معملاً لصنعه .

ولقد كثرت معامل السيوف في دمشق ونسب الى هذه الصناعة بنو السيوفي من
مسلمين ومسيحيين ونقل الصليبيون الى بلادهم سر هذه الصناعة ولا سيما عمل الجوهر .
وبقي الدمشقيون من فوقين بها على الجميع الى ان سباهم تيمورلنك في اوائل القرن الخامس
عشر فأمات هذه الصناعة هنا واحياها في العجم .

ومما كانت مشهوراً في دمشق القاشاني نسبة الى مدينة قاشان وهي قرب اصفهان
العجم كان اهلها قد ورثوا عن البابليين هذه الصناعة فاشتهروا بها ونسبت الى مدينتهم
ولقد دلت الآثار القديمة المحفورة في فلسطين ان الكنعانيين عرفوها ومن هذه الصناعة

بقايا في بعض الجوامع والحمامات وفي متحفنا . وكذلك الفسيفساء وهي نقوش من الزجاج الملون المرصوف على الجدران والسقوف وفي القبة الظاهرة ابداع مثال لها بالوان جميلة واصباغ مزخرفة ورصف يأخذ بمجامع الابصار .

وكذلك الميناء اي جوهر الزجاج والتجربتها الدمشقيون من العجم ولها بقايا تدل على اتقانها هنا . وتزويق الجدران والسقوف بالنقش والاصباغ وفي دار اسعد باشا العظم امثلة رائعة منه . وكذلك الزجاج الذي وصفه كثير من المؤرخين والرحالة . والخزف المنقوش . وترصيع الآنية المعدنية بالذهب والفضة وقد اشتهرت في زمن الملك الظاهر البندقداري في القرن السابع للهجرة . والترصيع بالصدف والقطع الملونة على الخشب . وفي معمل النعسان في الباب الشرقي امثلة رائعة من هذه الصناعة . وعرف الدمشقيون نسج الديباچ وغيره وصناعة الورق والصباغ وغيرهما مما له بقية قليلة الآن لها بعض مزايا الاتقان . ولعلني افرد محاضرة خاصة لصناعات دمشق ومزاياها المشهورة باكثر تفصيل وادق استقراء .

اما تجارة دمشق فانها بعد سقوط تدمر محط رحال القوافل التجارية بين الشرق والغرب تحوالت الى هذه الحاضرة ولا سيما تجارة الهند والعجم والعراق وخلفت تدمر (ملكة البر) واشتهرت بنتاج ارضها الخصبية فتوطدت فيها دعائم العمران واهمها الزراعة والصناعة والتجارة . فقصدتها تجار اوربة وغزرت ثروتها . فضلاً عن انها كانت مجتمعاً للحجاج الذين يذهبون الى القدس الشريف والى مكة المكرمة والمدينة المنورة في طريقها البرية . وبقيت مزهرة في تجارتها الى ان فتحت ترعة السويس في اواسط القرن التاسع عشر الماضي فانحطت تجارتها وقل عدد الحجاج الذين يقصدونها لسهولة الطرق البحرية وتحويل القوافل البرية الى بواخر بحرية .

وكانت للامويين مجالس ادب مع شعرائهم وعلماهم ومحاضرات ومساجلات ومكاتب ومتاحف لطرائفهم واشتهر كثير من النساء بادهن الرائع في ذلك العصر و بينهن الخطيبات والشواعر اللواتي جالسن العلماء مثل سكينه ابنة الحسين التي انتقدت الفرزدق وجريراً واثنت على كثير وجميل . وصديقتها ام البنين زوجة الوايد التي ساعدته بتعزيز العدل والشفقة على الرعية وشاركته في السياسة والآداب بحصافة عقلاها

مقدمة له الآراء السديدة . ورابعة العدووية المشهورة بزهدا وبرها وادبها الى غير ذلك من كانت بهوتهم مجالس ادب وسوق عكاظ للغة والشعر .

هذه لمعة من الحضارة الاموية في دمشق تشعب منها كلام الى ما بعدها له لاقته بها . على انه لما اضطرب جبل الامويين بظهور السفاح العباسي الذي حمل عليهم وخرب دورهم وشتت شملهم فجاء كثيراً من آيات حضارتهم التي انتقلت الى الاندلس واوربة وازهرت طويلاً فيها .

ولقد حل في دمشق المأمون بن هرون الرشيد العباسي مرتين . والخليفة المتوكل الذي نوى نقل دواوينه اليها ثم نقض ما يرمه من هذا الرأي لاسباب لا محل لتفصيلها . ودخلها سيف الدولة بن حمدان يتولى شؤونها سنة ٣٣٤ هـ فحدث له في الغوطة ما اوجع عليه صدر الدمشقيين فرفضوه واليك القصة : لما ملك سيف الدولة دمشق خرج يتنزه في غوطتها مع الشريف العقيقي (صاحب الدار التي هي اليوم المكتبة الظاهرية) فقال له المالك : ما تصلح هذه الغوطة الا لرجل واحد . فقال العقيقي : هي لاقوام كثيرين العدد . فقال سيف الدولة : لو اخذتها القوانين السلطانية لتبراوا منها . فاعلم العقيقي الدمشقيين بالخبر . فغيروا على سيف الدولة . وكتبوا كافوراً يستقدمونه اليهم فجاء واخرج سيف الدولة منها .

وكانت بغداد في هذه الفترات تنازع دمشق الحضارة وتنافسها في التجارة ونقف في طريق عمرانها اقتصاداً من الامويين الذين سيدوا حضارتها ورفعوا اعلام مجدها فتقهقرت وانحطت مدة طويلة .

فلما صارت شؤونها بيد الدولة الايوبية ورأسها السلطان صلاح الدين الشهير ارتفع منار حضارتها وتبسط عمرانها واتسع نطاق مجدها فأسست فيها المدارس الكبيرة والمستشفيات والملاجئ واختلف اليها العلماء والاطباء والصيادلة . حتى كان عدد مدارس القرآن الشريف سبعة والحديث ثمان عشرة والشافعية سبعة وخمسين والحنفية احدى وخمسين والحنابلة عشرة والمالكية اربعة والطبية ثلاثاً . وكان فيها البيمارستان النوري وصيدليته والبيمارستان القيمري . وبين تلك المدارس تسع استسما فاضلات النساء

من المدسكات والاميرات . ذلك فوق ما كان فيها من الربط والحوائق والزوايا والتكايما مما له بقايا دارسة واطلال عافية .

وسيدت فيها الدور الفخمة والقصور الشائخة . وانشئت الخزائن الفاخرة بالكتب المخطوطة النادرة ولا سيما في المدارس المذكورة ونبع منها العلماء والشعراء والادباء والمؤلفون على اختلاف ازمانهم ومراتبهم .

واشتهر فيها ملوك وامراء رفعوا اعلام حضارتها ببنية منيعة . مثل الملك الظاهر والعاقل وآنكز والاشرف ومصلحى لالاباشا ومراد باشا وسان باشا . فكانت دولة المماليك المصريين التي اولها الملك الظاهر بهبرس البندقداري والجزاكمة الذين اولهم الظاهر برقوق والثماين الذين اولهم السلطان سليم وامراء القيرية كلهم يحبون العمران .

ومن متأخري دولاء الامراء الحكام آل العظم الكرام فانهم ولعوا بالعمارة فشيّدوا القصور الباقية وعززوا المدارس وجمعوا خزائن الكتب فكان منهم بضعة عشر والياً في انحاء سورية ولا تزال آثارهم تحدث بمجدهم الباقي مثل دار اسعد باشا وبعض ابنتهم وكتب الخزانة الظاهرية المطرزة باسمائهم ووقوفهم .

واشتهر بين المشقيين من ارباب الصناعات الاخرى والحذق من ذاع اسمهم في النوارخ وحفظت آثار اعمالهم شاهدة على براعتهم ولا سيما في صناعة الساعات التي تفوقوا فيها ومن قدمائهم الذين ذكرهم ابن ابي اصيبعة في كتابه (الحكماء) مهذب الدين احمد بن الحاجب الدمشقي فانه كان قوي النظر في صناعة الهندسة وخدم في الساعات عند الجامع . وكذلك نجر الدين الساعاتي الذي عمل الساعات عند باب الجامع الاموي في دمشق . ومن ذكرهم غير ابن ابي اصيبعة علي بن عريف النحاسين الدمشقي النحاس الذي ركب مواد انفجارية نسف بها الابراج الصليبية في حصار عكا .

ولقد انثابت دمشق الحرائق والزلازل والفتن والفنوق وغيرها من النكبات فمحت كثيراً من آثارها . ودفن معظم عمرانها القديم في الشوارع والبيوت فاذا ارى بداظهاره احتيج الى نسف الاماكن وتقويض الابنية لاستشارة دفائن مجدها القديم وكيفية انها كانت آية البناء الشرفي قائمة على اجمل طراز هندسي اشبه بمدينة تدمر الشهيرة

ايام عمرائها فكانت دمشق بيضية الشكل مستطيلة يحدق بها سور عظيم منيع ويحرقها من الشرق الى الغرب الزقاق المستقيم وهو السوق القائمة من باب الجابية الى الباب الشرقي وطولها نحو ميل وكان على جانبيها رواقان قائمان على الاعمدة الضخمة وبين الواحد والاخر نحو اثنتي عشرة ذراعاً ففي الرواقين تسير المارة وفيه التارح العريض بين الرواقين تسير العجلات والحيوانات ولا تزال بعض هذه الاعمدة بين البيوت الى يومنا ومنها اثنان على جانبي باب جيرون (النوفرة) وعشرات حول الجامع ولا سيما في زقاق الباذرائية على يمين الداخل من باب النوفرة . ولما حفر اساس الثكنة في حي النصارى الممتد الى باب توما سنة ١٨٦٢ ظهرت آثار اعمدتها . وكذلك شارع طويل تحت الارض من مأذنة الشحم الى الباب الشرقي باعمدته وهندسته . وكان عند مأذنة الشحم ملعب روماني مدرج (امفتياتر) . وكان الجامع الاموي في قلب المدينة وحوله سور له اربعة ابواب معروفة بقي منها باب البريد في غربيه وباب جبرين (النوفرة) في شرقيه . وهناك اعمدة ضخمة بديعة . وكان للمدينة ثمانية ابواب في كل جهة بابان حتى قيل فيها :

دمشق في اوصافها جنة خلد زاهيه

اما ترك ابوابها قد جعلت ثمانية

وكانت سوق باب البريد اجمل اسواق المدينة عثر في وسطها مرادياتا قبة جميلة قائمة على اعمدة عظيمة عليها كتابات واشعار بالعربية والكوفية .
ووصف مؤلف (محاسن الشام) ابوالبقاء عبدالله البدرى ابواب المدينة بقوله :
وغالب هذه الابواب القديمة بنى عليها نورالدين الشهيد منابر على مساجد وجعل لكل باب باشورة كالسويقة بها حوانيت مملوءة بالبضائع فاذا حصنت المدينة وأُقفلت الابواب ، يستغني اهل كل باب من هذه الابواب بما عندهم .

وامام السور في شرقي المدينة بين الباب الشرقي ومقام الشيخ ارسلان بيت (نعان السرياني) وهو مجذمة اليوم (مستشفى للجذام) وفي صدره اربعة ابواب ضخمة منحوتة بالحجارة وبينها قنطرة وفيه مجذومو المسلمين . والمروي في التوراة ان نعان هذا كان ابرص او مجذوماً فقصد ايليا النبي مستشفياً فقال له اغتسل بالاردن . فقال له :
عندي ابانة (بردي) وفر فر اي (الاعوج) ومعناه السريع وعاد الى بلده . وفي داخل

الباب الشرقي بحزمة (قعاطلة) المسيحيين ايضاً وهم المجذومون الذين تسميهم العامة بهذا الاسم (مقعطل) او (مقلعط) وهي حظيرة المسبك الآن .

وفي احياء المدينة آثار ابنية مثل الجامع المعلق قرب المناخية وكتابات كثيرة ولا سيما حول الجامع وفيه وعلى ابواب المدينة والمدارس والجوامع . واعمدة ومدافن للصالحين والمشاهير واضرحة للعلماء في الجهات ما عدا غربي المدينة فانه لم يدفن فيه صحابي .

ومن اهم ما فيها هندسة مياهها وتوزيعها على بيوتها واحيائها توزيعاً ذا اصول مضبوط واتقان فتدور المياه باقنية وانابيب نافذة من دار الى أخرى بنظام معلوم وعند آل الشطي في المدينة اصل قاعدة نفريج المياه وتقسيمها يعتمد عليه من يتولون اصلاحها والمياه منفرعة من سبعة انهر هي اقسام يردى النهر الكبير الذي يتخلل المدينة بفروعه . وفي هندسة ساعاتها القديمة ومزاولها وابوابها ونقوشها ما يشهد بعمرائها . وقد وصف بعض المؤرخين ساعة من ساعاتها عليها عصفير من نحاس ووجه حية من نحاس وغراب فاذا مضت ساعة من الوقت خرجت الحية وصفرت العصفير ونعب الغراب وسقطت حصاة . وباب الساعات من ابواب الجامع يسمى اليوم باب الزيادة .

وسور المدينة ضخم تظهر بقاياها في بعض ارباض المدينة وحوله خندق عميق للحمار فضلاً عن ابراجها وقلعته وآثارها ومرصده الفلكي على جبل قاسيون الذي اشار ان النبطي في تاريخ الحكماء الى الرصد فيه . ثم اتخذ منارة للتخاطب بالنار . ودار العدل التي شيدها نور الدين الشهيد للنظر في ظلم عماله للرعية وكان يجلس فيه لاستمراء المظالم والتسكوي وهي الآن قصر المشيرية . وكذلك دار السعادة بجوار القلعة وغيرها . ولقد نقلت الدول التي توالى عليها كثيراً من آثارها وطرائفها ومكاتبها فجمعت تلك البقايا اليوم في متحف هذه المدرسة المعروفة بالعادية وفي المكتبة الظاهرية ازاءها . وفي اوائل القرن العاشر للهجرة احترقت سوق باب البريد وابواب الجامع الكبير كما ذكر النجم الغزي في الكواكب السائرة وتوالى الحريق مراراً قبل ذلك الوقت وبعده .

وضربت دمشق ضربات كثيرة منها المظالم التي اجتاحتها سنة ١٠٦٨م بزمان ولاية الامير حصن الدولة الكتامي فجلا السكان عنها واقفرت وخلت الغوطة من

فلاحيتها فلما حكم صلاح الدين ونور الدين ابطلا المكوس والمظالم وخففاها عن عائق السكان فجدد عمرانها بعودتهم اليها .

اما عمرانها فانها اشتملت على غوطة عدت من مئذنهات الدنيا الاربعة فكان عدد يسايتها في القرن الثامن مائة وواحد أو عشرين الف بستان كذا ذكر شيخ الربوة في كتابه (نخبة الدهر) على انها لا تتجاوز اليوم الالفين عدداً . وهي التي وصفها المأمون العباسي بقوله : انها خير معنى على وجه الارض . وفيها المياه الغزيرة والسهول الفسيحة والخصب الطبيعي فحبذا لو اشترك معه الخصب الصناعي .

ولقد كان خراج دمشق على عهد معاوية اربعمائة الف وخمسين الف دينار . وكان ارناع دمشق سنة ٥٢٠٤ م (٨١٩) ثلاث مائة الف وستين الف دينار . وفي زمن المأمون كان خراجها اربعمائة الف دينار وعشرين الف دينار .

فلماذا كانت المظالم والتضييق على الفلاحين من اسباب تأخر زراعتها . واعراض الوطنيين عن معاضدة صناعاتها وحصرها بأسر معلومة انقرضت او اهملتها من اهم الضربات في تاخر الصناعة ومنافسة المدن والثغور لها بانحطاط تجارتها . ومعلوم ان التجارة تقوم بجناحيها الدين هما الزراعة والصناعة فضاوت مهينة الجناح متأخرة .

ولعلنا نتسابق الى رفع شأن اسباب العمران فنعيد الى هذه المدينة القديمة مجدها او شيئاً منه بمعاوضة رجال الدولة المندبة والحكومة الوطنية وارباب النهضة استعادة لنجاحها الغابر وتوطيداً للمدينة الحديثة فيها والله ولي التوفيق بمنه وكرمه .

عيسى بكندر
المدرّس

أُحَيْمَةُ بْنُ الْجُلَاحِ (١)

دُعِيتُمْ أَيُّهَا السَّادَةُ لاسْتِمَاعِ مَخَاضِرَةٍ فِي مَوْضُوعِ تَارِيخِي أُدْبِي . وَسَيَكُونُ الْمَحْزُورُ الَّذِي يَدُورُ عَلَيْهِ هَذَا الْمَوْضُوعُ رَجُلًا مِنْ عِظَمَاءِ عَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ اسْمُهُ (أُحَيْمَةُ بْنُ الْجُلَاحِ) .
وَإِذَا كُنْتُمْ أَيُّهَا الْإِخْوَانُ لَمْ تَسْتَعِذُّوا بِهَذَا الْاسْمِ فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ تَسْتَعِذُّوا بِالسُّمِّيِّ .
وَيُعْجِبُكُمْ مَا أَقْصَتْهُ عَلَيْكُمْ مِنْ أَخْبَارِهِ . وَمُخْتَلَفِ أَطْوَارِهِ .

لَحْنٌ بِصِفَةِ كَوْنِنَا عَرَبِيًّا وَلَنَا حِرْصٌ عَلَى لُغَتِنَا وَأَدَابِهَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نُنْصَفَحَ أَشْعَارَ عَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ وَمَا يُوَثِّرُ عَنْهُمْ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَمْثَالِ . وَبِذَلِكَ نَفْقَهُ أَسْرَارَ لُغَتِنَا وَأَدَابِهَا .
وَبِصِفَةِ كَوْنِنَا مُسْلِمِينَ يَجِبُ أَنْ نَدْرُسَ أَخْبَارَ الْعَرَبِ التَّارِيخِيَّةِ ، وَاحْوَالَهُمُ الْاجْتِمَاعِيَّةِ .
لَنَعْرِفَ مَاذَا سَخَّ الْأِسْلَامُ مِنْ ذَلِكَ وَغَيْرِهِ . وَمَاذَا أَبْقَى وَقَرَّرَ . وَفِي الْكَلَامِ عَلَى (أُحَيْمَةَ) .
يَكُونُ أَنْ نَسْتَخْرِجَ فَوَائِدَ مِنْ كِلْتَا الْوَجْهَتَيْنِ : الْوَجْهَةُ اللَّغَوِيَّةُ الْإِدْبِيَّةُ ، وَالْوَجْهَةُ التَّارِيخِيَّةُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ . وَهُوَ فَوْقَ ذَلِكَ يُعْطِينَا صُورَةً لِلنَّوَابِغِ الَّذِينَ كَانُوا فِي وَسْعِ ذَلِكَ الْمَحِيطِ الْعَرَبِيِّ الْجَاهِلِيِّ أَنْ يُبْرِزَهُمُ لِلْوُجُودِ .

إِنْكُمْ سَتَعْلَمُونَ مِنْ تَرْجُمَةِ هَذَا الرَّجُلِ الْعَرَبِيِّ — أَنْ فِي تَارِيخِ عَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ رَجُلًا كَثِيرِينَ ذَوِي أَعْمَالٍ عَظِيمَةٍ وَهُمْ عَالِيَةٌ كَانُوا جَابِغِينَ أَنْ يَكُونُوا مَشْهُورِينَ بَيْنَنَا . لَكِنْهُمْ لَمْ يُرْزَقُوا السَّعَادَةَ فِي الشَّهْرَةِ كَمَا رُزِقَ غَيْرُهُمْ .

يَنْبَغِي أَنْ لَا نَقْلَ شُهْرَةَ أُحَيْمَةَ عَنْ شُهْرَةِ أَصْحَابِ الْمَعْلَقَاتِ الَّذِينَ تَوَصَّلُوا بِالشَّعْرِ وَخَيَالِهِ إِلَى تَدَاوُلِ أَخْبَارِهِمْ فَاسْتَبْرَوْا . أَمَّا أُحَيْمَةُ فَاتَّكَلَ عَلَى التَّارِيخِ فِي نَقْلِ خَبَرِهِ . وَكَثِيرًا مَا يُبْطِئُ التَّارِيخُ أَوْ يُقْصَرُ فِي النُّقْلِ . وَأَنْ نُسَبِّحَ التَّارِيخَ إِلَى الشَّعْرِ فِي نَقْلِ الْأَخْبَارِ . كَنُسَبِّحُ الْإِبِلَ إِلَى الْكَهْرِبَاءِ وَالْبَخَارِ . وَقَدْ مَاتَ الْأَسْمَاعُ تَرْدِيدَ ذِكْرِ أَشْخَاصٍ مِنْ رِجَالِ الْجَاهِلِيَّةِ كَأَصْحَابِ الْمَعْلَقَاتِ وَقَسَّ بْنِ سَاعِدَةَ وَحَاتِمَ طِيٍّ وَالنَّعْمَانَ ، أَمَّا مِثْلُ

(١) مَخَاضِرَةُ الْأَسْتَاذِ (الْمَغْرِبِيِّ) الَّتِي الْقَاهَا فِي رَدِّهِ الْجَمْعَ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ فِي ١٠ تَشْرِينَ

الثَّانِي سَنَةِ ١٩٢١ .

(أحيحة) فأن اخباره لم تزل كعدن ماس ، لم يمسه ماس . ولم يضرب فيه بفاس .

(موطن احيحة ونسبه)

موطن أحيحة مدينة (يثرب) في الحجاز ، وهي التي هاجر اليها نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) وعُرفت بعد ذلك بالمدينة المنورة وكان سكانها الاقدمون عمالقة أرسل اليهم موسى (ص) على ما قاله مؤرخو العرب جيشاً وأمرهم ان لا يستبقوا احداً ممن بلغ الحلم الا من دخل في اليهودية . فقاتلهم وقتلهم كلهم . لكنهم ابقوا على ابن ملكهم وكان شاباً من اجمل الناس ، فعادوا به اسيراً . وكان موسى قد قبض قبل قدومهم ، فقال لهم خليفته يوشع من هذا الفتى ؟ فأخبروه خبره فقال لهم : ان هذه معصية ارجعوا عن ارض الميعاد . فرأوا ان يرجعوا الى البلد الذي فتحوه فعادوا اليه وأوطنوه .

ثم لما حدثت في اليمن حادثة سيل العرم وجلا عنها سكانها الى شمال جزيرة العرب كان فيمن جلا بطون من قبيلة الأزد اليمانية وهم الأوس والخزرج فأما وا يثرب ونزلوا فيها ، فقاومهم اليهود في أول الامر . فاستنصر الأوس والخزرج اليمانيين اخوانهم الذين نزحوا معهم الى الشمال . فاعانهم عليهم ، واصبحت لهم العزة في يثرب لكنه وقع الشقاق اخيراً بين الحبّين : الأوس والخزرج ، وما زالوا في حروب وكروب حتى آلف الاسلام بينهم ، وامتن القرآن بذلك عليهم .

وكان (أحيحة ابن الجلاح) سيد قومه الأوس ، ولم يُعرف الزمن الذي عاش فيه لكنه كان قبل البعثة بنحو سبعين سنة على الاقل كما سيأتي بيانه . اما اسمه (أحيحة) فهو تصغير (أحة) بمعنى حرارة الغيظ التي يجدها الانسان في صدره . وقد قال ابن دريد في كتابه (الاشقاق) انه تصغير (أحاح) وعلى هذا ينبغي ان يلفظ (أحيحة) بتشديد الياء . وليس كذلك اذ المشهور في اسمه التخفيف ولا سيما أنه ورد اسمه في الشعر مخففاً كما سيأتي في مدح خالد بن جعفر له . والأح أيضاً مصدر (أح) اذا سعل . ولعل من قال (فح) اي سعل توهم ان همزة (أح) محولة عن (قاف) كما يفعل في لغتنا العامية

مذُ تحول القافات الى همزات . او ان (قح) مأخوذة من (قَعَبَ) بمعنى سعل . ومن هنا سميت القعبة قعبة . .

اما ابوه (الجُلاح) فهو من الجَلَّاح ومعناه انحسار الشعر عن مقدم الرأس ويحتمل ان يكون من الجُلاح بمعنى السيل الجراف وهو الذي يجرف كل شيء يصادفه أمامه .

كان أحيحة ذا دماغ وعقل ، كما كان ذا جدٍ وعمل . وقد توصل باخلاقه هذه الى أن أصبح من نوابغ رجال ذلك العصر : فكان رجل حربٍ وكيدٍ . رجل أدبٍ وشعرٍ ، رجل مالٍ واقتصادٍ ، رجل تنظيمٍ وعمرانٍ . ونعني بال عمران العمران الذي تستطيعه بلاد الحجاز في ذلك العهد .

(أحيحة رجل حربٍ وكيد)

روى مؤرخوا العرب ان (تبعاً) الاخير ملك اليمن واسمه (ابو كرب بن حسان) مرّ يثرب قاصداً الشام والعراق فحلف فيها ابناً له ، ثم بلغه ان اهل يثرب قتلوا ابنه ، فكرّ راجعاً اليهم . مجعاً على استئصالهم . فنزل خارج المدينة في سفح أحد . ودعا اليه أشرافها من الأوس والخزرج ، فقالوا فيما بينهم انه يريد أن يتركنا على اهل يثرب . أما أحيحة فقال لهم : والله ما دعاكم لخير . فذهب الأشراف اليه واستصحب أحيحة معه خباءً وخمراً وقينة له تسمى (مليكة) فضرب الخباء وترك فيه خمره ومليكة . ثم استأذن على تبع فاذن له . واجلسه معه على زربيته (بساط منقوش بالالوان جمعه زرابي) وجعل يحادثه ويسأله عن امواله بالمدينة . فأخذ أحيحة يخبره عنها . وتبع يقول له : « كل ذلك على هذه الزريرة » ففهم أحيحة من قوله هذا أنه يريد قتله فخرج من عنده الى خباته وقينته . فنظم لها قصيدة وداعية . وجعل يشرب وهي تغيثه بها . ومن هذه القصيدة قوله :

(يشناق قلبي الى مليكة لو أمست قريباً من يطالبها)
(ما أحسن الجيد من مليكة واللبنات إذ زانها ترائبها)

(ياليتني ليلةً اذا جمع الناسُ ونام الكلاب — صاحبها)
(في ليلة لا يُرعى بها أحد يسعى علينا — ألا كواكبها)

وهذه الايات مما كانت تُغني به القينات في عهد الخلفاء . ولما نام حرس الملك أزمع أحيحةُ الحرب . وعلمَ قينته مليكة ما يقول لتبع اذا سأها عنه ، ثم انطلق الى حصنه واستعد للدفاع . وبعد أن قتل تبع الاشراف الذين دعاهم اليه أرسل حراسه في طلب أحيحة ، فلم يأتوا به . وانما اتوا بمليكة . فاخبرته ان سيدها التجأ الى حصنه ، وانه يقول له : « اغدُرْ بقينة اودع » وقد ذهبت كلمته هذه مثلاً في كثير من كلماته الاخرى . يخاف الملك السُّبَّةَ والعار بقنلها فتركها وأرسل كتيبة من خيله الى أحيحة فحاصروه ثلاثة أيام كان يرميهم فيها بالنبل والحجارة نهاراً . وبالتمر والزاد ليلاً ، فرجعوا الى الملك وقالوا نحن ما فهمنا معنى هذه الحرب التي بقاتلنا فيها هذا الرجل نهاراً . وضيفنا ليلاً . فامرهم بالكف عنه . واكتفى بتحريق نخله ، وبقي الملك يقاتل عرب المدينة ويهودها اياماً ثم رحل عنها اخيراً عملاً بنصيحة خبرين من اليهود أخبراه انها ستكون مهاجرة نبي . يظهر في آخر الزمان . وذهب الى مكة فكسا الكعبة الرداء اليمانية عملاً بإشارة الخبرين ايضاً اللذين اخذهما معه الى اليمن . وتهود هو وقومه . ويقال ان هذا هو اصل دخول اليهودية في اليمن .

هذه خلاصة ما رواه مؤرخو العرب عن تبع وحربه في الحجاز . وكيف تخاص أحيحة منه بدهائه وشجاعته . ومن ثم كان قومه يشهدون له بانه ادهام رجلاً . وكانوا يزعمون ان له تابعاً من الجن يعدّ له الخبر ، وذلك لما رأوا من ذكائه وكثرة صوابه . وامري ليس تابعه سوى عقله ودهائه . والعرب ان كانوا يقولون ان مع من نبغ من رجالهم جنياً فان الافرنج يسمون الفراسة والذكاء والناطقة المنفوق من رجالهم — «جيني» Génie ألا ترون ان بين السكتين او بين التسميتين نسباً واضحاً . واتصالاً ظاهراً ؟ والعرب ايضاً يسمون الذكي الذي يكثر صوابه وصدق حدسه (ألمعيًا) وقد قال شاعرهم :

(الالعي : الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا)

و يسمون الذي يفوق غيره ولا يعاوه شيء — عبقرياً . فيحسن بنا اذا ان نعرب

كلمة (جيني) الفرنسية بكلمة (الالمعي) لقربها منها أو (العبقرية) . هذا اذا لم تعجبنا كلمة (نابغة) .

ماصر من حرب أحيحة مع تبع هو من قبيل الحروب الخارجية . أما حروبه الداخلية فهي حربه مع بني عمه الخزرج وكيف قهرته السيدة سلمى الخزرجية جدة النبي (صلعم) : قتل رجل من الأوس قوم أحيحة رجلاً خزرجياً من بني النجار قوم سلمى زوجته فثبتت الحرب من جرّاء ذلك بين الحبيتين . وكان أحيحة قائد قومه فعزم على تببيت الخزرج ، واخذهم على غرة . فشعرت بذلك زوجته سلمى بنت عمرو الخزرجية النجارية . وكانت امرأة شريفة لا تنكح الرجال الا و امرها يدها : إذا كرهت من رجل شيئاً تركه . فدبرت حيلة أنقذت بها قومها من كيد أحيحة : وذلك انها في تلك الليلة التي ازمع فيها زوجها تببيت الخزرج قومها ربطت ابنها عمرآ من ذنبه بخيط . وكان فطياً حتى اذا ارجعته تركه فبات يبكي ، وبات ابوه مؤرقاً ينقلب في فراشه . ويقول : « ويحك ياسلي ! ما عمرو لا ينام » فنقول « ما أدري والله ! » حتى اذا ذهب الليل حلت الحيط عن ابنها . ولكنه لم يكد ينام زوجها حتى صرخت سلمى : « وارأساه » فقال أحيحة : « سرأ ما لقيت في هذه الليلة » وقام اليها فجعل يعصب رأسها يدلك براحتة ظيهرها ويقول : مابك من بأس . حتى اذا لم يبق من الليل الا أقله . قالت له قم فقم ، فاني أجدي مستريحة . وانما فعلت ذلك ليشقل رأسه . ويشتد نومه . فلما استغرق في النوم اخذت حبلاً متيناً واثقته برأس الحصن ثم تدأّت منه الى قومها . وانذرهم بالذي اجمع عليه أحيحة وقومه من تببيتهم . فحذروا وتأهبوا . واما جاءهم (أحيحة) لم يقدر ان ينال منهم نيلاً . فعاد خائباً وجعل يقول : (آه لك ياسلي !! خدعني حتى بلغت ما أردت) وسمّاها قومها من ذلك اليوم المتدالية . ولا أحيحة في هذه الحادثة اشعار كثيرة كان يعتب فيها على سلمى . وسيأتي بعضها . ثم ان سلمى لم تعد الى أحيحة كما هو شرطها في ان تختار نفسها متى شاءت . وبعد ذلك تزوجت بسيد قریش وإمام البطحاء (هام بن عبد مناف) فولدت له عبد المطلب جد نبينا (صلعم) ومن هنا جاء ما تروونه في كتب السير من ان ابا النبي عبدالله مات في المدينة عند اخواله بني النجار وان السيدة آمنة كانت تذهب به (صلعم) وهو صغير الى المدينة فتزيّره اخواله بني

النجار — يعنون بذلك احوال جده عبد المطلب من امه (سلي) هذه . واذا كانت سلي جدة عبد المطلب زوجة لأحيحة فيكون قد عاش أحيحة قبل البعثة بنحو سبعين سنة على اقل تقدير .

ومما له علاقة باخبار (أحيحة) الحربية تنافسه في اقتناء الذروع واستكثاره من العتاد والسلاح : وقد ذكروا انه لما قتل خالد بن جعفر العامري زهير بن جذيمة سيد بني عبس عزم ابنه قيس على اخذ الثار وجاء المدينة لشراء السلاح والعتدة . فأخبر أن عند أحيحة من ذلك الشيء الكثير وان لديه درعاً لم يكن في يثرب درع تضاهيها فطلبها قيس منه فأبى وقال : كيف أعطيكمها وخالد بن جعفر الذي يقول :

(اذا ما اردت العز في آل يثرب	فناد بصوت يا أحيحة فاسمع)
(رأيت أبا عمرو (أحيحة) جاره	بييت قريير العين غير مروع)
(ومن يأتيه من خائف ينس خوفه	ومن يأتيه من جائع البطن يشبع)
(فضائل كانت للجلاح قديمة	وأكرم بفخر من خطا لك الاربع)

(أحيحة رجل شعر وأدب)

مرّ في الكلام على أنه رجل حرب — شيء يدل على منزلته من الشعر والادب . من ذلك قطعته الادبية التي غننه بها قينته مليكة واولها :

(ما احسن الجيد من مليكة والآيات اذ زانها ترائبها)

وان له كلمات سارت في العرب مسيراً لأمثال من ذلك قوله للملك حمير بلسان مليكة (أعذر بقينة أودع) . ومن كان مثل أحيحة في اعماله الحربية كما سمعت واعماله العمرانية والزراعية والاقتصادية كما سترسم — لا يتيسر له ان ينظم الشعر الكثير . على انه ربما كان له شعر كثير لم ينقل اليهنا كغيره من محول شعراء الجاهلية :

فمن شعره قصيدته المذهبة الممدودة بين المذاهبات في كتاب (جوهرة اشعار العرب لابن زيد القرشي) وقد عدّ ابو زيد أحيحة في اصحاب المذاهبات وقال انهم كلهم من اهل المدينة المنورة . ومطلعها :

(صحوتُ عن الرضا والدمعةُ ول
ولو أني اشاء نعمتُ جالاً
ونفسُ المرء آؤنةٌ . فنول
وباصحكر في صَبوحِ لوشيل
ولاعبني على الانماطِ أُمسُ
على أفواههن . الزنجيل
ومنها :

(وما يدري الفقير متى غناه
وما تدري وإن ألقحت شولاً
وما يدري وإن ألقحت سقياً
وما تدري وإن أجمعت أمراً
وما يدري الغني متى يعيل ؟
أتلح بعد ذلك أم تحيل ؟
لفيرك أم يكون لك الفصيل ؟
بأي الارض يدركك المقييل ؟
وانسار في هذه القصيدة الى كيد زوجته صلى له واحتياها عليه فقال :
(اذا ما بتُ أعصيا فباتت
لعلَّ عصايا يبغيك حرباً
عليّ مكانها الحمى النسل
ويأتيهم بعورتك الدليل
واشار الى حصنه فقال :

(وقد أعددتُ للعدثان حصناً
طويل الرأس أبيض متحفرأ
لواث المرء نفعه العقول
يلوح كأنه سيفٌ صقيلُ)

« أحيحة رجل عمران »

بقي علينا أن نتكلم على أحيحة بصفة أنه رجل عمران . ونعني بال عمران هنا القدر الذي يطيقه محيط يثرب في ذلك العهد . فلا يعتبرضن علينا معترض بأنه لا يُسمى عمران عمراناً الا اذا كان مثل عمران لندره و بار يز اليوم !! على انه لو كان أمثال أحيحة في ذلك العهد كثيرين يسهون سعيه في الزراعة وجمع المال وانشاء القصور لكان للمدينة شأن غير شأنها المعروف .

(الأُطْمُ) في لغة العرب بمعنى الحصن والقصر العظيم . ويجمع على أطام . وكان أهل يثرب قبيل الاسلام يبنون أطامهم بالجنادل والحجارة ويتخذونها أحياناً معسقل وقلاع دفاع . كما سمعت في خبر أحيحة مع تباع . وكانت هذه الأطام عنراً العرب

ومَنَعَتَهُمْ وحصونهم التي يتحَرَّزون بها من عدوهم . ومن أشهر أطام العرب وأعظمها شَأَنًا أَطَامَانُ كَانَا لأحيحة . أحدهما بَابَاهُ في المدينة وسماه (المستظل) وهو الذي تحصَّن فيه حين قاتل ملك اليمن والآخَر سَمَاهُ (الضحيان) وقد بناه في مزرعةٍ له يقال لها (الغابة) وهي على بعد نحو فرسخ من المدينة . وكأنَّه سماه (الضحيان) لانه ضاحٍ بارز للشمس بخلاف (المستظل) فقد كان مبنياً في ظل المدينة وبين بيوتها .

و بني (أحيحة) أَطْمُهُ (الضحيان) بحجارة سوداء ثم بنى فوقه نبرةً بيضاء مثل الفضة . والنبرةُ كل شيءٍ مرتفع . ثم جعل على هذه النبرة نبرةً أخرى مثلها بحيث يراها الراكب من مسيرة يوم أو نحوه قالوا : ولما شيد (أحيحة) أَطْمُهُ (الضحيان) على هذه الصورة أشرف من فوقه ومعه غلام له وقال (لقد بنيتُ حصناً حصيناً ما بنى مثله رجل من العرب أَمْنَعُ ولا أَكْرَمُ ولقد عرفت موضع حجرٍ منه لو نزع لوقع الحeden جميعاً) فقال الغلام المسكين انا اعرفه يا مولاي . وأشار اليه . فدفعه (أحيحة) من رأس الأَطْمِ فوق مِيتَةً . وإنما قتله إرادة أن لا يعرف سرُّ ذلك الحِجَرِ غيره . وهذا ما حكي عن سنخار المعمار الذي شيّد الخورنق للنعمان وجعل فيه مثل ذلك الحِجَرِ الذي وُضع في حصن (أحيحة) فإن النعمان رماه من فوق ذلك القصر فمات لثلاً ينكشف سرُّ الحِجَرِ . وقد ضُرب بسنخار المثل فيقال (جزاه جزاء سنخار)

وكان من عادة أحيحة أن يجلس في ظل أَطْمِهِ الضحيان . وكان في اوقات الخوف يرسل حواليه كلاباً له تنبج دونه على من يأتيه ممن لا يعرف حذرأ من عدوٍ يصيب منه غرة . وقد نجته هذه الكلاب مرة من خصمه (عاصم) الخزرجي : فانه تسأل اليه ليلاً يريد الفذك به وجعل يرمي للكلاب تمرأ فوقفت ساكنة فاحس (أحيحة) بالشر وأسرع الى حصنه تحت وابلٍ من السهام . وهكذا نجا من الموت الزؤام .

هذه عناية (أحيحة) بتشيد الابنية اما عنايته بانشاء المزارع والبساتين فعظيمة ايضاً : قالوا كانت له مزرعة تسمى (الزوراء) وأخرى اسمها (الغابة) . وكان له في (الجُرُف) وهو موضع على ثلاثة اميالٍ من المدينة لجهة الشام أصوارٌ من نخلٍ قلَّ يومٌ يمر به الا يطالع عليه . والاصوار جمع صور وهو النخل الصغير . ومعنى انه صغير ان جنسه

صغير . او انه فسيلٌ يُزرع ثم يُنقل من منبته الموقت الى مغرسه الدائم ؟

ومن شعر (أحيحة) في مزرعته (الزوراء) :

(كل النداء اذا ناديتُ يخذلني الا ندائي اذا ناديت يامالي)

(اني اقيم على الزوراء اعمرها ان الكريم على الاخوان ذوالمال)

(اسلفن اومت لا يفررك ذو كسب من ابن عم ولا عم ولا خال)

ولما زار الوليد بن عبد الملك المدينة سأل عن الزوراء هذه وانشد الايات . فدلوه

عليها فقال : (ان ابا عمرو يراه غنيابها) فحبب الناس من معرفة الوليد باخبار العرب

حتى علم ان (أحيحة) يكنى (ابا عمرو)

وكان لأحيحة في مزارعه تسع وتسعون بعيراً كلها ينضح عليها اي ينقل الماء على

ظهورها الى مزارعه وبساتينه . والبعير الذي ينقل الماء يسمى (ناضحاً) ويسمى ايضاً

(سانية) ومنه (سبر السواني سفر لا ينقطع) . ولم يقنصر أحيحة في الزراعة على

غرس النخيل وإنشاء البساتين بل كانت له حقول يزرع فيها الحنطة بكثرة بدليل قوله :

(قد كنت اغني الناس شخصاً واحداً ورد المدينة عن زراعة قوم)

ومراده بالقوم الحنطة وهي لغة للعرب قديمة أو هي لغة بني هاشم وحكوا قولهم

(قو مو لنا) اي اجتزوا لنا خبز حنطة . ولا يمكن ان يريد (أحيحة) بالقوم الثوم

الذي هو معناه ايضاً ، لان الثوم لا تزرع منه مقادير كبيرة لغني صاحبها لعدم حاجة

الناس اليها . بخلاف الحنطة فان الناس يحتاجون اليها . فيكثر ارباب الزراعة من زراعتها

وقوله تعالى عن بني اسرائيل (واذا قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك

يخرج لنا مما ثبت الارض من بقايا وقتائها وفومها وعدسها وبصلها) اخلفوا في المراد

بالقوم هل هو الثوم او الحنطة ؟ فذهب ابن عباس الى انه الحنطة وان العرب تعرفه

بهذا المعنى بدليل قول أحيحة « قد كنت اغني الناس الخ ولا يعترض على هذا بانه

قرئ في الآية (وثومها) بالثاء مكان (فومها) بالفاء لانا نقول ان الثاء فيها مقلوبة

عن الفاء كما قلبت في (مغافير) و (جدف) فيقال فيهما (مغافير) و (جدث) .

تم يقال من جهة ثانية ان القوم قرن في الذكر بالعدس . فيكون ضرباً من القطاني

يعني الحبوب . ولم يقرن بالبصل حتى يكون اخاه الثوم .

(أُحَيْجَةُ رَجُلٌ مَالٌ)

قالوا : كان (أُحَيْجَةُ) رجلاً صنيعاً للمال . شحيحاً عليه . ومعنى قولهم صنيعاً انه حاذق بجمعهم . حريص على ثمنه وتكثيره . اذ يقال فلان صنيع اليدين وصناع اليدين يعنون انه حاذق . اما قولهم (انه كان شحيحاً) فلم يريدوا انه بخيل لا يجود بالمال . كيف وقد تقدم فيه خبره مع (تبع) انه كان يحارب عسكره في النهار . ويضيفهم بالتمر في الليل : ومراً ايضاً قول خالد بن جعفر فيه : (ومن يأتته من جائع البطن يشبع) . فلا جرم ان يكون المراد بكونه شحيحاً على المال انه حريص عليه فلا يدع شيئاً منه يذهب سدى من دون ان يستثمره وينتفع به . وهذا هو الاقتصاد او التدبير المنزلي بعينه . وروى انه دخل جائطاً له فراى ثمرة ساقطة فتناولها فعوتب في ذلك فقال : (التمرة الى التمرة تمر فذهب قوله مثلاً يضرب في استصلاح المال .

ومما قالوه عن « أُحَيْجَةُ » انه كان يتبع بيع الربا في المدينة حتى كاد يحيط باموال أهلها . اي انه كاد يستولي على اموالهم بتواتر الفائدة وفائدة الفائدة . ومن هذا تعرفون مقلوبة الرجل ومهارته في كسب المال والاحتياال على جمعه . ومثله في ذلك كثير من سادات العرب واثرافهم في المدينة ومكة قبيل البعثة : فقد اكثروا من المرباة حتى كاد الفقراء يهلكون . ولم يكن احد يقرض الفقراء قرضاً حسناً لوجه الله . بل كانوا اذا طلبوا قرضاً من غني طلب منهم الفائدة بطريقة الربا . وكانوا اذا حل الاجل وعجزوا عن الاداء يقول المرابون لهم : نؤخر لديكم المال وزيدونا في فائدته . فما كانت تمضي سنون حتى يهجر هؤلاء المساكين عن الاداء فيضع المرابون الاغنياء يدهم على عقارهم واموالهم ويستصفونها لانفسهم . حالة مزعجة مخربة للعمران . مقوضة لراحة بني الانسان . جاء الاسلام فانكرها على ذويها . ونهى عليهم فعلهم وقسوتهم . وحضهم على الرفق بالفقراء ورحمتهم . وان يقرضهم القرض الحسن . وبذلك يعتدل الميزان . وتهبداً الاحقاد والاضغان .

فالربا في الجاهلية كان مداره انظار الغني طروء حاجة على الفقير وثروبة ضائقته المالية . حتى اذا سنحت له الفرصة استغل هذه الحاجة والفقير من دون رحمة ولا شفقة .

ومن العجائب ان يكون الفقر مصدر الغنى : فتبصرُ بِمُتَّحِاجٍ فيقصد غنياً يشكو له او ليسنقرض منه فينتهز الغنى الفرصة فيدينه بالربا ثم يحل به كل سنة الى ان يُترب ولا يبقى عنده شيء . فما أعدل الاسلام وما أرحمه من حرِّم الربا . وانقذ هؤلاء المساكين . من براثن اولئك البغاة الظالمين .

هنا أهبها السادة نختم القول عن حياة (أُحْيِمَةُ بْنُ الْجَلَّاحِ) الذي تبين لكم بحق انه رجل حرب وشعر ومال وعمران في آن واحد .
ومها ممحوت لكم ايها السادة ان تنسوا شيئاً من محاضرتي لا أسمعكم أن تنسوا (سلى الحزرجية) التي تدأت من ثمرات الحصن الشامخ . وخاطرت بنفسها زاهدة في زوجها وابنها والثروة التي كانت تعيش في ظلها . كل ذلك من اجل سلامة قومها . ونفضيل مصلحتهم على مصلحتها . فعليك ان نقفوا بها في حب وطنكم . لاسيما انها ليست عربية عنكم . بل هي جدة نبيكم .
(المغربي)



كيف تحقق الآثار التاريخ^(١) ؟

جزئيات المحاضرة

التمهيد — ماهو علم الآثار — ما هي انواع الآثار — كيف قسم العلماء الآثار —
ما فائدة الآثار — ما علاقة الآثار بالعلوم — هل عرف العرب التماثيل والصور —
كيف جمعت الآثار — ما هي قيمة الآثار — كيف تحقق الآثار التاريخ — الختام

تمهيد

تصفُ الدارُ لنا قُطَّانها والمعالي والمساوي والنجارا
واذا لم تدر ما قومُ مضوا فاسأل الآثار واستنبِ الديارا
لله در الشريف الرضي في قوله هذا منذ قرون اذ اُهاب بالناس ان يقتبسوا
تاريخ اسلافهم من آثارهم واطلالهم . كما فعل كثير من الشعراء والعلماء والمؤرخين
والاثريين من شرقيين وغربيين في الحث على حفظ الآثار . فهل من منكر اذن
فائدتها في تاريخ الام والممالك والبلدان ؟

وهل يسوغ لنا ان نهمل آثارنا مطروحة في الحقول والبراري والانقاض ليحطمها
الجهلة . او ينقلها غيرنا الى متاحفهم ويستفيدوا منها علماً وعملاً ؟
وهل يجوز ان نبيعها لغيرنا طمعاً في كسب دراهم تافهة ليزينواهم متاحفهم متجربين
بها وراغبين اموالاً طائلة ونخسر نحن فوائدها التاريخية ؟

وهل يُعد كلفنا بجمع الآثار واحرازها بدعة كما يتوهم بعضهم وتلك آثار مصر
والمغرب والقدس والاناضول والآستانة تملأ المتاحف وكلهم من جنسنا الشرقي ؟

(١) المحاضرة التي القاها الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف في ردهة المجمع

الكبرى يوم الجمعة في ١٣ تشرين الاول سنة ١٩٢٢ الساعة الرابعة مساءً .

وهل يبرئ لنا التاريخ من هذا التقصير وقدمر علينا الدهر باحقابه المتطاولة ونحن
معمولون هذا الأمر الخطير ؟

وهل يصح لنا تاريخ او يعرف لنا شأن او تذكر لنا حضارة اذا لم تؤيد آثارنا اقوال
كتابنا عنها ؟

وهل تبقى سوريا المحبوبة بلامتحف يجمع عادياتهاو يستقدم اليها السياح والمفرجين
وفيهما من آثار المدنية ما فيها ؟

وهل ٠٠٠ ؟ وهل ٠٠٠ ؟

لا لعمرى لا يسوغ لنا -ي- من ذلك لان الآثار تحقق التاريخ وثبت ما كان
صحيحاً منه ونقض المكذوب فيه .

ما هو علم الآثار ؟

الآثار لغة ما بقي من رسم الشيء . والرسم هو اثر الدار ونحوها من الأعيان
المشخصة . فيكون الآثار ما بقي بعد الداهيين . واصطلاحاً هو ما تدرك به شئوون
الأمم البائدة او القديمة اما من ابدية شيدوها او صناعات انقنوها او تماثيل نحتوها او
كتابات نقشوها او نقود صكوها او اختراعات ابتكروها او علوم دوتوها او فنون
اهتدوا اليها او كتب خطوها ونحو ذلك .

فيدخل تحت الابنية المدن والهياكل والصروح والمدافن . وتحت الصناعات
التماثيل والنقوش والاواني والاسلحة . وتحت الكتابات ما على الصخور والفضار
(الأجر) والصفائح المعدنية او العظمية او الردية او الرقية من الانباء . وتحت
النقود ما عرف من انواعها وصورها واجناس معادنها وطرق صكها واساليب طرازها .
وتحت الاختراعات ما عرفوه من آلات وادوات ونحوها . وتحت العلوم مادوتن على الفضار
والبردي وفي الكتب من معارف الدارجين . وتحت الفنون ما عرفوا من التصوير
والموسيقى ونحوهما . وتحت الكتب ما تركوا لنا من المخطوطات على اختلاف انواعها
واساليبها ومباحثها سواء كانت بسيطة الخط او جميلة منقنة التجليد او مهملة .

فغاية علم الآثار اذن معرفة آداب من تقدمنا واستطلاع اخلاقهم وتادياتهم

وصناعاتهم واديانهم وخرافاتهم ومعارفهم . وبالجملة كل ما يعزى اليهم وينتقل بهم مما يميظ النقاب عن الحقائق الغامضة ويبدد غيوم الاوهام والخلط في المباحث التاريخية التي هي صورة الانسان المعنوية فلا يسوغ ان تشوه او تحسن بل يجب ان نقل كما هي لا كما يجب ان تكون. مثلاً ينقل المصور الشمسي صورة الانسان الحي فيمثل به بلامحه الطبيعية ومميزاته الخلقية حتى لا يشك من يراه انه هو هو بعينه ومشخصاته والآ ضاعت الاصول وفسدت الحقائق والتبست الاعيان .

فالآثار انما هي السنة قوم قد مضوا تصرح بحروف غير مكتوبة احيانا عن عمرانهم وذكائهم وصناعاتهم وما كانوا عليه من بسطة العيش او شظفه والعمران او الانحطاط الى غير ذلك من التطورات .

فلنا بالآثار عبر لنقندي بن احسن العمل ونعرض عن اساءه ولنستفيد من المجتهدين والمتدنين حضارة نضمها الى ما عندنا ونربأ بانفسنا عن الكسل والاهمال لانها آفة البشر وعامل التأخر .

وسمي العالم بالآثار (أثرياً) . وعرف علم الآثار عند الافرنج باسم (Archéologie) اركيولوجي وهي كلمة يونانية مركبة من لفظتين (أرسيو) اي الآثار و (لوجيا) اي الكلام فالمعنى (البحث عن الآثار) ومنها استنقت بقية الصيغ .

اما كلمة (Antiquité) اي انتيقيته فهي لاتينية بمعنى شيء قديم فلذلك وضع لها المرحوم الشيخ سعيد الشرتوني كلمة العادي والجمع العاديات نسبة الى قبيلة عاد العربية المنقرضة لانها آثار المنقرضين . وقد شقوا منها الفاظاً في اصطلاحاتهم للتعبير عن هذه الاشياء . كما اخذنا نحن مستنقات مختلفة من تلك الأصول .

ما هي انواع الآثار ؟

لاخفاء ان من الآثار ما هو معروف وموجود مثل ما اكتشف ويكتشف . وما هو معروف غير موجود كمنقود ملوك الرعاة المصريين المعروفين بالمكسوس . وكنقود

الفينيقيين وكتاب سنكلياتون اقدم مؤرخ مدني في العالم يعاصر موسى النبي . وكتابوت العهد الاسرائيلي ونحو ذلك .

ومنها ما هو نادر الوجود كآثار ادوم وموآب ونقودهما ونقود تيطس قيصر النحاسية التي صكها في اورشليم تذكراً لانتهاده يوم حاصرها ولم يقف الاثريون الا على بضع قطع منها في متاحف اوربة

ومنها ما هو كثير الوجود كنقود الاسكندر وهذه اكتشف بعضها الدكتور جول روفيه الفرنسي وكنقود قسطنطين الملك ونقود الرومان والمومياء المصرية واشباهها .

كيف قسم العلماء الآثار ؟

اقد قسم الاثريون علم العاديات الى قسمين (احدهما) بالنسبة الى القبائل واللغات القديمة و (الثاني) بالنسبة الى الزمان . فمن (اقسام الاول) آثار المصريين والفينيقيين والآشوريين والبابليين والكلدانيين والفاستينيين واليونانيين والرومانيين والعرب والصليبيين والبندقيين والعثمانيين . ومن (اقسام الثاني) اقدم العصور المعلومة مثل عصر الحليقة الى زمن موسى النبي سنة ٢٥٠٠ ق م والعصور القديمة كالفينيقية والآشورية والمادية والعبراية والهندية واليونانية والرومانية والعربية الجاهلية . والعصور المتوسطة كالقيصرية الشرقية والمغولية والغوتية والعربية . وكالعصور المتأخرة كالصليبية والبندقية والافرنجية والعثمانية .

وفي كل منها بحاث . مستفيضة وتفاصيل . افية في الكتب والمجلات والجرائد عند الافرنج .

ما فائدة الآثار ؟

ان للآثار اليد الطولى في تبيين التواريخ القديمة وتحيص الآراء المضطربة وكشف الحقائق الغامضة ومعرفة صناعات القدماء وشؤونهم .

فلولاها لما حققت كتابات قدماء المؤرخين مثل هيرودوتوس اليوناني وسنكلياتون الفينيقي وما نيثون المصري وبيروسوس الكلداني ويوسيفوس العبراني وسالسته الروماني وديودورس الصقلي وفيلون الجبيلي . والتوراة . والتواريخ الاخرى كاستري .

ما علامة الآثار بالعلوم ؟

ان البحث عن آثار الانسان القديمة قبل زمان التاريخ يسمى علم الاركيولوجية و يجمع بين الجيولوجية اي علم طبقات الارض وبين التاريخ . والبحث عن الصور والرموز الأثرية يسمى الايكولوجية . والبحث عن التاريخ والآثار ما يسمى علم الانثروبولوجية اي علم طبائع البشر . والبحث عن الآثار الانسانية الكليولوجية . وسرد الحوادث بحسب وقوعها الكرونولوجية . والبحث عن النقود و صكها النوميسماتيك . والبحث عن الاحافير وما فيها من الآثار علم البليوثولوجية اي علم الرفات . والبحث عن خصائص الشعوب الايتنوغرافية . والبحث عن الديانات والعبادات علم الميتولوجية الخ . وبحسب هذه العلوم والآثار قسمت اعصر التاريخ الى ثلاثة (الاول) وهو العصر الطري اي الحجري الصواني و (الثاني) النحاسي و (الثالث) الحديدي . وعرفت فلسفة التاريخ او التاريخ الفلسفي وهو ربط الاسباب بالنواميس العامة في البشر والطبيعة . وفتح التاريخ بحسب الشؤون والابحاث والمواضيع الى فروع لا تحصى الآن لسردها . ولكن التاريخ كيفما كان لا غنى له عن علم العاديات والاحافير لانها اركنه التي يعتمد عليها .

ومن احسن ما قيل في تأثير التاريخ على الانسان كلام الامام البخاري المؤرخ الشهير : « من حفظ التاريخ زاد عقله . ومن نظر في وقائع الزمان هانت عليه محبته » . فالعلوم المساعدة للتاريخ اذن هي : علم الآثار . والكتابات الخبرية . والمخطوطات القديمة . وعلم الاوقات . والجغرافية . وانتقاد المصادر اي فلسفة التاريخ وغيرها .

هل عرف العرب التماثيل والصور ؟

عندنا ادلة كثيرة على ان العرب عرفوا التماثيل في اليمن وغيرها و وضعوها في قصورهم من انسان وحيوان . واشتهر بها الفرس والاندلسيون وصوروا النقود ولا سيما في عهد السلاجقة وربما كان اقدمها ما صك سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠٠ م) وعليه صورة فارس مثقنة . وقد ذكر بول كازانوفا : ان احد سياح العرب في آخر القرن التاسع للميلاد شاهد في الصين وغيرها صورة النبي محمد (صلم) وكبار رجال الاسلام . وكان التصوير البيزنطي

شائعاً في الدولة الاموية ومنه الفسيفساء . وذكر المقرئ يزي: الصور الاسلامية بتطويل ولا سيما في زمن الفاطميين وعدد اسماء المصورين ومنهم احمد بن يوسف ومحمد بن محمد الملقب كل منهما بالمصور وابن خرج البلنسي سمي بالذهبي لان جده كتب وصور بالذهب . وذكر ان شجاع الدين بن ضياء صاحب السلطان بپرس قد حمل الى بركة امير المغول لما سار بسفارة اليه ثلاث صور صنع يده تمثل هيأة الحج . ومن نقوشهم البديعة المخططات (الخارطات) ونقوش المرايا العربية وصور الافلاك والاسطرلابات وكتب مناسك الحج صوروا فيها الكعبة وغيرها وكذلك المعراج وميزان الشعراني ودلائل الخيرات وفي مكتبتي بعضها وفي المكاتب كثير منها .

ومن الدواوين العربية (ديوان الصباية للتلساني) رأى منه نسخة فيها صور ابناء الامراء الاستاذ العلامة المرحوم الشيخ طاهر الجزائري وفي مكتبة باري (المقامات الحيرية) بخط يحيى الواسطي سنة ٦٣٤هـ (١٢٣٦م) فيها صور بديعة يمثل بعضها جيش العباسيين يحملون العلم الاسود وينفخون بابواق فارسية ضخمة . وبعضها رعييل جمال امامها راع . وبعضها صور نساء ورجال امام قصر فخم ورسم آخر يمثلهم تحت شجرة وعندى بعض امثالها منقولة بالتصوير الشمسي عن كتاب الفنون العربية في المدرسة الشرقية في زحلة نشرت بعضها في مجلة الآثار في مقالة (التصوير في الكتب) ومقالة (المرايا عند العرب) والباقي معدة للنشر .

وذكر ياقوت في معجم البلدان قصر المتوكل المسمي (المختار) كانت فيه صور بينها صورة بهمة فيها رهبان واحسنها صورة شهر البيعه حتى قال الواثق يصفها :
ما رأينا كبهجة المختار لا ولا مثل صورة الشاهر
ووجدت ثياب وطنافس قديمة عربية منقوشة عليها رسوم حيوانات وآدميين وبعضها قبل الاسلام .

وصوروا في قصورهم الجيوش المتحاربة ونحوها كما في لسان العرب موصوفة بقول شاعرهم :
فيه الغواة مصورو ن فاجل منهم وراقص
والفيل يرتكب الردا ف عليه والاسد القصاص
وقول ابي الصلت امية الانداسي في وصف قصر (منازل العز) المصري :

وبارجائه مجال طراد ليس لنفك من وغى خيلاء
 تبصر الفارس المدجج فيه ليس تدمى من الطعان قناه
 وترى النابل الموصل للزرع - بعيداً من قرنه مرماه
 وصفوقاً من الوحوش وطير الجوكل مستحسن مره
 سكنت تحالها حركات واختلاف كانه اشباه
 ومما يدل على نقودهم المصورة قول البيغاء في نقود سيف الدولة المهداة اليه :
 نحن بجود الامير في حرم نرتع بين السعود والعم
 ابدع من هذه الدنانير لم يجر قديماً في خاطر الكرم
 فقد غدت باسمه وصورته في دهرنا عوذة من العدم
 وفي بعض المتاحف تماثيل من صنع ملوك الاسلام منها في بيزا بايطالية تمثل مديع
 النقش من صنع الفاطميين في مصر .
 وفي معجم البلدان ان اوس بن نعلبة التيجي صاحب قصر اوس في البصرة كن نادماً
 الى الشام فمر بتدمر فاعجبته فيها تماثيلها وحرك قريحته تماثلاً جاريتين من حر فقال :
 فتاتي اهل تدمر خيراتي اما تسأما طول القيام
 قيامكما على غير الحتايا على جبل اصم من الرخام
 فكم قد مر من عدد الليالي لعصر كما وعاء بعد نام
 وانكما على مر الليالي لابقى من فروع ابني بشام
 الى آخر الابيات فلما انشدها يزيد بن معاوية بن ابي سفيان في هذه العاصمة قال :
 يزيد : « لله در اهل العراق هاتان الصورتان فيكم يا اهل الشام لم يذكرهما احد منكم
 فربها هذا العراقي مرة فقال ما قال » . ولقد وصفها ابو الحسن العملي بقوله :
 ارى بتدمر تماثيل زانهما تائق الصانع المستغرق الفطن
 هما اللتان يروق العين حسنهما يستعطفان قلوب الخلق بالفتن
 وقال البحري في وصف صور ايوان كسرى في المدائن من قصيدة بدبعة :
 فاذا ما رأيت صورة انطاكية ارتعت بين روم وفرس
 والمنايا موائل وانوشروان يزجي الصفوف تحت الدرس

تصف العين انهم جد احيا لهم بينهم اشارة خرس
بغثلي فيهم اريسياتي حتى نلقاهم يداسي بلس
ونال ابو عمران الكردي في شمال ابرويز ملك الفرس ممتطياً فرسه شديز وقربه
حار يته شيرين بالوان بدبعة :

دهم نقرأوا شديز بالصدار عبدة وراكبه برويز كلبدر طالع
تلاحظه سيرين والخط فائن وتعطو بكف حسنتها الاشاجع
يدوم على كراجلديدين تنخصه ويبقى قويم الجسم واللون ناصع
وقال شاعر اندلسي في شمال جري كن في حمام التطارة في اسبيلية :
ودمية مرمر تزهو بحيد لناهي في التورد والبهاض
لما ولدت ولم تعرف حليلا ولا ألت باوجاع الخاض
ونعد انهما حجر وكن تينا بالحافظ مرض
وقال التطيلي الاعمى في اسد يمج الماء من فيه في بركة :

اسد ولو انا قشه الحساب لقلت صخره
فكأنه اسد السما يمج من فيه الجره

ونال صاعد اللغوي في صورة حارية في سفينة تجذف :

واعجب منها عادة في سفينة مكلة يهفو اليها المهاتف
اذا راعها موج من الماء نقي بسكنها ما اندرته العواصف
متى كانت المسائر بان مركب تصرف في يني يديها المجادف
ولم تر عيني في البلاد حديقة تنقلها في الراحتين الوصائف

وحكى ابن خردادبه عن فرس نحاس بارض الاندلس باسط يده كأنه يقول :

ليس حافي مسلك . وقال : ان في مدينة طليطلة تصاوير افراس مكتوب عليها : لانفتح
هذه الارض حتى يأتيها قوم يشبهون هذه التصاوير . وكانت تلك التصاوير تمثل
العرب على خيولهم بعائهم وقسيهم .

ومن صور اعضاء الجسم ما في مجموعة طبية في مداواة العيون في المكتبة التيمورية
نسخت سنة ٥٩٢ هـ (١١٩٥ م) بخط عبد الرحمن بن يونس ابن ابي الحسن الانصاري

في ثلثي رسائل قديمة منها تذكرة الكحالين للموصلي فيها دوائر ورسوم للعين واهمها «السابعة» وهي لحنين بن اسحق في تركيب العين وعلاؤها وعلاجها ذات خمسة رسوم للعين ملونة بديعة رسم بعضها في تاريخ آداب اللغة العربية للمرحوم جرجي زيدان .

ومن اغرب الكتب المصورة عندنا نسخة من (قانون ابن سينا) شيخ الاطباء في مكتبة السلطان محمود في الاستانة فيها رسوم نباتات واسماك وحيوانات نسبت في القرن الخامس للهجرة . (وعجائب المخلوقات) للقزويني رأيت منذ بضع عشرة سنة في دمشق في مكتبة آل الايوبي وهو مصور بالوان بديعة وقد طبعت ترجمته بالفارسية على الحجر في طهران بانقان في الرسوم والخط . (مسالك الابصار في سلوك الامصار) لشهاب الدين احمد الكرمانلي العمري المعروف بابن فضل الله من اهل القرن الثامن للهجرة وهو جزآن في الحيوان والنبات ووجد منه نسخة منقنة في دمشق بصور ملونة بالوانها الطبيعية كانت عند صديقي جرجس بك صفا في لبنان . (حياة الحيوان الكبرى) للدميري من اهل القرن التاسع للهجرة منه نسخ مصورة تميز الحيوانات وبعض الادميين وطبع في العجم مصوراً .

وذكر ياقوت الرومي الحموي في معجم الادباء (اي ارشاد الارباب الى معرفة الاديب) ما نصه : «وكنيت سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠ م) قد توجهت الى الشام وفي صحبتي كتب من كتب العلم ائجر فيها وفي جملتها كتاب (صور الاقاليم) للبلخي نسخة رائعة مليحة الخط والتصوير فبعتها من الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف بن ايوب صاحب حلب بتجهير المشتري من غير كسب » اهـ .

وفي مكاتب باريز و بطرسبرج وغيرها كتب عربية ورسوم رجال يرمون النفط وصورهم بانقان وتلوين . ومنها (كتاب الكواكب والصور) لابي الحسن عبد الرحمن الصوفي من اهل القرن الرابع للهجرة واخه المصورة المثقنة في باريس و بطرسبرج والاسكوريال واكسفورد . وادق نسخة في كوبنهاغن وهي ملونة الرسوم وكواكبه بهيأة ما تمثله من ادميين وحيوانات وطيور بالوانها وطبع في روسيا بدون تلوين ورأيت منه نسخة في المكتبة الاحمدية بحلب سنة ١٩٠٩ م وقد كتبت ١٠٠٥ هـ (١٥٩٦ م)

وفي المكتبة الظاهرية بدمشق قطعة من مخطوط قديم في علم الخليل وفيه صور

بقي منها رسم الحصان بعيوبه وقد كتب مقابل كل عيب اسمه بالعربية وهو رسم جميل دقيق . وفي مكتبة مدرسة (الثلاثة الأقمار) الارتوذكسية في بيروت كتب فلكية مصورة . وفي مكتبة بطننا الهندية كتاب (التصريف في الجراحة) للشيخ أبي القاسم الزهراوي نسخ سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) وفيه صور الآلات الجراحية بانقان تام (١) ولقد ظهرت آثار قديمة في الابنية شقق معرفة التصوير عند العرب من ذلك ان الدكتور هرتسفلد من اساتذة جامعة برلين الذي نقب عن آثار الصناعة الإسلامية في العراق سنة ١٩١١ وجد في مدينة سامرا اطلال جامع بناه المتوكل على الله كما ذكر اليعقوبي وعلى جدرانها نقوش وصور ترقية بارزة وغائرة في الجص (الجصين) وهناك تصاريح ملونة في مواضع الجص المغتلة من النقوش بخلفه الألوان والأشكال بينها صور الآدميين ملونة جميلة الطراز وكذلك قصور العباسيين المصورة .

كيف جمعت الآثار ؟

دلع الناس منذ القديم بجمع آثار من تقدمهم من الأمم في متاحف وكن اليونانيون اسبق الناس الى ذلك وندوا هذا من الفنون فسمي المتحف عندهم (Musée) باللغة الافراسية و (Museum) بالانكليزية منسوبا الى (موزه) إلهة الفنون . واقدم متحف انتهى في سورية متحف بيروت بزمان اغربها الثاني الروماني انشأه في القرن الاول للميلاد في هذه المدينة السورية ونقل اليه نقائس التماثيل والنقوش والفنون الصناعية من جميع المدن السورية فاغناط منه سكان المدن الاخرى ولأموه على ذلك وكان سكان بيروت كانوا راضين عنه كل الرضى . والعرب انشأوا في دمشق متحفا بزمان الامويين لآثار القدماء معنيين بجمع آثار الادب والصناعة والدين سموه (سوق الطرائف) وكذلك كان في بغداد (سوق الطرائف) لبيع النوائس فضلا عن اسواقهم في عكاظ ومربد البصرة مما كان اشبه بالمتاحف او المعارض . واول متحف اعلنت به حكومة عربية متحف مصر بزمان الشيخ رفاعة الطهطاوي شيخ ارباب النهضة العلمية في مصر في اوائل القرن الماضي .

(١) وهو الكتاب الذي اهدي اخيراً الى خزانة مجمعنا العلمي .

وفي بلادنا انشئ متحف القدس سنة ١٩٠١ م ومتحف بعلبك نحو سنة ١٩٠٥ م ومتحف صيدا في هذه الفترة ومتحفنا هذا في اوائل سنة ١٩١٩ م ومتحف بيروت سنة ١٩٢٢ .

ما هي قيمة الآثار ؟

لا نقدر قيمة الآثار بحسب كبرها او معدنها او نقشها او جمالها او اشكالها وانما بحسب فائدتها التاريخية فمن الآثار ما هو نادر جداً فهو ذو قيمة تينة ومنها ما هو مفيد تاريخياً ومنها ما هو مفيد صناعياً ومنها ما هو مفيد علمياً الى امثال هذه الفوائد الرائعة ولولا هذه القيم لما تبارى الافرنج بنقل الآثار وحشدتها في المتاحف والاتفاق على حفظها وجمعها وترتيبها وانشاء المجلات لوصفها ووضع المعاجم لتفصيلها وتاريخها وحفظ صورها .

ففي سنة ١٩٠٤ م ظير في قرية تل المتسل التابعة قضاء حيفا من بلادنا خاتم لي سمع (اسيه ير بعام بن سليمان) من حجر اليشب نقش عليه صورة سبع فاغرافه وعلى اطرافه اسمه بالعربية وهو قبل الميلاد بنحو تسعة قرون فقدر ثمنه بخمسين الف فرنك اي الفين وخمسمائة ليرة افرسية .

وجمع احد اغنياء سان فرسيسكو في اميركة الشمالية نقوداً قديمة قدرت قيمتها بعشرين الف ليرة انكليزية منها شاقل فضة من ايام داود الملك وهو من نوادر الآثار واقدمها .

وسنة ١٨٧٧ م نقل قائم (مسلة) كايو بيرة من مصر الى لندن ونصب على خفة نهر التيمس فانفق عليه نحو عشرة آلاف ليرة انكليزية .

وفي المتحف البريطاني آثار منها جثة منكورع المصري بانى الهرم الثالث في الجزيرة قدرت ثمنها بخمسة وسبعين الف ليرة انكليزية . وشمور رشيد الذي قرئت به الهير و غليفية ثمن بعشرة آلاف ليرة . ورخامات المجلس استراها الورد ايلجن سفير انكلترة في الاستانة بسبعين الف ليرة انكليزية ثم نقلها الى لندن سنة ١٨٠٥ م وباعها الى المتحف بنصف القيمة فنسبت اليه مكافأة له .

وفي متحف براين الالماني نحو سبع عشرة جثة مصرية محنطة أنفقت الحكومة

للحصول عليها ثمانمائة الف مارك . وانفق متحف الاستانة سنة ١٨٨٧ م على نقل آثار صيداء اليه نحو عشرة آلاف فرنك .

وبيع نحو سنة ١٩١٧ م كثير من الآثار بأثمان عظيمة مثل تمثال اثينة الذي يرجع انه من نحت فيدياس اليوناني الشهير بسبعة آلاف ومائة واربعين ليرة انكليزية . وتمثال انتينوس يحمل الكاس لاريانوس بقيمة ٥٨٨٠ وتمثال هيجيه الهة الصحة بنحو ٤٢٠٠ ليرة وكأس خزفية كانت للملك هنري الثاني بقيمة ٣٧٨٠ ليرة وتمثال امرأة يونانية مما كان يوضع في المعابد تذكراً بتمن ٣٥٢٠ ليرة .

وفي صيف سنة ١٩٢٢ م تمت مجموعة النقود القديمة التي كان يحرزها (دوق) كيارا بنصف مليون فرنك تقريباً وعدد النقود المجموعة لا يتجاوز ألفاً ومائتي قطعة فقط .

وفي صيف سنة ١٩٢٢ ايضاً بيع بالمزاد في متحف القس مكروغور تحفة مصرية هي رأس صغير للملك امنمحات الثالث من الدولة الثانية عشرة وهو من السبع (الحجر الزجاجي الاسود) بقيمة عشرة آلاف جنيه .

كيف تحقق الآثار التاريخ ؟

من اقدم الآثار التي اتبنت العلوم والصناعات والاختراعات ما احفر من عاديات المصريين والبابليين والاسوريين والفينيقيين لتحقيق وجودها ان تلك الامم عرفت كثيراً من ذلك مثل الكبريات او العدسيات التي وجدت في اطلال بابل والخطوط الدقيقة التي كتبت على الآجر فانها تدل على اتحاذهم تلك البلورات المكبرة لهذه الغاية وعرفوا الزجاج الشفاف والظليل الملون وانقنوا التطريز والتمويه بالذهب وغيره المعروف في ايامنا بالطلاي وصقلوا الحجارة الكريمة ونقشوها بالنقان وحفروا الترع وخطوا الموتى وبرعوا بعلوم الفلك والرياضيات فقسموا النهار الى ساعات ودقائق وتوان لا تزال دستور العمل بها الى يومنا . وعرفوا السنة الشمسية والقمرية وعينوا الكسوف والخسوف واقاموا المراصد واخترعوا المزاويل وبرعوا بالطب والكيمياء . والبناء المزخرف بالنقش والحفر والتصوير واقامة التماثيل . واتخذوا المكاتب والتأليف بالعلوم ووجود المعالم المعروفة اليوم

بالانسكلو بيزيات او دوائر المعارف والمدارس العالية . ووضع الشرائع او الاشتراع والتدين بصور مختلفة الى كثير من امثال هذا .

وعثر بعض المنقبين في المكسيك (اميركا) على كتابات تاريخية تشير احداها الى اكتشاف خمسة من الكهنة البوذيين الصينيين لاميركا في القرن الخامس للميلاد فعول المؤرخون على هذا الرأي وعرفوا ان هؤلاء اكتشفوا اميركة قبل الاخوة المغرورين (Magrorim) وهم ثمانية من العرب تركوا لشبونة لاكتشاف اميركة كما صرح بذلك المؤرخ الاسباني كوندي والشريف الادريسي في كتابه نزهة المشتاق وسمي طريقهم في لشبونة (درب المغرورين) الى بومبا وذلك قبل كولمبوس بستين سنة . وكشفت كتابة اسكندرية على حجر بتاريخ سنة ١٣٦٢م تذكر ان ٣٠ رجلاً من اسوج ونروج وطئوا اميركا ووصلوا الى بلدة (ميناسوتا) قبل كولمبوس بمائة وثلاثين سنة ولكن الكتابة الاولى اثبتت ان فضل اكتشاف اميركة كان للصينيين . وربما ظير ما ينقض هذا ايضاً .

ومن اهم ما افادت الآثار التاريخ قراءة الخطوط القديمة بمعارضتها والاطلاع على تاريخ الاقوام التي طمست آثارها فكان اكتشاف بعض الآثار المكتوبة وحماها الى كروثنفند الالماني سنة ١٨٠٢م سبباً حاملاً على قراءة الخطوط المسمارية التي كثر في وادي الرافدين اي دجله والفرات . فقرئت اخبار الامم التي ملأت تلك البقاع وعرف عمرائها وتمدينها . وكان هنري رولنسون الانكليزي قد قرأ خط صخرة بيهستون المسماري في كردستان سنة ١٨٣٧ ايضاً .

وهكذا كان الحال في قراءة الخطوط الهيروغليفية اي المصرية القديمة وكشف الاستار عن وجوه تاريخ الامة المصرية ومعرفة درجة حضارتها . والفضل في ذلك عائد لثامبوليون الفرنسي الذي قرأ حجر رشيد الهيروغلبي سنة ١٨٢٢م وهو عمود منقوش بالقلم المصري واليوناني واللاتيني فحققت الآثار المكتشفة وستحقق ايضاً كل ما غمض من تاريخ المصريين وبلادهم .

وعرف من هذه الآثار وحل رموز اللغتين ان الخط المسماري له علامة تدل على الفاظ كثيرة والهيروغلبي له علامة تدل على لفظة واحدة .

واشتهر اوستن ليرد سفير فرنسه في الاستانة باكتشافاته الاشورية سنة ١٨٥٠

ولاسيما صفائح الاجر وهي نحو عشرة آلاف نقلها الى اوربة فتبارى العلماء في حلها و برعوا بقراءة القلم المسماري فاجاز المسيو بولان ناظر المعارف الفرنسية المسيو اوبرت بعشرين الف فرنك لانه نجح بقراءة اللغة المسمارية . وهكذا كانت الابحاث متواصلة في تحقيق ما غمض من توارينخ الامم القديمة بوجود آثار عمرانهم في الانقاض وعين موضع نينوى انه في محل كونيخيك في شرق الموصل الجنوبي . وكالغ في محل اخرة نمرود في جنوبي الموصل الى جنوبي نينوى .

وجاء في التوراة حادثة الخلق والسقوط والطوفان و برج بابل و يوسف في مصر و تفسيره حلم فرعون و حدوث سبع سني جوع و مثلها شيع و بناء سليمان الملك بلدة ماجدو (تل المتسلم) التابعة حيفا و حروب مواب و اسرائيل و اشور فاكشف جورج سمث الانكليزي سنة ١٨٦٧ م كتابات على الغضار تثبت التكوين والسقوط والطوفان بتفاصيل اشبه بما دون في التوراة . وسنة ١٩٠٢ م اكتشف دي ميلي شيتاغ عن برج بابل يدل على بقائه في القرن الرابع بعد الميلاد وان يختصر ملك بابل رممه في القرن السادس قبل الميلاد وانه مبني قبل ذلك العهد باثنتين واربعين قرناً و عرف ان قياسه كان غريباً فطول اساسه من جهة واحدة ١٨٦ متراً وعلوه ٢٢٥ و ساحة التي يصعد عليها اليه ذات ٣٦٥ درجة وعين محله قرب طيسفون (المدائن) و وجد الدكتور برغش سنة ١٨٩٠ م قرب الاقصر في مصر عند ثيبة حجراً عليه خطوط هيروغليفية منها كتابة لاحد الكهنة معناها : « ان النيل لم يفيض ماؤه سبع سنوات » وذلك يؤكده سني الجوع بزمن يوسف . وسنة ١٩٠٤ م اعاد الحفر الدكتور شوماخر فاظهر في تل المتسلم (اي مجدو) اطلال قصر شيده سليمان وذلك يوافق كتابات تل العمارنة في مصر : ان سليمان شيد بلدة مجدو و بنى فيها قصراً .

وسنة ١٨٦٩ م اكتشف المسيو غانو قنصل فرنسه في القدس حجر دهبون (ذيبان) قرب مادبا شرقي البحر الميت وهو من الحري (Beselet — الاسود البركاني) وعليه كتابة سامية عبرانية بحرف فينيقي من ٢٤ سطراً محفورة تتضمن سرد حروب مواب و اسرائيل على عهد يوشافاط ملك يهوذا و يورام ملك اسرائيل (٤ مل ٣ : ٤) كتبت سنة ٨٩٦ ق م فنقلت الى فرنسة .

وسنة ١٨٦٦ وجد جورج سميث الانكليزي كتابات على الاجر من عهد شلمنصر الثاني تؤذن بخبر حربه مع حزائيل ملك الشام .

وسنة ١٨٧٤ م بحث الدكتور شليمان الالماني الاثري عن اطلال طروادة قرب جبل اولمبوس في بروسه فوجد مدينة محترقة وعثر على قبر اناخمندون في ميسينا . وشاهد كثيراً مما يؤيد قول اوميروس في الياذته .

واكتشفوا منذ بضع سنوات قرب بورديو (فراسه) ناووساً رومانياً من القرن الاول للميلاد ففتحوه ووجدوا هيكل عظام بالية واناخزفياً سورياً فيه حمر فاستدلوا منه ان العلاقات التجارية كانت متصلة بين اوروبة وسورية في ذلك العهد .

وسنة ١٨٧٩ - اكتشف الدكتور شليمان في طروادة كنساً مكتوبة تدل على ان التجارة كانت رائجة بين الصين واوروبة قبل الميلاد بالف ومائتي سنة . ووجد ضمن تلك الكاس نسيجاً صينياً .

واكتشف في صيداء منذ سنوات قبر الاسكندر المقدوني ونقل الى المتحف العثماني في الاستانة وبقي العلماء على شك من امره الى ان ظهر قبر هذا الفاتح العظيم في ممفيس في القطر المصري فقطعت جبهة قول كل خطيب وفسد الرأي الاول وثبت الثاني .

ولما اكتشفت اثار تل العمارنة قرب المنية في صعيد مصر سنة ١٨٨٨ م وهي سجلات

الدولتين المصرية والسورية ومراسلاتهما في ايام امينوفيس الثالث وابنه امينوفيس

الرابع قرأ الاثريون اسماء مدن سورية قديمة لاتزال على حالها الى يومنا مثل عكا

وصيدونا (صيداء) وصورتي (صور) وبيروتا (بيروت) وحبله (جبل) واروادا

(ارواد) ودمسقا (دمشق) وقطنا (قرب دمشق) فضلاً عن الاعلام اللبنانية مثل

البترون وجونية وشكه والاعلام البقاعية مثل ستوره ومكسه فتبت قدم هذه المدن

وسنة ١٨٨٠ م ظهرت اثار بواسطة تقب المستر سمبسن المرافق للجيش الانكليزي

الى وادي جلال اباد في افغانستان دلت على انه كان في ذلك الوادي قديماً من

المتزهدين البوذيين اكثر من عدد سكانه اليوم .

واستدل هذا الاثري من نقود رومانية وحدها هناك ان بلاد الافغان كانت

في القرون الماضية طريقاً للتجارة من واسط اسيا الى بلاد الهند .

واستخرج الاستاذ سنفنسن اثاراً قديمة من بلاد المكسيك الجديدة في الولايات المتحدة بينها صنمان مجنحان مصرياً الشكل وآثار أخرى تشبه اثار الشرق القديمة . وكلها دلت على شؤن تاريخية جديدة كان المؤرخون في ريب منها فتحقق لم امرها . وذكر بروشيوس المؤرخ الكلداني من اهل القرن الرابع قبل الميلاد ان مملكة العمالة العرب في العراق حكمت ٢٤٥ سنة وقام منها تسعة ملوك حكموا بين دولتي الكلدانيين والآشوريين وذلك من سنة ٢٤٦٠ - ٢٠٨١ ق م . فبقي قوله مشكوكاً فيه الى ان كشف دهمرغان الفرنسي سنة ١٩٠١ م آثار سوسة بين النهرين على الآجر فنقلت الى متحف اللوفر في باريس . وظهر منها ان الدولة الساموية العربية خلفت العيلاميين واشتهر منها حامورابي وشريعته وكانت القابه « ملك بابل وسومار وعقاد وملك اربعة الارباع » . فثبت رأي بروشيوس وصح تاريخه . وهكذا قل ان الآثار المصرية حققت اخبار دولها القديمة ومنها الرعاة (الهكسوس)

الذين يرجع انهم من عمالة العرب ايضاً . فصحيح تاريخ مصر بعد اضطرابه . وهكذا كانت آثار فينيقية المكتشفة في الايام الاخيرة ناقضة لكثير من اراء رينان الفرنسي الذي جاء لبنان سنة ١٨٦٠ م وثققد آثاره والى كتابه (البعثة الفينيقية) فصحت الآثار المكتشفة ما كتبه في بعض المواضع متكهناً .

ونحو سنة ١٨٩٥ م كان الارثوذكس في قرية مادبا في فلسطين شرقي بحيرة لوط يرممون كنيستهم فظهر عند الحفر فيفساء كثيرة لم يسالوا بها اولاً فشيّدوا الكنيسة ثم بدأوا ببناء دار ملاصقة لها فظهر لم قطعة فيفساء جميلة جداً كانت من بلاط الكنيسة القديمة تمثل مخططاً او مصوراً (خاتمة) لبلادنا من لبنان الى مصر ومن البحر الى ما بين النهرين وفيها المدن والقرى وأسماؤها بديعة التلوين والرصف ولكن بعضها مهشم فبعد ان كانت مساحتها نحو ٢٨٠ متراً لم يبق منها الا ١٨ متراً سالماً تمثل بعض فلسطين وهي من عمل القرنين الرابع والخامس للميلاد .

وفيها اسماء مدن مجهولة اليوم يمكن تعيين مواقعها فضلاً عن اسمائها القديمة والحديثة باليونانية مع دقة اشكالها وابعادها واخص آثارها وبيان السهول والرعان والجبال والانهار ملونة بالوانها الطبيعية . فترى جزءاً من نهر الاردن بتمعجاته

وتعاريجه الكثيرة وفي مجراه الاسماك مع جسر شمالي اريحا الشرقي . وترى في بحيرة لوط المراكب السراعية ثم تشاهد جزءاً من الغور وفيه غرالة يطاردها اسد الى اشباه هذه المتخصصات البديعة .

وأهم ما بقي منها صورة اورشليم في ذلك العهد وتخطيطها باحيائها وتوارعها وانيتها بالوان تأخذ بمجامع الابصار رواء .

فأفاد هذا المخطط علم رسم الارض (الجغرافية) والتاريخ فوائده وضح كثيراً من الاوهام في مواقع بعض المدن والقرى واسمائها فهكذا تحقق الآثار التاريخية . وما نراه في غموض التاريخ العربي قبل الاسلام سيحلى باظهر بيان بعد حفر آثار شبه الجزيرة والوقوف على ما هنالك من الكتابات والابنية والنقود وما شاكل من الآنية والآثار والمعاديات على اختلافها . كما فعل الاساذ موزل النمساوي سنة ١٩٠٢ م باكتشافه قصر الخلفاء في صحراء البادية وقاعة العمرة وكثيراً من الاخرى والانتقاض القديمة وغيره من الاثرين والحفارين .

وسنة ١٩٠٣ م اكتشف في حوران رسوم اوراق العنب وعناقيده يقسال انها من نقش الحيرين العرب قبل اليونان والرومان فدل على صحة حضارتهم ونقوشهم . وسنة ١٩٠٣ م ظهر في المدافن المصرية بردي يحوي على قصيدة (الفرس) المسمى تيومانوس الشاعر اليوناني يصف فيها بكل دقة معركة سيلايمس الهائلة التي اندحر فيها اخسرخوس الفارسي من وجه اليونان فثبت بها صحة المعركة تاريخياً . وسنة ١٩٠٥ م ظهرت اطلال وادي موسى عند حفر الطريق للسكة الحجازية وضح تاريخ مدينة الحجر اوترا اوسالع ومن اهم تلك الآثار (قصر فرعون) و (خزنة فرعون) وغيرها مما وصفه بعضهم .

وسنة ١٩٠٨ م ظهر في مدينة جبيل اللبنانية تمثال بديع يمثل (هرمس) الذي كان عند اليونانيين اله الطرق والمسافرين والتجارة ورسول سائر الالهة وهو نفع بديع من الحجر الكاسي الصلب وربما كانت من عهد خلفاء الاسكندر وهو يؤيد ما ذكره التاريخ من حراسة طريق البحر في القديم بالهة من اشباه هذه ولا سيما عند اليونانيين ولا يزال مضيق نهر الكلب شاهداً على ذلك الى يومنا .

ونحو سنة ١٩١٠ قرى بردى مكتشف حديثا في مصر يؤيد ما في كتابي عزرا ونحميا من التوراة و ثبت صحة تاريخ العبرانيين في ذلك العهد . ومن عجيب ما رواه البردي المذكور ان ملوك يهوذا كانوا يبيعون رجالهم جنودا للمصريين و يأخذون اثمانهم خيلا . وذلك بحالف التريعة الموسوية و يدل على جور الملوك و محالفتهم للشرائع . وفيه اقوال من سفر طوبيا والامال واساطير ايزوب واسعار ديمقراطس . واغرب من هذا وجود اجزاء فيه من كتاب الحيقار المعروف عند العرب وله اقايصص عربية .

ووجد محرات اشوري في نمر (نبور) ومعه وعاء ابندر الحبوب مما يدل على انه عند الحرارة يهتر الوعاء فتسقط منه الحبة اثر الاخرى وتظمر . ونحو سنة ١٩١٢ م اكتشف هيلدرست الاميركي قطعة آجر كسب عليها حادثة الطوفان تاريخها نحو الي سنة قبل الميلاد فوافق ما فيها الى تمه ما رواه الكاهن السالي باروز ونقله عنه يوسيفوس وغيره .

ونحو ١٩٠٥ م اكتشف الدكتور سالين المسوي في تل تعنك اي مرج ابن عامر امية واواني من القيشاني والاصمي كانت تصنع في فلسطين ولا سيما في زمن الكنعانيين فبت بهذا ان القيشاني لم يكن من عمل العجم بل اقدم منهم اتصل بقاشان ونقله الدمشقيون واستعملوه ا به .

وسنة ١٩١١ م كانت حكومة اسبانية تبحث عن مدينة عربية خفيت عن الاعين آثارها فوجدوها مخمورة تحت الارض واسمها (الزهراء) وضاحتها تسمى (الزهرة) او (ايس) على بعد قبيل من قرطبة . فظهرت اطلالها البديعة ونقوشها الرائعة فثبت ما رواه التاريخ من انها موجودة لا مكذوب فيها وان فيها مدرسة كانت تمل الاحياء بالصور والرسوم وكانت الامير عبد الرحمن يعاضدها وامه المسيحية بنسبها وتدر عليها المال . ووجدوا هناك كثيرا من انواع الحرف والمخزعات والزجاج الملون من صناعات العرب في الاندلس .

وسنة ١٩١٣ م ثبت الماتريين موقع حراليس او كركيش عاصمة الحثيين على خفة الفرات بين حلب وبغداد وهي التي اشار اليها (سفر الاخبار الثاني ٣٥ : ٢٠)

يقوله : « وصعد نيجو ملك مصر لقتال كركيش عند الفرات فخرج عليه يوشيا » وكان رولنسن الانكليزي ومسبرو الافرنسي قد ظنوا منيج قرب حلب ثم قرر سكان الانكليزي وجورج سمث وطنيه انها جرابلس فحققتها الآن البعثة الانكليزية فيها ولو قرئت الكتابة الحثية لظير بهذه الاكتشافات غرائب . وكلمة جرابلس تحريف (هيرابوليس) اي المدينة المقدسة . وفي مجلتي الآثار وصف لهذه المدينة وآثارها المثبتة لتاريخها (٣ : ١٦١ و ٢٥٣ و ٣٥١) .

وسنة ١٩١٨ توفى الدكتور ريزنر الانكليزي في حفرياته في السودان المصري الى تحقيق ملوك ايتوبيه بين القرنين السابع والخامس قبل الميلاد فبعد ان كان المؤرخون لا يعرفون منهم الا ترحانا وخلفه نانوتامون اظهرت الآثار منهم اثنين وعشرين ملكاً حكموا من سنة ٦٦٨ — ٣٠٠ ق م وكشفت قبور كل منهم ومن ملكاتهم وانسابهم فتحقت سلسلتهم وعرفت أسرهم . وكذلك كان المؤرخون في ربة من امر الملك نستين فتحقق انه وجد بعد كمبيز بقرنين لا انه كان معاصره فكانت الآثار ناقضة للاوهام التي كانت في تاريخ اولئك الملوك فسدت تلة في تاريخهم ومحا اليقين الشك بشأنهم .

وسنة ١٩١٩ م أعلنت المجلات الاثرية خبر اكتشاف مهم في علم الآثار وهو ان الدكتور فردريك هروزني استاذ اللغات السامية في جامعة فين في النمسه قد اهتدي الى قراءة اللغة الحثية التي كانت قراءتها متعذرة كل هذه المدات على العلماء وما ذلك الا لعدم وجود كتابة حثية مع كتابة أخرى معروفة ليتمكن مقابلتها وحل رموزها كما جرى في قراءة الكتابة الهيروغليفية المصرية والكتابة السامرية الاشورية . فعالج كثير من العلماء حروف الحثية مقابلة ودرسا وتحقيقا فلم يظفروا منها بطائل الى ان بشرنا الصحف ان هذا الطبيب النمسي قد قرأ الكتابات الحثية ووضع فيها رسالة بين اصولها وصفاتها مما دل على ان اللغة الحثية هي اخت اليونانية من اللغات الآرية او الهندية الاوربية مثل اليونانية واللاتينية . بعد ان كان العلماء يعدونها من اللغات الحامية . وكانت الحثية مستقلة عن اللغات الهندية الاوربية اي اللغات المشابهة للاتينية والهندية الايرانية والارمنية في القرن الرابع عشر والثالث

عشر قبل الميلاد . وان الحثيين انقسم من سلالة هندية اوربية لا حاوية ولكن
امتزج بهم دم غير الدم الهندي الاوربي على طول الزمن . وان عمرانهم كان يضاهي
العمران البابلي والاشوري . وكان اول ذكر لهذه الامة الحثية سنة ١٩٣٠ ق م .
وم الذين قضوا على دولة السموآبيين التي نبغ منها حمورابي المشرع الشهير مغلوص في
العراق . وبلغت دولتهم اوج مجدها في القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد
في عهد صيلوليا وخلفائه وقد ملكوا كل أسية الصغرى حتى امتدوا الى سورية
وفلسطين واتصلوا بالقطر المصري . وان نجم مجدهم اخذ بالافول في اول القرن الثاني عشر
قبل الميلاد الى كثير من هذه التحقيقات .

وهناك امور كثيرة نحتاج في تفصيلها الى مجلدات اجتزأنا منها بهذا القدر .
ويحسن ان نختم هذا البحث بملاحظات ذات شأن في الآثار : ان المؤرخين حتى عهد
قريب كانوا قد اختلفوا بتسمية اسكندر المكدوني بذى القرنين فبعضهم قال انه
كان له حصان بقرنين . وقيل كان للاسكندر ذؤابتان مرئفتان تشبهان القرنين .
وقيل لتملكه قرني الشمس اي المشرق والمغرب . ولكن الآثار التي ظهرت فيها نقود
الاسكندر المسكوكة بعهد دلت انه صور نفسه فيها بصورة امون الذي كان يمثل
بقرنين كقرني الكبش فسموه بذى القرنين وهو اظهر الادلة على تلك التسمية .
وهكذا تاريخ العرب في شبه الجزيرة ما زال غامضاً ولا سيما في زمن الجاهلية . ومع
ذلك فان ما حققه السياح وما اكتشفه الاثريون وقرأوه من الكتابات رفع حجب
الوم عن اشياء كثيرة من عمرانها . فاكشف أرنو سنة ١٨٥٣ خطوطاً واثاراً
حقق بها اما كن صنعاء والخرربة وحرَم بلقيس ومأرب فوضع مخطوطاً (خارطة)
لآثار سدة مأرب الشهير ثم تعقبه كثيرون مثل هاليني سنة ١٨٦٩ م فاكشف
بلاد الجوف التي مر بها اليوس غالوس الفاتح الروماني . ثم اكتشف في جهات نجران
مدينة (معين) عاصمة المصينيين من دول اليمن العظيمة . وكما كثرت الابحاث الاثرية
زاد تحقيق هذا التاريخ فعرفت الآن تواريخ دولة المصينيين والسبطين والحميريين في
اليمن والانباط والتدمريين والفساسنة في شمالي بلاد العرب . والسموآبيين

او الحموريين والشميين في العراق . وايدت ما عرف عن القبائل البائدة مثل عاد وثمود وطسم وجديس وغيرها .

وهاكم الان مثالا مما حققته الآثار عن سكان بلادنا القدماء فلولا الآثار التي ظهرت في مصر ووصفت غزوة توپميس (تحوتميس) الاول ملك مصر الذي غزا سورية والعراق حيث نينوى وبابل سنة ١٦٥٠ ق م وهو من الاسرة الثامنة عشرة من الاسر المالكة في مصر - لما عرف المؤرخون ان سكان هذه البلاد القدماء هم اللوديون او الروتيون ويقال اللودانيون او الروتانيون وهؤلاء السكان الذين كانوا في هذه البلاد جميعها هم اخوة الاراميين وأقدم منهم في سكنى بلادنا . وايدت تلك الآثار القديمة ما نقلت على هيكل الكرك في مصر ايضا اذ ذكر ان توپميس الملك نحو سنة ١٦٢٥ ق م جاء سورية لندويج الروتان الذين امنعوا عن دفع الجزية اليه ضربها سلفه توپميس الاول عليهم . وظير في انتف الريطاني اثر من طيبة المصرية يمثل رجالا من هؤلاء السكان القدماء يقدمون الهدايا لفرعون او احد خاصته .

فنقض هذا الرأي قول المؤرخين ان سكان سورية القدماء هم الاراميون واثبت انهم هم اللوديون او الروتيون كما سبق في محاضرة (حقائق تاريخية) صفحة ١٥٠

الخاتمة

هذا تم من قطر ونقطة من بحر من فائدة الآثار القديمة في التاريخ لان تفصيل ذلك يحتاج الى مجلدات ضخمة ومراجعات مستمرة على ان زبدة القول ان اسفار التوراة ولا سيما اسفار موسى الخمسة منها وتواريخ المصريين والكلدانيين والاسوريين والبابليين والمصريين والحثيين والروتانيين والاراميين والفينيقيين والقرطاجيين والفلسطينيين والعبرانيين والفرس والعرب واليونان والاسرطيين والمكدونيين والعلوقيين والبطالسة والمكانيين وممالك آسية الصغرى والرومان والافرنج كلها اليوم مصححة بحسب الآثار القديمة والعماريات وربما ظير اشياء جديدة لنقض بها الآراء القديمة

وكنى بهذه العبارة الآن شاهداً عدلاً وبرهاناً دامغاً على ان الآثار القديمة ليس جمعها من الكماليات بل من الضروريات وليس في جمعها والاستفادة من درسها الا تحقيقاً للتاريخ وتجديداً لذكرى الاسلاف . . .

فاناشدكم الله أيها الكرام ان لا يذهب بعضكم مع الهوى ويرمينا باللوم لعنايتنا بالمتحف والكتبة فان في هذين ارتقاء الوطن وتحقيق تاريخه وترقية معارفه ورفع شأنه بين الامم المتقدمة .

فهبلاً نجاري الامم في حضارتها الراقية وفي شديدة الحرص على ابتياع مثل هذه النفائس ونقلها وادخالها في متاحفها حتى اننا نحتاج الى الوقوف عليها لمعرفة شؤونها .
فسلام على من اعنى بحفظ اثار بلاده وحرص على بقايا قومه الدارجين .
وسلام على حكومتينا الوطنية والمنتدبة الحرصين على احراز آثار الامة وابقاء مآثر كته
انا الايام منها محفوظاً عندنا مع ان مآثر والوقفاً منها يحوزها غيرنا وفقها الله وحفظكم
خير ذخيرة المدينة .

عيسى كندر
المستوفى



(١) العمل بالعلم

قال ابن الوردي :

في ازدياد العلم ارغام العدى وجمال العلم اصلاح العمل
وقيل في منشور الحكم : « لم ينتفع بعلمه من ترك العمل به » . وقال الفيلسوف
باكون : « من يقصر عمره في درس العلوم فهو البليد الكسول ومن يتخذها زينة
وحلية فهو المتصنع المتكلف فكمال الدرس الاختبار وكمال العلم العمل به لا الاكتفاء
بمعرفة » . وكل هذه الاقوال صحيحة لان ثمرة العلم ان يعمل به . والعالم بلا عمل
كالشجرة بلا ثمر او كالنحلة بلا عسل . وكل الفوائد التي جناها المجتمع البشري من
حدائق العلم انما جنيت بالعمل لا بالعلم وحده . فالعمل أساس التقدم والارتقاء
ووسيلة السعادة والهناء وكل أمة ليس فيها ميل الى العمل والاعتماد على النفس تبقى
منحطة شقية ولا بد من سقوطها . ان الخالق عز وجل لم يخلق الانسان للبطالة والكسل
بل خلقه للسمي والعمل . فوضعه في جنة عدن ليعملها ثم فرض عليه ان يأكل خبزه
بمرق وجهه . فالعمل اول الواجبات وهو ضروري لجميع الناس على اختلاف الطبقات
وتباين الاطوار والحالات . لا يعنى منه الا الذي أثبتته المرض ولا يستغني عنه
الا الذي لا تحبض به ولا تنبض . وذلك للاسباب الآتية :

(١) : انه قوام الحياة وقال بعضهم بل هو الحياة لان الانسان اذا انقطع عن
العمل ادركه الاجل . وقيل ان احد الاعيان سأل صديقاً له ما سبب موت أخيه
فاجاب انقطاعه عن العمل فقال السائل حقاً ان هذا سبب كاف لامانة اي انسان
كان . وقال صولون الحكيم : « من لا يعمل يجب ان يحكم عليه بالموت » وقد أصاب
بهذا القول لان الحركة والسمي من علامات الحياة ووافياتها وعدم العمل من

(١) خلاصة محاضرة للاستاذ انيس افندي سلوم القاها في ردهة المجمع العلمي

في ٢٤ تشرين الثاني سنة ١٩٢١ م .

مفسداتها ومهلكاتها ولنا في عالم الطبيعة امثلة كثيرة توضح هذه الحقيقة . فالماء المنحدر من ينبوعه متدفقاً فوق الصخور او مترققاً على حصى الاودية كالبلور يبقى صافياً لامعاً عذباً ما دام جارياً بقوة ولكنه اذا ركد أجن وأنتن وصار مأوى للحشرات القذرة والافاعي السامة . والهواء المتحرك حركة لطيفة يشرح الصدور وينعش النفوس ولكن اذا سكن فسد وتولدت فيه جراثيم الامراض . والآلات والادوات الحديدية اذا استعملت بقيت صقيلة لامعة واذا أهملت علاها الصدأ وادر كها الفناء . وكذلك الانسان اذا قام بالاعمال المطلوبة منه امتلاً نشاطاً وقوة وحفظ رونق شبابه الى طور الشيخوخة واذا ترك العمل خسر صحته وقوته وتباهه وحياته لان اعضاء مخلوقة للاستعمال لا للاهمال والاستعمال يجيئها والاهمال يميئها فالعمل احسن مقومات الحياة واجمع مقويات الصعة وافضل الواقيات من الامراض المختلفة ولو تمرّس عليه المترفون المترفون لقلت تشكياتهم من الوبالة والرهل والسمن الزائد وسوء الهضم وتمتعوا بكمال القوة والنشاط .

(٢) : انه غذاء العقل الذي يقويه وحصنه الذي يقيه فان العاكف على عمله يتحكن من زيادة معرفته وترقية ادراكه مما يكتسبه من الدربة والاختبار فيكون اقدر من غيره على تمييز الدقائق وكشف الحقائق ودفع المغارم وجرد المغانم . والذي يترك العمل ينفرغ عقله للتفكر بالجرائم والآثام وتعتريه الوسوس والالوهام فيهم في اودية الهموم وتعتلج في صدره الغموم او يسي اسيراً لهواه او يئأس من هذه الحياة فيظنير الاختلاط في عقله ورما انحر وحب العار على اهله . ان يوماً واحداً من ايام الهواجس والهجوم لا تسد على النفس من شهر عمل واجتهاد لآل الاهتمامات تنهك القوى وتسوش نظام العقل ولا شيء يحفظ ذلك النظام من التسويش غير العمل . قال جانكورت : اننا بواسطة عمل العقل نضمن راحة القلب . وروت احدى الجرائد انه عرض في فينا ذخيرة فاخرة مرصعة بالخواهر الكريمة وفي قلبها اربعة دبايس عادية ولهذا الدبايس قصة غريبة وهي ان الكونت لفسكوفي زوج صاحبة هذه الذخيرة اتهمته الدولة الروسية بكلام قاله في حق القيصر وقائلة الكلام امرأته لا هو فلم يبرر نفسه فألقاه القيصر في سجن مظلم لا يرى فيه شيئاً وابقاه فيه ست سنوات . اما هو فلما

دخل السجن وضع يده على ثوبه فوجد فيه اربعة دبائيس فنزعها منه ورمها في ارض السجن ثم اخذ يتلمسها حتى وجدها فرماها ثانية وعاد يفتش عنها واستمر يرميها ويجدها مدة الست السنوات . وقد قال في سيرة حياته ان هذه الدبائيس شغلتنى كل تلك المدة الطويلة ولولاها لجنت فلا عجب اذا جعلتها زوجتي حيلة من حلالها لانها حفظت عقل زوجها .

(٣) : انه درع الفضائل التي نقي الانسان سهام الرذائل . فان تركه وقضى وقته بالبطالة فتح اوسع الابواب للشر وتورط في احوال البذاءة والاثم ولا سيما اذا كان من الشباب الاغنياء فتجتمع فيه اسباب الفساد الثلاثة التي ذكرها الشاعر في قوله :

ان الشباب والفراغ والجدد مفسدة للمرء اية مفسده

فيتلف جسده وعقله وماله بما تجرّه تلك الاسباب من التجارب الشيطانية لاشباع الشهوات الدنية . ولذلك قال بعضهم رأس الكسلان معمل الشيطان . وقال سكوت الروائي المشهور : انه كان يطرد شيطانه ويستعيز من ابالسته بالعمل المفيد . وحكي عن ربان احد المراكب انه كان لا بدع بحارته بدون عمل لانه وجد ان البطالة تقودهم الى الخصاص . فلو كان الناس كلهم يشغلون اوقاتهم بالاعمال النافعة لما بقيت لهم فرصة لارتكاب المنكرات ولفرغت السجون والملاهي والمراقص والحانات وهربت الشياطين وعمت الفضائل العالمين .

(٤) : انه آية الشرف والنبيل وعنوان المروءة والفضل . فلا شرف ولا مروءة للبطال الكسلان ولو كان ابا قابوس او عبد المدان . فالفلاح الواقف على محراثه في حقله اعلى قدراً في نظر العقلاء من الامير الجالس على السرير المتسربل باثواب من حرير وهو بطل مكسال لا ينفع غيره بعمل من الاعمال . وقد جاء في بعض الامثال قولهم كلب يعمل خير من أسد يكسل .

ان العمل لا يحيط شأن الرجل ولا يثلم شرفه كما يتوهم بعض المغرورين بانفسهم المتفاسخين بعلومهم وانسابهم بل يزيده مجداً وكرامة فقد قام من كل أمة رجال استهروا بالعلم ورفعة المقام ومع ذلك كانوا من رجال الاعمال ايضاً . فمن اليونان

طاليس رأس الحكماء السبعة وصولون المؤسس الثاني لاثينا وهيبراتيس الرياضي وكثيرون غيرهم وكلهم كانوا يشتغلون بالصناعات ليكسبوا رزقهم . وافلاطون الحكيم المشهور كان يبيع الزيت وهو يطوف بلاد مصر وينفق مما يربحه منه .

ومن العرب ابو بكر الصديق كان بزازاً وعمرو بن العاص كان جزازاً وابوحنيفة النعمان كان خزازاً وكثيرون من امرائهم وعلماهم كانوا فلاحين او نجارين او حجارين او قصارين .

ومن الانكليز شكسبير رأس شعرائهم كان يدير الملاعب ويفتخر بادارتها وقيل ان ابيه كان جزازاً وانه هو نفسه كان يعمل في صباه على مشطاة الصوف واستحق نيوتن كبير فلاسفتهم كان مستخدماً في مضرب النقود والن الكياوي كان حائكاً . وفكتوريا ملكتهم المعظمة كانت تخطط بيديها اقمصة وترسل بها الى الفقراء مع كثرة الشواغل السياسية والاعمال الادارية التي كانت مطلوبة منها .

ومن الروسين بطرس الاكبر ملك روسيا كان يذهب متكرراً الى اوربة ويدخل معاملها تحت اسم الصانع بطرس ويتعلم الصنائع ويرجع الي بلاده ويعلم رعيته اياداً !!!

ومن الامير كيهن ابراهيم لنكن رئيس الولايات المتحدة كان دباغاً والرئيس كليفلند كان محامياً والرئيس ولسن كان استاذاً للتاريخ في جامعة مور بعد ان تعاطي فن الحمامة مدة . فكل هؤلاء العلماء والرؤساء والامراء وكثيرون غيرهم من ذوي النفوس الكبيرة والمراتب الخطيرة لم يستنكفوا من الاعمال اليدوية والاعمال العقيمة ولم يحسبوها دون اقدارهم او تالمة شرفهم بل كانوا يسرون بممارستها ويعرفون انها نافعة لهم ولاوطانهم ويحضون غيرهم على الشعور بواجب العمل والقيام به لانه آية الشرف .

(٥) : انه سلم الارتفاع الى اعلى المراتب والتربع في ارفع المناصب فكم وضع حقير نال باجتهاده في العمل رتبة امير كبير او وزير خطير وحسبنا ثبوتاً لذلك ان نذكر بعض الذين ارتقوا باعمالهم من اصول وضيعة الى مراتب رفيعة . فمنهم اللورد

لنتردن قاضي القضاة في بلاد الانكليز الذي نبغ من حانوت الحلاق . قيل انه اخذ مرة ابنه بيده وأراه دكاناً صغيراً وقال له انظر الى هذا الدكان فان ابي جددك كان يخلق فيه للناس و يأخذ اجرة على الرأس ما يساوي عشرين بارة وهذا هو فخري العظيم . ولويد جورج رئيس الوزارة الانكليزية المشهور الذي ارتقى من حانوت الاسكاف . واندروجنسن رئيس الولايات المتحدة المشهور بكاء العقل الذي بلغ مقام الرئاسة من دكان الخياط قيل انه التقى خطاباً في مدينة واشنطن واخذ يراجع فيه تاريخ حياته وكيف ارتقى من درجة الى درجة الى ان صار رئيساً للولايات المتحدة فضج الجمهور بصوت عظيم قائلين من الخياط فعداء . قال مرة بعيرني بعضهم باني كنت خياطاً ولكنني لا ارى في ذلك شيئاً من العار لانني وانا خياط كنت مشهوراً بالامانة والمهارة في صناعتي وكنت دائماً اخيط الثياب خياطة جيدة متينة وأسلمها الى أصحابها في الاجل المعين . وجيمس عارفيلد رئيس الولايات المتحدة المشهور بتبجاعته ونقواه الذي كان يتيماً فقيراً ونشأ في مزرعة حقيرة ولكنه ظل يجد في اعماله المختلفة ويرتقي من فلاح الى سائق ومن سائق الى ربان سفينة ومن ربان سفينة الى استاذ مدرسة ومن استاذ مدرسة الى رئيس مدرسة ثم عضو مجلس ثم قائد جيش ثم رئيس جمهورية فتسنى بالعمل المستمر والجد المتواصل عارب العز والمجد وبلغ اعلى ذرى النجاح والسؤدد . وكفى بذكر هؤلاء الرجال العظام دليلاً على ان العمل سبيل الارتقاء من حضيض الفقر والهوان والدناءة الى قمة الغنى والجد والعظمة ومن تتبع سير الاشراف والعظماء في كل أمة تبين له ان كثيرين منهم نشأوا من اصول وضيعة ونالوا مجدهم في الاعمال المختلفة مراتب رفيعة .

(٦) : انه سر السعادة الحقيقية فالعامل النشط سعيد وان كان فقيراً والبطال البليد شقي وان كان اميراً . سئل اديسون المخترع الاميركي المشهور ماهي السعادة ففكر قليلاً ثم قال : « هي العمل » وقال رسكن ما معناه : « احسن دواء يوصف للثقبض الصدر الكاسف البال الذي وهن من الهم عظمه وذاب من شدة الحزن جسمه ان يعمل من الصباح الى المساء فينجو من شر الحزن ويزول عنه الوهن . قال احد الفلاسفة : « السعادة بثلاثة اشياء — شيء عمله وشيء تحبه وشيء تأمله » . وقال احد الافاضل

بعد ان اختبر احوال البشر : « جبت البلاد وشاهدت صنوف العباد فلم ار اسعد ممن تحسن يده عملا او توجد شيئا جديداً فهذا الذي يحصل على مقومات الحياة و يفرح بعمله . نعم ان اكثر العملة ليسوا اغنياء لكنهم يسرون كالاغنياء بحصولهم على ما يحتاجون اليه و يفوقونهم مسرة بابتهاجهم بالنقان اعمالهم ولذلك نراه يواظبون عليها بلا ملال و يودون ان تطول ساعات النهار كي لا يتركوا تلك الاعمال . »
والخلاصة انه ليس للناس في الشيبة والتسوخة احسن من العمل يسلون به آلام هذه الحياة وارزاءها و يزيلون به همومها وشقاءها وقد تبين ان في الاعمال على اختلاف انواعها سلوى لا توجد في شيء من لذات البطالة والكسل وان الكسل يتعب اكثر من العمل بل ان العمل يجدد الشيبة و يبعد التسوخة و يطيل العمر بما يشته في نفس العامل من اللذة والسرور وبه يعرف الانسان معنى الحياة ومعنى الراحة والسعادة فلا تكون حياته نافعة ولا صالحة ولا شريفة ولا سعيدة الا اذا انزله عن البطالة والكسل وقرن علمه بالعمل . ومع ان هذه الحقيقة واضحة كالشمس لسي عينين نرى الناس يختلفون في مراعاتها وهم بهذا الاعتبار اربعة اقسام :

الاول -- الجهلاء البطالون وهم الذين لا يعرفون علما صحيحا ولا يأتون عملا مميذا وانما تنقضى عليهم الاوقات وهم متجولون في الاسواق والطرقات او منغمسون في التسرور والمنكرات او مواظبون على المراقص والحانات او منفخرون بالمظالم والتعديبات فيعيشون كاضوري الحائلة في الدار و ينفقون مما ورتوه عن آباءهم من الاموال او سلبوه من غيرهم بالغش والاحتيال او النهب والاحتلاس او التسول والالتماس فهم ادنى من الحيوانات الداجنة التي يستعملها الانسان لركوبه وحمل اتقاله او مساعدته على القيام باعماله لان لهذه الحيوانات مافع حمة ومالاولئك الهلة البطالين سوى الاضرار ولا فائدة لهم من الحياة الا القضيحة والعار فخير لهم ان يكونوا جثثا هامة او خشبا مسندة او قطعاً من طين من ان يكون علقا او عقارب او افاعي او تياطين .

الثاني - المتعلمون البطالون وهم الذين يتخرجون في المدارس العالية او الجامعات من فتيان وفتيات و يدرسون العلوم والفنون المختلفة ولكنهم لا يرغبون في عمل ولا يلتذون الا بالكسل مكشقين بنيل التهاديات مزدريين بالحرف والصناعات متسرلين

بالكبرياء والخيلاء مترفعين عن طبقة العمال البسطاء مزججين اوقاتهم بالثوباء والمطوآء فيتردد الفتيان منهم بلا عمل على بيوت الاغنياء والعظماء ويتوقعون الرزق بلا سعي ولا عناء ويرفلون بلباس العلماء وهم افرغ من حجام سابط وافلس من بن المذاق . وتقتصر الفتيات على التباهي باحراز المعارف العديدة والاستنكاف من الاعمال البيتية المفيدة واتباع الازياء الجديدة ويشغلان الاوقات الطويلة بارتداء الاتواب الجميلة ويحملن آباءهن او ازواجهن النفقات الثقيلة وربما كانوا من اهل الصناعات الذين لا يفضل دخلهم عن الاقوات . وكل هؤلاء المتعلمين والمعلمات البطالين والبطالات لا تقل اضرارهم عن اضرار الكسالى الجهلاء بل ربما كانوا اوفر منهم اضراراً اذا اكثر اوزاراً لانهم اقدر على الافساد والايذاء واخبر بضروب الحبث والدهاء واعرف بوسائل الشر والشقاق واساليب الخداع والنفاق مما كتسببوا من انواع العرفان التي تقوي المدارك وتشد الاذهان . ولقد صدق من قال نسر الفتيان المتعلم المتبطل المتفاسف المتعطل .

الثالث — الجهلاء العاملون وهم الذين لا يعرفون شيئاً من العلوم العصرية ولا المسائل الفنية لكنهم يعكفون على الاعمال بهم لا تعرف الملأل ليحصلوا رزقهم ورزق العيال وهؤلاء اقل ضرراً من الفريقين الاولين لانهم لا يحبون الكسل ولا يستكفون من العمل ولا يطمعون في اموال الناس ولا يستعملون العش والاختلاس وانما تبقى اعمالهم خالية من الاتقان بادية النقصان غير خارجة عن حد التقليد ولا مزينة بطلاوة الجديد لجهلهم الفنون التي تمكنهم من الاحكام والابداع والنفن والاختراع فتمر عليهم السنوات واحوالهم المدنية لا تتغير وطرق معاشهم لا تتحسن ومن قابل بين الفريقين الذين اخترعوا اعجب الآلات الزراعية والصناعية واكبر السفن والقطرات البخارية والسيارات التي تسابق الرياح والطائرات التي تحلق فوق كل ذي جناح — والشرقيين الذين لا تزال آلاتهم وادواتهم الزراعية كالخارث والمناجل والنوارج ومركباتهم التي تجرها الثيران كما كانت عليه من قديم الزمان عرف السبب في تأخر الشرقيين انما هو جهلهم وان كانوا عاملين . فالعمل وان كان ضرورياً وشريفاً لا يغني عن العلم ولا يضمن الترقى نلامه ما دامت غارقة في لجة الجهل .

الرابع — المتعلمون العاملون وهم الذين طبقوا حياتهم على المبادئ الشريفة التي تعلموها وبرهنوا على صدق اقوالهم بحسن افعالهم وخدموا شعوبهم واطمانهم بمعارفهم المختلفة وافادوا العالم كله بما توصلوا اليه بعلومهم من الاعمال العظيمة وما القوه من الكتب النفيسة وما اخترعوه من الآلات النافعة وما اكتشفوه من الاقطار الشاسعة والادوية الناجمة كالفارابي وابن سينا وابن رشد وابن زهر واثابت بن قرة وغيرهم من علماء الشرق وكولمبوس وباستور وكوخ وجنر واديسون وغيرهم من علماء الغرب . هؤلاء هم العلماء الحقيقيون الذين طبقت شهرتهم الآفاق وخلدت اسمائهم واعمالهم في بطون الاوراق وعمم فضلهم القريب والبعيد واكتسبوا الثناء الطيب والذكر الحميد . الى امثال هؤلاء الرجال العاملين تحتاج الامة السورية في هذا العصر وباعمالهم الجليلة ترتقي وتنال العز والفخر . ان الجهلاء البطالين قدأوهنوها وأخروها والعلماء الكسالى قد افسدوها ومزقوها . والجهلاء العاملين لم يستطيعوا ان يرقوها . فلم يبق لها أمل الا في المتعلمين العاملين الذين عليهم يتوقف رفع شأنها وثبتت أركانها . ان سورية اجود البلاد هواءً واعذبها ماءً واطيبها تراباً واكثرها إخصاباً وقد كانت في ما سلف من الازمان مأهولة بألوف الألوف من السكان الذين سبقوا الى المدينة والعمران . واشتهروا بالفضل والعرفان . وكانوا ذوي عز وسطوة ومجد وثروة لانهم كانوا يعملون بعلمهم في الزراعة والصناعة والتجارة والادارة فكانت ارضهم نفيس لبناً وعسلاً وكانت مصنوعاتهم الذهبية والفضية والنحاسية والحديدية والزجاجية والخشبية والحجرية والحرفية وملابسهم الحريرية والكتانية والصوفية واصباغهم الارجوانية والاسمانجونية مما يتفاخر باقتنائه الشرفاء والاغنياء وتزين به قصور الملوك والعظماء فاناروا بمعارفهم الافكار وعمرؤا باعمالهم الاقطار . ولكنهم لما اخذوا يعملون العمل بعلمهم أصبحت جبالهم جرداء وسهولهم جدياء وكل غلاتهم لاثني يجاجتهم وامسى اكثر ما عندهم من حلي وثياب وعطور واطياب واثاث وآلات وامتعة وادوات حتى الاير والمساير والمفاتيح وزجاج الشبايك والساعات والمصابيح من صنعة غيرهم فهبطوا من قمة مجدهم الباذخ وعزهم الشامخ الى حضيض النذل والفقر ونسبوا ذلك الى جور الدهر وما الدهر بجائر ولا مسي . ولكن العزم اذا قترت والبصائر اذا خسرت والايدي اذا قصرت .

فالقوة تتحول الى الضعف والعز يتبدل بالحسف . اننا لا نشكر فضل النهضة العلمية الحديثة في هذه البلاد ولا نياس من تقديمها في سبيل العمران الى ان تسترد مجدها القديم وتجاري الامم الراقية برعاية الدولة المندبة المعظمة وعناية الحكومة الوطنية الخليفة . ولكننا نشعر بانه وان كانت الحاجة الى تكثير سواد المتعلمين شديدة فالحاجة الى العمل بالعلم أشد . وهذا ماأريد الكلام عليه وتوجيه الافكار اليه وقد جعلت مدار كلامي على ثلاثة امور :

الاول العمل الواجب على المتعلمين ان يقوموا به انتفع الافراد والاسر والامة والمجتمع كافة . وهو مختلف باختلاف نوع العلم الذي حصلوه ومقداره فلا يطلب من المرأة المتعلمة ما يطلب من الرجل المتعلم ولا يجب على متعلم الطب ما يجب على متعلم الشرائع ولا يكلف المشارك في بعض العلوم ما يكلف المتبحر فيها بل يجب على كل متعلم ان يعمل بما تعلمه لاجل خير نفسه ونفع ابناؤه جنسه . واهم الاعمال التي تحتاج اليها الامة وثنوقعها من رجالها المهذبين ما يأتي :

(١) : الاهتمام بحفظ الصحة العامة وهذا مطلوب من الاطباء والموظفين بدائرة الامور الصحية على الخصوص ومن كل متعلم على العموم فلا يابق بمن تعلم الطب واتفق في سبيل تحصيله السنين الطوال والمبالغ الطائلة من الاموال ان يترك هذه الصناعة الشريفة الضرورية لخدمة الامة ويتعاطى غيرها كما فعل بعضهم . ولا يجوز لموظف في دائرة الامور الصحية ان يكتفي بالحصول على الوظيفة لكي يتناول مرتبها دون ان يقوم بواجباتها بالامانة والتسرف كان تلك الوظيفة لم توحده الا لاجل معاشه . ولا يحسن بمن تعلم قوانين حفظ الصحة في المدرسة ان يحالفها بترك الرياضة البدنية او بالسهر المفرط او الشراهة او سرب المسكرات او التدخين او التعرض للأمراض المعزية التي تجلب عليه العار وتلف حياته وحياة ذريته بعد ان عرف ان كل ذلك مضر بصحته وصحة المجتمع كله . بل يجب على كل هؤلاء ان يسلكوا بحسب القوانين الصحية بكل تدقيق ويقاوموا الاوبئة والأمراض بالوسائط الواقية ويعالجوها بالادوية الناجعة فتحفظ صحتهم وصحة الامة وبذلك تسلم العقول ايضاً لان العقول السليمة في الجسود الصحيحة فان لم يعمل المتعلمون بعلمهم في هذا الشأن

نفشت في الامة الامراض والاسقام وفتك في افرادها الموت الزؤام فقل عدد رجالها وتشوش نظام احوالها وطمع فيها اعداؤها وازف سقوطها وفناؤها .

(٢) : السعي الحديث لكل ما يرقى العقول وينير الازهان وهذا مفروض على المربين والمعلمين وخصوصاً الآباء والامهات المتعلمين والمتعلقات لان المدرسة الاولى هي مدرسة البيت فلا يجوز للاب المتعلم ان يجعل كل اهتمامه بالدرس والمطالعة والتأليف والمراجعة ويهمل تربية اولاده العقلية والادبية ولا يحق للام المتعلمة ان تلهو بالاجتماعات العلمية والاحاديث الادبية والزيارات الحبية عن تثقيف عقول اولادها بل يجب على الوالدين كليهما ان يهيئا عقول اولادهما لقبول المعرفة باحياء قوة الملاحظة فيهم وثقويتها وتلقيهم مبادئ العلوم منذ الصغر بالطرق المختصرة السهلة لكي يستعدوا لدخول المدارس ويكونوا فيها ناجحين لان التربية البيتية اساس التربية المدرسية ومن لم يتأسس على العلم والادب عند والديه يندران ينبغ في المدرسة . ويجب على المعلمين ان يذكروا ان التلاميذ امانة الله عندهم وان يبذلوا جهدهم في تنوير عقولهم بالعلم الصحيح الكافل بتأهيلهم للرجولية الحققة ويجب على الموظفين بدائرة المعارف ان يهتموا بتكثير عدد المدارس وترقية شؤونها وتعيين المدرسين الاكفاء الوطنيين المهذبين الذين يعتبرون التعليم خدمة وطنية شريفة لا حرفة يقصد منها الارتزاق ومراقبة التدريس وتحسين اساليبه بحيث يكون صالحاً للنشئة رجال قادرين ان يقوموا بحاجات الامة وينهضوا بها الى مستوى الامم المتقدمة فانه مامن امة ارتقت الا بالمعارف وحسبنا برهاناً على ذلك ارتقاء اليابان السريع فانه لم يتم الا ببث العلوم بواسطة المدارس الوطنية الراقية .

وخلاصة القول انه يطلب من الذين تعلموا ووكّل اليهم امر التعليم ان يهتموا كل الاهتمام بالقيام بهذا الواجب المقدس باذلين كل قواهم في تثقيف العقول وتنوير الازهان بالمعارف المختلفة الضرورية لنجاح الامة ادبياً ومادياً وبذلك يكونون قد عملوا بعلمهم . فان قصرنا في هذا الواجب بقي الجهل سائداً والعقول مظلمة وارباب الاعمال عاجزين عن انقاذ اعمالهم فانحطت الافراد والامة جميعاً ولم يبق للتمدن فيها من اثر .

(٣) : اصلاح الآداب العامة وهذا مطلوب من علماء النفس والاخلاق ورؤساء
الاديان والخطباء وارباب الصحف والمجلات الادبية فيجب على هؤلاء وامثالهم ان
يبتهدوا في ترقية الآداب الصحيحة ورفع منار الفضائل ومكارم الاخلاق لان الام
باخلاقتها وآدابها فان قصروا في هذا الواجب اتى شر الفساد وعم الكفر والاحاد وانحطت
الجماعات والافراد وساءت الاحوال وخربت البلاد والتاريخ اعدل شاهد على صحة ذلك .
والآثار القديمة على ضفاف دجلة والفرات والنيل وشواطئ بحر ايجه وجرش وتدمر
وبعلبك والبتراء الدالة على ما كان للام السالفة من المدنية الزاهرة التي اضمحلت
لفساد الاخلاق اي عدم العمل بقوانين الآداب الصحيحة وعدم السير في مناهج الفضيلة —
تلك الآثار تؤيد شهادة التاريخ وثبت صحة القول ان الآداب الصحيحة والاخلاق
الفاضلة والمواطف الشريفة هي اساس تقدم الامم وارتقائها وسبب نموها وبقائها .
قال احد علماء الجرمان : ان الحكم على مستقبل كل امة يعرف من حالة شبانها العقلية
والاخلاقية .

فمن اهم الواجبات سعي المهذبين والواعظين لاصلاح الآداب والاخلاق العامة
ومن الضروري ان يكونوا قادرين على اضرام محبة الفضيلة في صدور القوم حائزين
اسمي المبادئ والصفات الحسنة سالكين بحسب قوانين التهذيب الصحيح وقواعد الدين
القويم لتكون اعمالهم مطابقة لاقوالهم ويكونوا امثلة صالحة للذين يهذبونهم ويعظونهم
والا صدق عليهم قول الشاعر :

يا أيها الرجل المعلم غيره	هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء الذي السقام مطبياً	كي ما يصح به وانت سقيم
لأنه عن خلق وتأني مثله	عار عليك اذا فعلت عظيم

وقول الآخر :

فكم انت نهي ولا تنهي	وتسمع وعظاً ولا تسمع
فيا حجر الشخذ حتى متى	تسن الحديد ولا تقطع

(٤) : تحسين الزراعة والصناعة والتجارة وهذا مطلوب من الذين درسوا العلوم
والفنون المتعلقة بهذه الامور كالكيماء والطبيعات والفنون الجميلة فيجب على هؤلاء

المتعلمين ان يبذلوا جهدهم في اتباع الطرق الحديثة الفنية وتطبيق ما تلقوه في المدارس وما طالعوه في الكتب على اعمالهم المختلفة . اني اعرف بعض الشبان الذين درسوا الفنون المشار اليها في مدارس اوربة وعادوا الى وطنهم وبايديهم الشهادات الناطقة باكمال دروسهم لكنهم لم ينفعوا بلادهم بشيء اي لم يتبعوا الاصول الفنية الحديثة في زراعة اراضيهم او في صناعاتهم بل بقوا تابعين الطرق القديمة التي كان عليها اسلافهم منذ قرون عديدة اما لانهم لم يتمكنوا من استحضار الآلات الزراعية او الصناعية بسبب غلائها وقلة مالهم او لانهم آثروا الاستخدام في دوائر الحكومة على الاشتغال بالزراعة او الصناعة او التجارة فذهبت اتعابهم واوقاتهم واموالهم التي انفقوها في سبيل تحصيل تلك العلوم سدى لانهم لم يعملوا بها . ولو عملوا لانفقوا الفلاحة والزرع والغرس والتخصيب والسقي وزادوا الاراضي المزروعة اليوم اضعاف مساحتها فعادت الى ما كانت عليه قديماً من الخصب ووفرة الغلال وتدفقت منها سيول الاموال وتحسنت بذلك جميع الاحوال والاعمال .

(٥) : احياء اللغة القومية وهي اللغة العربية في بلادنا وتخليصها من الالفاظ العامية والشوائب الاعجمية وهذا مطلوب من اساتذها وادبائها وخطبائها وكتابها والجامع اللغوية المؤسسة لهذه الغاية فلا يليق بالاستاذ ان يشرح لتلاميذه احكام اللغة الفصحى بالالفاظ السقيمة والتعابير الركيكة ولا يحق للخطيب ان يستعمل اللغة العامية في خطبه العلمية او يلحن في الفاظه فيرفع المجرور ويجر المنصوب او يحرف الكلم عن مواضعه راوضاعه ولا يجوز للكاتب ان يحشور رسائله ومقالاته بالتعابير السوقية والاغلاط اللغوية والنحوية والبيانية ولا لاعضاء المجامع اللغوية ان يتركوا لغتهم متأخرة عن مجاراة لغات العصر بل يجب على هؤلاء كلهم ان يجتهدوا في مراعاة قواعدها وسد ثلمها بوضع كلمات جديدة للمستحدثات العصرية اما بالاشتقاق او بالتعريب او بالنحت لكي تحيا وتنمو لان اللغة التي لا تنمو تموت واذا ماتت اللغة ماتت الامة التي تنتسب اليها اذ لا بقاء لامة بدون لغتها واذا قصر علماءها عن السعي لحياتها لم يكونوا عاملين بعلمهم ولا نافعين لامتهم .

(٦) : المحافظة على حقوق الافراد والجماعات ونشر العدل والامن في البلاد وهذا

مطلوب من خريجي مدارس الحقوق الذين تبوأوا مناصب الحكومة او تعاطوا المحاماة فان العدل اساس الملك والامن علة استتباب الراحة والطمانينة ودوران دولاب الاعمال المختلفة فان لم يجتهد هؤلاء الرجال في القيام بوظائفهم بالحكمة والرزانة والنزاهة والامانة ضاعت حقوق العباد وكثر الظلم والفساد وعمّ الخراب البلاد وان قاموا هم وغيرهم من المتعلمين بالاعمال المطلوبة منهم حق القيام ارتفع شأن الامة وحسنت احوالها المادية والمعنوية واستطاعت ان تجاري الامم الراقية في سلم المدنية . فان قيل ان كل اهل الصناعات والوظائف الذين مر ذكرهم عاملون بعلمهم وقائمون بوظائفهم قلت لا ريب ان كثيرين منهم متممون الواجب فهم مستحقون اطيب الثناء ولكن كثيرين منهم ايضا مقصرون في اعمالهم فهم مستحقون التقريع واليهيم يساق الكلاء ونحوهم تسدد أسنة الملام اعلمهم ينشهبون من غفلتهم ويشعرون بخطيئهم فيبادروا الى اصلاح انفسهم باصلاح مبادئهم وغاياتهم فان نتائج الاعمال تثقف على غايات العمال فان كانت الغايات تحصيل المال او المجد او المدح بطلت الفائدة المنتظرة من اولئك المتعلمين وايضاحا لذلك اقول ان الطبيب الذي لا يهتم الا بقبض الاجرة من عليه والحاكم الذي لا يبالي الا بتعظيم الناس له وتسبيحهم بحمده والخطيب الذي لا يهتم الا اظهار ما عنده من البلاغة وحسن الالتقاء وسعة المعرفة ليحمل الناس على الاعجاب به واذا فاضله على صفحات الجرائد والمجلات — هؤلاء كلهم وامثالهم من المتعلمين لا فضل لهم على الامة ولا فائدة منهم لها . ولكن ان كانت غاية الطبيب انقاذ المريض من خطر الموت وغاية الحاكم انصاف المظلوم من الظالم وغاية الخطيب انوير اذهان السامعين وبث روح الفضيلة فيهم وغاية الاستاذ انقاذ تلاميذه من مخالب الجهل وغاية المحامي المدافعة عن الحق الصريح ومقاومة الباطل وغاية الامام او القسيس ارشاد الضالين الى محجة الحق المبين كانت النتائج حسنة مطابقة لحاجات الامة متضافرة على حفظ كيانتها ورفع شأنها . قيل ان احد السياح مر بصرح نغم جوله مئات من العملة يشغلون بترميمه ورأى على مسافة قريبة منه مقطعا للحجارة فيه ثلاثة رجال يعملون فدنا منهم وسأل كلا منهم قائلا ماذا تعمل في هذا المكان فقال الاول اني اشغل بنصف دينار كل يوم وقال الثاني اني اقطع حجارة تطابق هذا الرسم الذي تراه امامي وقال الثالث اني أساعد

رفافي في بناء ذلك الصرح الذي سيكون مجلساً لنواب الامة فسر السائل بالجواب الاخير لانه دل على ان غاية ذلك العامل لم تكن تحصيل المال ولا اطاعة امر المهندس كما كانت غاية رقيقه بل الاشتراك في خدمة المصلحة العامة . وكل عاقل يجب عليه ان يراعي في عمله هذا المبدأ او يقصده هذه الغاية ذاكراً ان عمله مرتبط بمصلحة الامة والمجتمع وانه يجب عليه ان يساعد على قدر طاقته في بناء مجد الامة وحضارتها و ي بذل جهده في ترقيتها واسعادها والمحافظة على كرامتها .

الثاني الاسباب التي توجب على المتعلمين ان يعملوا بعلمهم وهي :

(١) : ان العمل هو البرهان القاطع على صحة العلم والوسيلة الوحيدة لتكميل الانسان فمن لم يأت عملاً مفيداً لنفسه ولا بناءً جنسه لم يكن علمه صحيحاً وقد ثبت بالاختبار ان الانسان لا يكمل بالعلم وحده اي ان عقله ومداركه ومعارفه واخلاقه انما تصلح وتكمل بالاجتهاد في العمل لا بمجرد الدرس والعلم فيجب على المتعلمين ان يعملوا بعلمهم لكي لا تكون دعواهم باطلة ولا سجايهم ناقصة .

(٢) : ان المتعلمين هم اعرف الناس بوجوب العمل وتدة الحاجة اليه ووفرة فوائده واقدرهم على اتمامه وانقائه فيتوقع منهم ان يقوموا به اكثر مما يتوقع من سواهم فان قصروا في ذلك كان ذنبهم اعظم من ذنب المتقصرين من الجهال وكانت خسارة الامة بسبب تقصيرهم اكبر من خسارتها بسبب تقصير غيرهم فيجب عليهم ان يعملوا بعلمهم لئلا يجنوا على انفسهم وعلى وطنهم .

(٣) : ان المتعلمين هم هداة الامة الى الطريق الاقوى وقادة افكارها الى الخير الاعظم بما اقتبسوه من انوار العلم الساطعة وما عرفوه من حقائقه اللامعة وقد اجمع اهل التحقيق على ان الهداية بالاعمال خير من الهداية بالاقوال وقيادة الجيش تستلزم السير معه بل امامه فان اقتصر المرشد على الوعظ والتعليم دون ان يسلك في السبيل المستقيم لم يكن وعظه ناجعاً ولا تعليمه نافعا وان ترك القائد جيشه يسير وحده ونام عرضة للتشتت والانزمام فيجب على المتعلمين ان يعملوا بعلمهم ليتمكنوا من هداية الامة واصلاحها .

(٤) : ان غاية كل تعليم وتهذيب وثقفيه وتدريب انما هي الاستعداد للاعمال

المفيدة فان اهل المتعلمون هذه الغاية او تكاسلوا في اتمامها وتحققها ذهبت الاوقات والاموال التي انفقوها في تحصيل العلم سدى وخابت فيهم آمال الوالدين والمربين والعلمين والوطن وكان مثلهم مَثَل طاع بخيل انفق عمره في جمع المال ثم دفنه في الارض ولم يخبر احداً بموضعه ومات غير مأسوف عليه فذهب ماله ضياعاً لم يتنعم هو به في حياته ولا تركه لاحد يستفيد منه بعد مماته . فيجب على المتعلمين ان يعملوا بعلمهم ليقوموا الغاية التي لاحتها تخرجوا في البهوت والمدارس فيحصل النفع لهم ولغيرهم .

الثالث شروط النجاح في العمل وهي :

(١) : حبه واحترامه والشعور بوجوده فالذي يحقره ولا يراه واجباً عليه ولا ضرورياً لخيرته وخير شعبه ويعتقد انه في غنى عنه وانه غير مكف ان يخدم وطنه به لا يمكن ان ينجح في عمل من الاعمال اذا اضطر اليه او أرغى عليه ولذلك نرى بعض الذين كانوا اغنياء وبددوا ثروتهم بالعيش المسرف وأضاعوا اوقاتهم باللهو واستباح التهورات الجسدية ثم اضطروا الى عمل يحصلون به قوتهم الضروري فتعاطوا بعض الاعمال ولكنهم لم ينجحوا في شيء لانهم لم يتعودوا الا الازدراء بالاعمال والعمال بخلاف الذين شعروا بوجوب العمل واحترموه وتمرنوا عليه فانهم نجحوا في كل ما تعاطوه من الحرف والصناعات وأفادوا اوطانهم فوائد جمة . ان ملوك الغرب في هذا العصر يبعثون باولادهم وحفدتهم الى دوائر الاعمال المختلفة بعد تخرجهم في المدارس العالية والجامعات الكبرى ليتعلموا الحكمة العملية ويتأهبوا للجلوس على عروش الممالك وذلك دليل على احترامهم العمل وسبب نجاحهم فيه . فعلى الوالدين من عامة الناس ان يقتدوا بأولئك الملوك في تربية اولادهم على حب العمل واحترامه والشعور بانه واجب وضروري لكي ينجحوا في أعمالهم المتنوعة وينفعوا انفسهم واطنانهم .

(٢) : الاقدام بلا تردد ولا خوف من المصاعب لان الاجتهاد عن العمل دليل الجبن والجبان لا ينجح ومن يتردد في عمله ولا يقسم كل صعوبة ولا يدوس كل عقبة في سبيل الوصول الى غايته يقدم راسخة تحبط مساعيه ويعود بالخيبة والفشل بخلاف الذي يستسهل كل صعب ويقدم على عمله بعزم شديد وهمة تفري الحديد فلا يكل ولا يمل حتى يكمل سعيه وينال أربه فان نجاحه مؤكد وما أحسن قول الشاعر :

إذا كنت ذا رأي فكن ذاعزمية فان فساد الرأي ان تترددا
وان كنت ذا عزم فأنفذه عاجلاً فان فساد العزم ان يتقيدا
(٣) : عدم التأجيل فالذي يؤجل ما يجب عمله اليوم الى الغد لا ينجح لان
التأجيل يلد التهاون والغد مجهول امره وله عمل آخر واذا أُجِّلَ عمل كل يوم الى ما بعده
تراكت الاعمال وزادت الصعوبات فتعسر القيام بالواجب او تعذر وانقطع أمل
النجاح . سئل احد وزراء فرنسا وكانت ينجز أعمالاً كثيرة في وقت قصير
تستطيع ان تنجز كل هذه الاعمال فقال بعدم تأجيلي الى الغد ما أقدر ان أعمله
اليوم . وكتب احد الثبان الى السيد ولترسكوت يطلب نصحه وكان قد دخل في
منصب جديد فأثاه الجواب بهذه الصورة :

« احترس من البطالة ولا تؤخر عملاً يجب القيام به ولتكن أوقات الراحة بعد
العمل لا قبله فانه اذا سار جيش واضطربت مقدمته قليلاً حدث اضطراب عظيم في
ساقته وهكذا الحال في الاعمال فان لم تعمل عمل كل يوم في يومه فعما قليل تزدحم
عليك الاعمال فتضيق بها ذرعاً فاحذر التأجيل » .

(٤) : اعتبار قيمة الوقت والمحافظة عليه فالطبيب او المحامي او الاستاذ او الحاكم
او الرئيس الذي يسهر مع رفقائه الى ما بعد نصف الليل ويبقى في سريره الى قرب
الظهر لا يقدر ان ينجح في عمله لانه اضاع وقته بلا فائدة او في ما يضره وكذلك
الذي يقضي ساعات النهار في اماكن اللهو لاعباً بالنرد او الورق او غيره من الملاهي
ويقتل وقته بما يضر ولا ينفع هو بعيد عن النجاح . قال الملك لويس الرابع عشر :
« المحافظة على الوقت من كمالات الملوك » . والحق انها من واجبات الاشراف والعلماء
والعمال أيضاً . ولا شيء يساعد على وجود هذه الصفة في الانسان مثل تعوده انجاز
كل عمل في حينه فمن ارتبط في عمل ولم يأخذ فيه بالوقت المعين عد محلاً بل مجرماً
ما لم يكن له عذر مقبول ومن لا يهتم بالوقت لا يهتم بالعمل ولا يستحق ان يؤتمن على
اعمال ذات شأن وبالنسبة لا ينجح في حياته .

(٥) : الامل او توقع النجاح فاليأس او الخائف او الفاتر الهمة الذي يعتقد
انه غير قادر ان ينجح وان ليس امامه الا الحيلة والفشل لا يمكن ان يفلح في عمل

بجلافة الرجل الواثق بنفسه كل الثقة المتوقع الفوز الواضع الفلاح نصب عينيه
المتيقن اقتداره على العمل السائر الى غرضه بخطى ثابتة وقلب كبير ونفس عزيزة
وهمة عالية فانه ينجح في مسام و ينال مناه لان الامل يقويه على اقتحام المصاعب
واحتال المتعاصب للفوز بالرغائب ونيل المطالب و يدفعه الى السير في سبيل الواجب
ولو كان مملوءاً بالاخطار كما يدفع البخار السفينة الى السير في وسط البحار . والامل
ينشئ سروراً في النفس والسرور بالعمل يجعله هيناً . قال كارليل احد فلاسفة
الانكليز : « أروني رجلاً يتغنى في اثناء عمله وانا أضمن انه يعمل في اليوم ضعفي
ما يعمل الغضوب العبوس لان من يسير على نغم موسيقي قلما يشعر بالتعب » .
فالمسرور بعمله ينجح والذي يذهب الى العمل حزينا متذمراً منقبض الصدر غابس
الوجه كأنه ذاهب الى السجن او الصلب لا يمكن نجاحه .

(٦) الاجتهاد والحد . قال الحكيم : يد المجتهدين تدود فما من احد احرز
السيادة او الشرف او التقدم او التبرة الواسعة الا دفع ثمنها كدّاً وجداً عظيمين ولا
احد استطاع ان ينجح بالكسل والتواني وما احسن قول الشاعر :

تريدن ادراك المعالي رخيصة ولا بد دون التمدد من ابر النخل

وقول الآخر :

تروم العز ثم ننام ليلاً ومن طلب العلى سهر الليالي

ان الذين بلغوا اعلى ذرى النجاح بكدهم واجتهادهم لا يحصي عددهم فأقصر على
ذكر بعضهم بالاحصار على سبيل التمثيل . فمنهم ابو نصر محمد الفارابي الفيلسوف
التهير الذي اتبع الفلسفة اقصاها وادناها والف فيها كتباً لاتعد لكثرتها مع ما كان
عليه من العوز فكان يسهر الليالي للمطالعة والتصنيف ويستضيء بمصباح الحارس وبقى
على ذلك الى ان عظم شأنه وظهر فضله واشتهرت تصانيفه وكثرت تلاميذه وصار
اوحده زمانه كما جاء في ترجمته المذكورة في كتاب عيون الانباء . ومنهم اسحق نيوتن
اكر فلاسفة الانكليز فقد قال صريحاً : « ان كنت قد خدمت العالم بشيء فباجتهادي
وجلدي . ومنهم دزرائيلي الذي رقي الى اسمى المناصب بمجده وكده . فانه لما كانت
مساعدته الاولى تحبط لم يفعل كمكثيرين من الشبان الذين اذا خابوا مرة وهت

قواهم ووقعوا في لجة اليأس بل ظل يجتهد ويجد حتى نجحت اعماله وبلغ مراده ومنهم بروم الذي خدم شعبه اكثر من ستين سنة وتعاطى الفقه والانشاء والسياسة والعلوم المتنوعة وانقن كل ما اشغل به . ومنهم نابوليون الاول والقائد ولنتن وسائر الذين اشتهروا في العالم بالسياسة والعلوم والشرائع والصنائع والتأليف وبلغوا اعلى درجات الفوز بجدهم واجتهادهم فلا يطمعن احد في نجاح اعماله ما لم يجتهد كل الاجتهاد اي يصب كل قوته ويضع كل قلبه على كل عمل يأخذ فيه لانه (على قدر اهل العزم تأتي العزائم) . ولا يفيد الانسان علمه ولا ذكاؤه ولا وسائطه ولا مساعدات الاصدقاء له اذا هو لم يجد ويجتهد ويتعب عقله وجسده لانه لا شيء يثمر الا بالتعب والحياة جهاد مستمر . غير انه يجب الاحتراز من الافراط في التعب لئلا تئلف الحياة قمل بلوغ الامل فالاجتهاد غير الاجهاد كما ان الراحة غير الكسل والحكيم من عرف ذلك ولم يفرط في الاجتهاد الى حد الاجهاد ولا في الراحة الى حد الكسل .

(٧) : الامانة والاستقامة وهما من اهم شروط النجاح في كل الاعمال ولا سيما الطب والصيدلة والقضاء والمحاماة والوظائف المالية فالطبيب الامين المستقيم يكتسب ثقة الناس به و ينجح وكن الذي يخدع مرضاه ليستنزف اموالهم لا يمكن ان يكسب ثقة الناس به ولا ينجح الا ريثما ينكشف خداعه . ان بعض الاطباء يضمنون الشفاء للعليل وهم على يقين من ان داءه عياء غير قابل الشفاء . وبعضهم يوهمون المريض بان مرضه عضال وحالته تنذر بالخطر مع علمهم بان مرضه بسيط لا شيء فيه من الخطر وكل ذلك الخداع نائى عن الاضاح . والصيدلي الصادق الذي يركب الدواء بحسب وصف الطبيب بكل تدقيق ولا يستعمل الغش في ادويته هو الذي يأتمنه الناس و ينجح في عمله ولكن الذي يغير المقادير و يبدل العقاقير الغالية بالرخيصة ليتوفر له الزيج يظهر غشه و يبتعد القوم عنه فينسر مادياً وادبياً . والحاكم العادل الذي يراعي في احكامه الشرائع دون محاباة هو الذي يرضي الله والناس و يكتسب المدح و يرتقي في معارج الفلاح . ولكن الذي يراعي مصلحته وعواطفه دون الحق والعدل لا يمكن ان ينجح نجاحاً حقيقياً وان اصبح بالرشوة غنياً لان تذنب البري وتبرئة المذنب بغية اتراع الجيوب من اكبر

لآثام واعظم الذنوب واول دواعي الفشل وموجبات الخزي والخلجل . والمحامي المستقيم الذي لا يدافع الا عن الحق ولا يقبل وكالة المزورين هو الذي يربح الدعوى وينجح في عمله ولكن المحامي الذي يدافع عن الباطل ويعلم الناس التزوير ويقبل وكالات المزورين بغية بتحصيل المال بالحرام لا بالحلال لا يمكنه ان ينجح الا ريثما يتكشف امره ويفتضح سره فيسقط قدره ويكره ذكره ويحسبه الناس من اصحاب الجرائم ويمنع من الدخول الى المحاكم . والكاتب او المحاسب الامين الذي يحافظ على الصدق في اقواله والاخلاص في اعماله هو الذي ينجح ويرتقي ولكن الكاذب او المختلس لا يمكن نجاحه لانه اذا ظهرت خيانتة او سرقة طرد من وظيفته وحرم حق الاستخدام . قيل ان مدير مال رو كفار المثيري الشهير كان في اول امره كاتباً لصيرفي في ولاية كنساس فأمل يوماً عليه رقيماً وامره ان يقدم التاريخ ليخلص من تبعته فأبى هذا الكاتب الامثال لامره بأسلوب لطيف فأمره ثانية فأبى وحسب نتيجة الكذب شر النتائج فأمره ثالثة فأبى وتوقع ان يطرده وقال غير مهتم بالنتيجة لا اقدر ان استخدم قلمي للكذب وان ما تأمرني به هو كما مرك لي بالسرقة . وكانت النتيجة ان الصيرفي بدلاً من ان يطرد ذلك الكاتب زاد اكرامه وضاعف له مرتبه وائتمنه على كل شيء لانه تحقق صدقه وامانته فالامين في عمله هو الذي ينجح .

(٨) الاكمال فلا يصعب على الانسان ان يقصد الامور السامية ويبتدى الاعمال العظيمة ولكنه يصعب عليه اتمامها اذا لم يكن من ذوي الرزانة والتعقل والدربة والمثابرة والثبات وما اكثر الذين يبدأون بمشروعات واعمال نافعة ثم يضجرون منها ويتركونها شاهدة عليهم بالطيش والجهل والنقلب والتردد . ان العمل الزهيد المتم باحكام افضل من الاعمال الكبيرة التي شرع فيها قاصدوها ولم يتموها . فالكوخ الحقير التام البناء انفع من القصر الذي وضعت أسسه ورفعت جدرانها ولم يكمل . ان كثيرين اشتبهوا بالمقاصد السامية والفصاحة والبلاغة وحسن البيان وقوة الحجة ولكنهم لم يفيدوا جاهلاً ولا اصلحوا فاسداً ولا تمموا عملاً كبيراً ولا صغيراً فابن هؤلاء من اهل الدأب العقلاء الذين ما شرعوا في عمل الا اتموه وما قصدوا امراً الا ادر كوه . ان خير الاعمال بالاكمال والحازم من تأمل في العمل قبل الشروع فيه فان تيقن انه قادر على اتمامه بدأ به والا

فخير له ان لا يبدأ به بل يبدأ بما يقدر عليه و يجتهد في اكماله فلا نجاح في الاعمال الا بحسن الاكمال . ولا اجهل من الذين قادم الطمع الى اعمال تستلزم اضعاف قدرتهم فقاموا بجزء منها وعجزوا عن اكمالها فتركوها فتولاهم غيرهم وانبغى بجهلهم .

(٩) : الائقان او الاحكام وهو شرط جوهرى للنجاح في كل عمل فكما ان التجارين والحدادين والخياطين وغيرهم من اهل الصناعات لا يمكنهم ان ينجحوا ما لم ينقذوا مصنوعاتهم كذلك الاطباء والمحامون والكتاب والمثثون والمعلون والمهذبون وسائر المشتغلين بالعلوم والفنون يتعذر عليهم النجاح ما لم يحكموا اعمالهم . ان الائقان يستلزم التأني والثبات لان العجلة تفسد العمل واحياناً تفسد الحياة ولذلك جاء في الامثال الشرقية قولهم : (في التأني السلامة وفي العجلة الندامة) . فمن شاء ان يثقل عمله فعليه ان لا يسرع فيه ولا يتوقف عنه ولا بد من الانتباه التام الى مواضع النقص بغية اكماله ومواطن الخلل لاجل اصلاحه حتى يكون العمل كاملاً الاحكام على اجمل ترتيب وأحسن نظام فان من بلغ في عمله الائقان التمام تفوق على أقرانه ونال المقام الاول بين اهل صناعته وحصل على المجد والكرامة بين من يعرفون فضله ويقدرونه قدره . فالخطيب المثقن صناعة الخطابة اذا ذهب الى لندن وألقى خطاباً في احد أنديةها أعجب به السامعون وتحدث ببلاغته الراوون ورحب به العلماء والادباء والخطباء والعظماء وذكرته الجرائد بالحمد والثناء . ودعي الى الخطابة في جميع الاندية الادبية وازدحمت عليه الجماهير لتلتقط منه الفوائد العلمية ونشرت خطبه المجلات الانكليزية وربما ترجمت الى غيرها من اللغات الاوربية . وما يناله الخطيب المثقن صناعته يناله الاديب والكتاب والطبيب والمحامي والاستاذ والمخترع وسائر العلماء اذا كان كل منهم مثقناً عمله .

(١٠) : الثمن والابداع او التحسين فلا يكفي ان يكون العمل كاملاً مثقناً بل يجب ان يتحسن على توالي السنين والايام والتحسين يستلزم الابتكار والاختراع والا لم يتم الارقاء فان اكتفى العامل بتقليد غيره في عمله ولم يزد عليه شيئاً من مبتكراته بقي عمله في آخر حياته كما كانت في اولها بل ربما بات أقل احكاماً في الشيخوخة مما كان عليه في الشبيبة لان مبدأ التقليد والاتباع مبدأ الضعف والتقهقر

وطريقة الابتكار والابداع طريقة القوة والنقد . ان الطبيب الذي لا يزيد معرفته بالمطالعة ولا يحسن اعماله الجراحية بالممارسة لا يلبث ان يحسب في عداد الدجالين وقس عليه غيره من العلماء العاملين الواقفين على درجة واحدة فان وقوفهم هو عين التأخر . وكل أمة تفقد قوة الفن والابتكار في أعمالها لا بد من سقوطها .

ان العصر عصر تجدد فلا يحسن البقاء على القديم الا اذا كان مطابقاً للعقل الصحيح وفائدته محققة . ولا يجوز الاستحفاف بالحديث او رفضه الا اذا كان فاسداً واضراره ثابتة . ان العقل الصحيح يقتضي بوجوب الارقاء والارتقاء لا يتم الا بتربية قوة الفن والابتكار لكي تحسن الاعمال وتصلح الاحوال وحينئذ يتم الفلاح ويزداد النجاح . فعلى المتعلمين ان ينفذوا عنهم غبار الكسل ويجتهدوا في زيادة العلم وصلاح العمل شاعرين بالواجب المترتب عليهم للوطن والامة مظهرين كمال النشاط وعلو الهمة مراعين شروط النجاح في كل الاعمال ساعين للخير في كل حين وحال . والله سبحانه وتعالى هو الفعال لما يريد . وبهذه التوفيق والاعانة .

لا يرقى البلاد الا علوم نتجلى بصالح الاعمال

فاعملوا صالحاً بما قد علمتم فرجال الاعمال خير الرجال

(انيس سلوم)



ارتباط البلاد على اصول الاتحاد^(١)



أيها السادة الكرام والاخوان الاعزاء .

دعاني صديقي المحترم رئيس المجمع العلمي الى القاء محاضرة في هذه القاعة والح في الدعوة والطلب حتى لم يترك لي مجالاً للاعتذار وبالرغم من تراخي الزمان بيني وبين منابر الخطابة واستنار الذهن بغشاء من صدى الجود ضربه عليه الترك المتماذي وجدت نفسي تجاه هذا الطلب المقرون بالحزم والتصميم مضطراً الى الاجابة بالقبول واتمام ذاتي الى هذا المأزق الذي اعرف الآن دخولي فيه واجهل كيف يكون خروجي منه فاذا حصلت رغبتى بعدم تبرمكم ورضائكم عني حمدت عقيب امري واذا جاءت النتيجة على خلاف ذلك طلبت عفوكم هذه المرة ووعدتكم ان لا اعود الى مثلها تارة أخرى .

اوقفني هنية من الزمن اختيار الموضوع الذي احدثكم به فلم انعرض لمواضيع اللغة وآدابها ولا للمباحث التاريخية او الاجتماعية لان رفاقي الافاضل اعضاء المجمع لهم في هذه الحلقات اشواط رابحة ابعد من ان تجارى فاخترت موضوعاً ما كنت امل ان يكون مجلبة للرضى والامتناع لولا ما حصل له مؤخراً من العلاقة بامورنا الاجتماعية والاقتصادية واعني به الاتحاد . ولست اعني به اتحاد الافراد او اتحاد القلوب وتوحيد المساعي في سبيل النفع المشترك وانما هو بحث اداري حقوقي بشأن ارتباط البلاد على اصول الاتحاد فهو اذن يتعلق بالدولة وليس بالفرد .

قبل الدخول في هذا الموضوع لابد لنا من ايماء مختصر الى تعريف الدولة والاشكال التي تتألف منها . فقد عرفوا الدولة في الحقوق الاساسية بكونها شعباً متضامناً خاضعاً

(١) المحاضرة التي القاها الاستاذ السيد فارس الخوري من اعضاء المجمع المؤازرين

يوم الجمعة في ٣ تشرين الثاني سنة ١٩٢٢

الحكومة واحدة ذات قوانين مشتركة وعرفوها في حقوق الدول انها الشخصية الخارجية لشعب مستقل واهم خواصها في معناها التام :

(١) : الحاكمية الداخلية التامة وضعاً التي تستطيع بها ان تحمل الشعب على حفظ العلاقات مع الدول الاخرى ذات الحاكمية الماثلة لها .

(٢) : الاستقلال التام الذي يجعلها بمعزل عن كل تأثير او سيطرة خارجية .

(٣) : السلطة التامة في اراضي ذات حدود معينة . بهذا ان هذه الشروط

لم تكن على الدوام تامة في الدول المعروفة وكثيراً ما نقص بعضها واختل واحد منها وبقي العرف والتعامل جارياً على اطلاق اسم الدولة مع نقصان الشرط كما دخلت مصر وقبرس في الاحتلال البريطاني وبوسنة والمهرسك في الاحتلال النمساوي مع بقائها تابعة للباب العالي زمناً طويلاً فلم تكن سلطة الدولة تامة ضمن الحدود المعينة لها وكما كان الجيش الترانسفاليجول في اراضي الغير وتجري معه المفاوضة بصفته دولة وليس له ارض يحكمها . وحالة بلغاريا في عهد اتصالها الاسمي بالباب العالي انقاص لسلطة الدولة العلية ضمن حدودها بدون اخلال بحقوقها الدولية .

عند الاوربيين لفظة (Etat) توسعوا في استعمالها كثيراً فاطلقوها عند ارادة الدولة بالمعنى الذي ذكرناه واستعملوها بمعنى القوة التي نسن القوانين وننفذها فاما ان تكون تلك القوة مجتمعة بشخص واحد كما قال لويس الرابع عشر (الدولة انا) واما ان تكون ممثلة بأشخاص معدودين يؤلفون القوة الاجرائية والتشريعية كما هي الحال في بريطانيا . وهذه اللفظة لها في كل بلد من بلاد اوربا مفهومان : احدهما المفهوم الداخلي ويراد به الحق العام الذي يمثله الحكومة . والاخر المفهوم الخارجي وهو الحاكمية القومية التي تمثل ذلك الشعب في الخارج . وعندما يعرفون اللفظة في معاجم اللغة يعرفونها بكونها شعباً مؤلفاً خاضعاً لحكومة واحدة . وهي عند الالمان معناها مدينة او ناحية من البلاد بدون مراد سياسي او اداري . اما كلمة دولة في العربية فمعناها أضيق من معنى الكلمة الانجليزية ولا يفهم منها العرب الا الدولة المستقلة استقلالاً سياسياً وادارياً فاذا كانت غير متمتعة بهذا الاستقلال فهي ايلة او ولاية او مقاطعة او حكومة فان كان عليها امير فهي امارة والا فهي ولاية او جمهورية .

وعلى ذلك فترجمة كلمة (Etat) بالدولة تكون مصيبة في بعض الاحوال ومخطئة في البعض الآخر وترى المترجمين في كتب اللغات يترجمونها في كل مقام بالمعنى المراد منها في ذلك المقام .

اما اشكال الدول فنندمج في شكلين : احدهما الدول البسيطة او الموحدة او المنفردة . والثاني الدول المركبة . والمراد من الدولة البسيطة الدولة التي فيها حاكمية واحدة تمتد سلطتها المنفردة الى كل فرد من افراد رعايتها ولا يعرف اولئك الافراد سلطة ما لغير تلك الدولة وهذا الشكل هو الاصل في تأليف الدولة وعليه جرت اكثر الدول في التاريخ القديم والحديث ويمثله في العصر الحاضر دول فرنسا وايطاليا واسبانيا وتركيا وغيرها من الدول الجارية على هذا النمط من الدول المركزية .

والشكل الثاني هو اجتماع دولتين او اكثر ليكون منها دولة واحدة لتخلى لها كل دولة من الدول المتجمعة عن بعض حقوق الحاكمية وتؤلف باجتماعها حكومة مركزية تقوم بتلك الوظائف التي تختل لها عنها الحكومات المتجمعة وذلك مع بقاء حق السيادة والحاكمية في كل من تلك الحكومات .

وهذا التركيب الدولي له انواع مختلفة تتنوع بتنوع درجات الارتباط من هذه الدول ودرجة الحقوق الممنوحة للحكومة المركزية ولا يمكن حصر هذه الانواع ضمن قاعدة واحدة لانها تختلف باختلاف مذاهب الدول المركبة من جهة التوسيع والتضييق ولا يوجد دولتان من هذه الدول متشابهتان في قواعد اجتماعها مشابهة تامة وانما يوضع لكل تركيب دولي قواعد خاصة بحسب مصلحة المجتمعين واغراضهم من ذلك الاجتماع .

ايس من شأننا الآن ان نفصل جميع انواع هذا التركيب لان ذلك يطول شرحه وانما مرادنا ان نبحث عن نوع واحد من انواعه الاوسع انتشاراً وهو نوع الحكومات المتحدة الذي هو اقرب انواع الدول المركبة من شكل الدول البسيطة وهذا الشكل يجيء في الغالب بصورتين احدهما الائتفاق والاخرى الاتحاد .

اما الائتفاق الدولي (Confederation) فهو انضمام دول مستقلة ذات سيادة تامة الى بعضها او اتحادها بموجب معاهدة لاجل بعض المصالح المشتركة مع بقاء السيادة

الداخلية التامة لكل دولة من الدول المنفقة ضمن بلادها ومن ذلك الاتفاق الجرمانى الذى تأسس سنة ١٨١٥ بمعاهدة فينا وبقي الى سنة ١٨٦٦ ومنه اتفاق الرين الذى احدثه نابوليون واخذ على نفسه حمايته ودام من سنة ١٨٠٦ — ١٨١٣ وكذلك كان اتفاق المقاطعات الاميركية قبل حرب الاستقلال لحد سنة ١٧٨٩ وجرت على القاعدة نفسها الولايات الجنوبية المنشقة في مدة الانشقاق من سنة ١٨٦١ : — ١٨٦٣ ومنها اتفاق النمسا والمجر والقاعدة الضابطة لاصول الاتفاق ان تكون السلطة الاولى والسيادة العليا الداخلية لكل دولة في اراضيها فلا تضع حكومة الاتفاق قانوناً لها مخالفاً لقانون احدى الدول المنفقة وعلى هذا تكون الروابط التي تجمع البلاد المنفقة ضعيفة وسلطة الدولة المركزية على الحكومات المنفقة محدودة .

والصورة الثانية هي المعروفة بالاتحاد (Fédération) وهي دولة تؤلفها حكومتان او اكثر للقيام بالاعمال التي هي ذات اشتراك دائم بين تلك الحكومات وفيها تخلى حكومات الولايات المتحدة عن بعض حقوق الادارة والحكم وتركها لدولة الاتحاد التي تقوم بذلك العمل ويمتد تأثيرها وسلطتها ليس على الولايات المتحدة فقط بل على كل فرد من سكانها ايضاً . وهذه الصفة تتميزها عن صورة الاتفاق التي فيها لا يعرف الفرد سوى سلطة واحدة وهي سلطة حكومته وليس لحكومة الاتفاق المركزية سلطة عليه مطلقاً ولا يشعر بوجودها في حياته الاجتماعية والاقتصادية واما في اصول الاتحاد فيكون السكان خاضعين لسلطتين في وقت واحد ومجبرين على العمل بموجب قوانين حكومة الاتحاد وقوانين مقاطعاتهم المحلية .

والمقاطعات التي تتحد على هذا الوجه اما ان تكون قبل اتحادها دولا مستقلة ذات كيان وسيادة تامة فتدعوها المصلحة المشتركة الى الاتحاد الاختياري وتسمى عندئذ الدول المتحدة . واما ان تكون قبل اتحادها ولايات تابعة لدولة واحدة فتنفصل عنها لسبب من الاسباب فتتحد معاً وتتولف حكومة واحدة فتكون الولايات المتحدة . واما ان تكون في الاصل ولايات دولة واحدة جرت في ادارتها على قاعدة توسيع المأذونية وتدرجت الى عدم المركزية حتى صارت ولايات متحدة ايضاً . وفي الحالتين الاخيرتين لا يطلق على مثل هذا الاتحاد عنوان الدول المتحدة لان العناصر المؤلفة

لهذا الاتحاد ليست دولاً مستقلة ذات سيادة تامة لا قبل الاتحاد ولا بعده .

يشترط لتأليف مثل هذا الاتحاد وامكان انتاذه ونجاحه شروط :

اولها — المتاخمة وذلك ان تكون هذه الولايات المتحدة متاخمة بعضها بعض لا يفصل بينها اراضي دولة غريبة .

ثانيها — البانس الداخلي واهم اركان هذا البانس الوحدة القومية والوحدة اللسانية فان لم يكن ذلك حاصلًا كان الاتحاد ضعيفًا وبقى الحذر من تحكّم احد الجنسين على الآخر وتؤوق احد اللسانين على الآخر فينقلب الاتحاد الى الغلبة والحكم .

ثالثها — سبق الانفصال بحيث لا يتم العهد الاتحادي الا بين قومين يملك كل منهما قياد نفسه .

رابعها — اشتراك المصالح والمنافع فاذا لم يكن بين البلادين مصلحة مشتركة يستفيد كل منهما بالاتحاد لاحتلها لا يكون في ذلك الاتحاد رابطة تجمعهما وتوثق اواصر الاتصال بينهما .

قلنا ان الاتحاد يتضمن سلطتين في وقت واحد وقد يكون فيه سلطة ثالثة ايضًا وانما هذه السلطة الثالثة عند وجودها ينحصر تأثيرها على الحكومة الاتحادية المركزية فقط ولا يتجاوزها الى حكومات المقاطعات ولا الى الافراد .

مثال ذلك حكومات استراليا المتحدة ففيها مقاطعات ذات استقلال داخلي في ادارة شؤونها الخاصة تجمعها حكومة اتحادية ذات وظائف معينة تخلت لها المقاطعات عنها فيوجد في البلاد سلطتان احدها للحكومات المحلية والاخرى للحكومة الاتحادية وهناك سلطة ثالثة للامبراطورية البريطانية بصفتها صاحبة حق السيادة والتمثيل الخارجي وانما هذه السلطة لا تمتد الى المقاطعات ولا تؤثر على الافراد . وهذا الشكل من ثلاث السلطات انتشر في المستملكات البريطانية وانما امكن تطبيقه بانف الحكومة البريطانية عن التدخل في شؤون المقاطعات الداخلية في غير الامور التي احتفظت بها هذه الدولة لنفسها لتأييد سيادتها .

نظن البشر لهذا النوع من الحكومات قديم جداً ولعله كان منتشرًا في اكثر البلاد وانما نصادفه لأول مرة في التاريخ القديم بالشكل المكتوب الواضح عند الامة

اليونانية حين اتحدت حكومات اثينا او اسبرطا او قورنتيه او ارغوس مع جيرانها لاسباب دفاعية او اقتصادية وكانت هذه الاتحادات تختلف في صميمتها ودرجة التصاقها فبعضها كان شديد الاتصال والبعض الآخر كان شكلاً ظاهرياً فقط لا يلجأ اليه الا عند اقتحام الاخطار الخارجية .

جميع الحكومات في اول عهدها تكون ضيقة النطاق مقارنة الاطراف ضعيفة المواصلات مع جيرانها فترى نفسها مضطرة للاتحاد مع القريبين منها لاجل تقوية كيانها ثم لا يعتم هذا الاتحاد ان ينقلب الى وحدة مائلة الى التوسع والفتح كما جرى لروما عندما اتحد اللاتين مع جيرانهم حول مدينة روما وكما جرى لانكترا عندما اتحدت مع والس واسكوتلاندا .

الاتحاد يكون اختيارياً وذلك عندما تُنجد المصلحة منه بين مقاطعات وأخرى فيكون نقماً محضاً لجميع المقاطعات وفي مثل هذه الحال ننضم هذه المقاطعات بعضها الى بعض بدون حاجة الى الاجبار والارهاق . ويكون اجبارياً عندما تكون الصلات شديدة وروابط الاتصال متينة بين المقاطعات ويعسر على الاكثرية منها تحمل ضرر الافتراق فيحملون على المخالف ويكرهونه على الانضمام الى رأي الجماعة كما حدث في حرب الافتراق التي قامت بين الولايات الشمالية والجنوبية في اميركا المتحدة سنة ١٨٦١ حتى تغلب حزب الاتحاد واكره الولايات الجنوبية المنشقة على الانضمام وكما جرى في المانيا عندما تغلبت بروسيا على النمسا وهانوفر وساكس سنة ١٨٦٦ واكرهت الاخيرتين على قبول شرائط الاتحاد الالمانى الذي رتبته بسمارك .

انتشرت الاصول الاتحادية في الزمن الحاضر وقبلتها حكومات كثيرة من الحكومات المعروفة وبلغت تحت هذا الشكل من الادارة مبلغاً عظيماً من الرقي والنجاح . واوضح الامثلة على هذه الاصول الولايات المتحدة في اميركا الشمالية ودول سويسرا واستراليا وكندا ومكسيكا والبرازيل والارجنتين وغيرها .

جمهورية سويسرا مساحتها نحو ١٦ الف ميل مربع وعدد سكانها نحو ثلاثة ملايين وثلاث مائة الف وهي مؤلفة من ٢٦ مقاطعة مستقلة استقلالاً داخلياً (Etat) وكل مقاطعة منقسمة الى افضية والافضية الى نواح او دوائر بلدية يزيد عددها او ينقص بالنسبة

الى جسامه المقاطعة وعدد هذه الاقسام ١٨٧ قضاء مقسومة الى ٣١٦٤ دائرة بلدية والوحدات السياسية هي هذه الدوائر البلدية التي ينتخب الشعب اعضاءها وهؤلاء الاعضاء ينتخبون ممثلين للهيئات التشريعية لمراكز مقاطعاتهم وللحكومة الاتحادية في المركز العام . وهذه الحكومة مؤلفة من ثلاث قوى التشريعية والاجرائية والقضائية . فالقوة التشريعية ذات مجلسين احدهما مجلس الشيوخ ويسمونه ايضا مجلس الدولة وهو مؤلف من نائبين عن كل مقاطعة فيبلغ عدد اعضاءه ٤٤ عضواً والثاني مجلس النواب فينتخب كل ولاية نوابها بنسبة عدد سكانها بمعدل نائب واحد عن كل عشرين الفاً من الدنوس لمدة ثلاث سنوات وعند انقضاءها يجدد الانتخاب وقد كانت عدد هؤلاء النواب في سويسرا قبل الحرب العامة ١٦٧ نائباً وهذا المجلسان يجتمعان معاً عند الاجباب فيتألف منها المجلس الوطني الكبير ولا يحق لرئيس الحكومة ان يفسخ هذا المجلس قبل انتهاء دورته فينحل من نفسه ويعاد الانتخاب مجدداً . جميع القوانين يسنها هذا المجلس ويودعها القوة الاجرائية لاجل انفاذها .

اما القوة الاجرائية فهي مؤلفة من لجنة قوامها سبعة اشخاص تسمى مجلس الاتحاد ينتخبهم المجلس الكبير اي الشيوخ والنواب مجتمعين و يشترط في انتخابهم ان لا يكون من ولاية واحدة اكثر من عضو واحد وعند انتخابهم ينتخب المجلس ايضاً رئيس الاتحاد ونائبه لمدة سنة فقط وهذا الرئيس يرأس مجلس الاتحاد ويتولى اعمال الخارجية المسماة عندهم الشعبة السياسية وسلطته محدودة فليس له ان يفعل شيئاً بدون قرار المجلس . واعضاء المجلس الآخرون يتولون ادارة الشعب الاخرى معتمدين في جميع اعمالهم على قرار المجلس ايضاً فهم المنفذون لهذه القرارات فقط وليس لهم ان يفعلوا شيئاً من عند انفسهم . قسمت حقوق السيادة في سويسرا بين حكومة الاتحاد والحكومات المحلية في الولايات فاختصت الحكومة الاتحادية بوظائف التشريع المتعلق باقوانين المدنية والجزائية والتجارية والبريد والبرق وضرب النقود والمواصلات والجمارك والخارجية . القوة القضائية في سويسرا مودعة الى ١٩ عضواً وتسعة معاونين وهؤلاء القضاة الذين تتألف منهم المحكمة العليا ينتخبهم البارلمانت ايضاً لمدة ست سنوات وينتخب الرئيس ونائبه لمدة سنتين . فيظن من ذلك ان جميع قوى الحكومة تعود الى نواب

الامة اي المجلس التشريعي فهو الذي ينتخب اعضاء القوة الاجرائية من بين افراده ورجال القوة القضائية ايضاً .

لم يشأ السويسريون ان تكون القوة محتكرة في الحكومة المركزية فحسبوا كل ولاية من ولاياتهم ذات حق بالسيادة والسلطة في الاعمال المختصة بتلك الولاية وجعلوا خضوع سكانها الى حكومة البلاد العامة متعلقاً على منفعتهم وعائداً الى اختيارهم فأصبح سكان كل مقاطعة اصحاب السيادة الاولى في بلادهم منفردين بالتشريع والقضاء والحماية في الامور التي تعنيهم وحدهم واشتركوا مع سائر المقاطعات في الامور المشتركة التي تعني الجميع وتؤثر على جيرانهم ويكون الانفاق فيها خيراً من الافتراق وهذا هو الاساس الاصلي لتأليف الاتحاد خصوصاً اذا كان التماس الداخلي مفقوداً بين المقاطعات المتجاورة فيحصل الاضطراب لتنوع الادارة وتبدل الاحكام بحسب تبدل الاماكن وطبائع السكان .

تختلف الاقوام في نثر حق السيادة بين حكومات الاتحاد وحكومات الولايات فمنهم من يجعل الاصل في حق السيادة للولاية وسكانها وعندنا تكون سيادة الاتحاد فرعاً عنها فالحقوق برمتها تعود لحكومة الولاية في الاصل الا ما أستغني عنها وحصل التخلي عنه بالنص الصريح لحكومة الاتحاد فيدرجون في المدسور الاتحادي جميع الوظائف التي انفقت المقاطعات على تركها للحكومة الاتحادية وما سوى ذلك يبقى من حكومة المقاطعات بدون حاجة الى ذكر صريح ومن هذا القبل الاصول الاميركية والسويسرية والاسترالية ومنهم من يجعل حكومة الاتحاد اصلاً سيئ حق السيادة والسلطان فيعود اليها حق التشريع برمته مانعاً الجهات التي تذكر بالاص الصريح انها نائدة لحكومات المقاطعات ومن هذا القبل حكومة كندا الاتحادية . وهذا النوع ينطبق على الدول التي تؤسس في ولاياتها عدم المركزية .

ولما كانت الولايات المتحدة الاميركية اعظم حكومة اتحادية في الدنيا آرى من الموافق ان نخصها ببعض التفصيل عن وصف الاصول الجارية فيها فتكون متالاً واضحاً في هذا الباب خصوصاً وهي أقدم الحكومات الحاضرة من هذا الشكل وعنها اخذت اكثر الدول الاتحادية اصولها ونسجت على منوالها في اكثر جهات الادارة

ومنهم من تحداهما حذر القذة بالقذة مثل جمهوريات اميركا الجنوبية واميركا الوسطى .
 مساحة الولايات المتحدة الاميركية السطحية نحو ٣ ملايين ميل مربع وعدد سكانها
 نحو مئة مليون نفس وبلغ عدد ولاياتها (٤٨) ولاية في الوقت الحاضر وقد بدأ
 بثلاث عشرة ولاية فقط . منذ نحو ١٤٠ سنة عندما قامت هذه الولايات وحاربت
 بريطانيا لاجل استقلالها وقد كانت هذه الولايات تابعة لانكلتره وهي من تجمعات
 لا ارتباط بين الواحدة والاخرى منها الا بواسطة الامبراطورية البريطانية فبعد ان
 فاز سكانها بهذه الحرب ونقرر لهم الاستقلال لم يوافقوا على الاندماج في دولة
 واحدة بسيطة وانما احتفظت كل ولاية بحقوق الماكيه لنفسها في ضمن حدودها
 واكتفوا باحداث اتفاق بينهم لاجل جمع كلمتهم وقوتهم في الامور الخارجية وبعض
 المصالح المشتركة مثل مصلحة البريد والرق وضرب النقود . وبسبب كثرة المهاجرة
 الى اميركا انتشر المهاجرون في داخل القارة وضربوا في عرضها وطولها واستعمروها
 رو يدأ رو يدأ وكما عمرت مقاطعاتهم اسسوا فيها حكومة مستقلة بحقوق مساوية
 لحقوق الولايات الاولى وانضموا الى الاتحاد وهم اليوم باقون على تلك الحالة ولم
 دانيك الحقوق التي ورثوها عن المقاطعات الاولى .

حكومة الولاية اليوم تتمتع بجميع حقوق الماكيه المستقلة ما عدا المستثنيات
 التي تحملت عنها حكومة الاتحاد . وكل ولاية لها قانونها الاساسي . ضمن الحقوق
 العامة لافراد الشعب تجاه الحكومة وكنية تشكيل الحكومة ومنابع الخزينة
 والميراثية . ولها مجلسها التشريعي المؤلف من دائرتين احدهما للشيوخ والاخرى
 للسواب ينتخب اعضاؤها من سكان تلك الولاية بالاقتراع العام وهذا المجلس يسن
 القوانين ويسيطر على الادارة بجميع اضرافها . ولها حاكمها العام الذي ينتخبه الشعب
 ايضا لمدة معينة ويتولى رئاسة القوة الاجرائية . ولها محكمتها العليا حيث تنتهي
 درجات القضاء فيها . ولها ضرائبها ورسومها واصولها المالية وديونها العامة . ولها
 قوانينها الخاصة في الامور المدنية والخزانية واصول المحاكمات . ولها قانونها الخاص
 في قضية الجنسية حتى انك تجد هذا القانون الذي يقتضي الوحدة في جميع اجزاء
 الدولة مخالفا في احدى الولايات عما هو في غيرها فترى الحقوق السياسية مثل حق

التصويت والانتخاب ممنوحاً لواحد في ولاية وممنوعاً عن امثاله في غيرها . فالفرد الاميركي قد يعيش دهره ضمن ولايته بدون ان يشعر بوجود الحكومة الاتحادية الا عندما يقدم شكوى من احدى الادارات الاتحادية كادارة البريد والبرق او عندما يدفع مكساً عن البضائع التي يستوردها من الخارج وجميع دعاويه وقضاياه تحل ضمن ولايته وفقاً لقوانين تلك الولاية . والهيئة التشريعية التي تمثل الشعب تستطيع ان تدخل اي تعديل او تحوير كان على قانونها الاساسي المستمد من ارادة الشعب فقط وليس للسلطة الاتحادية حق المراقبة عليهم مطلقاً حتى في امور التشريع سوى ما كان من جهة النص الوارد في الدستور الاساسي من ان القوانين الاساسية للولايات يجب ان تكون جمهورية فلا تستطيع ولاية ان تجعل حكومتها ملكية او غير جمهورية وفي ما عدا ذلك هي مختارة باتخاذ الشكل الذي تختاره في وضع قانونها الاساسي الذي يتضمن في الغالب ابحاثاً معينة أهمها حدود الولاية وحقوق الشعب العامة وتشكيل حكومة الولاية والمجلس التشريعي وبما كانت كيفية انتخابه ووظائفه وحقوقه وإقامة القوة الاجرائية وكيفية ايجادها ودرجة مسؤوليتها امام نواب الشعب وحق القضاء واصول اجرائه وحرية الانتخاب وشكل حكومة المحققات في الاقضية وكيفية ادارتها والايحاء الى القوانين والانظمة الموضوعة والواجب وضعها وصيانة الامن الداخلي واصول الضرائب ومنايع الخزينة وكيفية الاتفاق والسجوف والمستشفيات والاهتمام بالزراعة والمعارف والمواصلات وحقوق العمال وشرائط تعديل القانون الاساسي .

المجلس التشريعي في كل ولاية يتألف من الاعيان والنواب وجميعهم ينتخبهم الشعب بالرأي المشترك فالاعيان ينتخبون لمدة اربع سنوات والنواب لمدة سنتين وقد اخذوا جعل التشريع في مجلسين عن الاصول الانكليزية التي جرى عليها التعويب الاخرى ايضاً والغرض منه ان يكون احد هذين المجلسين معدلاً للآخر فيكون ذلك ضمن من الخطأ او التشرع في سن القوانين فلا يبق مجال للتمييز او الاستئثار او الغلط الذي يرتكبه احد المجلسين .

واما عدد الممثلين في كل من المجلسين فيختلف بالنسبة لعدد السكان في كل ولاية

ولنصوص القانون الاساسي فيها الذي يعين عدد الافراد لانتخاب النائب الواحد .
 حاكم الولاية ينتخبه الشعب عندما ينتخبون نواب التشريع ومدته في اكثر الولايات
 اربع سنوات وفي بعضها ثلاث او سنتان او سنة واحدة وهو يراقب انفاذ القوانين
 واحكام المحاكم وله حق العفو عن الجرائم وقيادة القوات المحلية في حفظ الامن الداخلي
 وهو يعين كبار الموظفين بعد ان يوافق مجلس الاعيان على تعيينهم ولكن هذا الحق
 محدود جداً لان اكثر كبار الموظفين ينتخبهم الشعب بالتصويت مثل حكام الاقضية
 الذين ينتخبهم سكان القضاء وكذلك القضاة فان انتخابهم يعود اما للشعب واما
 للمحكمة العليا التي ينتخب الشعب أعضائها . وهو يمثل الولاية في المراسلة مع الحكومة
 الاتحادية وحكام الولايات الأخر . وللمحاکم حق الابطال او حق الرد (Veto)
 وهذه صلاحية عظيمة جداً للذين يحسنون استعمالها وهي ان الحاكم يستطيع ان يرد كل
 قانون يسنه المجلس التشريعي وذلك لان الشعب قد جعل الحاكم معدلاً لحرارة
 الاحزاب ومبطلاً لنتائج التسرع الذي يقع في المجالس في بعض الاحيان فهو ينتخب
 الحاكم من ذوي الحنكة والاختبار الطويل واصحاب الدم البارد والحزم والروية ليحول
 دون الاساتات التي تذهب اليها الاحزاب السياسية . فالحاكم بواسطة هذا الحق
 الممنوح اليه يسيطر على حركات التشريع ويستعمل هذه الصلاحية معتمداً على
 ثقة الشعب به .

اما القضاة فينتخبهم الشعب او مجلس النواب او يعينهم الحاكم بموافقة الاعيان
 وهم في الغالب يقلدون وظائف القضاة لمدة طويلة تبلغ العشرين سنة وانما روايتهم
 قليلة بالنسبة الى شرف القضاء وغنى الاميركان . والقضاة مستقل في كل ولاية
 وفيها تنتهي درجات المحاكمة بدون ان يكون لحكومة الاتحاد سيطرة على محاکم الولايات
 وقوانينها واصولها . الا في الامور العائدة للقانون الاساسي الاتحادي او في
 القضايا المودعة لحكومة الاتحاد .

في مبدأ الاتحاد الاميركي كانت عواطف الشعب مستقرة في الوطنية الضيقة
 وكان اهتمام الافراد وتحمسهم منصرفاً نحو مقاطعتهم فلم يكونوا يعبأون كثيراً بالدولة
 المركبة التي كانت منقطعة عن الشعب انقطاعاً تاماً غير ان هذه الحالة اخذت تتبدل

في غضون القرن التاسع عشر تبداً محسوساً وذلك بسبب الترقى الذي احرزته التجارة والعلاقات الخارجية فصارت مصالح كل شعب غير محصورة بالمنطقة الضيقة التي يعيش فيها بل كثرت علاقته مع الخارج وكان غنى الشعب الاميركي واتساع ثروته وانتشار تجارته خادماً لاحداث انقلاب في عواطفه نحو الحكومة الاتحادية التي تمثله في الخارج وتحمي تجارته ومصالحه الواسعة . كما ان انتشار الاحزاب السياسية المؤسسة على اختلاف جهات النظر في الامور السياسية الخارجية والتدابير الاقتصادية العامة جعل كل فرد من السكان مضطراً الى الانتماء لاحد هذه الاحزاب التي جمعت تحت الويتها سكان الولايات كافة ووجدت ميول كل فريق منهم فتكون منها فرق منتشرة في جميع انحاء البلاد وانظارها متجهة الى مقاصد معينة وموحدة بين جملة الافراد المنتمين الى احدى الفرق فلم يعد للمنطقة الضيقة تأثير على منافع المنطقة الواسعة واصبح الفرد يتساهل في تنحية المصلحة المحدودة في مقاطعته لصيانة مصلحة حزبه وتأيد سياسته الرامية الى المصلحة العامة الواسعة . وكذلك الحرب الاهلية التي احدثها عجز الانفصال في واسط القرن التاسع عشر آلت الى المخذالم وانصداع شأنهم وانتهت نصرة القائلين بالاتصال والاتحاد فقويت كلمتهم واعتزت مكانتهم وكان هذا من جملة الاسباب لخدمة مصلحة الاتحاد . كما ان الحروب الخارجية التي جرت في آخر القرن الماضي مع اسبانيا وفي القرن الحاضر مع دول اوربا آلت لدخول الاميركان في السياسة الخارجية التي تمثلها حكومة الاتحاد وبما ان هذه الحروب ايضا انتهت بانتصار الاميركان وتعزيز شأنهم فقد قويت بها كلمة الاتحاد وكاد نفوذه يستلزم النفوذ المحلي .

ليس للحكومة الاتحادية الاميركية اراض تديرها رأساً ضمن الولايات سوى منطقة كولومبيا الصغيرة التي فيها العاصمة واما التوسع السيارى الاخير ألحق بالجمهورية الاميركية جميع اراضي الاسكا الواسعة وجزائر الفيلبين التي اقتنصتها من الاسبان وجزائر هاواي وبورتوريكو وترعة نياما فبقيت هذه البلاد تدار من قبل الحكومة الاتحادية رأساً وبقيت الحكومات المؤسسة في هذه المستملكات تأنمر باسم حكومة واشنطن .

عندما انفصلت الولايات الثلاث عشرة عن بريطانيا اعلنت كل منها استقلالها سنة ١٧٧٦ اراتنق بعضها مع بعض بروابط ضعيفة جداً واقامت المجلس العمومي (Congrès) الذي لم يكن لديه قوة مطلقة ولم يكن له النفوذ على المقاطعات بشيء فشمّر السكان بحاجة بـاتحاد ائمن من هذا الاتفاق وقام المفكرون منهم يطالبون به حتى اجتمعت لجنة في هذا المجلس ووضعت الدستور الاساسي سنة ١٧٨٧ فقبلته تسع ولايات وانتخبت جورج واشنطن اول رئيس للجمهورية المؤلفة بموجب ذلك الدستور ثم لحقتها بقية الولايات تدريجاً وانضمت الى الجمهورية . وكان لهذا الدستور الاميركي الاول تأثير عظيم ليس على سياسة اميركا فقط بل على سياسة الدنيا ايضاً لانه وضع القاعدة القائلة بالحاكية الشعبية وان كل قوة او سلطة او سيادة ليس لها منبع الا الامة وارادة الشعب فقط وان الامة لا تحكم الا بالصورة التي تريدها . وقد اشتهر هذا الدستور بصراحته وانقائه ومبادئه التشريعية حتى قيل انه افضل دستور من نوعه وضعه البشر الى العهد الحاضر وبموجبه تأسست الجمهورية الاميركية الحاضرة .

اما المبادئ التي أسس عليها فهي :

(١) : احترام ارادة الشعب .

(٢) : بقاء السيادة الاصلية للمقاطعات فكل حق من حقوق الحاكية غير مصرح بمنحه لدولة الاتحاد يبقى لحكومة المقاطعة .

(٣) : اعتبار مجموع المقاطعات الداخلة في الاتحاد دولة واحدة ووطناً واحداً وتأسيس حكومة وطنية اتحادية لمصلحة هذا الوطن الواحد .

(٤) : لتتلى المقاطعات لهذه الحكومة الوطنية عن كل وظيفة واجبة لحياة الامة بصفتها شعباً مجتمعاً وهذا يشمل الامور المتعلقة بصلات الامة مع الدول الخارجية ويشمل الامور الداخلية التي ادارتها من قبل دولة الاتحاد وانفع لمصلحة الامة من ادارتها من قبل حكومات الولايات . وقد فصل الدستور وظائف الدولة المركزية وحصرها بالامور الآتية :

(١) : تطرح وتجي التكاليف الواجب اطرادها على غط واحد في جميع الولايات .

(٢) : تعقد القروض باسم الولايات المتحدة وتكون عقودها ملزمة لجميع الولايات .

- (٣) : ننظم التجارة الخارجية والتجارة الداخلية المشتركة بين الولايات .
- (٤) : نضع قواعد مطردة للتابعة وللأفلاس نراعى اصولها في جميع الولايات .
- (٥) : تسك النقود وتضع معياراً للمقاييس والمكاييل والموازين .
- (٦) : تؤسس دوائر البريد وثنشئ الطرق البريدية .
- (٧) : نفرد بصيانة حقوق التأليف والاختراع والعلامم الفارقة والحقوق الصناعية .
- (٨) : تؤسس محاكم تابعة للمحكمة العليا .
- (٩) : تعلن الحرب وتعقد الصلح وتستحوذ على الغنائم الحربية .
- (١٠) : تجمع جيشاً وثنشئ اسطولاً حربياً .
- (١١) : ندعو القوى الوطنية المعروفة بالميليس وتجهزها للخدمة اللازمة بحسب ما تقتضيه مصلحة الولايات .
- (١٢) : تتولى الحاكمة المنفردة في البقعة المعينة مقرأً لحكومة الاتحاد والاماكن المتخذة للاستحكامات الحربية .
- (١٣) : تسن الشرائع اللازمة لانفاذ هذه البنود والقيام بهذه الوظائف .
- (١٤) : تسن القوانين الواجبة لحماية الافراد تجاه اي تشريع كان تصدره مجالس الولايات خلافاً للحقوق العامة المنصوص عنها في الدستور .
- وقد اوجب الدستور على كل ولاية ان توفد مندوبين من قبلها يمثلانها في مجلس الشيوخ العام وان توفد مبعوثين الى مجلس النواب على نسبة عدد سكانها . واوجب عليها ان ننظم القوى الوطنية وتحضرها وتجعلها عند الحاجة رهن امر رئيس الجمهورية ليستخدمها في المصالح الوطنية العامة . ومنح ايضاً للمحكمة العليا التي هي احد اركان دولة الاتحاد حق تفسير مواد الدستور فكل قانون تسنه المقاطعات يعرض على هذه المحكمة حتى اذا رأت فيه مخالفة لروح الدستور تمنع عن اجازته فلا يكون نافذاً . وقد حفظت حقوق الدولة الاتحادية بما لها من حق الحكم المباشر على الافراد فكل مخالفة للدستور ولائمة الاتحاد يحاكم اربابها ويعاقبون لدى محاكم الاتحاد رأساً كما ان الاموال التي تجبي لحساب خزينة الاتحاد مثل المكوس ورسوم الاستهلاك يجبها جباة الدولة

المنتشرون في كل بلد من بلاد الاتحاد الاميركي فلا تحتاج الدولة المركزية الى مراسلة حكومة الولاية وطلب انفاذ قوانينها منها وانما ترسل موظفيها الذين يجرون وظائفهم بدون حاجة لمناصرة من الحكومة المحلية . وقد اباح الدستور للحكومة المحلية ان تطلب المعونة من الدولة عند وقوع عصيان في الولاية او حصول تعدد خارجي عليها والدولة تلي طلبها وتضمن لها ادارة جمهورية حرة مصونة من العصيان الداخلي والعزو الخارجي .

قلنا ان المجلس التشريعي له دائرتان احدهما الاعيان او الشيوخ والثانية النواب فالشيوخ توفدهم الولايات بمعدل اثنين لكل ولاية مهما كانت عدد سكانها فولاية نيويورك مثلاً التي سكانها نحو عشرة ملايين توفد اثنين وولاية نيفادا التي سكانها ٨٢٠٠٠ توفد اثنين ايضاً واما النواب فينتخبون بالنسبة لعدد السكان وهم مخيروا اما بانتخابهم على اساس الناحية بنائب واحد او على اساس الولاية دفعة واحدة وانما جميعهم الآن الا واحدة اختاروا الشكل الاول وقد كان عدد النواب عند تأسيس الاتحاد ٩٥ حتى صار الآن نحو ٤٠٠ نائب .

رئيس الولايات المتحدة تنتخبه لمدة اربع سنوات هيئة خاصة تنتخبها الولايات لهذه الغاية فكل ولاية تنتخب عدداً من الناخبين بقدر مالها اعضاء في المجلس الكبير (Congrès) من اعيان ونواب وهؤلاء الناخبون يجتمعون في كل ولاية يوم الاثنين الاول من شهر كانون الثاني من سنة الانتخاب وينتخبون الرئيس ونائبه بالرأي الحفي ويرسلون غلافات الانتخاب الى العاصمة فيفتحها رئيس الاعيان بحضور المجلس العمومي ونتم الاكثرية من العدد المرتب فاذا لم تتم هذه الاكثرية لاحد ينتخب النواب الرئيس والاعيان نائبه . والرئيس هو رأس القوى الاجرائية في البلاد وله حقوق معادلة لحقوق الملوك في البلاد النيابية ومجموع مخصصاته مئة الف ريال في السنة . وحقوقه تزيد في زمن الحرب حين يصبح مسيطراً على جميع القوى الوطنية وصاحب الامر المطاع في سبيل الدفاع الوطني وصيانة شرف البلاد ومجدها . والاجراء محصور فيه وليس هناك وزراء بل رؤساء الشعب الخارجية والحزينة والحربية والنائب العام والبحرية ورئيس البريد العام في الداخلية والزراعة و (التجارة والعمل) .

القضاء في اميركا مستقل عن سائر القوى وقوامه المحكمة العليا التي تقابل محكمة

التميز مؤلفة من تسعة قضاة يعينهم الرئيس بموافقة الاعيان لمدة الحياة و يوجد محاكم استئناف وبداية في الولايات لاجل رؤية القضايا المتعلقة بالاتحاد فقط وهي القضايا المتعلقة بالدستور او بالسفراء والوزراء والقناصل او بالبحرية والقضاء البحري والتي تكون الدولة فيها احدا الخصمين او تكون احدى الولايات خصماً مع ولاية أخرى او مع احد سكان ولاية أخرى . والمحكمة العليا لها تفسير معاني الدستور الاساسي وانما لا تفعل ذلك الا في معرض الخصومة والقرار الذي تصدره يسري على تلك القضية المحكوم بها . وقد نجحت الدولة الاميركية ضمن هذا الاتحاد وحاء موافقاً لمصالحها الداخلية والخارجية وسبباً لازدياد ثروتها وارتقاء عمرائها وان كان الفضل الاول في ذلك لاخلاق الشعب وخصب البلاد .

فارس الحوري



طُرْفَة ادب من آداب العرب^(١)

—••••—

أيها الاخوان !

إذا قرأتم مقامات الحريري سمعتموه يقول في فاتحة كل مقامة « حكي الحارث ابن همام » راوياً أخباره عن « ابي زيد السروجي » . وإذا قرأتم مقامات « بديع الزمان الهمذاني » ألفتتموه يقول « حدثنا عيسى بن هشام » مخبراً عن « ابي الفتح الاسكندردي » . وها أنا ذا اليوم أسمعكم مقامة لم يروها الحارث بن همام . ولم يحدث بها عيسى بن هشام . وإنما حدث بها « ابو المطهر الازدي » — عن « ابي القاسم البغداددي » .

فموضوع محاضرتي هذه مقامة من مقامات الادب . ابتدئها أحد كتاب العرب . وافرغها في اسلوب عجب . وقد أعثرتا عليها الدهر المكنى ابا العجب .

* * *

المقامة في اللغة معناها المجلس يقوم فيه الناس . ثم أطلقت مجازاً على الخطبة او الموعدة التي تلقى في المجلس . وبعد ان ألف (البديع) و (الحريري) مقاماتهما اصبح للمقامة معنى خاص مراعى فيه الوضع والاختراع . فمن ثم يصح ان يُقَالَ بل « فنّ المقامات » في آدابنا العربية بـ « فنّ الروايات » في الآداب الافرنجية : من حيث أن كلاّ منهما يُفرغ في قالب قصة ذات وقائع خيالية . واستخاص او أبطال خياليين . اكنّ « فنّ المقامات » عندنا ذوى واضمحجل . اما فنّ الروايات عند الافرنج فقد أخصب ونما . واصبح شجرة باسقة : اصلها ثابت وفرعها في السماء . والذي دعا البديع والحريري الى انشاء مقاماتهما . وافراغها في هذا القالب المفكّه

(١) هي المحاضرة التي القاها الاستاذ (المغربي) في ردهة المجمع في ٢٠ تشرين

الاول سنة ١٩٢١ .

المسلّي هو ملل أهل عصرهما من حالة الأدب القديمة . ومن طريقة المؤلفين والمنشئين في إيراد الحكم . وسرد الوقائع . ورواية الاخبار المختلفة .

وإذا تأملنا في كل تجديد أو نهضة تحدث في الكون سواء أكانت دينية أو سياسية أو اجتماعية أو أدبية نرى معظم السبب المؤثر في حدوثها هو ملل الناس . فيجعلهم هذا الملل على تطأب شيء جديد يناسب حالتهم الاجتماعية والفكرية التي وصلوا أو ارتقوا إليها : واذذاك يظهر النابغون والمصلحون والمجددون وزعماء النهضات . خذوا مثلاً النهضات المتوالية في آدابنا العربية : فأت العرب قبل الاسلام بنحو نصف قرن مأوا سماع أساليب فصاحتهم الكلامية الأولى التي ربما كانت موروثية لهم من عهد حمورابي فنهض (قس بن ساعدة) و (امرء القيس) و (الأعشى) الذي كانوا يسمونه صناجة العرب فشققوا الكلام وذهبوا فيه مذاهب أطربت العرب . واستهوت أفئدتهم .

ثم بعد نحو مئة سنة عاد الناس فمأوا طريقة أصحاب المعاني وأجروها . وما يروى في ذلك قول بعض العرب يعبر بني تغلب :

(ألهي بني تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم)

(يروونها أبداً مذ كانت أو لهم يا للرجال لشعر غير مستوم)

فكان من أثر هذا الملل أن نهض في دولة الامويين (عبد الحميد الكاتب) و (جرير) و (الفرزدق) فأحدثوا طريقة غضة كانت أشد التحاماً بحالة العرب وأذواقهم وهم في طورهم الاجتماعي الاسلامي الجديد .

ثم كثر على ذلك قرابة مئة سنة وكانت قامت دولة بني العباس بخلفائها . ومجالس غنائها وندمائها . وقد ملّ الناس طريقة (جرير) و (الفرزدق) ومناقضاتهما . و يروى من آثار هذا الملل أن الشاعر كان إذا وقف بين يدي جعفر البرمكي للانشاد قال له : « قل ولا تطيل فاني أمل الأطالة » . وكان المأمون لا يحب أن يسمع سوى البيتين أو الثلاثة في مدحه وشيء من التشبيب والوصف .

فنهض (عبد الله بن المقفع) و (أبو نواس) و (بشّار بن برد) الذي سماه بعضهم « أبا التجدد » فأسمعوا الناس عجباً . وأوسعهم طرباً .

ثم بعد مئة سنة ملّ الناس وسجروا من تكرير المهاد فنهض (أبو تمام) و (الجعفي) و (الجاحظ) الذي يدعى (ملك الانشاء) . ويكفي ان اذكر اسماء هؤلاء الثلاثة لتعلموا أيها السادة مبلغ تأثيرهم في تجديد الآداب العربية .

وقد أصبح الناس بتأثير حضارة هذا الزمن يميلون الى الغلو في النقد . والتفنن في الوصف . وذكر أخبار الناس . وما يقع للخلفاء والامراء في مجالس لهموم . وكل مستملح من الحديث . ومفكهم من الشعر . حتى قال الجاحظ : إن الناس في عهده ما كانوا يأنفون من إنشاد أغاني المعتمهين وأهازيج اللصوص وأشعار اليهود .

ثم انتقل الناس من القرن الثالث الى القرن الرابع الذي فضجت فيه الحضارة العربية أتمّ تضج . وبلغ الناس من الدرف حداً تطأبوا معه أقصى ضروب المفكّهات والمسآيات . بعد أن كانوا مأمواً ترديداً اقوال أدبائهم السابقين . وأحبوا ان يسمعوا غيرها الى حدّ ان كان يلذّ لهم سماع أشعار السقّابين الذين يحملون القرب . والمازين على جسر بغداد . والمسحورين في رمضان . وأخبار سياحات البرّ والبحر . التي كثرت في ذلك الزمن . وسماع عجائب الهند . وجزائر واق الواق . وما وراء جبل قاف . وكان حاملوا لواء هذا التجدد أو النهضة التي انظرها الناس (المتنبي) و (بديع الزمان الهمذاني) فكان أسلوبهما في الشعر والنثر وثقتنهما فيهما عهداً جديداً في الأدب العربي . والشعر العربي . والتأليف العربي .

وامتدت هذه النهضة الى القرن الخامس الذي مات فيه أواسطه (أبو العلاء المعري) و بها ختمت نهضات الادب الخمس . ثم كرّرت بعدها ثمانية قرون . أخذت تضعف فيها حيائنا الاجتماعية بالتدريج . وفي آخر الامر لم نعد نشعر بمثل بل ولا ألم . حتى كانت هذه العصور المتأخّرة فأخذ يدبّ فينا ديبّ الحياة . وعاد اليها الشعور بالملل من أدبنا القديم . ونهض شباننا يتلمسون أدباً عربياً جديداً . يناسب مدينة القرن العشرين . و يلتحم مع آداب الامم الراقية التي تعيش فيه .

وفي النهضة الادبية العربية الخامسة التي قلنا إنها هي الأخيرة عمد الأدباء والكتاب الى وضع تأليف تحدث في النفوس تسليّةً ونشاطاً . موافاةً لرغبة الناس

وسدّاً لحاجاتهم كما ذكرنا . كذلك فعل البديع الهمداني في مقاماته المشهورة . والاصفهاني في كتابه الاغاني . وأبو العلاء المعري في رسالته « الغفران » .
 لكن بعض المؤلفين والشعراء في هذا الدور تجاوزوا حدود الأدب الى الجون والهزل وسمونه (إحماضا) . وكانوا يعتذرون عنه أحيانا كما اعتذر الحريري في مقاماته عن بيتي كخفات الشتاء مذ قال « وما قصدت بالإحماض فيه . الا نشيط قارئه . وتكثير سواد طالبيه » .

والجون في أدبيات الام أثر من آثار حضارتها وانعاسها في الترف . فليست الامة العربية بدعاً من سائر الامم : فإنها كلها — قديمها وحديثها — لها في آدابها من ضروب السخف والجون واختراع وسائل للشهوات ما كان ليخطر ببال العرب . ومن لطيف المصاوفات أنني بعد أن وصلت في كتابة المحاضرة الى هنا اطلعت على مقالة في مجلة (Lse Annales) الفرنسية يشكو فيها كاتبها من كتب الجون والخلاعة التي طغا طوفانها على الباريزيين . ولفت الكاتب أنظار الحكومة الى ملافة هذا الشر . فقلت في نفسي ها إن (باريز) التي هي عروس الحضارة الاوربية اليوم قامت تشكو مما كانت تشكو منه اختها بغداد عروس الحضارة العربية أمس . ولشد ما كان التاريخ يعيد نفسه .

في هذا السور الاخير من حضارة بغداد كُتبت مقامة (ابي المطهر الازدي) التي جعلناها موضوع محاضرتنا هذه . وهي من الكتب التي تستعجن فيها كتبها وتخالع . وأودعها من القول ما لا يحسن ذكره . لكنه والحق يقال كتبها بأسلوب لا نظير له في كل ما كُتِب واطلمنا عليه من نوعه . حتى أعجب به المستشرقون ايّما إعجاب . وليس اعجبهم به من حيث بلاغة أسلوبه . وتجويد سبك عبارته فقط . بل من حيث افقته في وصف شؤون كثيرة من حضارة العرب . وطرق معاشهم في القرن الثالث الى أواسط الخامس .

وهذا ما نحب ان نُصغي اليه نحن من هذا الكتاب العجيب . ونعرض عما فيه من الجون الذي لا يحسن ولا يطيب .

وفي الكتاب كلمات وأساليب لا يمكن ان نوفيها حقها من البحث الآن . فنجتزى
بالإشارة اليها :

من ذلك كلمات استعملها المؤلف منذ ألف سنة ونحن نظن أنها أحدث عهداً : نحو
كلمة (نفضَل) في الدعوة الى الطعام و (بقَال) لبائع الجبن والزيتون ونحوها
و (شوربا) لنوع من الطعام أظنه غير الحساء المعروف اليوم و (ألحان شجوية) أي
مطربة و (له فرد كم) أي كم واحد و (كأس خمر يدوخ) أي يورث الدوار
و (ماء الليمو و حمّاض الليمو) يعني الليمون ولما حذف النون يا ترى ؟ ويظهر ان
الليمون كان معروفاً في ذلك العهد كالترج والنارنج . و (بن) لكنهم كانوا يريدون
به ضرباً من الكوامخ لا سيما الاسود المعروف ثم استعاروا كلمة (بن) لهذا الذي نعرفه
كما استعاروا له كلمة القهوة وهو من اسماء الخمرة . وكلمة (أفّيه) للدلالة على التقزّز
من الرائحة الحبيثة و (أشه) للدلالة على صوت العطاس .

ومن أغرب كلماته كلمة (شير) وانشأ فقال (شيرة) والشير نسمها في لبنان
ويعنون بها الصخرة المشرفة من جبل . هذه الكلمة لم يذكرها علماء اللغة فهي عامية
أي موالدة . ولعلها سريانية عرفها العلماء في زمن العباسيين كما عرفناها بعد الف
سنة مذمتعناها من اللبنانيين . وربما كانت من جملة الكلمات السريانية الباقية في كلامهم
وقد فسّرها في (الفرائد الدرية) بقوله : (الشير — Roc près de tomper) .

ومن الكلمات الفصيحة التي كانوا يستعملونها في القرن الرابع ومات بعد ذلك — كلمة
(نقاط) للسراج الذي يستضاء به بواسطة زيت النفط أي زيت البترول غير
المصفى . فنصلح لانسميَ بها مصابيح البترول اليوم . وكلمة (جذور) جمع جذر
وهي أجور المغنيات وكلمة (مفردات) في وصف الاشياء إذا كانت لانظير لها
فيقولون مثلاً (مفردات الاخبار) أي عيونها ونوادرها . وكلمة (متخلف) و (مذبر)
يصفون بها من كان مشغولاً بشيء الحظ غير موفق في أمور حياته . ويجمعون
(مدبر) على (مدابير) .

ومن غريب ما رأيت فيه من الكلمات جمعه (التي) بالتين قياساً على الدين

وابن مالك يقول : (بالآلات واللائي التي قد جمعا) وأغرب منه استعماله (تا) بمعنى (حتى) فقال من بيت شعر :

(لم يزل يفعل كذا تا تهورت الخ)

اي حتى تهورت . و (تا) اداة تركيبة كما لا يخفى . ولعل وزن الشعر هو الذي اضطره الى استعمالها ؟

ولنضرب صفحا عن تحليل الكتاب لغويا ولنعمد الى الكلام على مضامينه اجتماعيا :

قلنا ان الكتاب مقامة اي رواية عربية . وأن بطاها اسمه (ابو القاسم البغدادي) وهو خيالي كآبي زيد السروجي وعيسى بن هشام بطل مقامات البديع والحريري . اما (ابو المطهر الازدي) الذي كتب هذه المقامة فهو — وان لم نظفر بترجمته فيما بين أيدينا من كتب التراجم — أديب من أدباء القرن الرابع . وربما امتد عمره الى أواسط القرن الخامس : بهان ذلك ان أبا المطهر المذكور من اصحاب (ابي عبد الله ابن الحجاج) الشاعر المشهور يفهم ذلك من مقدمة الكتاب التي كتبها ابو المطهر نفسه . وابن الحجاج المذكور مات سنة (٣٩١) فيكون ابو المطهر ولد في أواخر القرن الرابع . ثم ان ابا المطهر ذكر في كتابه بين الأدباء الذين روى شيئا عنهم (ابن غيلان البزاز) . وقال المستشرق ناشر كتاب ابي القاسم في المقدمة التي وضعها له — ان (ابن غيلان) مات سنة (٤٤٠) فهذا يدل على ان ابا المطهر عاش الى أواسط القرن الخامس . ولم يمكننا ان نعرف عن الزمن الذي وُلد فيه ابو المطهر ومات فيه اكثر مما ذكرنا .

وابو المطهر عاش في زمن البديع الهمداني صاحب المقامات الذي مات سنة (٣٩٨) فيكون قد عرفه وعرف مقاماته . كما عرف ابا عبد الله ابن الحجاج وعاشره وسمع مجاناته . و (البديع) هو واضع فن المقامات كما شهد له بذلك الحريري مذ قال : (انه جرى في بعض أندية الادب ذكر المقامات التي ابتدعها بديع الزمان وعلامة همدان) ويعني بقوله ابتدعها اخترعها وسبق غيره الى تصنيفها . وكما أن

البديع كانت في ذلك الزمن (نابغة المقامات) كان عبد الله بن الحجاج (نابغة الخلاعات أو المجانات) . وقد عاشرهما (ابو المطهر) كليهما . فلا جرم ان يكون في مقامته التي سماها (حكاية ابي القاسم البغدادى) قد جمع بين ما استفاده من النابغتين: التفنن في سبك وقايع المقامة وتأليف اجزائها وهو أمر استفاده من البديع — والتفنن في السقه والمجون والخلاعة وهو ما استفاده من ابن الحجاج . فجاءت مقامته في البلاغة آية . وفي المجون نهاية .

ومما يستغرب ان (ابا المطهر الازدي) لم يسم مقامته (مقامة) بل سماها حكاية مع انه استعمل كلمة (المقامة) في مقدمتها التي كتبها لها فقال : (أشعار لنفسي دوتنها . ورسائل سيثرتها . ومقامات حضرتها) .

و يستغرب أيضا أن احداً من المؤلفين لاسيما كتاب الفهارس والتراجم وشرّاح المقامات لم يذكر (حكاية ابي القاسم) التي ابتدعها ابو المطهر مع أنها أعجب أسلوباً . واغزر شؤبياً . من كل ما كتبه (المقاماتيون) . وليس ذلك في غالب الظن إلا لما حوته من السيف والمجون . فلم تُدأولها أيدي النساخ ولم يكتب منها سوى النسخة التي ربما كانت نسخة المؤلف نفسه فعلمت بها أيدي المستشرقين فرأوا فيها من وصف الحضارة الاسلامية في القرن الرابع والخامس ما حملهم على طبعها ونشرها .

(وكنا كتبنا الى العلامة احمد تيمور باشا نسأله رأيه في حكاية (ابي القاسم) مجاً . نأمنه الجواب وبهيل إلقاء المحاضرة في (ردهة المجمع) فتلونا ما كتبه على الجمهور وهذا نص ما قاله :)

(حكاية ابي القاسم البغدادى) تحتوي على أحاديث مضحكة وضعها مؤلفها على رجل يقال له ابو القاسم البغدادى وقد جاء في (ص ٣) ان اسمه أحمد بن علي التميمي لكن في (ص ١٤٥) انه علي بن محمد التميمي وفي (ص ٨٧) انه كان موجوداً في سنة ٣٠٦ والظاهر انه شخص وهمي جعل وسيلة لوصف الحالة الاجتماعية ببغداد في ذلك العهد . وقد ضمن المؤلف هذه الاحاديث اشياء من وصف الخيل والبغال والحمير والأطعمة وأنواع الفساقية والرياحين والأعطار وأسماء السفن وذكر ألفاظاً

من لغة الملاحين والعيّارين وغير ذلك . وذكر من كان ببغداد من القينات حوالي السنة المتقدم ذكرها باسمائهن واسماء من كانت يعاشرهن وكثيراً ما يستشهد بآيات لابن حجاج : بعضها نسبها اليه وبعضها أغفل نسبتها . أما زمن المؤلف فلم تقف عليه غير أننا رأيناه ينقل في (ص ٨٠) أبياتاً لابن نباتة السعديّ (المتوفى سنة ٤٠٥) فهو إما أن يكون عصره أو بعده بقليل لأن ما أتى به من الوصف في القصة يدل على أنه لم يكن بعيداً عن ذلك العصر اهـ .

وموضوع مقامة (أبي المطهر) أن رجلاً يدعى (أبا القاسم البغدادي) كان في أصفهان فزار مجلساً لبعض كبرائها وكان في المجلس طائفة من أهل الفضل والأدب فأخذوا يداعبونه . ويستنبطون دقائمه وهو يطرفهم بكل ستماح عجيب من نكته ونوادره . لا سيما تفضيل (بغداد) على بلدهم (أصفهان) وإنها كانت أرفع شأنًا . وأنصر عمرانا . وأكثر استجماعاً لمرافق الحياة . وبلهنية العيش . وكان أبو القاسم هذا أديباً عجيباً في بلاغته . وقوة بارعته . عزيز المادة في اللغة والأدب والشعر وصناعة الإنشاء والنقد في صوغ الكلام وحوكه . ولكنه وبالاأسف كان اجناً خليعاً مفرطاً في السخف . فلم يكن يتحاشى ذكر شيء منه في ذلك المجلس . وكان يدور الكلام بينه وبين القوم بشكل المحاورّة والسؤال والجواب . ولقد طال ذلك الحديث بينهم وامتدّ النفس فيه فكان كتاباً استغرق نحو مئة وخمسين صفحة متوسطة القطع .

أراكم أيها السادة قد ظمئتم الى سماع شيء من تلك المقامة . فدونكم منها ما يسهه الوقت . ويليق بمجلسكم الكريم . نذهب أولاً الى أصفهان وندخل مجلس ذلك العظيم الاصفهاني . لكننا نقعد في معزل عن الجماعة كي لا تقع علينا عين ذلك الماجن البغدادي فيرشقنا بحصاته . ويصيبنا شيء من أذاته التي كانت تصيب الحاضرين . ولم يسلم منها ربُّ الهادر المسكين .

يجري ذكر أصفهان . فيذمه (أبو القاسم البغدادى) فيقول له : الآخرون
(يا أبا القاسم ! قد أسرفت . بعض هذا ! !) فيقول لهم :
أحكمكم الى شاهد منصف : الى السمع . فأتكلم أولاً في الأسماء . الى أن
نصير الى حقائق المعاني . فنتكلم فيها .

ثم يشرع يذكر لهم أسماء أماكن في بغداد . مثل (الرصافة) (درب الریحان)
(سوق العروس) الخ . ثم يقارنها بأسماء أماكن في أصفهان : مثل (كورسان)
أي المقابر (موشكاياذ) أي موضع الفار . (كوي كدای) (درب الهُم) . (كوي
كوران) (درب الهُمي الخ :

ثم يهيج شوقه الى بغداد فيقول : هل أرى والله دجلة مشحونةً بالمراكب
والزوارق . مخوفةً بالقصور والجواسق . يرتفع ما بينها أصوات الاغاني . وخفقان
النسايات والسواني . واصوات الملاحين . وزعقات المؤذنين . إن رأيتَ ترَ والله
جمالاً وكلاً . وتسمع من ألحانها الشجيرةً سحرًا حلالاً :

(امري لقد فارقتهم غير طائع ولا طيباً نفساً بذاك ولا مقرر)

(أو قال : ما ذا نأى بك عنهم ؟ فقلت لها : لا علم لي . فأسألي القدر)

ثم يصف خيل بغداد فيقول وفيه المبالغة :

(مشترف الهادي كأن أذنه تصغي الى سرِّ حديث السَّما)

(فلم يكن يُسرج الا إذا وضعت في حاركه سلماً)

ثم يصف الفرس من خيل أصفهان فيقول : قد تَفَخَّ التبن بطنه : فهو كالغرارة .
نسبه عند الركض الحارة . ويُفزعُه صوت الفارة . وإما مهزول كاللِّفِ عَجَفَا .
او كالشَّنِّ البالي دَنَفَا . يعثر بالبعرة . ولقيته الشعرة . قدأكل الجرب جلده .
وحصَّ ذنبه وناصيته .

(عظامه قد ظيرت كلها كأنها من حطب يابس)

ووصف الحمار من حميرهم فقال : أسود مثل النَّفَس . كالقربة البالية او زيق
الدبس . إن وقفه راكبه على جماعة أدلى . وان تركه أدبر وتولَّى . وإن امسكه

أَتعب يديه . وان حرَّكة خلع رجليه . من مَعرَزٍ نخديه . وان غفل عنه قام .
وان سلَّم على مستقرِّلٍ جثا تحته ونام .
ثم قارن بين الدور والاثاث والحُصُر والثياب والطيب في البلدين . فقال عن
أصبهان : وقتيانكم بالابراء وعمائم القطن السكَّلية . تعلق في أهدابها خيوط خضر
وحمر . واهل السوق : لو عُصر قميص أحدهم يخرج منه جرَّة دهن .
ووصف الخروان وصحافه فقال لأهل اصفهان :
ولا أرى بين يدي أحدكم خرواً قوائمه من خلنج^(١) خراساني . بلا وصل
ولا كسر . كأنه طبق منشور . او قطعة بلَّور . او ثوب ونبي . يستغل الانسان
بالنظر اليه . عن الاكل عليه . فوقه رُغفان مخبوزة من دقيق (فاق الهويدي)
و (الطنيسيري) طحن (العروب)^(٢) أبيض فيه صفرة . عجينه مثل الكعك : يمتد مثل
الكندُر^(٣) و يلتزق بالاصابع . يشرب الكأوك منه دابة . حبره يصير تحت الاخراس .
و يتعلَّك حتى يوجع الفك عند مضغه . النظر اليه يشبع . وانقمة منه تبلغ القلب .
وسكاريج^(٤) : فيها الجبن الدينوري الحرييف الذي يفنق الشهوة . ويجرك المعدة .
وز يتوب دقوقي^(٥) مدخن . مخلوط باللوز المقشَّر والصغار . تشتط اترتونة على
الرغيف فتملؤه زيتا . ويتدحرج كأنه بنادق عنبر . وجبن رومي مقلو . تدمع
عين آكله من حرافته . حتى كأنه فارق أحبابه . ابيض . شرب صفرة . أملس .
حديث . تاكل القالب منه برغيف . لا ينفخ ولا يبطش . ولا تسم له
سهوكة^(٦) . ينقي المعدة . ويلحس البلغم لحسا . وباذنجان محلى بماء حب الرمان .
يصرع بمحموضته الطير من جوف السماء . ويقلع من المعدة الصفراء . وأشم رائحته
من فرسخ . يضرَّس قبل أن يؤكل . وصدور البط بماء التفاح . وماء حب الرمان
والتوت الشامي . وارض بلبن حليب . قد ترك فيه الزعفران . ورُصع بالحُمص .
وذُرَّ عليه سكر مدقوق قطايف لطايف . مقلوة مفرقة في الجلاب . منضودة
في جامات البلور المخروط . والصحن الصيني الملونة .

(١) ضرب من الشجر (٢) هو الحصابان (٣) صحاف المسهيات (٤) نسبة الى

(دقوقا) وهي بلدة بين ايربل وبغداد (٥) رائحة كريهة .

و يُرفع الطعام و يأتي بعده فرّاش متهلل الوجه • نظيف الثياب • حسن الثمانل •
خفيف الروح • يده خلال سلطاني مقوم • كأنه مداري ^(١) الفضة • من عمل
(نجاح الاسود) • فيناول الجماعة منه بتلطف •

ثم وصف الطست والابريق والمنديل الذي يتمسح به وصفا عجيبا ثم قال :
هذه أوصاف موائد العراق التي مأرى والله شيئا منها عندكم : انما ارى مائدة
بلا خل ولا بقل • كشيخ بلا فهم ولا عقل • مبسوطة على سفرة رؤيد شنية • بساط
الارض أنظف منها • عليها عوض البوارد ^(٢) باذنجان بسته • شلجم بسته • خيار بسته
قثا بسته • زعرور بسته • أحرق الله بسته • فكم بسته ؟ ! أما الشواء في مائدتك
فهو والله قلوب الحاضرين •

وأرى قدورا تطبخ بلحم البقر الغلاظ • لا يفسخ لحمها باليدين • يأخذ أحدكم
قطعة اللحم بيده • ويجذبها بأسنانه • فترشش على وجهه ولحيته وثيابه • ممزوج ذلك
الحم بمرق • يجري عليه الزورق • تغوص يد الانسان فيه الى المرفق • حتى يجدا اللحم • •
مما يأكله الوفادون والزبالون • مخنوما ذلك كله بالعنب الاسود • وبحلاوة مدلوكة
باليد • يأتي بعد ذلك قروي سوادى ^(٣) كهل • سبي قد الجمل • بلحية شمطاء
كتة • وحالة رزية رثة • يده أقطاع حطب • يناولهم للتخلل • ثم يسوقهم الى
صحن الدار • ويجمعهم لغسل الايدي • على بالوعة تختتم والله الأنوف من روائح
القاذورات المجموعة فيها الخ •

ولا أرى في قواكم عنبا رازقيا كأنه محازن البلور • او ظروف النور •
(ورازقي مخطف الحصور كأنه محازن البلور)
(قد ملئت مسكا الى الشطور وفي الاعالي ماء ورد جوري)
(لو أنه ببقى على الدهور قرط آذان الحسان الحور)
ولا رمان مرمر • كأنه صرر • قد ملئت بالجواهر • أو الياقوت الأحمر •

(١) جمع مدرى سن من عاج او فضة يختص به الشعر وهو غير المشط ذي
الاسنان الكثيرة (٢) المشهيات والمقبلات (٣) منسوب الى السواد اي
بلاد الفلاحين •

ولا مشمشاً كأنه زقاق ذهب . قد حُشيت عَسَلًا . ولا الكثرى الشامي . والسلطاني .
والزرجون والنهاوندي الخ .

إنما أرى ساف أمرود . وبهم رود . ونار مرود . وسلم رود . قد أوجعني
والله الرود . مما أكل النمرود الخ .

ثم ذكر مجلس الشراب . فقال : ما أرى والله لكم مجلساً مسجوراً بالند : فروائح
تبلغ الهواء . وتعبّر إلى دور الجيران . ولا منارة ملوكة . يزهر سراجها بخمسة
فتايل . بزيت شدي . لا تُشتم فيه زعارة ولا مرارة . يصلح للقصور المطجئات .
والقلايا المحرقات .

ثم وصف الندامى والحمور . فقال عن نبيذ أصفهان : إنما أرى نبيذاً أسود كالديس .
أو النيقس : (في لون زنجي . ونكهة أبخر) .

(إذا صب مسوده في الزجا ج فكأس النديم به محبرة)
ثم وصف الساقى فقال :

(يُديرها ساقٍ له رُكبة كأنه مخلاج نَدَاف)

(في يده باطية ضخمة كأنها مغرارة إسكاف)

وربما كانت الساقى شيخاً أبيض الرأس واللحية . كأنه بعض المؤذنين أو أحد
الحجّامين . طعم الكأس من يده طعم الزقوم . والحفاه ! سقى الله ديارات كسكر^(١)
ومنازل كسرى وقيصر :

(وسلامٌ على مواخير بصرى وأوانا والقُفص والبردان^(٢))

(ليت شعري مذغبت عنها على كم قرّ البائعون سعر الدنان ؟)

قال : ولا أرى في جلسائكم رجلاً ظريفاً . مستطاب النوادر . حلواً في القلوب

(١) كورة بين البصرة والكوفة (٢) الثلاثة أسماء دساكر ومواطن لهو في

ضواحي بغداد ويشبه تشوقه هذا تشوق ذاك الذي قال :

(ليت شعري متى تحب بي الند ساقية بين العذيب فالصيبون)

(مُحَقَّباً ذكراً وخبز رفاق وحباقاً وقطعة من نوب)

و (الحباقي) جرزة البقل .

وانما أرى طفيساً^(١) بارداً . منفيهاً منقعرأ يشق الكلام : إما في عويص اللغة .
او يتبظوم بعطل النخو . ساط الله عليه العلل . ولا أقاله منها . تنجى في الخلق .
وشوك بين الأنخص والنعل . .

ثم ذكر المغنين : فقال لاهل أصفهان : لا أرى والله في ثبالكم مطرباً معرباً :
يقول الشعر القصيح . ويكسوه اللحن الصحيح . مثل قوله :

(يانسيم الشمال من نخو بصرى بأبي أنت لانسيم الجنوب)
(انت لما اعتلت داويت جرحي يانسيم الصبا بعرف الحبيب)
(فتماثلت من ضنى كان بيني كل يوم علي منه طيبي)
(يا فتاة شبابها أمتع الله به حسنبا عدو مشيبي)
(انما أنت ظبية في كاس ليس ترعى سوى ثمار القلوب)
(انما انت شمس دجن على طا قة آس مغروسة في كتيب)
(إني لله وارحمي ضرر صبي ورث الفهر فيك عن أيوب)
(وعمي بال بكافيا يوسف الحسن أما تشفين من يعقوب ؟)

ثم وصف مغنيات بغداد ثم قال : هذه أحوال لا أراها باصفهان . انما أرى
قردة كأنها مسورة^(٢) عرضية . أو غول طامع من برية . بشعر كالعم
المنفوش . ووجه كملت المنبوش . شعرها فضة . وثغرها ذهب . كأنها
طاقة نرجس !!!

فيقال له يا أبا القاسم ! أين يذهب بك ؟ فيقول أخطأت أو أصبت ؟ فيقال وكيف
أصبت ؟ فيقول نعم : رأسها أبيض . ووجهها أصفر . وساقها أخضر . أعجبكم
هذا ؟ ! ما من شيء والله حسن محمود . إلا وفيها منه شبه أو معنى موجود : لها من
البدر كفته . ومن الورد شوكته . ومن الحمار نهقته . ومن الطاووس زعقته .
(ولا تستطيع الكحل من ضيق عينها وإن عاجلته كان فوق المهاجر)

تحت حاجبين يسج منها غرائر . ويقعد شعرهما ضناثر .

(١) اي قدراً نجساً (٢) اي مخدة طولها وعرضها سواء .

(ترى شديها تحت القناع كأنه جد ايل ليف في هدية حجاج)
ثم قارن بين غلمان الخدمة هنا وهناك فقال : في غلمان أصفهان : وانما ارى والله
دُبًّا في طول المنارة . وعرض الغرارة . قد خرج عن حد الاعتدال . وذهب
ذات اليمين وذات الشمال . بارد ثقيل . كأنه روثة فيل . عابس كأنه عض على
بصلة . أو أكل فجيلة . بوجه قطير . كأنه أسعط بالخردل . جهم كأنما نضح
وجهه بالخل . له وجه كأنما تبرقع بالحنادس . أو كُسي قشور الخنافس . او حش
والله من أيام المصائب . وليالي النوائب . وسوء العواقب .
(خلقت حجة اهل الزندقة صارت به اقوالهم محققة) الخ

(ذو صورة شوها ان لم تكن قرداً في قالبه مفرغة)
(ثلاثة ليس لها رابع هذا الفتى والحش والمدبغة)
اثنان والله من هدم ميت . في جورب عفن . أثقل من هم الدين . وامر
من وجع العين . كأنه صورة على باب حمام ؟ . سطل دمشقي عروته منه ؟ الخ .
ثم عاد الى وصف مغنيات بغداد . وذكر طرف من نوادرهن . وحسن اجوبتهن .
فقالوا يا ابا القاسم ! لو نفضت بعض تلك النوادر لكنت قد أتممت الانس
باحاديثك . فيذكر لهم على سبيل المثال (زاد مهر^(١)) جارية (ابي علي بن جمهور)
وكان ابن جمهور هذا متزوجاً بابنة عم له . فكان منها بين جمرتين : تحرقه هذه نارها .
وتلذعه تلك بأوارها . فأسكن ابنة عمه واسط . وجاريته داره في البصرة . وذهب
هو الى بغداد . وبغداد جنة الموسر . وعذاب المعسر . وأقبل على اللهو ومواصلة
السرور . فضجرت زادمهر . وكتبت اليه كتباً من البصرة : وهاكم نموذجاً منها :
اخبرني على من تركتني في دارك المشؤومة بالبصرة ؟ . عولت بي على ضياعك
الخراب . او على وكلائك السفلى . والله ما أشبه دارك الا بدير هرقل^(٢) وانا

(١) اي بنت الشمس وهي كلمة فارسية . (٢) وهو الذي قال فيه الشاعر ايضاً :

(أولى الامور بضيعة وفساد امر يدبّره ابو عبّاد)
(وكأنه من دير هرقل مُفلت شرس يجر سلاسل الاقياد)

محبوسة فيه كـبعض المجانين . لا يرجع عليَّ شيء إلا من أجرة دورك . خمسة وثلاثون درهماً في الشهر . لو شربت بها فؤماً ما كفتني : يا ابن جمهور ! عليك بفلانة وفلانة اللواتي يشبهنك . ويثخرون بك ويقتلن : كذا عند (أبي علي) تاجر السلطان العظيم الجليل . أنت يصلح لك مثل الحمار البلهاء ابنة عمك : تكسر الجوز على رأسها ولا تجسر تكسبك . فهي تظن أنك الوزير ابن الزيات . أو إبراهيم ابن المدبر . فأما (زادمهر) التي تدقّ دقّ الكشك . وتهينك هوان الكتان . فليست من أمثالك . خلاصني الله من ذنوبي كما خلاصني منك ومن رؤيتك :

(أنا في نعمة ببعذك عني أكد الله نعمتي بالدوام)

وحياة أنفك المعوج . وكللك المذنب . وشوابيرك ^(١) المحذفة . لأ كافيئك صاعاً بصاع : فلا تمضي شهور حتى يحجى مقموطاً مدهوناً . أضع يده في زعفران على الكتاب وأرجنه بالكتاب إليك . ويحك يا ابن جمهور كأنّ ملحك على ركبتيك ^(٢) . نسيتني واشتغلت عني . ابعث لستك العزيرة نفقة . واحملها إليك إلى بغداد . حتى لا يضيق صدرها . واشترلي بجياقي عوداً بحاشية ساج . منقوشاً بعاج . ويكون ظهره ديباج . حتى أحيي أغني به . . . الخ .

ثم جعل يسمي جوارى بغداد المشهورات واحدةً واحدةً . ويذكر شيئاً مما كنّ يفتين به من الشعر . فيطرب لسماعهن شعراء بغداد وأدباؤها . مثل (ابن الحجاج) و (ابن نباتة) وغيرهما . ثم يقول : فلو ترون كيف كان يطرب (ابن غيلان البزاز) على ترجيعات (ريحانة) جارية (ابن اليزيدي) إذا غنّت :

(١) مقلوب شوارب وهي لغة عامة بغداد سيف في ذلك الحين . وعامتنا اليوم يتلاعبون بالالفاظ كذلك فيقولون : تحشّر به واصله تحرش به ويقولون : ريقان مكان يرقان . و (رقعته كف) مكان (قرعه كف) ومعلقة مكان ملعقة وهكذا .

(٢) كناية عن قلة الوفاء فان الركبة لا تمسك الملح ومنه قوله الآخر :

(لا تلبها إنها من نسوة ملحها موضوعة فوق الركب)

(أعط الشباب نصيبه مادمت 'تعذر' بالشباب)

(وأنعم بأيام الصربا واخلع عذارك في التصابي)

فيقول له قائل : أيش كان يعمل ابن غيلان اذا سمع هذا الغناء فيقول : لنقلب
جمالتي عنيه . ويسقط مغشياً عليه . وهات الكافور . وماء الورد . ومن يقرأ في
أذنه آية الكرسي . والمعوذتين . ويرقيه بشراهما مراهيا . أيش يعمل ؟ هكذا يعمل
يا بارد ؟

أو لو رأيتم طرب (ابن غسان النعماني) اذا سمع حبة جارية ابي تمام الريني
وهي تغني :

(وحياء من أهوى لاني لم اكن أبداً لأحلف كذباً بيمينه)

(لاخافن عواذلي سيفي لذتي ولا أسعدت أخلي لذاته)

فيقولون له : هذا ابن غسان زيادة !! اي رجل كان يا ابا القاسم ؟ فيقول :
هذا ابن غسان كان فتى مليحاً . ظريفاً . حسن الادب . شجاعاً فيما بين الاطباء .
وهو الذي يقول في ابي مضر العاقل . وقد عاجله من علة فلم يقض حقه :

(هب الشعراء تعطيهم رقاعاً 'مزورة' كلاماً في كلام)

(فلم 'صفة' (١) الطيب تكون زوراً وقد أهدى الشفاء من السقام)

وكان آخر امر المسكين أنه غرق نفسه في (كرداب كلواذا) وذلك لاسباب
اجتمعت عليه : من صقر اليد . وسوء الحال . وجرب أكل بدنه . وعشق
حرق قلبه . حتى جرت الى نفسه حينها بما اقدم عليه .

ولا يزال ابو القاسم يذكر المغنين . ويعدد الادباء الذين كانوا يطربون بغنائهم
حتى يختم هذا بقوله :

ولو ذكرت هذه الاطراب من المستمعين . والاغاني من الرجال والصبيان
والجواري والحرائر لطلال و'مل' وكنت كالزاحم لمن صنف (كتاب الغناء والالمان) .
ولم يدي بهذا الحديث سنة ست وثلاثمائة وقد أحصيت انا وجماعة في الكرخ
اربعمائة وستين جارية في جانبي دجلة . وعشر حرائر . وخمسة وسبعين من الصبيان .

(١) يراد بصفة الطيب ما نسميه اليوم (وصفة) أو (راسته)

يجمعون من الخدق والظرف . ما يفوت حدود الوصف . هذا سوى من كنا لا نظفر بهم . ولا نصل اليهم لعزتهم وحرسهم ورفبائهم . وسوى من كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء والضرب الا اذا نطط في بعض الاوقات ^(١) .

ثم يطلب ابو القاسم من صاحب الدار ان يعي له طعاماً . وقبل القيام اليه يلعب بالشطرنج مع بعض الحاضرين فيجري بينهما وهما يلعبان كلاماً لا يمكن أن نفهمه نحن اليوم لانه يتعلق بكيفية لعب الشطرنج في ذلك العهد . وقد استغرق وصف ذلك نحو ست صفحات من الكتاب .

ثم يقومون الى المائدة فنقدم اليهم ألوان الطعام واحداً واحداً . وهو يصف كل ذلك . ويورد ما شاء وشاءت براعته من النكت والنوادر . وفي خلال ذلك يذكر الطبّاخ . وما يجب ان يجمعه من الاوصاف فيقول :

والله لقد رأيت ببغداد في دور بني معن طبّاخاً حبشياً اسمه (نارنج) ما اظنّ أني سمعت مثله : كان والله عنوان النعم . وترجمان المروءة . وطبيب الشهوة . أحذق من رؤي من اهل صناعته . وارحفهم سكيناً . واعدلهم تقطيعاً . واذكاهم ناراً . واطههم أيزاراً . كانت الموائد التي يعبثها . والثرائد التي يتنوّق فيها . رياض مزخرفة . ابرود مفعّقة . كانت لا يجمع بين لوزين . ولا يوالي بين طلعين . يخالف بين طعام العدا والعشاء . ويباعد بين ألوان الصيف والشتاء . يكنفي باللمحة . ويفهم بالاشارة . كأنه مطّامع على ضمير الضيف والمضيف . كان والله يعاطف ما يوقظ شهوة النعسان والشكلان والمغموم . وكان إذا فرغ من إعداد الطعام يقال له (يا نارنج الى أي شيء تحتاج ؟) فيقول : الى قوم جياع .

ويجري على المائدة ذكر اثنين من فضلاء بغداد . فيُسأل عن رأيه فيها وأيهما

(١) وذكر القاضي ابو علي الحسن التوخي المتوفى سنة ٣٨٤ في كتابه (النشوار) كلاماً عن عمران بغداد فقال : أحصي ما يزرع وينفق على أهلها من صنف الخس فوجد بخمسين الف دينار . فما ظنك ببلد يؤكل فيه في فصل من فصول السنة صنف واحد من صنوف البقل بخمسين الف دينار !!!

افضل ؟ فيقول : بينها من البعاد . ما بين النجد والوهاد . ما بين الناهق والصالح .
والناقص والفاضل . ما بين اللؤلؤ والمرجان . واللفت والباذنجان . من يسوي بين
رجل اغرر من البحر . واوضح من الفجر . وبين آخر أيس من القفر . وأوحش من
القبر . ذا والله أخف من النسيم . وذا أثقل من منة اللثيم . ذا أخشن من الحناجر
على المناخر . وذا أحسن من المهاجر في المعاجر . ذا سعد السعود . وذا سعد الذابح
ذا والله أندى من القطر . وذا أجهد من الصخر . ذا أعز من النبر . وذا أذل من
البحر . ذا عود . شق لموضع السجود . وذا عود . نجر لحش اليهود .
ثم يقومون الى مجلس الشراب . فتصف الرياحين . ثم الفواكه . ثم القناني .
فيأله واحد يا ابا القاسم ! وهل تعرف شيئاً من السباحة ؟ فيقول يا أحمق ! وسوادي
لا يحسن أن يركب البقر ! وتركى لا يحسن أن يزع في القوس ! انا والله اسخ من
الصفدع . ومن الثنين . أعرف من السباحة انواعاً لم يحسنها قط سمك ولا بط :
اعرف منها الشق والموزون والمقرفص والذرع والغمر والاستلقاء والشكابي .
والطاووسي والعقري . وكنت أستاذي في جميعها ببغداد (ابن الطوا)
و (الزنابيري) .

ثم يسألونه عن السفن والملاحين . فيعدد لهم انواعها . ويصف لهم ملاح سمعه يوماً
يحاطب رجاله اثناء الاستعداد للسفر : فذكر من ملابسه وأدوات سفينته واصطلاحات
مهنته ما لا يتسع الوقت لذكره بل لانههمه لو سمعاه .
ثم سأله سائل عن داره فأجابه : ويحك ! أيتس تعمل بداري ! هي في سكة الجوهرية .
دار أسست على غير التقوى بحمد الله .

(فان ترد دار الخنا والخبث ومعدن العصيان والدنوب)

(وموطن العادات والعيوب فاعدل اليها تحط بالمطلوب)

ثم يأخذ في فنون من الحديث . ويسلك منه مذاهب مختلفة . حتى يسمع حديثاً
ابعض الحاضرين فيعجبه ويقول : ذا كلام كرد التراب . وبرد الشباب . قطع
الزهر . وعقد السحر . حسن الدهباجة . صافي الزجاجة . هو كالشري بالولد الكريم .
الى سمع الشيخ العقيم .

ويلتفت الى آخر يتكلم . فيدم كلامه قائلاً : ذا كلام أثقل من الجندل . وامر
من الحنظل هذيان المحموم . وسوداء المهموم . بمثله يتسلى الآخرس عن كآبمه .
ويفرح الاصم بصممه . كلام ثعثر الاسماع من حزونته : وتخير الاوهام
من وعورته .

ثم يمدح بعض الحاضرين فيقول : شجرة طيبة أصلها في الماء . وفرعها في السماء .
احلى والله من الربل . في زمن الحبل . الحلقى وضيء . والخلقى رضي . والفضل
مضيء . محاسن انا والله منها في روضة وغدير . بل في جنة وحير .
ثم يلتفت الى آخر فيدمه قائلاً : كالكمأة لا اصل لها ثابت . ولا فرع ثابت .
لو قذف والله الليل بلؤمه . لطفئت أنوار نجومه . هو في العين قذاة . وبين النعل
والاخص حصاة . الخمس يطعم من جبهته . والحل يقطر من وجنته . ثم يخاطبه
قائلاً (رجزاً) :

(يا رفسة البغل على الطحال يا صفقة بالنعل في القذال)

(يا لسعة الزنبور سيف المآقي يا غدوة البين على العشاق)

(يا فجعة الحرّة بالطلاق يا نهشة الافعى بلا ترياق)

(يا قبح شيب لاح في نصول يا كل شيء وحش مهول)

(يا تسوكة في قدم رخصة ليس الى إخراجها من سبيل)

(يا حيرة المكروب في امره ويا صعود السعر عند المعيل)

(يا نهضة المحبوب في غفلة يؤذن فيها باقتراب الرحيل)

(يا رجعة المحروم من سفرة لم يحظ فيها بنوال المنيل)

(بل يا كتاباً جاء من مخاف للوعد متحوناً بعذر طويل)

(يا دبلّة في الفؤاد قد تغلّت من أسف قاتل ومن كمد)

(يا ورمًا في المعى يدل على برد مزاج الطحال والكبد)

- (يا قرحة سيف ناظر
(فتسلخت مع ما يليها
(يا غمة الكناس من
(يا سفرة سيف دجلة
(يا جلسة في شمس آب
(تحت السا والشمس تو
(يا كل شيء متعب
(يا شؤم بخت شقية
(شق القوابل صدعها
(حتى إذا شربوا لها
(وقعت عليهم شيرة^(٢)
(فرأتهم ولحومهم
(غلطوا عليها بالذرور
(في الجفون من البثور
(شم الزرائر^(١) والعير
(والريح تلعب بالجسور
(على الصخور بلا حصير
(قد نارها حرّ الهجير
(متعقد صعب عسير
(قد عمّرت عمر النسور
(عن تسعة مثل البدور
(وتلاحقوا مثل الصقور
(بالطول في يوم مطير
(في الدار تجرف بالمرور

يا أول ليلة الغريب . اذا بعد الحبيب . يا يوم الاربعاء في آخر صفر . يا أثقل
الكابوس في وقت السحر . يا وجه المستخرج^(٣) في يوم السبت . يا إفطار الصائم
على الحبز المخبث . يا أثقل من طفيلي يعربد على الندماء . و يقترح انواع الغناء .
ويتشهى بعد أكل الغداء . طالباً الوان الصيف في الشتاء . يا أشد على الاحرار من
جفاء الحجاب . وعبوس البواب . وسوء المنقلب والاياب . يا أشد من كربة
صاحب المتاع الكاسد . وضجرة المستمع الى المغنى البارد . يا أكره من هجران الصديق .
ومن النظر الى زوج الأم على الريق :

- (حويت الشؤم حتى الك - ف عن صنعك قد تذبو)
(وحتى السحب ان جاور نها لم تمطر السحب)
(وحتى لو صحبت الوح - ش لم ينبت له عشب)
(متى سميت إنسانا فان الناس قد سبوا)

(١) الذرائر الطيوب والعطور . (٢) اي صخرة وقد تقدم القول على هذه الكلمة

في فاتحة المحاضرة . (٣) هو المحصل اي الجاني وبالتركيب (التصلدار) .

و يذكر أبو القاسم أصدقاءه فيسأله أحد الحاضرين كالمستهزئ: ومن هم أصدقاؤك؟ فيقول — وقد جنّ جنونه — وتوقدت بالغضب عيونه: «والك! أصدقائي أكثر من خوص البصرة — و بلوط الجبل — و خردل مصر — و عدس الشام — و حصا الجزيرة — و شوك القاطول و حنطة الموصل — و نبق الاهواز — و زيتون فلسطين — والك! أصدقائي «سحنة ابن أبي البغل» و «موسى ابن سلحة» و «جعفر بن الكلبة» و «كردويه بن وردان» و «عاقول الارمني» الخ الخ .

ولك ! أتعرفني أم لا ؟ انا الموج الكدر . انا القفل العسر . انا الباقعة الشاطر . انا قلاع القناطر . والله اني اضحك في جيبى و انسك حتى تعفن . أقطع رأسك واجعله زرة قميصي . استنشك فلا اعطسك الا في الجحيم . و ابلعك فلا الفظك إلا على الصراط المستقيم .

عندما ضحك الحاضرون ضحكاً عالياً . ثم خافوا ان يغضب أبو القاسم و يبادروهم بالسباب . ففضلوا الرحيل . وابتدروا الابواب .

انتهى ايها السادة ما استعنت عرضه عليكم من عبارات هذه المقامة . و يختلف اساليبها في الانشاء و حسن التصرف و البراعة في التفنن . و أرى ان هذا التفنن في النقد هو الذي أجاد فيه من المعاصرين العلامة أحمد فارس في كتاباته لاسيما كتابه (الناريق) وكذلك ابراهيم بك المويلحي في كتاباته لاسيما كتابه (ما هالك) وهو أبو محمد بك المويلحي صاحب الكتاب الخيالي المشهور الذي سماه (عيسى بن هشام) و ربما سبقهم في هذا المضممار الفاضل أحمد فؤاد المصري صاحب (جريدة الساعة) ولا يصح ان ننقل هنا ايضاً ذكر الكاتب المصري المعروف في دمشق (محمود بك زكي) فان هؤلاء في عصرنا الحاضر يشبهون في طريقتهم في النقد — ابا المطير الأزدي صاحب هذا الكتاب . وهذه الطريقة و صفوايها (ابا محمد الاعرابي) المعروف بالاسود الذي تصدر في القرن الخامس للرد على العلماء و الاخذ على القدماء قال ياقوت عنه : كان علامة نسابة عارفاً بايام العرب و اشعارها لا يقنعه أن يرد على اهل العلم ردّاً جليلاً انما يجعله من باب السخرية و التهمك و ضرب الامثال . فالكتاب على هذه الطريقة يستعمل الكتابات و الامثال

والنفن في الوصف والتشقيق في الكلام مفرغاً كل ذلك في قالب التهم بخصمه والتخجيل له .

وللمعري في رسالة الغفران أسلوب في النقد التهمي يشبه أسلوب (حكاية أبي القاسم) .
من ذلك قوله يصف كتاب (التاج) الذي وضعه ابن الراوندي معارضاً به القرآن —
وأما تاجه فلا يصلح ان يكون نعلًا . ثم قال : (وهل تاجه الا كما قالت الكاهنة :
أف وتفت . وجورب وخف . قيل وما جورب وخف ؟ قالت : واديان في جهنم اه .
و يعني المعري ان ما ذكره ابن الراوندي في كتابه التاج مختلف وصرف للحقائق عن
وجهها كما فعلت الكاهنة مذ زعمت ان (الجورب والخف) هما واديان في جهنم .
وزعمها كذب صراح . (المغربي)



الكتب والمطالعة^(١)

اتي على الانسان حين الدهر لم يكن فيه يعرف الكتابة ولا يفنقر اليها لاقتصاره على بساطة العيش واكتفائه ببعض اشارات والفاظ للدلالة على ما يريد من المعاني . ثم لما تحسنت احوال معيشته وارنقت شؤونه الاجتماعية شعر باحتياجه الى نقل معانيه من مكان الى آخر وتدوين افكاره واعماله وحوادث حياته ليطلع عليها من يأتي بعده واشتدت به الحاجة والحاجة ام الاختراع فاخترع الكتابة في زمن مجهول لم يستطع العلماء ان يتوصلوا الى معرفته مع كثرة البحث والتنقيب .

وكانت الكتابة في اول امرها صورية اي قائمة بصور تدل على المعاني ثم تحولت على توالي العصور الى صوتية اي قائمة بعلامات تدل على الصوت البشري . اما الصورية فكانت على ثلاث درجات : الاولى ما كانت فيها الصور تشابه مصوراتها مشابهة حقيقية كصور الرجل والمرأة والطفل والحمل والكلب والذئب والزهرة والشجرة والسكين والفأس وغيرها للدلالة على هذه المذكورات بعينها .

والثانية ما كانت فيه الصور تشابه مصوراتها مشابهة مجازية كصورة رأس رجل على بدن اسد للدلالة على الشجاعة . وصورة امرأة حاملة يدها حمالة للدلالة على الوداعة . وصورة ريش الطاووس في الخط الهيروغليفي للدلالة على الصدق .

والثالثة ما كانت فيها الصور غير مشابهة لمصوراتها وانما هي كنايةات عن المعاني التي يراد التعبير عنها كصورة الطائر صاعداً او نازلاً للدلالة على الصعود او النزول . وصورة الساقين للدلالة على المشي او الركض وصورة العين والماء بقربها للدلالة على البكاء . فهذه الصور الحقيقية والمجازية والرمزية توصل الناس الى التعبير عن الذوات والمعاني والعلاقات التي بينها . ولكنهم وجدوا ان هذا التعبير قاصر كثير

(١) خلاصة محاضرة للاستاذ السيد انيس سلوم القاها في ردهة المجمع العلمي في ٢٧

تشرين الاول سنة ١٩٢٢ م .

الغموض والالتباس محاولوا ان يجدوا طريقة اسهل واوضح منه وما زالوا يعملون افكارهم حتي تيسر لهم الانتقال الى الكتابة الصوتية او اللفظية . وهذه ايضا كانت على ثلاث درجات : الاولى ما كانت فيها كل صورة و علامة تدل على كلمة كاملة فاستلزمت ان تكون العلامات فيها كثيرة على قدر كلمات اللغة كما في الخط الصيني والخط المكسيكي .

والثانية ما كانت فيها كل علامة تدل على مقطع واحد كما في الخط الحبشي والمراد بالمقطع حرف متحرك او حرفان اولهما متحرك والثاني ساكن فقل فيها عدد العلامات بحيث لم يتجاوز خمس مئة علامة كانوا يكتبون بها كل كلمات اللغة كما تبين من كتابات قدماء الاشوريين والبابليين .

والثالثة ما كانت فيها العلامات تدل على ابسط الاصوات البشرية لا على المقاطع وهذه العلامات صارت حروفا سمي مجموعها بحروف الهجاء او حروف المباني وهي التي نستعملها اليوم . وبواسطة الكتابة الصوتية وتسطير الحوادث وابتداء محدثيها وزمن حدوثها ابتداء عصر التاريخ البشري الحقيقي وكان لهذا النوع من الكتابة شأن عظيم في تمدن الجنس السامي مدة اربعين قرناً . اما الحروف الهجائية فلا يعلم بالتحقيق الى الشعوب اخترعها فقد قيل ان مخترعيها المصريون وقد عثر من عهد قريب على كتابات ترجح هذا الرأي وقيل الكلدانيون وقيل الهنود وقيل العرب وقيل الفينيقيون والقول الاخير هو المرجح عند الاكثرين لان الفينيقيين هم الذين شروها في الشرق والغرب فانهم كانوا اشير امة باتساع متاجرهم وطول اسفارهم فاستعملوا هذه الحروف بين العبرانيين والعرب والهنود ثم حملوها الى اليونانيين فشاعت عندهم ثم انتقلت الى الرومانيين والاسبانيين والسلاف القدماء والجرمانيين وغيرهم وكان لها شأن عظيم في تمدن الجنس الآري مدة ثلاث آلاف سنة .

اما المواد التي كانت القدماء يكتبون عليها فكانت مختلفة باختلاف الشعوب والازمنة والامكنة والاحوال فالمصريون كانوا يكتبون الحوادث على صفحات الجبال وحجارة الاهرام وغيرها ولما استندت حاجتهم الى الكتابة وتوسعوا بصعوبة النقش في الحجارة اخذوا البردي المعروف بالبابيروس (وهو نبات كان يكثر في المستنقعات

على ضفتي النيل وفروعه) وعالجوه بما يجعله صالحاً للكتابة وكتبوا عليه ما ساؤوا .
والاشوريون كانوا يكتبون حوادثهم على الواح من خزف قبل ان يشوى ثم يشوونه
لهيئاً متيناً على عمر الادهار . واهل الهند كانوا يكتبون شؤونهم واغراضهم على نسج
من حرير . والصينيون كانوا يطبعون كتبهم على قطع كبيرة من الحشب يصورون على
اوجها الحروف بالنقر . واهل المكسيك كانوا يحفظون تاريخ بلادهم ومعارفها على
منسوجات قطنية مصبوغة بالوان مختلفة مرسوم عليها احرف وعلامات غريبة . قال
احد المؤرخين « لما فتح الاسبانيون بلاد المكسيك وجدوا فيها كتباً قديمة وكتابات
ورسوماً وصوراً في المنسوجات وحلود الحيوانات وقشور الشجر وسمجلات قديمة فاتفقوا
غير مبقين على شيء منها ويطن انه لو كانت هذه الآثار باقية الآن لتوصل العلماء الى
حل رموزها وعرفوا اصل الامة المكسيكية وتاريخها وكيف وصلت الى العالم الجديد » .
واليونانيون والرومانيون والعبرانيون كانوا يكتبون الحوادث على الرقوق المتخذة
من حلود الحيوانات وبقيت الرقوق تستعمل للكتابة بعد ظهور الورق النباني بقرون
عديدة وفي مكاتب اوربة سمجلات وعقود واحكام وغيرها كتبت على الرق بعد القرن
العاشر لميلاد . ويقال ان رق الغزال لا يزال مستعملاً عند بعض الفقهاء لهذا العهد .
اما العرب فكانوا يكتبون على عسب النخل والواح العظام وبعض انواع الحجارة
المصقولة التي كانوا يجدونها في بواديهم (وعرب وادي الفرات وبلاد اليمن كانوا
يكتبون على الحجارة الصلبة ايضاً) . ولما انتشروا في البلاد في عهد الخلفاء الراشدين
اخذوا عن ادملها اساليب الحضارة واحتاجوا الى التبسط في الكتابة فكتبوا في بغداد
على الحرير وفي مصر على البردي ثم استخدموا الجلود بعد ترقيقها ثم لما طابحج التأليف
والتدوين وكتر ترسيل السلطان وصكوكه وضافت الرقوق عن ذلك اشار الفضل
ابن يحيى بصناعة الورق وصنعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه واتخذ الناس
من بعده صحفاً لمكتوباتهم السلطانية والعلمية وبلغت الاجادة في صناعته ما شاءت
وكانوا يسمونه بالكاغد على ما ذكره ابن خلدون ثم سمي بالقرطاس ثم شاع اسمه
المستعمل اليوم وهو الورق وما الورق في الاصل الا اسم لما يخرج غالباً على الاغصان
ويكون للنبات بمنزلة الرئة للانسان .

قال احد علماء العرب : « الورق لم يوجد في الكلام القديم بل هو اسم لجلود رقاق يكتب فيها وهو مستعار من ورق الشجر » . وقد كثر استعماله وانتشنت له معامل في سمرقند وبغداد والقاهرة ودمياط ثم انتشرت صناعته في الشام وشمالى افريقية وانتقلت منها الى بلاد الغرب فضربت فيها اطنابها وارنت فيها ارتقاء باهراً لهذا العهد . وقد نظر بعضهم في معامل ورق الارض فوجدوا نحو اربعة آلاف معمل يصنع فيها كل سنة نحو الف الف وسق انكليزي من ورق الخرق وورق التبن او ببس العشب وغيره و ينفق نحو نصف ذلك في المطابع و ينفق من هذا النصف نحو ثلاثمائة الف وسق مطبوعاً جرائد مختلفة والنصف الآخر ينفق في اعمال ارباب الحكومة والمدارس والتجارة وغيرها الا ان الفضل في ادخال هذه الصناعة الى بلاد الغرب راجع الى مستنيطيها الاولين وهم العرب كما كان الفضل في ادخال الحروف الهجائية اليها راجعاً الى الفينيقيين سكان هذه البلاد الاقدمين .

واول قلم كتب القدماء به هو الازميل الذي كانوا ينقشون به ما يريدون كتابته نقشاً في صفائح الحجر والحزف والمعادن ثم استعملوا اقلاماً محددة الرؤوس من الحديد والنحاس والفضة والعاج وكانوا يكتبون بها على صفائح الرصاص والختب والشمع ولما أبدلت تلك الصفائح بالرقوق المصنوعة من جلود الحيوانات والقراطيس المصنوعة من البردي واوراق الشجر أبدلت اقلام المعدن باقلام القصب ولم تزل مستعملة في الشرق الى هذا اليوم . اما اهل الغرب فأبدلوها باقلام من ريش الاوز ثم باقلام معدنية ثم نفننوا فيها نفناً بديعاً حتى اخترعوا آخر اقلام الحبر وهي التي يوضع الحبر فيها فيستغنى بها عن الدواة وقد ساهبا بعضهم الاقلام المدادة اي ذات المداد وهو الحبر . وكان حبر القدماء ماء الصمغ والفحم او الكتن وهو (الزغ الدخان) قيل ان كتبة اليونانيين والرومانيين كفرجيل وزيفون كانوا يكتبون رواياتهم وقصائدهم بذلك الحبر .

وكانت الكتابة شائعة بين الامم الشرقية القديمة في وادي النيل ووادي الفرات وسورية وبلاد العرب والصين والهند وغيرها وذكرت في اقدم اسفار التوراة وهي

اسفار موسى الكليم وسفر ايوب الصديق بأسلوب يدل على انها كانت معروفة منذ زمان قديم .

واقدم الخطوط التي اكتشفها علماء الآثار الخط المصري المعروف بالهيروغليفي والخط الكلداني المعروف بالاسفيني او المسماري والخط الحميري المعروف بالسند اما الخط الحثي فهو من نوع الهيروغليفي الا ان معناه لم يكشف الى الآن .

واول من عني بجمع الكتب سرجون الاول الذي انشأ مملكة بابل القوية قبل المسيح بنحو اربعين قرناً وكانت ظهيراً للعلم لجمع كتب العصور الخالية ونقحها ووضعها في المكتاب العظيمة التي سادها او كبرها وهي اقدم المكتاب واثمنها . وذكر ديودورس المؤرخ الصقلاني ان احد ملوك المصريين من الاسر الاولى انشأ مكتبة في قصره بمدينة طيبة عاصمة ملكه وكتب فوق بابها « هناء دواء النفوس » .

وفي عهد ملوك الاسرة السادسة في مصر قبل المسيح بنحو ثلاثة آلاف سنة كان احد كتاب الدولة يفتخر بانه تولى ادارة الكتب في المكتبة الملكية وطلب الى ذويه ان ينقشوا ذلك على قبره لتوحيها بفضلها واحياء لذكورها . وقد عمت العناية بالكتب اكثر الشعوب القديمة كالاشوريين والفينيقيين والحثيين والعبرانيين والعرب والفرس والهنود واليونانيين والرومان وغيرهم وبواسطتها حفظت اقوال الفلاسفة في كل العصور فمن المكتاب القديمة المشهورة عند اليونان مكتبة اثينا التي احرقها دارا ملك الفرس حينما اجتاح بلادهم وقيل انه نقل كتبها الى بلاد فارس .

ومكتبة جزيرة ساموس التي انشأها بوليكرات . ومكتبة اريسوطاليس التي التي استولى عليها تيوفراستس واشتراها بطليموس فيلادلفوس ونقلها الى الاسكندرية عاصمة ملكه . وكانت مكتبة الاسكندرية اشهر مكتاب العالم بلغ عدد مجلداتها سبعمائة الف مجلد على رواية وتسعمائة الف مجلد على رواية أخرى .

ومن عجيب ما روي عن بطالسة مصر انهم كانوا ينسخون كل كتاب يصل اليهم على نفقتهم وبأخذون من كل اجني يدخل مصر كتبه وبنسخونها بكل ضبط ويعطونه نسخها ويضعون الكتب الاصلية في مكتبة الاسكندرية المار ذكرها ويدفعون الى صاحبها مالا يرضيه . وكانت العرب من اشد الامم الشرقية ولوعاً

بالكتابة وجمع الكتب فتركوا آثاراً كثيرة من كتاباتهم في ارض بابل كشرائع حمورابي الذي انشأ الامبراطورية البابلية القديمة (نحو ٢٢٥٠ ق م) وكانت هذه الشرائع منقوشة بالحرف المسماري على مسلة من الحجر الاسود الصلب وهي من اقدم الكتابات التي وصلت الينا واقدم الشرائع المعروفة لهذا العهد . وكذلك تركوا آثاراً من كتاباتهم في بلاد اليمن وغيرها مما لا نطيل باستيفائه .

ولما توفرت لديهم الاسباب المادية والعقائية ابدعوا في التصنيف واغربوا في التأليف واولعوا بجمع الكتب وتطلبها من كل حدب وصوب واول من اعتنى بذلك الخلفاء الامويون بدمشق فأنشأوا المكاتب وانفقوا عليها الاموال الطائلة ووقفوا لها الاوقاف الكثيرة فانصب اهلها على العلم فافلحوا ونبع منهم عدد وافر من العلماء الاعلام . ثم جاء بعدهم الخلفاء العباسيون فملأوا بغداد بجزائن الكتب النفيسة ونقلوا الى اللغة العربية كثيراً من كتب اليونانيين والهنود والفرس وغيرهم فازهرت فيها اشجار التمدن واينعت اثمار الحضارة . ولولا عنايتهم بجميع مصنفات اليونان والسريان وترجمتها لما بقي منها بقية في الشرق كله الا ما كان في كنيسة يوحنا المعمدان بدمشق من الكتب اليونانية والسريانية فان المسلمين لم يستوها عند فتحهم المدينة . ولما حول عبد الملك بن مروان الكنيسة الى جامع جعل هذه الكتب في قبة مقام النبي يحيى (يوحنا) فبقيت محفوظة لم يفقد منها شيء الى ان فتحها الالمان باذن السلطان عبد الحميد وقيل انهم نقلوا كثيراً من كتبها الى برلين .

ولم يكن الخلفاء بالاندلس اقل عناية بجمع الكتب من العباسيين بل جمعوا منها مئات الالوف . قيل ان عبد الرحمن الاموي حشد في قرطبة من افريقية وبلاد فارس ومصر والآفاق العربية نحو اربعمائة الف مجلد وقيل ستمائة الف مجلد كتبت اسمائها في اربعين مجلداً وكان بالاندلس عدا هذه المكتبة سبعون مكتبة عامة وكان فيها ايضاً مكاتب خاصة بعضها كبيرة جداً . قيل ان احد علماء الاندلس رفض دعوة سلطان بخارا له لان حمل كتبه كان يقتضي اربعمائة رجل ولعل في ذلك مبالغة غير ان فيه دليلاً على كثرة كتب ذلك العالم واتساع مكتبته وهو رجل واحد فقط فما اكثر عدد الكتب التي كانت عند باقي الناس في قرطبة وغيرها من بلاد الاندلس .

وكان في مكتبة الفاطميين بالقاهرة مئة ألف مجلد وقيل مئتا ألف مجلد وفي قصر الخلافة اربعون خزانة فيها من الكتب انفس النوادر واثمن الدخائر وكانت الخليفة الفاطمي يتردد على المكتبة العامة فيجيء اليها راكباً ثم يترجل عندها ويدخل غرفها فيطالع ما يشاء ويجول بين المطالعين يشقدهم شؤونهم ويلطفهم فكان احسن متجع على مطالعة الكتب باقواله ومثاله . وكان بين بغداد والقاهرة مسابقة علمية ادبية اذ كانا يتباريان الى العلم وتنافسان في اقتناء الكتب المفيدة استئثاراً بالفضل . ومما يروى ان ابناء العراق اوفدوا رجلاً الى مصر فانفق مع احد علمائها على ابتياع عشرة آلاف مجلد من نفائس كتبه العربية وهي ثلث مجموعته . واتصل الخبر بوزير مصر الافضل فاستكبر الخطب واستنكره وقال كيف تحرم مصر ذخائرها وهل يصح انتقال كنوزها الى غيرها ونحن احق بها واهلها اعرف الناس بقدرها ثم بعث من ماله الخاص الى العالم المصري بجملة الثمن الذي ساومه عليه رسول العراق ونقل الكتب الى خزائنه وكتب عليها القابه . وكان في مكتبة ابي الفداء المؤرخ الشهير سلطان حماد مالا مزيد عليه من الكتب المختلفة النفيسة وكان في خدمته نحو مئتي عالم وفقه واديب وفيلسوف وكاتب . وكانت في مكتبة آل عمار في طرابلس نحو مئة ألف مجلد وقيل ثلاثة آلاف ألف مجلد ولكن ذلك مما لا يصدق . وبالجملة كان في كل البلاد الشرقية والعربية العربية مكاتب عامة ومكاتب خاصة حوت الوف الالوف من الكتب النفيسة ايام كان اقتناء الكتب يستلزم النفقات الطائلة اصعوبة نسخها قبل اختراع فن الطباعة فاين ذهبت تلك النفائس ! . يحزننا ان نقول ان اكثرها ذهب طعمة للنار وان كثيراً منها نقل الى مكاتب اوربة وبعضها لانعم اسماءها ولم يبق في بلادنا الا العدد القليل . ومن ذلك ما في دار الكتب في مصر ودار الكتب بالاسنانة ودار الكتب بدمشق وما في بعض المكاتب الخاصة كمكتبة احمد تيمور باشا ومكتبة احمد زكي باشا بمصر ومكتبة الاستاذ السيد محمد كرد علي بدمشق ومكتبة الاستاذ السيد عيسى المعلوف بزرحلة وبعض مكاتب في بيروت وحلب وغيرهما من مدن سورية .

اما الغربيون فعنايتهم اليوم بتأليف الكتب وجمعها اوضح من ان توضح في فرنسا فقط ثلاثون ألف مكتبة وفلا تخلو مدينة فيها من مكتبة او مكتبتين وفي مدينة

باريس وحدها عدد الكتب اربعة اضعاف عدد السكان . وعدد الكتب في برلين مضاعف عدد سكانها وعدد الكتب في لندن مساو لعدد سكانها او يزيد قليلاً . وقد عم الولوج بجمع الكتب كل الاقطار الغربية فلا مملكة فيها ولا مدينة ولا قرية خالية من الكتب وقد اصبح جمع الكتب فرضاً على كل مذهب والمكاتب من لزوميات القصور الفخمة فكل قصر لا توجد فيه مكتبة كبيرة يحسب ناقصاً اهم الرياش والذخائر والنفائس ولم يقتصر الغربيون على العناية بجمع الكتب الغربية بل عنوا ايضاً بجمع الكتب الشرقية ولا سيما العربية فقد زينوا بها مكاتبهم وطبعوا كثيراً من نفائسها النادرة وحرصوا عليها اكثر من حرص العرب في هذا العصر على ما عندهم من آثار اجدادهم . ولم يزل اغنياؤهم يهبون الاموال الطائلة لنشر الكتب وتأسيس المكاتب في اوطانهم وغيرها تعميماً للعلم . ان كارنيجي وحده أسس في سنة واحدة باميركا ٧٥٠ مكتبة وزاد عليها مثل هذا العدد في السنين التالية لها .

واعظم مكاتب الدنيا اليوم مكاتب لندن وفيينا ورومية وبرلين وطرسبرج وستوكهولم والاسكوريال في مدريد . واغنى المكاتب بالمخطوطات القديمة مكتبة الفاتيكان في رومية ثم مكتبتا باريس ولندن .

والذي ساعد الغربيين على زيادة نشر الكتب فن الطباعة التي بواسطتها امكنهم ان يطبعوا في ساعة واحدة ما لا يمكن نسخه في شهر بل في سنة . ومن يقدر ان يحصي الكتب التي تطبع كل سنة في انحاء العالم . ففي بلاد الانكليز وحدها طبع في سنة واحدة اكثر من مئة الف الف مجلد . واذا كن نشر الكتب والمجلات والجرائد هو مقياس العمران فالبعد بين عمرانهم وعمراننا شاسع جداً ولكن العمران لا يقاس بكثرة المطبوعات وان كانت احدى مقوماته بل بمقومات أخرى تفوقها شأنها اهمها التربية التي تثقف العقول وتهذب الاخلاق .

وهنا لا بد لنا من السؤال لماذا عني العلماء في الشرق والغرب قديماً وحديثاً بتأليف الكتب وجمعها في المكاتب الخاصة والعامة وظهرت هذه العناية من ملوك الارض وعظماؤها ورجالها ونسائها كبت الملك العادل وغيرها ممن لا يسعنا ذكرهن في هذا المقام . والجواب لانهم عرفوا قيمتها وشدة الاحتياج اليها فانها هي الاساس الذي

تشاد عليه قواعد الصلاح والركن الذي به لتوثق دعائم الاصلاح والسبيل المؤدي الى الخير والنجاح والمراقبة الموصلة الى ذروة الفوز والفلاح والمصابيح التي تنضج بها الرموز والآثار والمفاتيح التي تفتح بها الكنوز والاسرار بل هي محنطات عقول الحكماء ومراي تصويرات الشعراء وخزائن آراء العلماء وسجلات اقوال الخطباء واثار افكار العقلاء وحافظة احكام الدنيا والدين وعلوم الاولين والآخرين .

فلا غرو ان اولع بها اهل الذكاء والفضل وآثروها على كل قنية فاخرة وحلية ثمينة .

قال كنفوشيوس الحكيم الصيني كنت لفرط رغبتني في طلب المعرفة بالدرس والمطالعة انسى جسمي فلا اطلب له طعاماً ولتسدة سروري بالوصول اليها اسلو احزاني فلا احسبها موجودة بل اني ادركني الكبر وحلّ بي الهرم ولم احسب لهما حساباً . وقال شيشرون الخطيب الروماني (غرفة بلا كتب جسم بلا روح) وقال المنبجي الشاعر المشهور :

اعز مكان في الدنيا ظهر سايج وخير جليس في الزمان كتاب
وقال آخر :

حبيبي من الدنيا كتابي فليس بي الى غيره ما بي اليه من الفقر
وقال آخر :

اذا غاص في بحر التفكير خاطري على درة من معضلات المطالب
خففت ملوك الارض في نيل شهوتي ونلت المنى بالكتب لا بالكتائب
وقال آخر :

لنا جلساء ما نمل حديثهم الباء مأمونون غيباً ومشهدا
يفيدوننا من علمهم علم ما مضى ورأياً وتأديباً ومجداً وسوددا
فان قلت اموات فلم تعد امرهم وان قلت احياء فلست مفندا

وقال الجاحظ : من كلام طويل في وصف الكتاب « هو الجليس الذي لا يطرئك والجار الذي لا يستبطنك والصديق الذي لا يقلبك والسميح الذي لا يؤذيك والرفيق الذي لا يملك والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق

ولا يعاملك بالكر ولا يخدعك بالنفاق يطيعك في الليل طاعته في النهار وسيف السفر طاعته في الحضر . وهو المعلم الذي ان افقرت اليه لم يحقرك وان قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة . ولا اعلم نتائجاً في حادثة سنة وقرب ميلاده ورخص قلمه . يجمع من التدابير العجيبة والعلوم الغريبة ومن اثمان العقول الصحيحة ومحمود الازدهان اللطيفة ومن الحكم الرفيعة والمذاهب القديمة والتجارب الحكيمة والاخبار عن القرون الماضية والبلاد المتراخية والامثال السائرة والام البائدة ما يجمعه كتاب . ولولا الحكم المخطوطة والكتب المدونة لبطل اكثر العلم واغلب سلطان النسيان سلطات الذكر» .

وقال فنلون : « لو وصفت ثيمان ملوك ابرية كلها عند قدمي بدلاً من كتي لرفضتها » .

وقال كارايل الكاتب المشهور : « اهم ما يصنعه الانسان في الدنيا وابقاه وانمته هو الكتب » .

وقال مكولي الكاتب الانتقادي المعروف : « أفضل ان اكون فقيراً في كوخ وعندي كثير من الكتب على ان اكون ملكاً في قصر بلا كتب » .
وقال ادورد كبن المؤرخ : « أفضل كتي على كل كنوز الهند لان التلذذ بها بهجة حياتي وتاج مجدي » .

وقال ملتن الشاعر : « الكتب ليست جهاداً بل اجسام ذات حياة . فانها حياة مؤلفيها والمذكورين فيها فمن يتلف كتاباً كمن يقتل نفساً بل قد يكون اعظم اثمًا لان من الناس من في قتلهم راحة للعالم ولكن اتلاف الكتاب المفيد فيه ضرر للعالم » .
وقال تيلر : « الكتاب دليل الشباب الى سبيل الصواب وسلوة الشيخوخة عن قوة الشباب » .

وقال هرشل الفلكي ما معناه : « ان غاية ما أتمناه في هذه الحياة واطلبه من ربي في الصلاة ليكون لي ينبوع سرور وهناء وترساً يقيني سهام البلاء وسيقاً اغلب به جيوش الازدهاء كتاب ينفعني في السراء والضراء ويرافقني حيث اشاء » .
وقد شبه بعضهم الكتب بالاساندة وشبهها بعضهم بالاصدقاء والحق انها افضل

من الاساتذة والاصدقاء باعتبارات كثيرة لا يتسع الوقت لبيانها وهي افضل من كل ما يقنيه الانسان من التحف والطرائف والجواهر والنفائس حتى قال بعضهم انها الغنى كله وتمتاز على كل ما يخافه الانسان من الآثار الدالة على عظمته وقدرته كالمباني كل الجميلة والمدن الحصينة والقلاع المنيعه وغيرها مما يبقى قروناً عديدة شاهداً بمجد من بنوه ولكنه يفقد رونقه الاصلي على تمادي السنين بل قد يزول ولا يبقى له اثر . وكما من مدينة تهدمت وقلعة دُكَّت وهيكل اصبح ركاماً مر كوما .

اما الكتب النفيسة فاذا لم تمسها يد الانسان بالاذى بقيت قروناً عديدة برونقها وجمالها وفائدتها وتأثيرها في نفوس قارئيهـا . وهي خير ميراث يتركه العلماء للجنس البشري وافضل واسطة لاهياء الذكر الى الابد .

ان هوميروس وارسطو وافلاطون وسقراط والمتنبى وابن سينا والفارابي وغيرهم من الشعراء والحكماء يبقى ذكرهم حياً ما دامت كتبهم بين ايدي الناس . والملوك والعظماء الذين لم يتركوا اثرأ نافعاً قد باد ذكرهم . ان الكتب تتجدد وتعدد بالنسخ والطبع على توالي العصور كلما تقدمت نسخها الاصلية ومع ذلك تبقى قيمتها وفائدتها كما كانت في عصر مؤلفيها بخلاف الآثار القديمة فان قيمتها تزول بتجديدها فتحسب مزرورة وكفى بذلك دليلاً على عظمة شأن الكتب وامتيازها على كل مصنوعات الانسان .

وهنا وصلنا الى القسم الثاني من موضوعنا وهو المطالعة التي هي الغاية العظمى من تأليف الكتب وجمعها . ان كثيرين يرغبون في اقتناء الكتب وجمعها اما بقصد المتاجرة او بقصد المفاخرة فهولاء لا يستفيدون منها علماً ولا اداة فلا ينالون الغاية من وضعها مثله الا كمثل من يملك مزرعة واسعة ولا يذوق شيئاً من غلاتها او يجمع مالا كثيراً ولا ينفق منه فلساً على قوته فيموت جوعاً واهراًؤه مملوءة قمحاً وصناديقه طافحة ذهباً . ان المطالعة ضرورية لتغذية العقل كما ان الحار ضروري لتغذية الجسد فكل الناس مفتقرون الى المطالعة لانماء عقولهم بالعلم واحياء نفوسهم بالادب والفضيلة فالذي لم يتيسر له التخرج في المدارس في صغره يستطيع ان يكتسب بالمطالعة ما خسره من الفوائد بعدم دخوله المدارس . ومن الحماقة ان يتخذ عدم درسه سيف الصفر حجة لعدم المطالعة في الشباب وما بعده من اطوار الحياة بل أحر بذلك ان

يكون حجة للمطالعة لتدارك ما فات . والذي وفق الى دخول المدارس في صغره ونال حظاً صالحاً من العلم لم يزل محتاجاً الى زيادة المعرفة والحكمة وتوسيع المدارك ومن الخطأ الواضح بل الغرور الفاضح ان يكتفي الكتاب والخطباء والمحامون والاطباء وغيرهم من ارباب الصناعات والفنون بما حصلوه في المدارس ويهملوا المطالعة النافعة بحجة انهم قد اكملوا دروسهم ونالوا شهاداتهم فلم يبق بهم حاجة الى المراجعة او الدرس ولذلك يهملون الكتب ويستحقون بالمجلات ولا يبالون بتوسيع معارفهم حتى تتناقص رويداً رويداً وتضمحل في النهاية فيعجزون عن القيام بوظائفهم ويخسرون كرامتهم ومنزلتهم بين العلماء ويفقدون ثقة الناس بهم لان الطيب الذي لا يكتسب في كل يوم معارف جديدة ولا يقف على سير الطب الاكتشافات المتعلقة به لا يلبث ان يصبح دجالاً والمحامي الذي لا يطالع المجلات الحقوقية ولا يطلع على القوانين والزيادات والتفاسير الجديدة لا يلبث ان يصبح محتالاً لانه لا يكون له غرض سوى كسب المال فيقبل كل دعوى وهو يجهل نتيجتها . والجهل قد يكون سبباً للاحتيال على الرزق لان من جهل صناعة وادعى العلم بها واتخذها وسيلة للكسب كان خليقاً بان يسمى محتالاً . اما العالم بصناعته الذي يأخذ اجرتة بحق علمه فلا لوم عليه .

ان الذين اشتهروا بالعلوم والفنون وحازوا قصب السبق في ميادين الفضل لم يبلغوا ما بلغوه من الشهرة والنفوق الا بكثرة المطالعة وتكرار المراجعة لا بما حصلوه في المدارس فقط ولا بمجرد الذكاء الفطري .

قال احد الخطباء : « ينسب الناس الي ذكاء ممتازاً والحقيقة اني لست اوفر ذكاء من غيري وانما انا رجل مجتهد في انقاس صناعتي فاذا أردت ان اخطب في موضوع ما طالعت كل ما وصلت اليه يدي من الكتب المتعلقة به وملاأت ذهني بكل حقائقه واحطت علماً بكل تفاصيله فيأتي خطابي محكماً . فما يسميه الناس ذكاء ممتازاً وحذقاً عظيماً انما هو ثمر درسي ونتيجة تعبي واجتهادي .

وقال الشيخ ناصيف اليازجي في خاتمة مقساماته : « اني قد تلقيت هذه الصناعة من باب التطفل والهجوم اذ لم أقف على استاذ قط في علم من العلوم وانما تلقفت ما تلقفته بمجهود المطالعة وادركت ما ادركته بتكرار المراجعة .

وقال الاستاذ ابراهيم الحوراني في آخر حياته : « ما زلت منذ حداتي أطلع وتعلم الى هذه الساعة فاستفدت من تعليم نفسي اضعاف ما استفدته من معلمي » .
وينتج من ذلك ان المطالعة ضرورية لانماء القوى العقلية وتهذيب الاخلاق
الغريزية واكتساب الفضائل النفسية ومعرفة الحقوق الاجتماعية والتأهب لاعمال
الحياة الجوهرية . ولا تكون المطالعة نافعة الا اذا روعيت شروطها وهي :

(١) : الرغبة الشديدة في الحصول على المعرفة الصحيحة والارادة الثابتة في طلب الوصول اليها فمن لم يرغب في المطالعة ولم يقصد الاستفادة بكل قواه لم يمكنه الحصول على العلم ولا النجاح في طلبه لان الرغبة القلبية هي سر النجاح في كل عمل يعمل به المرء عقلياً كان او يدوياً وكل الذين نجحوا في العالم وبلغوا درجة سامية في الصناعة او العلم كانوا من الراغبين في ما اشتبهوا به . ان الرغبة في الشيء تهوّن الصعوبات الشديدة وتقرّب المسافات البعيدة وتجعل المستحيل عند بعض الناس ممكناً عند غيرهم . فمن اراد ان يتعلم لغة تعلمها ولو كان شجاعاً طاعناً في السن ومن رغب في اتيان علم اتقنه ولو كان فقيراً سيئ الحال .

اما الذين لا يرغبون في المطالعة فلا يمكنهم ان يستفيدوا شيئاً ولو قرأوا الوقفاً من الكتب ودخلوا أعظم المدارس .

(٢) : الاقتصار على الكتب الصالحة المفيدة لان مطالعة الكتب الرديئة ليست عديمة النفع فقط بل هي كثيرة الضرر ويجزئنا ان نقول ان هذه الكتب منتشرة انتشاراً تصعب ازالته ومنها الكتب الكفرية التي تفسد الايمان وتقود الى التعطيل . والكتب المجنونة التي تفسد الاخلاق وتعلم الخلاعة والسفاهة والكلام البذيئ . والكتب الخرافية التي لا تضيف غير الاوهام والخزعبلات والسفاسف والحكايات الكاذبة التي لا يسلم بها عقل . والروايات الغرامية الخيالية التي تضعف الاوقات بتلاوتها ويكتسب مطالعوها منها العادات السيئة والاخلاق الذميمة كالاكتيال والمباررة والانتحار وطلب المحال وغير ذلك من الامور التي يكثر ورودها في تلك القصص . فكل هذه الكتب وامثالها لا تجوز مطالعتها لانها تفسد المبادئ وتحشو الدماغ بالاوهام وتقود الى أعظم الرذائل والخسائر المادية والمعنوية فيجب على

العامل ان يعتمد عنها ولا يسمح بدخولها البيت ووضعها بين ايدي الصغار ولا يقرأها ولا يسمعها بل يمزقها او يحرقها .

ويا ليت الحكومة تهتم بهذا الامر كما تهتم بامر الصحة فتمنع طبع هذه الكتب ونشرها وبيعها وتعاقب مؤلفيها وناشريها وبائعيها كما تمنع الدجالين من ممارسة التطيب والعطارين من بيع السموم وتعاقب بائعيها .

ان اختيار الكتب النافعة لا يقل خطورة عن اختيار الاصدقاء الصادقين فكما انه لا يحسن الاعتماد على صديق الا بعد اختباره وتحقيق صدقه ووفائه كذلك لا يحسن الاعتماد على كتاب الا بعد تحقيق نفاسته وفائدته . ان انفع الكتب هو الذي يترك في نفوس قارئيه افضل تأثير صالح ويفعل في الحياة العقلية ما يفعله نور الشمس في الحياة النباتية والحيوانية فينبه القوي والمدارك وينمي العواطف والاحجيا ويحسن الاخلاق والمبادئ .

اننا في عصر كثر فيه الكتب المفيدة المزلفة باللغة العربية والمترجمة من اللغات الغربية فضلاً عما كان عندنا من الكتب الادبية والعلمية القديمة فلا يصعب علينا وجدان ما نحتاج اليه من المواضيع المختلفة واختيار احسن الكتب التي تبحث عنها . ومما نفيد مطالعته المجلات العلمية كالمكتشف والمجلدات وغيرها ومن كان ضليعاً من لغة اجنبية كالفرنسية والانكليزية والالمانية استطاع ان يجد ما لا يحصى من الكتب والمجلات النافعة التي تشمل على احدث الاكتشافات العلمية وافضل الاختراعات المعاصرة . ويحسن بالراغب في المطالعة ان يستشير اهل الفضل ليرشده الى الكتب والمجلات الغزيرة الفوائد فيكون على بينة من نعمها قبل ان يقرأها ولا يادر الى قراءة اي كتاب كان لبدته وحسن ظاهره فما كل جديد حسن الظاهر بنافع . وما اكثر الذين تخدعهم الكتب بحسن ورقها وجمال تجليدها وطول عناوينها فيضيعون اوقاتهم بتلاوتها ويتناولون السم من دسمها وهم لا يشعرون .

(٣) : مراعاة الميل الخاص والذوق والحال والسن في ما يختار من الكتب النافعة فبعضهم يميل الى التاريخ ولا يستفيد من العلوم الرياضية وبعضهم يحب الرياضيات ولا يميل الى العلوم الطبيعية . وما يناسب البسطاء لا يناسب الاذكياء

وما يفهمه الكبار لا يفهمه الصغار فيجب على كل راغب في المطالعة ان يختار من الكتب الجيدة ما يلائم ذوقه و يناسب حاله ودرجة فهمه لان الكتب كالأطعمة منها ما هو لذيذ الطعم سهل الهضم كثير الغذاء ومنها ما هو تافه عسر الهضم قليل الغذاء وكذلك العقول كالمعد منها ما هو قوي بهضم كل نوع من الطعام ومنها ما هو ضعيف لا بهضم سوى اللبن . والحكيم من اختار لنفسه ولأولاده الاطعمة التي تناسب اذواقهم وتلائم معدتهم ومن فعل خلاف ذلك خسر الفائدة المطلوبة وعرض نفسه وأولاده للأمراض القتالة .

(٤) : عدم الاقتصار على نوع واحد من الكتب لان الانسان يحتاج الى معرفة اشياء كثيرة لا شيء واحد فقط فيجب على المطالع ان يجتهد في معرفة كل ما يمكنه من العلوم وبعبارة أخرى ان يعرف شيئاً من كل علم فيطالع كتب الفلسفة العقلية لمعرفة حاجات العقل ومرفقاته وكتب الفلسفة الطبيعية لمعرفة سنن الكون ونواميس الطبيعة وكتب التاريخ لمعرفة احوال البشر وكتب حفظ الصحة لمعرفة قوانين المعيشة الصحية وتجنب اسباب الامراض وكتب المنطق والبيان ليحسن التعبير عن افكاره بجلاء وقوة وبالجملة يجب ان يلم بما يمكن الالمام به من المعارف المتنوعة وان كان اختصاصياً بنوع واحد منها .

(٥) : تخصيص وقت كاف للمطالعة ولو ساعة كل يوم وهذا لا يصعب على من يريد ان يجد وقتاً وان كانت أعماله كثيرة تستغرق معظم أوقاته لانه اذا أراد تخصيص ساعة للقراءة استطاع ان يختلسها من وقت فراغه او وقت راحته او وقت زيارته او وقت نومه او وقت طعامه او من مجموع هذه الاوقات كلها . والغرض من تخصيص وقت كاف كل يوم للمطالعة المداومة عليها لكي ترسخ فوائدها في العقل فاذا قرأ الانسان خمس ساعات في يوم واحد ثم أهمل القراءة شهراً او اسبوعاً سي ما قرأ وأضاع فائدته ولكن اذا اعتاد ان يطالع كل يوم صباحاً قبل ان يذهب الى عمله فصلاً من كتاب علمي او ادبي او اجتماعي او تاريخي استنار عقله ونهبت افكاره واغتذت نفسه وأصبح قادراً على القيام بأعماله بكل نشاط وترتيب ونجاح لانه قد استمد من معاني ذلك الفصل ومن روح مؤلفه الشريفة قوة معنوية عجيبة ترافقه كل ذلك

النهار . فكما انه لا يجوز للمرء ان يخرج من بيته باكراً بدون ان يتناول طعاماً يقوي جسده كذلك لا يجوز له ان يخرج من بيته بدون ان يتناول طعاماً عقلياً يقوي نفسه .

(٦) : قصد الاستفادة فلا فائدة من المطالعة بقصد التسلي او النوم او الجدل او الانتقاد او الاعتراض ولا بقصد التسليم الاغنى بكل ما يطالع ولست اعني بذلك انه لا تجوز المطالعة بقصد التسلية على الاطلاق فان في التسلية احياناً فائدة ولكنها اذا كانت هي الغاية من المطالعة انشأت البلادة ومنعت من الاستفادة ولا انه لا يجوز الانتقاد بنائاً لانه اذا روعيت قواعده افاد فائدة عظيمة وانما اعني ان تكون غاية المطالع الاولى ان يستفيد مما يطالع علماً او أدباً او تاريخاً او غير ذلك من الفوائد الجوهرية فان لم تكن غايته الاستفادة أضاع وقته سدى او ربما اضر بنفسه وبغيره اذ يتمرن على المماحكة والمجادلة ويقوده الغرور الى مجادلة من هم أوسع منه علماً واغزر فضلاً تبيحاً بما توهمه في نفسه من قوة الحجة وبلاغة المنطق وبراعة الانشاء .

(٧) اتباع الترتيب اذ لا فائدة من المطالعة بدونها ونعني بالترتيب ان يقرأ المطالع الكتاب الذي يختاره من أوله الى آخره على التوالي فصلاً فصلاً ويقرأ الفصل من أوله الى آخره سطوراً سطوراً بالنأمل والانتباه فيجد لذة عظيمة وفائدة جسيمة . اما الذين يقرأون بضعة كتب في وقت واحد قراءة بلا ترتيب مقتصرين على بضع صفحات من كل كتاب وبضعة اسطر من كل صفحة فلا يجدون فائدة ولا لذة لانهم لا يفقهون شيئاً مما يقرأونه لعدم ارتباط المعاني التي يقفون عليها بعضهم ببعض وما مثاهم الا كمثل من يحبط في الظلماء خبط عشواء فلا يروى السداد ولا يهلدون الى المراد .

(٨) : فهم الالفاظ والمعاني التي يعثرون عليها في الكتب التي يطالعونها لان فائدة المطالعة لا تتوقف على كثرة الكتب التي تقرأ بل على فهم ما يقرأ منها كما ان فائدة الطعام لا تتوقف على كثرة ما يؤكل منه بل على ما يهضم منه وربما حصل ضرر من كثرة القراءة بدون فهم كما يحصل ضرر من كثرة الأكل بدون هضم . فخير للانسان ان يقرأ قليلاً ويفهم من ان يقرأ كثيراً وينسى لعدم الفهم .

(٩) : وعي الفوائد التي يفهمها المطالع في ذهنه او كتابتها في دفتر خاص حتى يرجع اليها عند الحاجة لان الذهن قد لا يسع كل ما يعثر عليه القارئ في أثناء مطالعته فاذا لم يدونه في مذكرة تحفظ عنده اضاع تعبهُ بالمطالعة وتعسر عليه التفتيش عما يريد في الكتب التي كان قد قرأها . الا ان الاعتماد الكثير على المذكرات يضعف الذاكرة فلا يحسن الاكتفاء بها بل يجب الاعتماد التام على الذاكرة لانها هبة نعمة تقوى بالاستعمال كسائر المواهب فلا يجوز اهمالها ولا عدم الثقة بها الا اذا كانت المواد المطلوب حفظها فوق طاقتها فينبذ بحسن استعمال المذكرات . ومما يفيد المطالع ان يدون ايضاً كل كلمة او عبارة لم يفهمها لكي يبحث عنها في مظانها ويقف على تفسيرها فنتم بذلك الفائدة التي يتوخاها .

(١٠) : استيفاء البحث عن الموضوع المراد العلم به في الكتب المختصة به وذلك بالابتداء من النقطة المركزية فيه وتنع كل الفروع المتصلة به والاحاطة بجميع اطرافه فاذا اراد المطالع ان يبحث عن قطر من الاقطار كسورية مثلاً وجب عليه ان يطلع على مصورها (خرائطها) وقرأتار يحجها في كتب متنوعة بحيث يحيط علماً بمدنها وقراها وسهولها وجبالها ووديتها وانهارها واجناس سكانها والدول التي تعاقبت عليها ومذاهب اهلها ونوع حكومتها والنهضة العالمية فيها وآثارها القديمة وصادراتها وغلاتها وسائر ما يتعلق بها واقاميمها وشعوبها القديمة والحديثة وعددهم واديانهم وعاداتهم وعلومهم وصناعاتهم واغانهم في كل الادوار التاريخية وحيث يستطيع ان يكتب مقالة وافية عن سوريته او يلقي محاضرة ممتعة في تاريخها واذا اراد ان يعرف ترجمة احد العظماء او الشعراء كابي الهللاء المعري مثلاً وجب ان يبحث عنها في تراجم الشعراء الموجودة بين يديه ويتبع اقوال المؤرخين وغيرهم ممن ذكروا هذا النابغة العربي المشهور في كتاباتهم ويقابل بين تلك الاقوال ويحصيها ثم يستخرج منها ترجمة صحيحة لذلك الشاعر الحكيم . وجملة القول انه يجب على الباحث عن المسائل التاريخية او العلمية او اللغوية او غيرها ان يستوفي بحثه ويتبع كل التفاصيل المتعلقة بموضوعه بالتدقيق والتحقيق الى ان يثلى عقله به فيحصل على الفائدة التي يتوخاها . ولا بد من الاعتدال في المطالعة وتجنب الافراط فيها الى حد نسيان الطعام واهمال شروط

الصحة كما كان كنفوشيوس يفعل . فان اجتهاد العقل وتحميله فوق طاقته وعدم الاعناء بالجسد مما تضع به فائدة الدرس فليجذر طلاب العلم ومحبو المطالعة من ارتكاب هذا الخطأ .

اما الفوائد الناشئة عن المطالعة القانونية فكثيرة اذكر بعضها :

(١) : تسهيل الوصول الى معرفة الحقائق المتنوعة من كل المباحث والتدرج في مراتب الحضارة واجتناء ثمار العلوم بدون مشقة فلا يحتاج الانسان في هذه الايام الى السياحة حول الارض لمعرفة احوال الاقاليم والممالك والبلدان وغيرها ولا الى بناء المراصد واقتناء المراقب ومراقبة النجوم لمعرفة علم الفلك ولا الى بناء السفن وقطع البحار لمعرفة علم الملاحة ولا الى غير ذلك من الاعمال الشاقة التي تستغرق السنين الطوال لمعرفة العلوم الاخرى بل يمكنه ان يجد كل ما يريد من هذه المباحث وغيرها في الكتب المختصة بها فيقف على افكار الحكماء المتقدمين والمتأخرين والعلماء المحققين والشعراء المفاخرين والنوابغ المخترعين والسياح المكتشفين وهو جالس في غرفته لا يرح مكانه فيكون كل يوم من حياته بمثابة اعوام وكل عام بمثابة قرون كما انه وجد منذ وجود الانسان الاول ولم يزل حياً لهذا العهد وكأنه خالط كل الامم ورأى كل البلدان وجالس كل العلماء وسمع كل الخطباء وعاش في كل عصر وسكن في كل مصر وكل ذلك بتعب يسير ووقت قصير فما اعظم فائدة المطالعة وما اجمل من يستخف بها ويهملها .

(٢) : تثقيف العقل وتهذيبه وتربيته وشحذه لان القوى العقلية كالنباتات التي تحتاج الى التشذيب لزيادة نموها وامارها ولا شيء يهذبها مثل المطالعة فالتاريخ يملأ العقل حكمة ودربة واختباراً والرياضيات تقوي الادراك والاستدلال والحجة والطبيعات ترقى الافكار والشعر يرقق الشعور والمنطق والبيان يعصمان عن الخطأ في الذهن واللسان .

تحسين الاخلاق فلا شيء يمنع الانسان من فساد الاخلاق بعشرة الاردياء وبصون فيه الفضيلة مثل المطالعة لانها تزجره عما ينهك القوى وتشغله عن البطالة والملاهي التي هي اصل المعاصي وتمنعه من التهافت على اللذات المحرمة والاعمال المنكرة

وتكسبه الفائدة واللذة معاً فيعيش مبتعداً عن الرذائل متمسكاً بالفضائل طيب السيرة
ممدوح السيرة .

(٤) : توفير المال لان الانصباب على المطالعة يمنع الانسان من اتفاق دراهمه في
غير وجهها ويعلمه قيمة الوقت وطرق الاقتصاد ويبعده عن المبذرين اخوان الشياطين .
قال احداهم : « ان لم يكن اشتغالي بالعلم قد زاد دخلي فانه لاشك قد ساعدني على
الاقتصاد في نفقاتي لان انصبابي على المطالعة منعني من تبذير دراهمي بما لاخير فيه » .
(٥) : الابهاج ففي حالة الحزن او المرض او التعب او الشيخوخة لاشي يعزي
الانسان ويخفف عند الآلام ويعينه على احتمال الاسقام ويسليه في بلائه ويسعده
في شقائه مثل المطالعة فانها الوسيلة الوحيدة التي بها يذخر الشاب كنوز العلم الثمينة
الى زمن الشيخوخة ولا شي يحسبه الشيخ اكبر داع الى الشكر مثل تعوده المطالعة
واعظم موجب للاسف خسارة الشيخ هذه النعمة .

(٦) انشاء محبة الوطن وجعل ابنائه اكثر استعداداً لخدمته فالذي يطالع اخبار
المخلصين لاوطانهم الباذلين نفوسهم في سبيل تعزيزها وترقيتها يتولد في قلبه الحب
لوطه ويتأهب لخدمته بما يذخره من المعرفة التي ملأت عقله وأثرت في نفسه وهاجت
خاطره ونهته الى الواجب ودعته الى العمل فما اعظم الفوائد الناجمة عن المطالعة الحققة
وما جهل الذين يهملونها مع كثرة انتشار الكتب ورخص اثمانها وسهولة الحصول عليها
وخفة حملها بالنسبة الى ما كانت عليه في الازمنة السالفة . ان الشاب يقدر اليوم ان
يشترى كتاباً يقضي بمطالعته شهراً بثمن طلبة لفائف للتدخين او بثن (اوقية شكولات)
وهذه نعمة لم يعرفها المتقدمون فقد كانت الكتب في اول امرها باهظة الاثمان ونادرة
كل الندور . قيل ان الملك الفرد بذل ولاية عظيمة في مجلد واحد . وبيعت مقالة
واحدة بمئتي غنمة واربعين مد حنطة . وبيعت نسخة من الكتاب المقدس باربعة مئة
ليرة انكليزية فليعتبر المستحقون بالكتب والمطالعة من شبان هذا العصر الذين يؤثرون
زجاجة من الراح على لسان العرب والمصباح ولا بدلي في الختام من ذكر بعض مبادئ
عملية وهي :

(١) : على الآباء ان ينفقوا جزءاً من دخلهم في اتياع الكتب والمجلات

والجرائد المفيدة ويضعوها بين ايدي اولادهم ليعتادوا التلذذ بقرائتها من الصغر وتصبح ملكة فيهم زمن الشيخوخة وقسماً كبيراً من مطالب حياتهم . ان اكثر الآباء مقصرون في هذا الواجب فاذا دخلنا بيوت اهل دمشق ولاسيما الاغنياء وجدنا فيها رياضاً فاخراً وتحفاً ونقائس متنوعة ولم نجد في اكثرها كتاباً مفيداً ويندر ان يوجد فيها مكتبة على حين ان الكتب من لوازم البيت الضرورية كالطعام والاثاث .

(٢) : على رؤساء المدارس ومعلميها ان يحببوا المطالعة الى تلاميذهم ويربوا فيهم الميل الشديد اليها ويشجعوهم عليها ويساعدوهم على فهم ما لم يفهموه مما يطالعونه ويسهلوا لهم الحصول على الكتب النافعة ويهتموا بانشاء مكتبة كافية في كل مدرسة . ان اكثر معلمي المدارس لا يهتمهم سوى قبض الرواتب وقضاء ساعات الدروس بالحكايات التافهة وربما تدمروا بحضور التلاميذ من قلة الرواتب وعدم فائدة العلم فيغضوا اليهم الدرس والتحصيل وولدوا فيهم الكسل والاهمال .

(٣) : على العلماء والاغنياء ان يتعاونوا على تأسيس مكاتب جديدة وجمع كتب مفيدة لكل الطبقات في احياء المدينة ليحني فوائدها العامل والناجر والموظف والتاب والشيخ في اوقات فراغهم بدلاً من ان يدخلوا بيوت القهوة ويقتلوا اوقاتهم بلعب النرد وغيره . ان الممانات والملاهي وبيوت القهوة في دمشق تعد بالمئات ولكن المكاتب تعد على الاصابع . واللوم في ذلك على العلماء والاغنياء الذين ينفقون الاموال الطائلة على لذاتهم ولا يجودون بالقليل من ثروتهم لعمل مفيد للجمهور . ان بعض الشبان الاغنياء النجباء اظهروا رغبة في معاضدة العلماء وتنشيط الكتاب فليت الباقيين يقندون بهم فتصبح دمشق زاوية بعلومها كما هي زاوية بجذائرها .

(٤) : على الحكومة ان تشجع الشعب على هذه الاعمال وتمدله يد المساعدة كما فعلت الحكومة المنحدبة اذ هنت مبلغاً كبيراً من المال لمكتبة بيروت الكبرى وكافلت الحكومة الوطنية بامدادها المجمع العلمي بشيء من المال لاقتناء ما يحتاج اليه من الكتب لفائدة الذين يقصدون المطالعة في المكتبة العامة وهذا مما استحققت عليه الثناء الطيب . الا اننا نرجو منها ان تزيد الاهتمام بهذا الامر الحيوي لكي لتعدد المكاتب العامة وغرف

القراءة في البلاد السورية فان في تنوير الاذهان وتعليم الجهال ترقية للبلاد وتقليل
للجرائم واسعاداً للامة .

(٥) على الشبان الذين لم تمكنهم الاحوال من دخول المدارس والطلاب الذين
نالوا حظاً صالحاً من العلم ان يثابروا على المطالعة في بيوتهم وفي المكاتب العامة وغرف
القراءة كما سئمت لهم فرصة ابكي بنشأوا رجال فضل وادب ويخدموا بلادهم وامتهم
احسن خدمة و يعيدوا الى وطنهم ما كان له في سالف الازمان من العز والعمران بفضل
انتشار العلم والعرفان والله المسؤول ان يهديهم وايانا أقوم سبيل وهو حسبنا ونعم
الوكيل .

بني العرب زيدوا علمكم ما اسنطعتم ابكي ترجعوا انجد الاثيل الى العرب
ولا تهملوا الكذب التي جلّ نفعها فافضل ما يعلي مطالعة الكذب

انيس سلوم



صناعات دمشق القديمة^(١)

تمهيد — ما هي الصناعة ؟ — الصناعة عند القدماء — كيف انتقلت الصناعات الى العرب فدمشق ؟ — صناعة السيوف — القيالة وسبك الحديد والفولاذ — القاشاني — الميناء — الفسيفساء — الترصيع او التزليل في المعدن والخشب — نقش البهوت والجدران — النسيج او الحياكة — الزجاج — البناء — الوراقة وما يتعلق بها — الصناعات الأخرى — الختام .

تمهيد

بزراعة وصناعة وتجارة تجدد البلاد تقدماً وفلاحاً
اركان عمران فشيدها وخذ العلوم لنيلها مفناها
لاخفاء ان اسباب المعاش او العمران هي الامارة والزراعة والصناعة والتجارة
وقد افاض كثير من مؤلفي الافرنج والعرب في اخص تلك الاسباب التي هي بعد
الامارة وكانت ابن خلدون الملقب (سبسر العرب) بمباحثه الفلسفية والعمرانية
والتاريخية في مقدمة الدين حضوا على اثنان هذه الاركان وتوطيد دعائمها لرفع شأن
البلاد مما لا يحل الآن لتفصيله .

على انني افردت الصناعة من بين تلك الاسباب الآت لما كان لها من الشأن
العظيم والقدر الجليل في هذه المدينة العريقة في القدم والشهرة . فكانت اعمالها
ذائعة في الخافقين واتصلت بالاندلس واوربة والعجم حتى اغنتها بنفائسها . وملأت
خزائن متاحفها بذخايرها فضعف شأنها عندنا على اثر ما انتابنا من النكبات والغزوات

(١) محاضرة الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف التي القاها في ردهة المجمع في ٢٢

والفواقع الطبيعية الى ان جدد بعضها في القرن الماضي وبقى الآخر منخبطاً عن درجته الأولى ولكنه يبشر باستعادة النهضة في ظل الحكومة وعنايتها ان شاء الله .

ماهي الصناعة ؟

الصناعة هي كل ما اشغل به الانسان ومارسه حتى صار ملكة فيه . فالصناعة هي العلم المتعلق بكيفية العمل . والملكة هي الكيفية الراسخة في الذهن . ومن اسمائها الحرفة لان الانسان ينحرف اليها اي يميل . ولقد فرق بعضهم بينها . فقال الصناعة ما حصلت بالممارسة والتمرن فهي اخص من الحرفة التي لا تحتاج اليها . وقيل ان الصناعة ما كانت بالاعمال اليدوية حتى قيل فلان صناع اليسدين بخلاف الحرفة فانها تكون بدون ذلك . اما المهنة فهي الخدمة .

واسم الصناعة عند الاوربيين مشتق من كلمة (Industria) اللاتينية ومعناها (العمل مطلقاً) ثم خصصت ومنها اخذت اسمائها في لغاتهم . فالصناعة والعلم متلازمان لا ينفك احدهما عن الآخر والصناعات التي أسست على مبادئ علمية اشتهرت بدقتها وفوائدها .

ولقد قسمت الصناعات الى ضرورية وغير ضرورية فالضرورية قسماً منها ما هي عامة الفوائد كالزراعة والبناء والحيطة والحياكة والنجارة . ومنها ما هي شريفة بموضوعها وخاصة بفوائدها كالتوليد والكتابة والوراقة والطب والغناء والموسيقى . ومنها ما هي ممتنة ك بعض المهن التي يضطر اليها بعضهم ليرزق منها ولا يأنف من ممارستها . وكلها في نظر العمران ضرورية له ونافعة وبدونها تكون الاعمال ناقصة وما احسن قول الشاعر :

وليس على عبد نقي نقيصة اذا صحح التقوى وان حالكا وحجم

الصناعة عند القدماء

لقد نظر القدماء الى الصناعة نظرة غريبة فألوهوها واعتقدوا انها هبطت عليهم من العالم الآخر فأله المصريون الحراثة وعبدوا العجل ايبس . وفعل كثير من الامم التي عاصرتهم او جاءت بعدهم مثلهم بتكريمها وعدوها من مواهب الآلهة . ولا سيما

اليونانيون فانهم عدوها موهبة من ائينة او ميازفة الهة الحكمة فاشتهروا بالصناعات والفنون . بخلاف الاسبرطيين الذين شغلتهم الحروب عنها فلذلك كان فلاسفة اليونان مشهورين بصناعات وفنون بدیعة وكذلك حکماء الرومان فوضع كل من سولون اليوناني ونوما الروماني المشترعين دستوراً لامتيهما بشأن الصناعات وانظمتها . فارثقت في ايامها الى عصر الاسكندر المكدوني بنحو ثلاثة قرون قبل الميلاد المسيحي .

وكان الفرق بين اليونانيين والرومان ان الاولين اعتمدوا بالفنون فارثقت في عهدهم . ولكن الرومان اشتهلوا بالحروب مئات قرون كان الارتاء فيها هم الصناع فلم ينقنوها إلا بالحروب آفة الصناعات فاحتاجوا الى صناعات الشرق النفيسة . ولا سيما صناعات الصين والهند وما اتصل بها واثقل عنها الى بقية الاقطار الشرقية وعرف العرب كثيراً منها ولا سيما في هذه الحاضرة العريقة في القدم وعنها نقل أسرى الصليبيين وتجار سواحل البحر الرومي الاوربيون كثيراً منها الى بلادهم . فاشتهر من القدماء المصريون بفن الحراثة ونسج القطن والكتان للكهنة وغيره لغيرهم والنقش وعمل الزجاج والبناء والتعدين والادوات الخرفية والمعدنية وهندسة المياه وفتح الترع والتخطيط وجرا الاثقال وغيرها .

وعُرف البابليون بالنسج والتطريز والحفر والصبغة والحجارة الكريمة والثماثيل والنقش على الغضار (الأجر) .

والفينيقيون بالنقش والحفر وعمل الطنافس ونسج الحرير والابنية العظيمة المتينة والتعدين وصنع الارجوان وبناء السفن وعمل الزجاج والنجارة . والصينيون بالخزف المنسوب اليهم وتربية دود الحرير والوراقة والتعدين والاسلحة وعمل الحجارة الكريمة والبناء وكفى بسورهم العظيم شاهداً على براعتهم به . والهنود بالانسجة الرقيقة والصناعات المنقنة ولا سيما الاسلحة والفولاذ المشهورين الى اليوم باسمهم ولا يزال فولاذ بنجوب من بلادهم متميزاً على غيره ولا سيما نوابض (زنبلكات) الساعات .

فانتقلت هذه الصناعات الى الامم الأخرى فاقتبس اليونان من صناعات المصريين البناء والنحت والنقش ومن الفينيقيين الزجاج والملاحة والارجوان . واخذ العرب

عن الصينيين الابرّة المغناطيسية وعن العمّ الورق والقاشاني الى غير ذلك مما ستراه مفصلاً في ما يأتي :

وكل من طالع الياذة هوميروس كبير شعراء اليونان المنقولة الى العربية يجد فيها وصف المناضد المتحركة • والحداد هيغت اله النار • ومعادن قبرس الحديدية • والحدادة • وكوب نسطور والخراطة وصنع العاج والبرفير • وصياغة الفضة في صيداء والتجارة وعمل المركبات والصقل والغزل والنسج الفينقي وبناء السفن واشباهها حتى انه صورها بقله العسال وصفاً كأنه يمثلها بمنقاش المصور • فن ذلك قوله يصف هيلانة تطرز بابرثها :

وجدتها بالصرح تنسج ثوبا بحواشي البرفير والارجوان
ويرأس الحياط ترسم فيه واقعات ابلت بها الفتات
ومن ابداع اوصافه تصويره لترس اخيل من موشحة قال فيها :
اودعه نقشاً به تحارُ لحسنه الانتظارُ والافكارُ
فالارضُ والسما والجارُ منهن لاحت فوقه الآثارُ
وساطع الشمس وثم البدرُ

فذكرني جمال هذا الوصف بقول المعتمد بن عباد ملك الاندلس يصف مجناً ايه ترساً فيه كواكب فضة وقد امره ابوه المعتضد بذلك فابدى وهو :

مجنّ حكي صانعوه السما لتقصر عنه طوال الرماح
وقد صوروا فيه شبه الثريا كواكب نقضي له بالنجاح
ولو اتسع لي الوقت لسردت كثيراً من اوصاف الصناعات عند الافرنج والعرب •

كيف انتقلت الصناعات الى العرب فدمشق ؟

لما احتك العرب بمجاوريهم ومحاربيهم من الامم استفادوا منهم صناعات كثيرة برعوا بانقانها فوق ما كان عندهم من الصناعات الوطنية في العراق وبلاد العرب والاقطار الاخرى التي تفوقوا فيها ومن أقدمها بناء السدود مثل سد العرم وطبع السيوف

البناية وبناء القصور وعمل الاسلحة والخزف والقاشاني والزجاج وبناء السفن والنسج والحفر والنقش وعمل الورق واشباه ذلك مما لا يدخل تحت حصر فنشير الى اهمه .

ولما كانت دمشق وما يجاورها من ايام الجاهلية وما بعدها قطباً لرحلات الاقوام ومحطاً لرحالهم ومقراً لهم اجتمعت فيها الصناعات المختلفة وترقت بحسب الحاجة اليها بل تفوقت بها على غيرها لاسباب كثيرة اهمها رواج سوقها واتقان آدابها ووضع انظمة لها وروابط وتيقة العرى . وانحصر كثير منها في أسرار خاصة كتمت أسرارها واحتكرت آثارها فألف بعض العلماء في كشف تلك الاسرار كتباً بينوا فيها غش الصناعات وحيل اربابها على اختلاف عملهم وتزويرهم ونقليدهم للشيء الطبيعي بالصناعي وتلاعبهم بالموازين ونحو ذلك . منها كتاب (كشف الدك وايضاح الشك) لابن شهيد المغربي . و (ارخاء الستور والكلل في كشف الدكات والحيل) لسعيد النيسابوري وهما مخطوطان . و (المختار في كشف الاسرار) للشيخ عبد الرحيم الجوبري الدمشقي وهذا طبع في دمشق منذ اربعين سنة وغيرها .

وللصناعات الدمشقية اصول تعرف بالشد لها آداب وانظمة وموظفون بقواعد معلومة عندهم يتناقلها الخلف عن السلف . وقفت على وصف اهمها في بعض التعاليق والمخطوطات الموجودة في خزائني وغيرها وطالعت مقالة فيها لرصيفي الياس بك القدسي الدمشقي مطبوعة في اعمال مؤتمر ليدن (هولنده) الذي عقده المستشرقون سنة ١٨٨٣ .

فمن كل هذه المصادر استفدت انه كانت للصناعات رئيس أعظم يسمى شيخ المشايخ وكان هذا المنصب يتوارثه سادة بني العجلاني^(١) الحسينيون من آل البيت النبوي الكريم خلفاً عن سلف وصاحبه يعين المشايخ لاكثر من مائتي حرفة في المدينة ويفصل الخلافات ويحسم المنازعات التي تقع بين ارباب الحرف آمراً وناهياً ومقاصداً للخالفين . وبالجملة فانه الحاكم العام الذي لا ينتخب بل ينال منصبه

(١) قال الحبي في (خلاصة الاثر ٤ : ١٥٤) : « السيد محمد العجلاني شيخ مشايخ الحرف الذي يعقد الشدة والعهد لأهل الصنائع . وكان صاحب هذا المنصب قديماً يعرف (بسلطان الحرافيش) ثم كني احتشاماً بشيخ المشايخ » اهـ .

بالارث عن اسلافه ولا يعزل ولا يترك منصبه الا بالموت او الاستقالة وبقيت سلطته هذه مرعية الجانب الى ان اعلن السلطان عبد المجيد العثماني التنظيمات الحيرية فبقي له من وظيفته التصديق على نصيب شيخ الحرفة الذي ينتخبه معلوها واحترام نسبه الشريف وشخصه الجليل . ويتارك شيخ المتساخ النقيب وينوب عنه . والجاو يش ينفذ الاوامر . وآدابهم مع آداب المعلم والصانع والمبتدئ وشد الصانع حتى يصير معلماً هي آداب مرعية يقال فيها أدعية وتؤخذ عهود غريبة الاسرار كثيرة التفصيل لا يسمح المقام باكثر من الاشارة اليها ولكنها تدل على احترام الصناعة كما احترامها القدماء وترقيها بهذه الاصول المتبعة .

فأهملت بكساد الصناعات وكثرة المصادرات وبقيت بعض آثارها في قليل من الاسر مثل بني القصار الذين يبيضون الثياب قبل صبغها فلهم آداب خاصة بهم يحافظون عليها الى يومنا . وبني الحصري الذين يضفرون الحصر وبني المنجد ونحوهم .

صناعة السيوف

افق ذكر اليمهين بصناعة الشنار والنصال . وكذلك الهنود فليل سيف يمان وحسام هندي وهندواني او مهني . فلما قدمت قبائل اليمن الى مشارف الشام نقلت معها تلك الصناعة فانتشرت وانقنت فليل لسيوفها المشرفية والتامية . ولما كثر الحديد في سورية وجبال لبنان كداريا والفرزل ودوما والشوير ومنسفرة عمل منها الفولاذ وطبعت منه السيوف المحدة والشنار المجوهرة . وكان الفولاذ الهندي الذي فيه قليل من الالومين والسلكا ينقل من الهند الى بلاد الشام منذ زمن بعيد فيتخذ للشنار والنصال والجوارح .

فاشتهرت مصانع دمشق بعمل القواطع كالشنار والنصال والسهام والحراب والمدى وكانت هذه تخرج من بين أيدي الصياقلة شديدة الصلابة مرهنة الفرار كثيفة مرنة ذات فرند او جوهر بديع التلوين والرسوم يغطي سطوحها الصقيلة بخطوط دقيقة كأنها عروق سوداء وبضء فضية اللون متحاذية او متقاطعة ذات اشكال مختلفة . فمنها ما هو كالاياف المتعارضة في زوايا كثيرة . او كالعقود

المنظمة او كالعناقيد المنضدة . ولقد اكتشف الدمشقيون امرار هذه الصناعة .
مفوقين فيها حتى أغلقت عن سواهم فلم يهتدوا اليها حتى يومنا مع كثرة تفننهم
وتجارهم ومهارتهم .

واما هذا الجوهر الدمشقي او الفرند او الاثر فهو طرائق السيف التي هي على
سطحه شبه الفبار او كدب النمل . وقد امتاز على الجوهرين المجمي والهندي
بروائعه وتموجاته وعدم تطرق الصدا اليه ولينه . فلذلك لا تقبل السيوف الدمشقية
الكسر عند الضرب بها مثل غيرها . وسمي جوهرها الحناوي او الحنوت . واتخذ
الدمشقيون لكل نصل كتلة واحدة من الفولاذ . واما الاعاجم فيتخذون له اكثر من
كتلة . فتميز النصل الدمشقي بثبات جوهره وتحسينه عند تحضيره اي احماؤه بالنار .
او عند تطريقه . وبالتحليل عرف ان فولاذه كان ممزوجاً بمعدن آخر يسمى التيتان
او الحزوم وهو موجود الآن في نواحي دوما . ومنه اخذ ابراهيم باشا المصري كيات
لمعمل الاسلحة عندما استولى على البلاد سنة ١٨٣٠ .

فلذلك اشتهرت السيوف الدمشقية بجودة صقلها ومرونتها ومناة فولاذها .
وكانت صناعتها مشهورة بزمان الرومانين وفي عهد العرب . ومنها انتقلت الى طليطلة
في الاندلس ومن هذه الى ميلانو في ايطاليا . وفي المتحف البريطاني وغيره سيوف
دمشقية بدیعة الصنع وفي متحفنا بعضها ايضاً .

وصارت الناس تنغالي بالسيوف وبقيّة الاسلحة كالنصال والحرايب والسهام
والمدى والدروع والخوذ والبنادق الدمشقية حتى ان السلطان بيبرس البندقداري
لما اراد تقديم هدايا سياسية لباراق سلطان المغول في تركستان اختار الاسلحة الدمشقية
لنفاستها ورونتها وندرتها .

وقال الجواهري في المعرب : وبصرى موضع بالشام وقد تكلمت به العرب واحسبه
دخيلاً ونسبوا اليه السيوف فقالوا : سيف بصروي . وقال الحصين بن الحمام :

صفايح بصري اخلصتها قيونها ومطر دأ من نسج داوود محكما

ومن آثار هذه الصناعة النفيسة اسلحة وادوات وصفها بريس دافين

(Prisse d'Avennes) في كتابه الافرنسي (الفن العربي) (L'art Arabe)
صفحة ٢٨٠ بما معناه :

« اسلحة طومان باي الاشرف اعني خوذته ونبله وخنجره وفاسه وجوكانه (اسي
عصاه المعوج) ودبوسه بتاريخ سنة ٩١٧ هـ و ٩٢١ هـ مصنوعة من الفولاذ الخراساني
ومرصعة بالذهب ترصيعاً دمشقياً بذوق لطيف جداً . فالخوذة شكلها شرقي اسي
مستديرة وهي من الفولاذ الدمشقي ضاربة الى السواد ومرصعة بالذهب ترصيع دمشق
وأطال في وصف اجزائها وسلاسلها وشعارها والآيات القرآنية والعبارات الدينية التي
على عصابتها مثل : لا اله الا الله . وعظمة عرشه تمتد على كل الكائنات ولا يمكن
لحكومة ان تغيرها . ثم ادعية أخرى مثل امنح النصر للمؤمنين الحقيقيين الخ . . والدبوس
كانت قبضته موشاة بالمخمل القرمزي وعلاقتها فولاذية مرصعة بالذهب بالصناعة
الدمشقية . . ثم تطرق الى وصف درع لرأس الحصان مصنوعة من فولاذ دمشقي مرصع
بالذهب بالصناعة الدمشقية . . » اهـ

وبقيت هذه الصناعة رائجة الاسواق بديعة الطراز الى ان غزا تيمورلنك (الاعرج
الحديدي) سورية ودخل دمشق سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠٠ م) فسي كثيراً من صناعاتها
والمهنيين في غيرها فتصوحت ازهارها وذوت نضارتها منتقلة الى بلاد فارس مزهرة
فيها . ويقال انه اسر مائة وخمسين الفا من دمشق بينهم الاطباء والصناع والبنائون
والحاكة والتجار وارباب الصناعات الاخرى ولا سيما الصياغة المشهورين الى سمرقند
فبنوا في بلادهم مصانع خراسان الشهيرة واشتهرت بصناعاتها .

ومن الصناعات التي تحفظ اليوم اسم دمشق « صناعة السيوف الدمشقية » في
مدينة فاس المراكش في المغرب .

اما اصناف السيوف الجيدة الفولاذ المشهورة فمنها اليمنية والهندية والسلمانية
والدمشقية والخراسانية وتتميز سيوف اليمن بجفرها وثقوبها وتقوشها ولكنها لينة الغرار
تثقل سريعاً بخلاف الدمشقية فانها صلبة المضارب لينة الشفار حتى يمكن ليها بسهولة
دون ان تنكسر ولا تزال آثار صناعة السيوف باقية في اسماء بعض الاسر الدمشقية

مثل بني السيوفي والصيقل والسكاكيني وجوهر وبولاد . وفي مجلة المشرق مقالة مفيدة في السيوف الشرقية المجوهرة (٥٧٧:٣ و ٧٠٠)

ويظهر ان القدماء الفوا في الجوهر والصيقله فذكر ابن ابي اصيبعة في تاريخ الاطباء رسالتين للفيلسوف الكندي الشهير (الاولى) في المعادن والجواهر وانواع الحديد والسيوف وجيدها وموضع انتسابها . و (الثانية) في ما يطرح على الحديد والسيوف حتى لا تتلثم ولا تكل . ولانعلم محل وجودهما الان . ومن الطف ما وصف به العرب جوهر السيف ما نظمه اسحاق بن خلف كما قال المبرد :

التي بجانب خصره امضى من الاجل المتاح .

وكأنما ذر الهباء — عليه انقاس الرياح .

ومثل ذلك قول عبد الله بن المعتز العباسي :

وجرد من اغماده كل مرهف اذا ما نفسته الكف كاديسيل

جرى فوق متنيه فرند كأنما نفس فيه القين وهو صقيل

القيانة وسبك الحديد وعمل الفولاذ

القين الحداد الذي يشغل بالمبرد و يعرف عند عامتنا بالبندقجي والقردحجي والقرداحي وصنعتة القيانة المعروفة عندهم بالقردحة .

ولقد اشتهر الدمشقيون بهذه الصناعات واستخرجوا المعادن الحديدية من جوار دمشق كما مر ومن مشارف حوران وابسان والقلون . ولا تزال آثار خبث الحديد الذي تسميه العامة (الكشته) تدل على اماكن المسابك وكذلك اسم المسبكين الجواني والبراني في دمشق . وكانت تقطع اشجار السنديان لتذويب الحديد واستخراج الفولاذ فتعرت الجبال من حلاها النباتية وبقيت جرداء الى يومنا ومن التسميات بهذه الصناعات اسماء بيت بولاد وابي حديد والحداد . ولعل اسم قرية حلبون قرب دمشق من اليونانية بمعنى الفولاذ لاستخراجه منها .

ومما يروى ان أسرة الحدادين التي كانت مشهورة في اذرع (حوران) منذ القديم بهذه الصناعة نبت بها حوران ففرقت في مطاوي القرن السادس عشر في

بلاد الشام وتقلت صناعتها اليها وفي دمشق اشغل ابناؤها بعمل البنادق او البواريد فصادرتهم الحكومة وفروا الى جبل القلمون ولهم بقية في دير عطية وبيروود وكان احدهم المسمى عبوداً قد اشتهر بعمل البنادق المتقنة فنسبت اليه وقيل لها (العبودية) وكذلك اشتهر بعمل الاجراس الحديدية فنسبت اليه ايضاً وقيل لها (الاجراس العبودية) وبقي حدادو دير عطية يشغلون البنادق سرّاً بعقود تحت الارض الى زمن قريب .

ومما يتعلق بالحدادة عمل ادوات كثيرة كان لها في دمشق شأن كبير مثل عمل الابر والمسلات والقبابين ولا تزال سوق الابارين خارج باب الفرج تدل على ذلك ومثلها سوق المرادية لعمل المرادن وهي قضبان حديدية لدواليب الردن المتخذ للنسيج . وسوق الحدادين ايضاً .

على انه لما جلب الحديد السويدي من اسوج واشتهر استعماله بطل استخراج الحديد لوطني الذي كان شائعاً هنا وفي انحاء سورية ولبنان ولهم في اعداده طرق جميلة ونفثات عديدة لا محل لتفصيلها الآن .

القاشاني

وهو نوع من الخزف الصلب المموه بالوان واصباغ بديعة ونقوش رائعة منسوب الى بلدة قاشان على ثلاث مراحل من اصفهان في بلاد فارس . قال ياقوت في معجم البلدان : منها تجلب غضائر القاشاني والعامية نقول القاشي اه . وعامتنا اليوم نقول القيشاني .

وهذه الصناعة اتقنها البابليون وعرفها الكنعانيون كما دلت الآثار وثناؤها الفرس واليونان والرومان واتصلت بالعرب في صدر الاسلام وتدرجوا بها فائقنوها في بلاد فارس وزين الملوك الاخمينيون قصورهم بنقوشها الرائعة التي توجد بعض قطع منها في متحف اللوفر الباريسي . وابدعها في بلاد فارس ابنية اصفهان ولا سيما في زمن الشاه عباس الاول . وفي قونية وبورصة آثار القاشاني السلجوقية . وبتحف الاستانة ناووس بابلي مطلي بمينا اخضر . وانتقلت هذه الصناعة الى دمشق

وعرفت فيها بصناعة (الفضائر القاشانية) ومن الواحها المؤرخة قبرية في بيت انطون
الفندي ميخائيل السيوفي في دمشق بتاريخ ١٢٥٩ هـ (١٢٦٠ م) .

والقاشاني صنغان صنف بسيط من الحزف المزوج بالحديد يحمر عند شيه ويموه
بمركب قصديري ابيض سميك . وصنف من مواد انقى اذا شوي ابيض وصلاح لصبغه
بالوان شفافة رائعة تأخذ بمجامع الابصار .

ولقد كانت في دمشق معامل كثيرة لهذه الصناعة النفيسة منها ما اكتشف امام
الباب الشرقي خارج السور سنة ١٨٨٢ م اذ حفر هناك الطبيب النمساوي اورديتيانو
قبلا واستاش دي لوري الاثري الافرنسي نزيل دمشق الآن اخيرا فوحدا
معامل له وآثاراً منه .

ومما عرف من هذه المعامل مصنع بين آخر القبرية واول الجورة من احياء
دمشق فيه اجران حجرية لسحق الزجاج . التويه به ولد نوافذ خروج الدخان عند
ابقاد النار للتذويب والتي . وقد بقيت فيه قطع قاشانية بعث منذ ربع قرن اواكثر
وكذلك ظيرت آثار معامل في محل بيت المرحوم جبران اسرحيب الآن مشغل - يث
الآسية بجوار الكنيسة المرمية والدار البطريركية الارثوذكسية .

وقرأت في ديوان العلامة الشيخ عبد العني النابلسي الدمشقي المخطوط انه ارخ
عمارة مدرسة في القسطنطينية بناها الوزير ابراهيم باشا فجاء من قبله رجب آغا القهجي
الى دمشق ليأخذ منها معلمين يصنعون القاشاني وطالب من النابلسي عمل تاريخ يكتنب
على القاشاني لسنة ١٠٩٢ هـ (١٦٨١ م) فظلمه واخذوه معهم وهذا يدل على بقاء
هذه الصناعة في ذلك العهد مشهورة .

وقد فقدت هذه الصناعة منذ قرن ونصف . وفي المعامل التي اكتشفت امام
الباب الشرقي في حديقة الطبيب النمساوي ما يدل على ترك العمال اشتغالهم فجأة وتحريب
أثاثين الشئ بحادث فجائي لعله بالزلزلة العظيمة التي ارنحفت منها اعطاف دمشق مرارا
في سنة ١٧٥٩ م و (١١٧٣ هـ) فهدمت . آذنها وقوضت كثيراً من ابنتها فترك
العمال اعمالهم وطمروا المحل .

ومن اسباب افراض تلك الصناعة ايضاً انحصارها بأسر خاصة فنقلص ظلها

بها . وفي حلب الى اليوم اسرة القاشاني التي يقال انها انحصرت فيها هذه الصناعة ثم انقرضت الصناعة وبقيت الاسرة جاهلة اسرارها منسوبة اليها بالاسم فقط . وربما كانت منسوبة الى بلدة قاشان المذكورة او الى الاتجار بالقاشاني .

ولطالما تنافس الدمشقيون باقتناء هذه الآثار الفاخرة فعملت منها الصهاريج والسلسبيلات والبازنجيات والقماة والزهريات والقلل^(١) وانباهاها . ورصفت بصفاتها جدران البيوت ومرافقها حتى انها بعد حادثة سنة ١٨٦٠ م صار السكان ينتزعونها من البيوت ويستعيضون عنها بالرخام فانتقلت تلك الالواح النفيسة الى اوربة وقل وجودها عندنا ولا سيما بعد تكرار الحرائق والتدمير .

وكان اشهر قاشاني في الجامع الاموي في دمشق وفي جامع المسجد الاقصى في القدس الشريف . فعمده الاموي باخرايق المتوالية عليه . وتجده في بعض المساحد والحمامات والبيوت تارة منسوبة منه اسمها ما في جامع الشيخ يحيى الدين بن العربي الذي جرده السلطان سليم الفاتح العثماني وفي حمام القاشاني المصنوعة حدرانه بالواحه وقد حول الآن الى سوق . وفي الكيين السليمية والسليمانية . وفي قاعة القاشاني التي بناها البطريرك مكاريوس ابن الزعيم في دار البطريركية الارثوذكسية فاحترقت سنة ١٨٦٠ م . وفي سلسبيل جامع الدرويسية المؤرخ في سنة ١٩٨٢ هـ / ١٥٧٢ م ، وفي جامع سنان آغا في المناحية . وفي دار اسعد باشا العظم . وما في متحف الوطن من بقاياها المختلفة الاشكال وبعضها تقيس عليه كنائس ومنها ادوات كالمرابا وغيرها . وكلها بديعة الالوان والنقوش والطرارز .

ومن قراء وصف الرحالة المؤرخين للجامع الاموي الكبير قبل ان نكس بالحرائق الكثرية ولا سيما الاخيرة منها . عرف ما كانت عليه من الرواء النادر والزخرف النفيس .

(١) الصهاريج الدرك والحجرات في وسط الدور . والسلسبيلات هي المياه التي تحصر بانبوب الاسقاء . والبازنجيات هي انابيب كأنبوب المدخنة او البخيري تستعمل للتبوية . والفقمة آنية لرش ماء الورد في الحفلات ونحوها . والزهريات اوان لزراعة الزهور او وضعها فيها . والقلل جمع قلل وهي الجرة العظيمة .

واشتهر الاندلسيون بمعاملهم القاشانية في مدينة مالقة سنة ١٣٥٠م ومنها نقلت الصناعة الى ايطالية فعرفت اولاً في فلورنسة ثم اشتهرت بها مدينة فاينسة فنسبت القطع القاشانية اليها فقبل المالتي (Mayolca) والفاينسي (Faiences) واقتبسها منهم الفرنسيون ونفوقوا فيه معامل مدينة (روان) ثم اقلنى اثرهم الالماني والانكليزي .

ووصف ابن بطوطة وغيره من المؤلفين والسياح هذه الصناعة وذكر الادريسي خزف دمشق المطلي بالميناء .

ومما عرف من آخر اسرار هذه الصناعة انه كان يعمل آجر مختلف الاشكال والحجوم والزوايا مجبول من الرمل الابيض والجص مفرغ بقوالب حسب الحاجة فيكتب على سطوحها آيات واشعار وترقم نقوش معدنية وصور بمواد ثابتة . وبعد ان تجفف يندر عليها مسحوق الزجاج الدقيق جداً او تطلّى به ممدوداً عليها بسائل غروي وتشوى في وطيس (ثور) معد لها فيذوب الزجاج ويغشي تلك السطوح بطبقة رقيقة مناسبة للامعة تشف عما تحتها من الالوان والاصباغ .

الميناء

الميناء كلمة فارسيته (مينه) اي جوهر الزجاج وهي (أكاسيد) معدنية تصور بمادة زجاجية وتطلّى بها الاواني المعدنية والادوات لاطهار رونق نقوشها وجمال رسومها . فهي في المعدن كالقاشاني في الخزف ولذلك يسمى القاشاني بالميناء أحياناً .

وصناعة الميناء عرفها الطورانيون ونفوقوا فيها واشتهرت في اشور ومصر وفنيقية ثم في الصين والهند قبل الميلاد بقرون . ثم عرفها الفرس ونقلها عنهم البزنطيون والدمشقيون واتجروا بها من فارس ثم اتقنوا عملها ولكنها لم تكن من صناعاتهم الوطنية الشائعة مثل غيرها ونقلها الصليبيون في القرن الحادي عشر للميلاد الى اوربة فبلغت كمالها عندهم في القرن السادس عشر المسيحي .

ولا يزال اهل الهند وفارس والارناؤوط ولا سيما الشركس متفوقين فيها الى

يومنا حتى يقال (ميناء شركسية) وهي من الطبقة الاولى من الصناعات الاخرى عند غيرهم .

وكان الفرنسيون يتغالون باقتنائها فذكرها المؤرخون كثيراً في زمن الصليبيين . وقال المؤرخ راي : ان المسيو (بيو) وجد سنة ١٨٧٢ م اقتاض معمل لهذه الآنية قرب مدفن اللاتين في دمشق .

واشتهرت معامل جزيرة ميورقة في الاندلس بهذه الصناعة قبل اشتهار اوربة بها . وعنها وعما عرفه الصليبيون منها نقلوا صناعاتها الى بلادهم وانقضوا .

الفسيفساء

ان كلمة فسيفساء يونانية اما تعريب (بسيسوس — Psipsos) او من كلمتين هما (بسيفي — Psifi) اي قطع و (ذوتو — Zoto) بمعنى مرتبطة . فيكون معناها قطع صغيرة مرتبط بعضها ببعض وقد عربتها العرب بلفظ (الفسفس) . قال امين بن خزيم في بشر بن مروان :

وبنيت عند مقام ربك قبة خضراء كُلملى تاجها بالفسفس
فسماؤها ذهب واسفل ارضها ورق تلاًلاً في البهيم الخندسي
ومنها كلمة (الفص) و (الفصوص) للقطع الصغيرة العظيمة ونحوها . وتعرف ايضاً بالزليج ومنها قال الاسبانيون (Azulejo) ويرى دوزي في تكملة المعجمات العربية انها محرفة عن لازورد الفارسية ومنها الواح القيشاني (فاينس) وهي ملونة ومطلية بالرونق (الفرنيش) . والخزفيون كانوا يملونها الواحاً مطلية اسمها (Zelis) تتخذ تغشية الجدران الداخلية ذات لونين ابيض واسود ^(١) (اه) .

اما الافرنج فيسمونها موزاييك (Mosaïque) نسبة الى (موزه) إلهة الفنون ومنها اسمها في اللغات الاوربية .

والفسيفساء افلاذ مربعة غالباً من الزجاج الملون او الذهب او الحجارة الرخامية ونحوها ترصف على الجدران والسموك (السقوف الداخلية او الطوائنات) وارض

(١) راجع تكملة المعجمات لدوزي (١ : ٥٩٨) .

البهوت ونحوها بطبقة من الجبص (الجفصين) فتؤلف اشكالا هندسية رائعة من نقوش ورسوم وكتابات .

ولقد عرف هذه الصناعة الاشوريون والبابليون والفنيقيون وزينوا بها قصورهم ومعابدهم ثم عرفها اليونان والرومان فنفوقوا بها وورصفوا بها جدرانهم وارض قصورهم . واشتهر بها البزنطيون وهم الروم الذين كانوا في الأستانة فلا عجب اذا سموها بلغتهم . ولقد عملوا الفسيفساء البلورية مثل القاشاني وهي نقوش من الزجاج الملون والمذهب ترصف على طبقة من الجبص

ونقلوها الى دمشق ايام اسنقدم الوليد بن عبد الملك الاموي اتني عشر الف صانع منهم لبناء هيكل رامون او المشتري بعد نقضه وتحويله الى كنيسة تم الى الجامع الكبير المنسوب اليهم فزينوا بانواعها جدران الجامع وسموكة حتى كن آية في الابداع والالتقان وبقيت الى اوائل القرن السابع لهجرة والثالث عشر للميلاد . مع ما لحقها من الخرائق مرارا كثيرة . ولقد وصف ابو الفداء مآث حماة المؤرخ تانر حرق سنة (٤٦١ هـ ١٠٦٨ م) في الجامع فقال : « فأتى الحريق على الجامع فدمرت محاسنه وزال ما كان فيه من الاعمال النفيسة » . ووصفه ابن جرير الكنافي الرحالة بقوله : « وانزلت جدره كلها بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء وخلطت بها انواع من الاصبغة الغربية قد ملئت أمتجاراً وفرعت أغصانا منظومة بالفصوص بديع الدعة المعجزة وصف كل واصف بجاء يغتني العيون وميضاً وبصيصاً » .

وقال الحافظ في وصفه : « وهو مبني على أعمدة الرخام طبقتين التحتية اعمدة كبار والتي فوقها صغار في خلال ذلك صورة كل مدينة وشجرة في الدنيا بالفسيفساء والذهب الاخضر والاصفر وفي قلبه القبة المعروفة (بقبة النسر) ليس شيء دمشق شيء اعلى ولا أبهى منظراً منها » .

وقال الرحالة ابن بطوطة : « انه زين بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء تخالطها انواع الاصبغة الغربية الحسن » .

وانفق على الجامع أموال كثيرة لعمل هذه الفسيفساء وغيرها من الزخارف والبدائع والروائع فقال الامام عمر بن عبد العزيز : « اني ارى في اموال مسجد

دمشق كثرة أنفقت في غير حقها فلو استدركت ما انا مستدرك منها فبئس الى بيت المال لكنت انزع الرخام والفسيفساء وانزع هذه السلاسل واعيد بدلها حباً لآ .
فلما جاء وفد ملك الروم ودهش من محاسن الجامع ونقوشه قال عمر : « اني ارى مسجدكم هذا غيظاً على اعدائكم وترك ما هم به » .

وبعض الفسيفساء باقية في قبة الجامع الاقصى في القدس الشريف وفي كنيسة بيت لحم الكبرى وفي قصر الحمراء في الاندلس لان عبد الرحمن الاموي ملكها أخذ صناعات الروم الى قرطبة لتزين مسجدها وهو من الاتقان بمكان سام . ومنها مخطط (خارطة) مادبا في فلسطين ونقوش قصر جرش . ومساجد القاهرة وفارس والهند وسورية وفلسطين .

ومما بقي من الفسيفساء بعض قطع في الجدار الشمالي من حرم الجامع الاموي في دمشق وبعضها غشي بالكاس . وانفس ما هو باق منها برونقه القديم ما ازدانت به قبة الملك الظاهر بپرس البندقداري من الداخل ومعظمها من الحجارة المذهبة الملونة البديعة الاشكال والهندام تنزل أشجاراً وأبنية وأشكالاً هندسية ورقوماً رائعة .

قال المسيو غوستاف لي بون الفرنسي (Gustave le bon) في كتابه (حضارة العرب) ما معربه محصلاً : « فضل العرب النقوش القاشانية على الفسيفساء في اول عهدهم بالخاريف . فاستعملوا نوعين من الفسيفساء . (الاول) ما كانوا يرصفون به ارض الغرف واسافل الجدران الرخامية والآجرية بالوان كثيرة وحجوم مختلفة . و (الثاني) ما كانوا يغشون به الجدران ولا سيما جدران المحاريب وهذا من الطرز الزنطبي الذي اقتبسه العرب عن صانعيه » اه .

وعلى عهد السلطان سليمان القانوني العثماني استعيز عن قطع الفسيفساء باقاشاني المحلي بالمبنا . وبقيت هذه الصناعة في دمشق الى اوائل القرن السابع للهجرة والثالث عشر للميلاد . وكتب المستشرق رينو الفرنسي (Reinaud) المتوفى سنة ١٨٦٧ م رسالة في (فن الفسيفساء عند العرب) ضمنها فوائد جديدة بالمطالعة .

وقد اندثرت هذه الصناعة في سورية واستعيز عنها بالفسيفساء المعدنية او الخشبية المعروفة بالتطعيم والترصيع . وهي مشهورة بنفنن فيها صانعوها .

الترصيع او النزِيل في المعدن والخشب

روى المؤرخ هيرودوتوس ان مخترع هذه الصناعة غلوسبوس من ساقص وقيل اصلها من الموصل انتقلت الى سورية لكثرة فحاشها القديم واشتهرت بها دمشق . حتى اوصلها الدمشقيون الى اقصى درجة من الكمال .

وصناعة الترصيع او النزِيل هي نقش الحديد او الفولاذ بالذهب او الفضة او معدن آخر واسمها الا فرنجي (Damasquiné) والايطالي (Damaschina) الى يومنا . وهي نسبة الى دمشق لانهم اخذوها منها لتزيين ادواتهم واوانيهم والسحتهم . وطريقة عملها : ان تحفر اثلام عميقة او اخاديد في المعادن ثم تحشي باسلاك ذهبية او فضية وهذا انخر انواع الترصيع وأجودها .

و يوجد ترصيع آخر بسيط يكون سطحيًا اذ يحمي المعدن الى ان يزرق ثم تحفر فيه خطوط دقيقة بسكين ويرسم الشكل المطلوب بمنقش حاد يعرف بقلم الحفر ثم يمد خيط ذهبي او فضي ويثبت في الثلم باعناء بالآلة فحاشية . واما النقش فيتم بمنقش حاد يحفر اشكالاً هندسية ورسومًا وصورًا تبقى فارغة الاثلام ومعظمه على النحاس

وكانت صناعة النحاس والترصيع بالغة حد الاتقان في زمن الملك الظاهر بيبرس البندقداري في تضاعيف القرن السابع للهجرة والرابع عشر للميلاد فنسبت اليه وقيل لها (الصناعة الظاهرية) وفي متحفنا العربي الدمشقي قنديلان عليها تاريخ سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٤ م) من هذا النوع البديع مع الاغطية المخرمة المعروفة (بكسر جفت) ومع الزجاج الذي يستصحب به وكلها من الصناعات الدمشقية المنيقة .

ولقد وصف المسيو بريس دافن (Prisse d'Avennes) الفرنسي في كتابه (الفن العربي) الذي مر ذكره بعض ادوات من هذه الصناعات مثل كاسات الصفر اي النحاس الاصفر وآنية الشبه اي البرونز المغشاة بالنقوش الرائعة والكتابات العربية . وقال : ان أسراً خاصة كانت هذه الصناعات منحصرة بها فنلقن عملها للخلفاء والسلاطين والامراء في دمشق ومصر والموصل . وكانوا يصنعون الاباريق والطسوت والاقساح والمصابيح مزينة بالرسوم واوراق الشجر والدوائر الهندسية

المتشابكة التي يسميها الافرنج باسم (الصناعة الدمشقية) اي ديماسكينه . وقال انهم كانوا يحفرون اسماءهم على صناعاتهم في القرن الثالث عشر للميلاد ونقلت هذه الصناعة الى ايطالية في القرون المتوسطة .

وذكر ترصيع الاواني بخيوط ذهبية وفضية وتغشية الخشب البسيط بخشب نفيس كالجوز وغيره مما يعرف لعهدنا « بالتلبيس » او « التغشية » عند ارباب هذه الصناعات .

ثم قال : ولقد رحلت أسر دمشقية الى ايطالية وتديرت بيزه وفلورنسه وجنوى والبندقية . واشتهرت فيها معاملها حتى تفوقت بها على معامل بغداد وصقلية (Sicili) . الى ان قال : ان اتخذت تلك الاكواب المنقوشة في الحفلات كانت للتنافس بهذه الصناعة الرائعة ولكنه انتقد الكتابات المتشابكة التي كانت كلها ادعية لا يمكن حل الغازما » انتهى قول دافن .

ومن الآثار الباقية من هذه الصناعة الدمشقية ما في كاتدرائية بايتو (Bayeux) وهو قنديل مرصع ومنزل بالفضة . وعلى قبر السلطان بيبرس الثاني قنديل شعبي اي بروزي مذهب مزين وهو بغاية الاتقان عمله احد خاصة ذلك السلطان تذكارا له . وفي بعض المجاميع الصناعية في اوربة جام من الشبه « البرونز » الدمشقي المرصع بديع الصنع والنقش .

وبما ان هذه الصناعة تعلق بالنحاس ايضا رأيت ان اقول كلمة في تعدينه من مناجم كثيرة حول دمشق . منها مدينة كلشيس او خلقيس وهو اسم يوناني بمعنى مدينة النحاس ونسحى اليوم « عنجر » في اول وادي الحرير المؤدي الى مدينة دمشق هذه بطريق الشام القديم وقرب عنجر قرية « جرن النحاس » . وكذلك في محال أخرى آثار معادن نحاسية عدت قديما .

وفي دمشق سوق النحاسين المسعي قديما (البريص) التي ربما كانت تحريف (باراديسوس) اي الفردوس . ولعل اسم برزه منها ايضا . وتوجد اسماء أسر كثيرة منسوبة اليه منها بيت النحاس على اختلاف مذاهبها ومواطنها واصولها .

ومما رواه المؤرخون : ان علي بن عريف النحاسين الدمشقي طبخ ادوية مع

النفط في قدور من النحاس حتى صارت كأنها جرة نار وخرب بها الابراج التي صنعها الصليبيون من خشب وحديد مغشاة بجلود مملية بالخل حتى لا تنفذها النيران . وكان كل منها يسع نحو خمسمائة من الزرافين والنفاطين وذلك في خصار عكا . سنة (٥٨٦ هـ ١١٩٠ م) .

وكان النحاس يصنع سكباً او طرقاً وتعمل منه ادوات كثيرة لا يزال بعضها في المتاحف والبيوت والجوامع والكنائس . وفي متحفنا الدمسقي امثلة كثيرة منها . ومن معامل النحاس ما اكتشف في بيت سكر في محلة باب توما عند ترميمه اخيراً .

نقش البيوت والجدران

هي صناعة شرقية قديمة اشتهر بها الفرس والبيزنطيون فشاعت في مصر وسورية ونقلها السلجوقيون الى بلاد أخرى . ولكن الدمشقيين تفوقوا فيها فزخرفوا بيوتهم باصباغ والوان ورسوم دقيقة بديدة واشتهر بها الاندلسيون في قصورهم المشهورة . وكانت تحتاج الى الذهب فاشتغلت به أسرة خاصة في دمشق تعرف ببني الذهبي الى يومنا لانها كانت تجر بالذهب وانواعه من محلول ومسحوق مما يصلح للدهان والنقش لتزين الجدران والاشباب بالنقوش والكتابات وكانت صنعتهم ايضاً التذهيب به .

ولقد فقدت هذه الصناعة منذ أقل من قرن ولها بقية صالحة عندنا وعرف بعض الذين مارسوها بالقاب الدهان والنقاش والمراش والذهبي والرسام والمصور ومن بقاياها الماثلة لنا اليوم ما في الدار العظمية في البزورية . وغرفة حمة العظمية ايضاً . وفي بعض البيوت مثل الغرفة التي يمد آل مردم بك قرب سوق الحميدية في زقاق الفخر الرازي المسماة (خركاه) وهي لفظة فارسية بمعنى المثلثة سميت بذلك لتثليثها ومثل بيت القوتلي وشمعايا الاسرائيلي وبيوت أخرى معروفة وبعضها مرت عليه ثلاثة قرون وهي لا تزال بروقتها وروائها الجميل . ومن هذا النوع نقوش سقف الجامع الاموي الحديثة بعد تجديده على اثر احراقه الاخير فبعضها قديم الطراز

والآخر عجميته واحدها ما في موقف (محطة) السكة الحجازية في آخر شارع جمال باشا الى جنوب المرحلة الغربي .

وعما يتعلق بهذه الصناعة التجارة لعمل الابواب والنوافذ والخزائن وما شاكلها مما يدهن وينقش ويحصى يزخرف نفيس . ولقد اشتهر بها كبريون فسيبوا اليها وقيل لهم بنو التجار وهم من طوائف واصول مختلفة حتى لا يكون احدها من انساب الآخر .

واشتهر منهم بدر الدين بن حسام الدين التبريزي المعروف بالحسن الجوهري الذي صنع القاري الثلاث العظيمة التي فوق محراب الجامع الاموي الكبير بالمقصورة . كان في زمن السلطان سليم العثماني الفاتح ومن استقبله عند دخوله هذه الحاضرة . وهو من سلالة المنسلا محمد الشهير بشيخ زاده الذي جاء من جهة اصفهان الى دمشق سنة (٧٨٤ هـ ١٣٨٢ م) وحمل معه جواهر ومعادن فلعب بالجوهري وبقي الاسم منعاقباً في سلالته كما ذكر الشيخ حسن البوريني في تاريخه من مخطوطات خزانة مجمعنا العلمي الدمشقي .

ونتأ بين المسيحيين أسرة بني التجار واصلاها من بني البلدي فنسبت الى صناعاتها النفيسة واشتهر منها وهبه التجار والد المرحوم صفرونيوس مطران طرابلس للروم الارثوذكس وله اعمال سيف القواطع (الايقونسطاسات) الكنسية منها قاطع كاتدرائية الروم الارثوذكس في بيروت وهو من خشب بديع ونقش رائع وتلوين يأخذ بجامع القلوب وهندسة انيقة وقد كتب عليه اسمه بتاريخ سنة ١٧٨٣ م . ومثل ذلك منابر وقواطع كثيرة في كنائس لبنان ودمشق وسورية وفلسطين ومصر ونحوها .

ولا تزال بعض الدور الدمشقية عند جميع الطوائف من هذه الصناعات الانيقة التي اهتمت منذ نصف قرن . وفي متحفنا اشياء منها . ومن ذلك التفشية بصفايح الجوز الخشبية وللمدشقيين فننات بديعة فيه وفي نقوشه .

النسيج او الحياكة

اشتهرت دمشق قديماً بالنسيج الى ان فتحها العرب فحاكوا اقمشتهم على طراز ساساني فارسي اوقبطي او رومي فكانت ترقم عليه صور الطرائد والوقائع والفرسان والقناص وما يتعلق بها و يضاف اليها من الرسوم البديعة والرقوم الجميلة . واشتهرت بلاد فارس بعد ذلك بالاطلس والقطيفة (المخمل) والدباج الحريري الموشى فصار يرقم بصور الاثمار والازهار والحقول المدبجة بالالوان والحيوانات السارحة في الغابات والحدائق وكلها من المشجر الغريب الهندسة والاشتباك فسماء الايطاليون (Damasco) لانهم اول من تناولوه عن الدمشقيين فسموه باسمهم (الدمشقي) ومنه اسمه الافرنسي (Damas) والانكليزي (Damask) .

اما كلمة (ديماس) للنسيج القطني المعروف فارجع اليها مأخوذة من هذه الكلمة . او انها يونانية من (انديميا) بمعنى كساء او ثوب . واول من اخذها الى اوربة الهولنديون ونقلت الى انكلترة سنة ١٥٧٢ م من هولندة . وارى ان كلمة دمقس ودمقاس ودمقس التي أطلقت على الحريري المنسوج ربما كانت محرفة عن كلمة دمشق هذه . وقيل انها معرب (دمسه) اي الحريري الابيض بالفارسية . ومن الالفاظ التي قال البرثقاليون انها عربية الاصل (Adereçar) وهي اقرب من كلمة طرز او درز ومعناها عندهم الوشي .

ولقد اشتهر الوشي والدباج في زمن الدولة الاموية وثفاخر به ملوكهم حتى روي انه كان عند هشام بن عبد الملك اثنا عشر الف قميص موشى واتخذ معاوية بن ابي سفيان (دار الطراز)^(١) في قصره المعروف بالخضراء^(٢) لنسيج الحريري

(١) كان (ديوان الطراز) و (صاحب الطراز) السميان بزم من الفاطميين (دار الكسوة) و (صاحب الكسوة) من شعار الملوك لعمل اثواب الخلفاء .

(٢) لا يزال محل هذا القصر اي دار الخلفاء الامويين في جنوبي الجامع الاموي الى الشرق يعرف بمصبغة الخضراء الى يومنا وكان فسيحاً تحديق به ابنة الامويين التي ادخل بعضها في دار اسعد باشا العظم عند تشييدها .

المطرز ووشتي الثهاب الملكية المذهبة وبقيت دكاكين البزازين الى زمن ابن بطوطة وما بعده فذكرها في شوارع دمشق . وكانت على عهد الصليبيين حافلة بالانوال التي تنسج الحرير وانواعه البديعة . ولقد ذكر الشريف الادريسي رواجه في البلدان البعيدة في ايامه وما كان له من المقام الرفيع والمحاسن الرائعة .

ووصف بريس دافن الافرنسي الانف ذكره هذه الصناعة في كتابه (الفن العربي) بما ملخصه . معرباً فقال : ان النسيج الدمشقي باقية آثار روائه وبدائع زخرفه في المتاحف فصنع اولاً على اطرزة مختلفة مزركشة بصور الطرائد والحروب ولكن الفرس تطرقوا الى رسم الاشخاص فيه اه .

وذكر كبير من مؤرخي العرب وكتبة التراجم ما كان للنسيج من المنزلة . فقالوا : ان العناية اسم قماش حريري نسب اليه بعض العلماء لاشتغالهم به وكذلك الحرير فقيل العناية والحريري . وذكروا ان بني الفلاقنسي في دمشق منسوبون الى بلدة فلاقنس من نواحي حمص اذ جاء حدهم السيد محمود منها الى محلة القبرية بنسج الآلاجه واشتهرت فيها صنعته ونشأ من حفدته السيد احمد الكاتب الشاعر في القرن الثاني عشر للهجرة . واشتهر كثير من العلماء بنسج هذا القماش ومنهم احد الامراء الخرافه في دمشق فلقب بالحريري .

وكانت الامور الكثيرة تنسب الى صناعات النسيج وما يتعلق بها مثل الفتال والرباط والطباع والرسام والمطرز والطرارز والعقصاد والغزال والغزولي والقطائف والحلاج والكتابة والخالك والكتاني والمنير ومسديه والخواص والطوا . وبعضها ينسب الى آلات النسيج مثل النويلاتي والمكوكجي والمشاطي .

ولقد جلب معهم كثير من الوزراء العثمانيين الذين تولوا دمشق خياطهم وخدمتهم وارباب بعض الصناعات التي كانوا يحتاجون اليها وتديروا دمشق ونشروا فيها صناعات حديدية تركية او وطنية نسب بعضهم اليها مثل التريزي والفرا والفرايه وكركو وكرجكي والزنانيري والكبراني .

ومما يتعلق بالنسج الصباغة ولقد اشتهرت بها هذه الحاضرة منذ القديم ومن اشهر مصابغها مصبغة الخضرا محل دار معاوية الاموي كما سبق . والى الصباغة نسب بنو

الصباغ . ومنها القصارة واليها نسب بنو القصار . ومنها طبع القماش او الطباعة واليها نسب بنو الطبايع والبصمجي .

ومما ضربت به هذه الصناعة سبي تيمورلنك لكثير من ساجيها ومع ذلك فقد بقيت الى عهد قريب بغاية الاتقان ولطالما كانت شائعة في انحاء سورية حتى ان كثيراً من تماثيل التدمريات في دار التحف العربية عندنا نرى في ايديها المغازل والغزل وهما اشارة هذه الصناعة عند النساء الشرقيات .

الزجاج

نقلت هذه الصناعة من صور الفينيقية الى دمشق الارامية فأنشئت فيها المعامل واشتهر الزجاج الدمشقي مثل غيره من الصناعات الدمشقية ولا سيما في زمن الصليبيين ولقد قال ابن بطوطة لما نزل دمشق مانصه : « وفيها سوارع مستطيلة فيها حوانيت الجوهريين والكتبيين وصناع اواني الزجاج العجيبة » . وقال الرحالة بوجيبومي سنة ١٣٤٦ م : « انه رأى معامل الزجاج في دمشق تشغل على طول الجامع الاموي » . ومن ذلك الزجاج الملون المتخذ للقماري وله بقايا في بعض الدور القديمة . ونقلت هذه الصناعة الى الاندلس مع الدمشقيين واشتهرت بها مرسية ومالقة والمريّة .

ومن اشتهر في دمشق من الزجاجيين ابو اسحق ابراهيم بن محمد النخوي الملقب بالزجاج لانه كان في اول امره يخرط الزجاج فنسب اليه واشتهر بالادب وتوفي سنة ٣١٦ هـ ولما صحبه ابو القاسم عبد الرحمن بن اسحق النخوي البعادي نسب اليه لا الى الصناعة فقليل له (الزجاجي) فتأمل الفرق في التسمية .

ولقد ضعف شأن هذه الصناعة فجددت منذ نحو اربعة قرون بعض التجديد اذ جاء نفر من (بني الدالي) من خليل الرحمن في فلسطين المشهورة بزجاجها فجددوا معالم الصناعة وهم المعروفون اليوم باسم بني (القزاز على لغة العامة في لفظ الزجاج) في محلة الشاغور .

البناء

اشتهر الشرقيون بالبناء وهندسته فتميزت كل أمة فيه بمزايا خاصة منها الطراز

الساساني واليوناني باشكاله الثلاثة الدوري واليوني والكورنثي . ثم وجد في بزنطيه الشكل البزنطي . واخذ العرب طرازاً من الساساني والبزنطي اشتهروا به فجاءت ابنيتهما بينهما وتميزت القناطر العربية بشكل نصف قوسين والقوطية بنصف دائرة . وعرف العرب بعقودهم المستطيلة وتزيين القباب باشكال هندسية مجسمة فبنوا قبابهم مئمنة الاضلاع ثم مربعها ثم ذات ست عشرة ضلعاً فانقلوا تدريجاً من المربع الى المدور وكانوا لا يحفلون بالتزيين الخارجي ثم مالوا اليه بعد زمن ومن مميزات الشكل (المقرنص) مثل ما هو فوق مدخل الظاهرية في دمشق وغيرها من الابنية القديمة . واما الكتابات على جدران الابنية فكانت بالكوفي والنسخي والمشبك على ابواب المدينة والصور والقلعة وابراجها والابنية الأخرى كالمساجد والمدارس فمنها ما هو آيات قرآنية كريمة ومنه وصف اوقاف كانت للجوامع والمدارس فنقشت اسمائها واما كتبها ومقاديرها لتحفظ من عبث الايدي بها . وذكر ابن طولون الصالح في (رسالة المزة) المخطوطة : انه عندما يبطل الحاكم طرح ضريبة على الناس ينقش ذلك في الجامع والقلعة ودار السعادة اهـ . وكانت تنقش اسماء البانين ايضاً والمهندسين ونحو ذلك وقد جمعت كثيراً من هذه الكتابات لانشرها . وقد نشر كثير منها في كتب الافرنج ورحلاتهم ولا سيما بالالمانية ولكنها لا تخلو من مزالق ومغامز ولم في هندسة ابنيتهما اشكال كثيرة مختلفة ^(١) .

ولما امتزج السوريون بالعثمانيين اقتبسوا شيئاً من طرازهم . وشاع في اوربة الطراز القوطي مقتبساً من الطراز العربي في الاندلس .

ومن أعجب الهندسة القديمة هيكل رمون (محل الجامع الاموي الآن) بزمان الاراميين ثم الرومانيين واسواق دمشق بزمان الرومانيين والكنيسة المريمية بزمان اليونانيين والجامع الاموي ودور الامويين والمدارس والقلعة وبعض القصور بزمان العرب وعلى بعضها اسماء مهندسيها مثل ابراهيم بن غنثم المهندس على باب الظاهرية وهو دمشقي . وكان لبعض ملوك دمشق شعار (رنك) خاص مثل (صورة الاسد)

(١) بين المسيو غايه في كتابه (صناعات الغرب) اختلاف هذه الاشكال بين

دمشق وبغداد وحلب والبصرة وغيرها .

للملك الظاهر بيبرس البندقداري - وزهرة الزنبق بين اسدين لنور الدين الشهيد وغير ذلك مما نراه في خارج الابنية الباقية وفي داخلها - والآخر ذهب بذهاب المباني منذ عهد العباسيين الى ايامنا بالتخريب والاحراق والزلازل والاهمال .

وكان نحت التماثيل معروفاً لان مؤرخي الروم ذكروا تماثيل كثيرة بديعة النحت والرواء في قصور الخلفاء بدمشق والعراق ومصر والاندلس ولقد اشتهر الدمشقيون بنحت الحجارة ونقشها وتصويرها ولم سوق تدعى (سوق النحّاتين) الى عهدنا .

ومن بديع الابنية المتأخرة طراز التكتيتين السليمية والسلجانية وفيها القاشاني النفيس والنقوش الرائعة . وكذلك ابنية سنان باشا ومراد باشا من حكام هذه المدينة ومنها قبة باب البريد . والقاعة المنجية التي وصفها الشيخ حسن البوريني في تاريخه المخطوط في خزنة مجمعنا العلمي العربي الدمشقي بقوله : انها ليس لها نظير بناها امير الامراء محمد المنجي في دارهم لصيق الجامع الاموي من الشرق .

وفي الصالحية (بسفح جبل قاسيون) في باب السوق المواجهة للجامع الثابتية محلة (بين المدارس) وعلى ابوابها نقوش عربية بالحجر ذات رونق وانقاف وداخلها غرفتان الى الشرق وفيهما مدفن . وقبة مخصصة بنقوش رائعة . واما التي على يسار الداخل فهي بدبعة النقوش والكتابات مخصصة الجدران قد اقتلع من جدرانها كثير من قطع القاشاني الثمينة ونقوشها على علو نحو مترين وهي من أهم آثار دمشق الداخلية في نحو سنة (٨٠٠ ١٣٩٧ م) وقد زرتها مع رصفائي اعضاء المجمع العلمي اول مرة (في شهر حزيران سنة ١٩١٩ م) وحرصنا الحكومة على تنظيفها وحفظها لتكون مباءة للسياح وروام الآثار . ومن تلك المباني دار اسعد باشا العظم قرب الدار الخضراء التي كانت قصر الخلفاء الامويين وكان الاز فيها اي رئيس البنائين والعملة معظمهم من مسيحيي دمشق . قال الشيخ احمد البديري الحلاق في تاريخه المخطوط ما محصله بلغته الاصلية : جاء محصل من قبل السلطان لتحصيل المال من سليمان باشا العظم . فأرسل خلف المعامرية (اي البنائين) الذين عمروا السرايا وكانوا نصارى وكانت معلم نصراني يقال له ابن سياج فأمر القجي اي المحصل بتعذيبهم ٠٠٠ الخ وكان المعلم يطلق على رئيس البنائين . وفي ذيل القرماني من

مخطوطات خزانة مجمعنا : ان بانيه انفق عليه اربعمائة كيس والكيس خمسمائة غرش اجرة العمال . واما الخشب والبلاط والتراب وغيره فمكمله من بساينه وارزاقه . وبقى العمال يشتغلون في دار الحريم سنين وما كملت . وعدد العمال من غير ضبط ثمانمائة . وحاصل الامر نقلوا عمن ساح في البلاد ورأى ابنتها ان ليس مثلها في ملك بني عثمان حتى ولا سراية الملك المعظم اه .

واخبرني احد المعمرين من بضع عشرة سنة اخباراً غريبة عن بناء هذه الدار وما جرى للبنائين الحلبيين الذين اسبقوا لمساعدة الدمشقيين وغلبة الدمشقيين ايام بن الهندسة البنائية . . . وان اجرة المعلم اليومية كانت نحو عشرة قروش واجرة الفاعل نحو ثلاثة . وهذه الدار جامعة لاخر فنون الهندسة والصناعات الدمشقية فهي احسن مثال لها وعندني وصف لها قبل خرابها الاخير . وكذلك كانت القيسارية العظمية المعروفة (بخان المعظم) .

ومن محاسن الابنية الدمشقية ايضاً قاعة في زقاق الفخر الرازي من دور آل مردم بك الآن بديعة الهندسة والنقوش في السمك والجدران من نوع (الخركاه) اي المثلثة واصلا لآل الكيلاني المشهورين في دمشق وحماه . الم كثير من امثلة البناء الدمشقي في بعض الدور الباقية على رونقها القديم واكثرها رميم فقد طرازه . وعندنا اسر باسم البناء والنحات والحفار والدهان والرسام والنقاش تدل على صناعات البناء وما يتعلق بها .

ومما يدخل في صناعة البناء هندسة المياه وتوزيعها في الاقنية الحلوة والمالحة الى الطوالع (اي محل توزيع مياه القنوات) والبيوت والمجاري بطرق فنية ولها مخططات (خارتات) لمعرفة توزيعها واصلاحها . واقد ذكر التاج السبكي في كتابه (معيد النعم) شروط صاحبها . والذي يقسمها يعرف بالفرضي واشتهرت اخيراً اسرة آل الشطي الدمشقية بتقسيمها وعندهم اصول توزيعها والذين يتعاطون امرها يقال لهم القنباطي (واراها تحريف القنبايتي) والشاوي .

الوراقة وما يتعلق بها

إن صناعة الورق تناولها العرب عن الفرس كما يظهر من أسماء كثير منها مثل الكاغد والمهرق . فعرفوها أولاً واتخذوا الورق من الحرير ثم من القطن وأنشأوا له المعامل الكبيرة في هذه المدينة وعنها نقلت إلى الأندلس وأوربه . ولقد كان عند المؤلفين وراقون وهم الذين يستحضرون الورق ويصقلونه بمصاقل من العاج ويقطعونه إذا لم يتخذوه مدرجات صفحات صفحات ثم يعدونه للنسخ ويصنعون الحبر بالوانه الثابتة الجميلة ولا سيما الأحمر والأسود والصفدي وهو أكثرها شيوعاً وقد يكتبون بالأصفر الزعفراني . ويبرون الأقلام ويرسمون النقوش فينسخون الكتب بخطوط مختلفة أهمها النسخي وهو المعروف عند النصارى بالكنسي لأن كتب الكنائس تنسخ به ويجلدونها بأنقان ويبيعونها . فالوراقون هم الكتبة اليوم . ولهم بهذه الصناعة أعمال بدعية تدل على حسن ذوق ودقة تفكير وكثير من أعمالهم في دور الكتب ولا سيما الظاهرية :

ومن الكتب المؤلفة بهذا الفن (نظم تدبير التسفير في صناعة الكتب أي تجليدها و (عمدة الكتاب) في صناعة الحبر والأقلام والخط للامير المعز بن باديس المتوفى سنة ٤٥٤ هـ وقيل أنه ألف باسمه فقط و (رسالة في صناعة الاحبار) و (النجوم الشارقات في عمل الايقات) لمحمد بن أبي الخير الحسيني و (رسالة في الخط وبريه الأقلام) لابن الصائغ و (الأقلام القديمة) لابن الدالي وصف فيه مائة وخمسين قلماً أي نوعاً من الخط و (شرح ابن وحيد على منظومة ابن البواب) في صناعة الخط و (مقدمة في صناعة الخط) لأبي علي بن مقلة مخرومة الآخر و (أرجوزة لمحمد بن حسن السنجاري) في الخط أيضاً وكلها في الخزانة التيمورية في القاهرة عدا رسائل أخرى فيها وفي غيرها ومنها (تنويق النطاقة في علم الوراقة) لابن مسك السخاوي من أهل القرن الحادي عشر للهجرة .

ووصف مؤرخو اليونان الورق الدمشقي القطني المعروف عند الافرنج باسم (كرتاداماسينا Carta Damascena) وانتقلت صناعته إلى شاطبة وبلنسية وطليلة

في الاندلس ومن معاملها المشهورة انتقلت الى اوربة كما ذكر سيدليو . ووصف ابن بطوطة الرحالة سوق الوراقين الذين يبيعون الكاغذ والاقلام والمداد في دمشق .

وكان اسرى الصليبيين يؤتى بهم الى دمشق فيشغلون في معاملها الصناعية . وقد نشرت جريدة الف باء بتاريخ ١٥ كانون الاول سنة ١٩٢٢ م . ان جد الجنرال غوابه الافرنسي نقل الصناعة من دمشق الى فرنسه في ذلك العهد على اثر اطلاقه من اسره في الحروب الصليبية سنة ١١٤٧ م واسس لها معامل في بلاده وثقن الافرنسيون بالورق .

وسنة ١٣٣٩ هـ احترق في شرقي الجامع الاموي سوق اللبادين وسوق الوراقين . وقال ابن طولون الصالح مؤرخ دمشق في رسالته في (المزه) ما نصه « وكانت سوق الكتب في دمشق تحت تبة المدرسة الفاضلية بالكلاسة » اه وقوله يدل على ان اسواق الوراق كانت حول الجامع الكبير .

واقدمت دمشق بدور كتبها الكثيرة ومخطوطاتها النفيسة وخطاطيها المتفنين ووراقيها البارعين ولن تزال اثار الوراق عندنا ولا سيما في كتب الظاهرية فضلاً عما نقل منها الى مكاتب اوربة والاسنانة ومصر .

ومن اشتهر من الخطاطين المتأخرين المقدسيون ذكرهم الشيخ حسن البور بني في تاريخه بقوله : « منهم الشيخ ابراهيم المقدسي كاتب المصاحف التي يتفانى بثمنها الناس لاسيما اهل دمشق وذلك لحسن الخط ودقة الضبط وقد كذب منها ما يزيد على مائة مصحف . ومنهم الشيخ خليل وعندى مصحف سبع كتبه بخطه سنة ٨٠٩ هـ » انتهى قول البور بني .

ومن عرفناهم من الخطاطين بين المسلمين بنو الحموي وفي مكتبتي نسخة من المقامات الحريزية بديعة الخط والضبط والنقش والتذهيب صغيرة الحجم كتبها احمد بن محمد بن عبد الله الحموي الدمشقي سنة ١١٤٨ (١٧٣٥ م) .

ومن الخطاطين المسيحيين في دمشق بنو عطايا الاطباء وفي الظاهرية كتاب (تذكرة داود البصير) نسخه ميخائيل بن يوحنا بن عطايا الطبيب الشامي سنة ١٠٨٢ هـ

في ٨٨٠ صفحة بقطع نصف كبير . ومنهم بنو صروف وجبارة واليازجي والميداني وغيرهم ولم مخطوطات بديعة في خزائن مختلفة احرزت بعضها .

الصناعات الأخر

وهناك صناعات احتاج في وصفها الى مجلد كبير فاجتزئ بالاشارة اليها :
منها (السباق والفروسية والمراوحة والمسايفة) - اشتهرت هذه الالاعاب منذ القديم واولع بها الامويون حتى ان هشام بن عبد الملك كان في مربطه اربعة آلاف فرس اشتهر كثير منها بالسباق الذي كان يقوم في الميدان الباقي اسمه الى عهدنا في الغرب الجنوبي من مدينة دمشق ومن خيوله المشهورة بالسباق (الزائد) وذكر المسعودي : « ان رصافة الشام كانت مضمار السباق وكانوا يخرجون الى الحلقة باوقات معينة و يميزون السابق ولا سيما في زمن الحليفة معاوية ابن ابي سفيان » وما الطف قول المعري في السباق :

اذا وفي الانسان لم يخش حادثاً وان قيل هجم على الحرب اهوج
وان بلغ المقدار لم يخج ساج ولوانه في كبة الخيل اعوج
فلا تشهرن سيفاً لتطلب دولة فافضل ما نلت السير المروج

واشتهروا بترويض الحيوول والفروسية وعمل السروج وما يتعلق بها وصانعيها السراج والعمامة لقول السروجي والبكديجي لما تحت السرج . وفي التواريخ أمثلة كثيرة تدل على عنايتهم بها . وكذلك القمن بفنون الحرب والمسايفة (اللعب بالسيف) والمراوحة (اللعب بالرمح) والمتاقفة (لعب الحكم) . ومما يحضرني من ذلك ما رواه الشيخ حسن البوريني في تاريخه المخطوط وهو : « ان الحافظ الثاني امر جميع العسكر الدمشقي بالخروج الى الميدان الاخضر في الجانب الغربي منها وان يحمل كل منهم بندقية المكحلة لانها سلاح مماليك آل عثمان . وان يرموا البندق على الغرض »

(١) الكبة بالضم جماعة من الخيل . والكبة بالفتح افلات الخيل على المقوس
(خيط السباق) للجري او للعملة والصدمة بين الخيلين (٢) هو الفرس المطعم المعروف عندنا بالكحيلان .

فأحرز الجائزة كنعان بلو كباشي الجر كسي وهي عشرة دنانير من الذهب . فلما تم ضرب البندق امر بلعب الخيل في الميدان فاصطفت الخيل فريقين فكان كل من يصيب بضرب الجريدة يعطيه الوزير ملء كفه دراهم » اه .

وقال احمد البديري الخلاق في وصف احدى الحفلات : « وركب أهل الملاعب والاغوات والشربجية والاكابر والانكشارية ومثلوا شجعات العرب بملاعبيهم وحرركاتهم » وكذلك وصف شمس الدين بن طولون الصالحى مثل هذه التمارين والالعب مفصلاً في الجري على الخيل ورمي النشاب من على ظهورها وما اشبه ذلك ^(١) . والاوجاقى من يتولى ركوب الخيل للتسبير والرياضة عند العرب .

ومنها (عمل الآلات الفلكية) = مثل المزاويل اى الساعات الشمسية والساعات الاخرى والارباع الفلكية والاسطرلابات ونحوها . فاشتهرت دمشق بساعاتها وبنكوماتها وبقية هذه الآلات التي صنعها كثير من سكانها . ومن ساعاتها القديمة واحدة عليها عصفير من نحاس ووجه حية وغراب فاذا مضت ساعة من الوقت خرجت الحية وصفرت العصفير وصاح الغراب وسقطت حصاة ثم تتجدد تلك الحركات على هذا النمط كلما تجددت الاوقات .

ومن تلك الساعات ما وصفه الرحالة والمؤرخون ولا يزال (باب الساعات) في الجامع او باب الزيادة دالاً على ذلك وهو الذي ذكر ابن بطوطة انه عن يمين الخارج من باب حيرون محدثاً عنها وكذلك ابن جبير فانه وصفها بدقة . وذكر ابن ابي اصيبعة : ان مهذب الدين احمد بن الحاصب الدمشقي كان قوي النظر في صناعة الهندسة وخدم في الساعات عند الجامع في دمشق . وقال : ان نغرا الدين الساعاتي هو الذي عمل الساعات عند باب الجامع الاموي في دمشق وفي متحفنا بعض آلات منها صنعت في دمشق . الى غير ذلك من الاعمال الهندسية . وفي الخزانة التيمورية بالقاهرة (كتاب علم الساعات والعمل بها) وهو في الساعات المائية وفيه رسوم ألفه في القرن السادس للهجرة الشيخ رضوان بن محمد الخراساني وعندي مؤلفات فيها .

(١) راجع هذا الوصف في مجلة مجمعنا العلمي العربي « ٢ : ١٤٩ » .

ومنها (صك النقود) = وهو قديم وعرفه العرب في زمن الامويين . وذكر ابن عساكر ان رجلاً اسمه دواس رثى يده التي قطعت لضربه دراهم زغلاً . وآخر ما عرفنا من امر صك النقود ما رواه احمد البديري انه سنة ١١٥٧ هـ بطالت الفلوس الرملية التي كانت ضرب الشام . وقال في محل آخر : ان كل ٢١ فلساً رملياً بصرية . وذكر ايضاً تشهير بعض الذين زيفوا الفلوس الرملية .

ومن النقود المضروبة في دمشق ما هو محفوظ في متحفنا العربي : مثل قطعة فضية باسم المعتصم بن هرون الرشيد صكت سنة ٢٢٦ هـ وقطع فضية ونحاسية مختلفة منها ما صك باسم محمود بن زنكي سنة ٥٢٠ هـ وصلاح الدين يوسف بن ايوب سنة ٥٨٦ هـ والملك الصالح اسماعيل ابن الملك العادل محمود زنكي سنة ٥٩٦ هـ وقطع أخرى كثيرة في زمن الدولة الاتابكية وغيرها .

ومنها (الفناء والموسيقى والضرب على الآلات) . لقد عرفت هذه الفنون منذ القديم في دمشق كما تذكر التواريخ اخبارها من ذلك ما ذكره الكتبي في (فوات الوفيات) من ان ابن المسجف الدمشقي قال يصف (الكمال) وضربه على القانون :

لوانت أبصرت الكمال وجهه أوتار قانون له في المجلس

لرأيت مفتاح السرور بكفه اليسرى وفي اليمنى حياة الانفس

وقال الشيخ حسن البوريني في تاريخه : انه حضر بعض المجالس وكان فيها عواد يقال له (سالم) وله عبد اسمه (سرور) يضرب بالدف . وروي عن جمال الدين ابن فرفور انه كان موسيقياً خطاطاً . وقال عن نسيبه عبد الرحمن بن فرفور : انه كان عارفاً بالنغمة باصطلاح الموسيقى حتى انه كان يحاول بنفسه ويدفع عنه الوحشة بصوته الرخيم .

ومنها (استقطار العطور) = وهي صناعة قديمة لكثرة ما في دمشق وغوطتها من الريحان والنباتات . ولقد وصف شيخ الربوة الدمشقي ^(١) : طرق استقطارها في قرية (المزقة) قرب دمشق حيث كثرت معاملها وصور المقاطر (الكركات) والانايق والقرعات . وأطال في ذكر طرق الاستقطار بها في عصره اي القرن

(١) راجع (نخبه الدهر) طبع اوربة صفحة ١٩٤ .

الثامن للهجرة ووصف الرياحين وانواعها . ومما قاله عنها : « ويحمل الورد المستخرج بالمرّة الى سائر البلاد الجنوبية كالحيجاز وما وراء ذلك . ويسمى هناك الزهر . ومما ارجوه : انه كان لقاضي قضاة الحنفية ولاخيه الحريري قطعة بارض تسمى (شور الزهر) طولها مائة وعشر خطوات وعرضها خمس وسبعون خطوة باع منها عشرين قنطاراً باثنين وعشرين الف درهم . وذلك سنة خمس وستين وستائة وهذا لم يسمع به » اهـ .

ومن اسماء المشتغلين بهذه الصناعة الى الآن بنو الزهر او الزهوراتي والعطري اما بائع العطور والتجرب بها فيسمى المطار .

قلت هذا وصف اهم صناعات دمشق وقد بقيت هناك صناعات اخرى كإدارة المطاحن المائية والحمامات والمدارس والمستشفيات والتعليم والجراحة والطب والكحالة والصيدلة والديباغة وعمل الادوات والحلويات . الخ مما يملأ مجلدات فاجتزأت عن وصفه الآن لضيق المقام .

ولا تزال اسما امر كثيرة تدل على هذه الصناعات الى يومنا لانها اشتهرت بها مثل الطحانات والبراك والحامى والمدرس والمعلم والجراثمي والحكيم والطبيب والكحال والصيدلي والديباغ والحلواني والسكري او السكاكري . وفي كثير من الصناعات مؤلفات ورسائل احرزت بعضها لا محل الآن لوصفها .

الخاتمة

لقد راجت مصنوعات دمشق كما رأيت في مطاوي هذا البحث رواجاً غريباً وكانت دور الخلفاء الامويين مصانع لها وكذلك دور من جاء بعدهم من الملوك والامراء والاعيان الى ان ضربت الصناعات بالكساد فكثرت عليها الضرائب ونافستها المدن الاخرى ولا سيما تدمر وصور وحلب . وانتقل صناعتها الى بلاد اخرى وسبي الحاذقون منهم الى اقطار بعيدة . وتشتت شمل الاسر في النكبات الطبيعية كالزلازل . وفي الحروب الداخلية . والمصادرات والمهاجرة والتجارة الخ . وبالتالي كان انحصار بعضها في أسر خاصة وكنم اسرارها بين عمال معروفين

غير تتجاوزة الى غيرهم من اهم اسباب انقراضها كما كانت هذه الشؤون في القديم من اهم ذرائع ارتقاؤها .

فسيجان من يبدل الاحوال ولا يتبدل . على ان النهضة الحديثة في استعادة بعضها وانشاء معامل لها . منذ نحو قرن قد بشرت باستئناف تجديدها .

وارجى ذلك البحث الى محاضرة ثانية في (صناعات دمشق الحديثة) ألقيا عليكم في فرصة قريبة وفيها التفصيل الكافي عن اصوغها وطرق تجديدها وتحسينها . ولا سيما الشد الذي هو من اهم اسباب نجاحها . والسلام خير ختام .

عيسى بكندر
المدرسة



صفحة من تاريخنا الاجتماعي^(١)



أيها السادة !

موضوع محاضرتي اليوم (صفحة من تاريخنا الاجتماعي) . وقد أردتُ بقولي (صفحة) ان البحث فيها يقتصر على وصف حالنا الاجتماعية في بعض أزمنة التاريخ اي في خلال السنة الواقعة بين (٢٥٠) و (٣٥٠) للهجرة اعني قبل الف سنة من وقتنا الحاضر .

واردت بقولي (تاريخنا) أموراً وحوادث كانت تقع في بغداد بين رجال الطبقة العالية من وزراء وقضاة وعلماء واعيان .

اما قولي (الاجتماعي) بعد قولي تاريخنا فلاجل صرف الذهن من اول الأمر عن تاريخنا السياسي الذي انما يتضمن ذكر اخبار الملوك وقيام الدول والمنازعات حول العروش . وما يثور بسبب ذلك من الحروب .

وهنا موضع العتب على كتابنا او مؤرخينا العرب الذين كانوا اذا كتبوا في التاريخ شنعوا المجلدات بما ذكرنا من اخبار الحروب والملوك . حتى كأن الملوك هم البشر . واما الأمم فقطعان بقر .

فكتاب تاريخنا لم يصفوا لنا كيف كانت أصول الادارة في الدول الاسلامية ولا طرائق تأليف مجالس الحكم . وضبط الأمن . وجباية الاموال . ولا أنماط التربية والتعليم في المدارس . ولا طُرُز المعيشة العائلية والتدبير المنزلي . ولا طُرُق المعاملات المالية وتوزيع الثروة واساليب التجارة والزراعة . ولا غير ذلك من مظاهر الحياة الاجتماعية التي يتألف منها تاريخنا الاجتماعي .

(١) للاستاذ المغربي الفاضل في ردهة الجمع العلمي في ١٥ كانون الاول

واسم نعلمون ان هذه الابحاث والموضوعات هي المادة التي نتألف منها كتب المطالعة . نتمتع على الأحداث والطلاب فيدرسونها و يسلفيدون منها عقلاً وتجربة . وان مكتبتنا العربية لفي حاجة الى أمثال هذه الكتب المفرغة في قالب كتب المطالعة الاثرية المعروفة باسم (Lecture) .

ومن مواضع الاسف اننا نرى المتعلمين من شباننا ملين بالتثؤون الاجتماعية عند الاوربيين وبسرها في كل دور من أدوارهم التاريخية أكثر من معرفتهم ذلك عن أمنهم العربية :

فهم يعرفون ان اهل المملكة الفلانية الادريية في عهد ملكها الفلاني في قرن الرابع عشر متلاً . كانوا يفعلون كذا . أو كانت عاداتهم كذا . او حالتهم العائلية او المعاشية كذا . بينما هم اذا سئلوا عن الحانة الاجتماعية في أحد عصورنا التاريخية قالوا ان السُلطة فيه كانت بيد الدولة الفلانية . أو الأسرة الفلانية . وقد جرى من الحروب في ذلك العصر كيت وكيت .

وايس هذا وحده كل ما يلزم من التاريخ لا لنا وطلاب مدارسنا كما لا يخفى . وقد يستفي من كتب التاريخ عندنا ما كبه ابن خلدون في مقدمته . والمقريري في خططه . والقلقسندي في كتابه (صبح الاعشى) . وعبد اللطيف البغدادي فيما وصف من الآثار . ومواطن الاعتبار .

بل ما يدرينا أن يكون نعلمنا السائقين اشباه هذه المصنفات الممتعة في وصف احوالنا الاجتماعية ثم أبادها التعصبات الدينية . والحروب الطائفية . وما بقي منها انتقل الى مكاتب اوروبا . وخزائن مدنها المستشرقين .

وقد اتبه هؤلاء العلماء المستشرقون في المدة الاخيرة الى ما ينقص مطبوعاتنا العربية الحديثة من المصنفات في تاريخنا الاجتماعي فأخذوا ينبتون تلك المصنفات من مكاتبهم ويطبعونها و يعلقون عليها نبروحاً وهوامش ممتعة جداً . وقد حارب جمعنا العلمي الى مكتبته طائفة من هذه الكتب . أذكر منها عجائب الهند للرازي ومزي دشتوار اعاضرة للقاضي ابي علي الحسن النوحى وطوق الحمامة لابن حزم والموشى لأبي الطيب محمد بن اسحق وكتاب الولاة والقضاة لابن عمر الكندي

ولأنهم سوا (مقامة أبي الفداء البغدادي) لابي المطهر الازدي التي كنت موضوع محاضرتي السابقة .

اذن يحسن بنا ان نحذف لحنة اللوم والعتاب على أسلافنا : فانهم رحمهم الله تركوا لنا تروية عظيمة من التأليف في كل فن من فنون العلم والادب . لكننا نحن أحناده أضعنا التروية . وقصرتنا في حفظ التركة .

قلت ان موضوع محاضرتي التاريخ الاجتماعي كان لا تحسبوا أبي سأخوض من هذا التاريخ في قواعده التي وضعها علماء الاجتماع . ولا سيما نظرياته الدقيقة التي كثر الخصاص حولها بين أعلامهم وأربابهم وشيخهم في التاريخ القديم . وبين مونتسكيو وسنسر ونيته وشونيهور في التاريخ الحديث . لا أخوض في ذلك كما اذ هو من دروس طلاب الجامعات العالية . وليس هو من مواضيع المحاضرات العامة . وإنما سأتحطى ثلاث لم يعد والنظريات العقلية الى وقائع وجرييات تاريخية جديدة لم تتفقها الافراد عند : يمتد بها محب التاريخ . وكسكم ايها السادة تحبون التاريخ فقارنوا بينها وبين ما يقع من تباعدها في زمننا الحاضر . كما يستفيد منها اخواننا الصحافيون والكذّاب الاجتماعيون وطلاب المكاتب العالية من حيث يرون فيها مادة لمقالاتهم . وتوضح احصائية ستشهدون بها في مباحثهم ومناظراتهم .

هذه الاخبار والحوادث التي أروها لكم منسقة على هذه الصورة هي مفهوم كلمة « المحاضرة » اي هو معانها الذي كان يفهمه علماء الادب . عندنا . معتر العرب : محاضرات الراغب الاصفهاني . وحسن المحاضرة للسيوطي . وتشوار المحاضرة للقاضي ابن علي المحسن النوحجي . لم تسم كذلك الا لأنها جمعت أخباراً مختلفة نفيد القارئ . وتلد السامعين . وهذا انا في محاضرتي هذه أخذو حذوه . واسلك طريقته .

ومعظم ما أرويه لكم فيه . مقتبس من كتاب (تشوار المحاضرة) للقاضي النوحجي المذكور مع تصرف قليل أو كبير حسب ما يستدعيه المقام .

طالت المقدمة فلنختزئ بما مر . ولنقبل على الموضوع فنقول :

يؤلفون اليوم كتباً في وصف أحوال المدن وإحصاء ما فيها من آثار الحضارة ومقومات العمران لتكون دليلاً للسياح ومحبي الاستطلاع . ومن ذلك الكتب التي يصدرها (محل بيدكر) عند الأوربيين . وقد قلدهم فيها كتاب العرب وسموها (دليلاً) فيقولون : دليل الاستانة ودليل القاهرة . ويظهر ان العرب في العهد العباسي ألفوا مثل هذه الكتب : فان (احمد بن الطيب) ألف كتاباً عن بغداد وما فيها . وقد توفي أحمد هذا سنة (٢٨٦) هـ . وكذلك (بزدرج الكسروي) فانه ألف كتاباً بأمر ركن الدولة ابن بويه وصف فيه (بغداد) في عهد الخليفة المقتدر المتوفى سنة (٣٢٠) وقد أحصى ما فيها من الابنية والشوارع والدروب والحمامات والسكان والسفن والملاحين وما ينفق فيها من الخنطة والتعير وسائر الاقوات .

ومما ذكره على سبيل النموذج ان اصحاب المعابر كانوا يأخذون من التلّاجين في كل يوم ثلاثين أو اربعين الف درهم وهي تبلغ من نقود زماننا نحو مائتي الف قرش . والظاهر ان مرادهم باصحاب المعابر ارباب المكس الذين يقعدون على فوهات الطرق فيأخذون (مروريه) على الثلج الوارد الى بغداد .

وقد روى ما يأكله أهل بغداد من صنف الخس في زمن موسمه بنحو خمسين الف دينار اي نحو عشرين الف ليرة من نقودنا .

وأحصوا ما ينفقونه من سويق الحمص في كل سنة فبلغ نحو (٨٤٠٠) قفيز والقفيز اربعة ارطال او اكثر . فمجموع ذلك بالقناطر نحو (٣٣٦) قنطاراً من الحمص السويق .

والسويق دقيق الخنطة والشعير ولكن بعد تحميصهما على النار : يضعه المسافر في جرابه فيسفه سفّاً او يمدحه (يخلطه) بالماء او اللبن فيشربه أو يأكله . قال أعرابي : « السويق » عدة المسافر وطعام الحملان ولغة المريض .

ويظهر ان اهل بغداد في ذلك العهد اتخذوا سويقاً من الحمص كما سمعتم : فكانوا يحمصون الحمص ويطحنونه و يأكلون طحينه سفّاً أو بصورة أخرى .

ونحن اليوم ليس عندنا من سويق الخنطة والشعير . ولكن عندنا من سويق الحمص كما كان يصنع اهل بغداد : فاننا نحمص الحمص ونسميه (قضاة) ثم نطحن

القضامة حتى تصبح ناعمة ونزجها بالسكر وهذا هو السوق بعينه كما لا يخفى .
 وجري في بعض مجالس بغداد ذكر دخل دولة الخلافة العباسية وخرجها
 والنقصان الذي طرأ عليها . فحدثهم القاضي ابو الحسن علي بن بهلول قال : اختبأ
 في دارنا الوزير ابو الفتح المعروف بابن حنزابه وكنيت يومئذ حدثاً صغير السن
 فكان يناديني فتحدث ونلعب بالشطرنج . فجري يوماً بيني وبينه ذكر الخليفة المقتدر
 ونقصان دخله عن خرجه بسبب كثرة إسرافه وتبذيره . فشرح لي ذلك شرحاً
 وافياً (على أصول البودجه) . ثم قال : ان مزارع عمي ومزارعنا كان دخلها يوم
 صادرونا فيها مبلغ كذا وكذا ثم أخذ بالنقصان حتى بلغ ثلث ذلك المبلغ . قال ولو
 مكنتوني من إدارة ضياعها وحدها لعمرتها وعاد دخلها الى ما كان عليه . وان فرق
 ما بين دخلها الآن ودخلها اذا سلموني اياها يعجز الدنيا كلها . وليست أملا كنا سوى
 شقص يسير من الارض . فكيف لو كان للدنيا من يهتم بعمارتها كلها ؟ اهـ .

هذا ما قاله الوزير وهو مختبئ خائف من الخليفة . وباليته يحكي اليوم فيرى بعينه
 كيف 'تستثمر الدنيا وتستعمر' . فيخف أسفه قليلاً على ما فاته من أمر عمارتها واستثمارها
 بحسب طريقته الاقتصادية المدهشة .

وكانوا يحتفلون في أيام المواسم و'يقيمون الزين والمورجانات' لاسيما يوم النيروز .
 واصل النيروز عيد للفرس قادم العباسيون والمصريون في الاحتفال له . وكانوا
 'يهدون فيه للخليفة النفائس والطرف' كما يهدي بعضهم الى بعض . ويتعلون
 النيران . ويضعون على شرفات الدور والقصور مجامر طين . ويأتون بحب القطن
 (اي جوزة) فيشربونه دهن البلسان وغيره من الادهان الطيبة الفاخرة . ويشعلون
 هذه الحبات فنفوح رائحتها . وتلأل في الظلمة أنوارها .

ولما حان زمن النيروز في بعض السنين أرسلت السيدة أم الخليفة المقتدر الى
 عمها التاجر ابن اسحق الشيرازي أن يشتري لها من الآفاق ألف شقة زهرية
 خفاف جداً . وبعد طويل عناء في البحث عنها جلبت . فاستدعت الخياطين
 الى القصر وأمرت ان يفصلوا من هذه الشقة أزراراً على هيئة حبات القطر

ويحشونها خرقاً ويخيطونها ويُشربونها دهن اللسان و يشعلونها مكان حبات القطن
وبجامر الطين .

ومن جملة لهوهم في موسم النيروز اتخاذهم لعبة بطول الصبيات يزينونها بالحلي
وفاخر الثياب . و يسمى المصريون اليوم لعبهم هذه عرائس و يمنعونها من سكر .
و يسمون في بغداد هذه اللعبة (دوباركة) وهي كلمة فارسية . واطن انها مركبة
من (دوباره) حيلة مكر . و (ككه) من كيكحك وهو اللبس اي حيلة مستترة
مغطاة بالثياب . و يُخرجون (الدوباركة) وأمامها متاعل النيران والطبوا
والزمرور . ومن اللطائف ان (عائدة بنت محمد الجهنية) نظمت أبياتاً هجّت بها الوزير
أبا جعفر الكرخي فشبهته بالدوباركة ثم صهره وجمال ثيابه فقالت :

(شاوري الكرخي لما أتى النيروز . والسنة ضاحكة)

(فقال ما نهدي لسلطاننا من خير ما لكف لهالكه)

(قلت له : كل الهدايا سوى مشورتني ضائعة هالكه)

(أهد له نفسك حتى اذا أشعل ناراً كنت دوباركة)

وهكذا كان اهل المناصب في ذلك العهد ينادقون في الثياب و يقتنون فاخر
اللباس والرياش والاثاث و يسمون ذلك مروءة .

وبالغ أحد اهل الانبار في اتخاذ الثياب فكان يضع كل ضرب من ضروب
الثياب في صندوق : دراريع الذهباج في صندوق والدراريع البهيقية (١) كذلك
والقمص والسراويلات والجباب والطيبالس والعائم - كل ضرب في صندوق خاص .
وكانت للانباري سرية تزوجها فلدا له . وكان له أبناء عم فلما مرض وأتشف على
الموت أسرع فأخرجت من الدار جميع أمتعته وصناديقه سوى قليل منها تركته .
لكنها نسيت صناديق السراويلات فلم تخرجها . ثم مات زوجها وحاء اناء عمه فحتموا
خزائن الدار بواسطة المحكمة . ولما انقضى العزاء فتحوها فوجدوها أفرغ من فؤاد أم
موسى (ولم يجدوا سوى صندوق السراويلات فرفعوا أمرهم الى القاضي (ابي جعفر
البهلول) فأحضر الجارية (وافتتحت الجاسه) فقالوا له : انت تعرف مبلغ عناية ابن

(١) نسبة الى ديبق قرية في مصر .

عمننا بالاثاث والرياش واللبوس فأين ذهبت كلُّها ؟ ولما ذا لم يوجد من ثيابه الا هذه السراويلات الكثيرة ؟ ولما ذا لم يوجد على نسبتها من الدرابيع والجباب والطبالس ؟ قال فأقبلت الجارية على القاضي محددة كأنها أعدت الجواب وقالت : (أعز الله مولانا القاضي ! أما سمعت ما حكاه الجاحظ من ان رجلاً كان يعشق الهواو بن فجمع منها مائتي هاو . وابن عمهم كان يعشق السراويلات مثله) فضحك القاضي وانفض المجلس من غير شيء . وكسبت الحارثة الدعوى لقراءتها كتب الجاحظ .

اما الوزير (علي بن عيسى) فكان يتخذ من الملابس الأليق بالوقار والنقش فوكان يحب ان يبين فضله في ذلك على كل احد . فدخل عليه يوماً القاضي ابو عمر وعليه قميص ديبقي فاخر . فأراد الوزير ان يحججه فقال له : (يا مولانا بكم اشتريت شقة هذا القميص) قال بمائتي دينار . فقال الوزير ولكنني اشتريت شقة هذه الدراعة والقميص الذي تحتمها بعشرين ديناراً . فأجابه القاضي على الفور : الوزير أعزته الله 'يجمل الثياب ولا يحتاج الى التأنيق فيها . اما نحن فتجمل بثيابنا . ونأنيق فيها . والفرق بيننا اننا نحالط العامة وغيرهم ممن يلزم ان نقيم الهبة لنا في نفوسهم . والوزير لا يدخل عليه العوام . وانما يخدمه الخواص الذين يعلمون انه يترك التأنيق بالثياب عن قدرة . فسكت الوزير مغلوباً .

هكذا كان شأن قضاتهم من حيث التجمل ومراعاة اخلاق العامة والمحافظة على الوقار والسمت : فقد حدث ابو الحسن ابن البهلول قال كنت وانا صبي اجيء لألعب بقرب جدي القاضي (ابي جعفر ابن البهلول) فيصيح علي . والسبب في ذلك انني كنت اذا دخلت عليه وهو مكشوف الرأس أخذ قلنسوته من خلفه ولبسها وجلس متوقفاً علي . وسني اذ ذاك نحو عشر سنين . وبقى على تلك الجلسة الى ان انصرف . فأراه اذا بعدت عنه رفع القلنسوة عن رأسه ووضعها حيث كانت .

سمعتم وقار هذا القاضي (ابي جعفر ابن البهلول) فاسمعوا متانته في الحق : دعت السيدة قدام المقدّر يوماً اليها . وكلفته إحضار بعض سجلات المحكمة وحك احد الصكوك فابى عليها وقال : هذا والله لا طريق اليه أبداً ولو عرضت على السيف : انا خازن المسلمين على

ديوان الحكم : فإما مكنتموني من خزنه والا فاعزلوني وغَيِّروا وبدلوا ما شئتم . واخذ السجل وانصرف وهو لا يشك انه معزول . فشكته السيدة الى ابنها الخليفة المقندر : ففي يوم الموكب سأله عن الخبر . فحكى له الواقعة وانه يفضل ان يُعزل على ان يرتكب مثل هذا العمل . فقال المقندر (مثلك يا ابا جعفر من يُقدِّد القضاء . أقم على ما انت عليه . بارك الله فيك . ولا تخف ان يثلم ذلك عرضك عندنا) ثم عادت السيدة فتذمّرت امام ابنها من القاضي فقال لها : (الاحكام مالا طريق الى اللعيبه . وابن البهلول مأمون عندنا محب لدولتنا . وهو شيخ دين مستجاب الدعوة . ولو كان ما طلبته منه شيء يجوز ما منعك اياه) فكتت على مضض لكنها عادت فحدثت به رئيس كتّابها وكان شيخاً صالحاً . فلما سمع منها ما فعله القاضي بكى . وقال لها (الآن علمت ان دولتكم تدوم اذا كان فيها مثل هذا القاضي الصالح الذي يُقيم الحق على السيدة أم الخليفة ولا يخاف لومة لائم) .

وبقدر اتساع دائرة الحضارة في ذلك الدور كانت دائرة الحرية الفكرية والدينية متسعة : فكان اهل كل مذهب يناضلون عن مذهبهم . ويعقدون المجالس في المساجد لتصرته وتأيدته . وكانت تكثر بسبب ذلك المنازعات بينهم . وتتحول الى فتن أحياناً كمثل ما كان يقع بين الحنابلة والشيعة : فان الشيعة كانوا يجتمعون في الخاير لندب الحسين فكان الحنابلة يشيرون ويمنعون الناس عن المضي الى الخاير .

وكان قوم يعتصبون لسيدنا علي وآخرون لسيدنا معاوية . فاغتنم الفرصة صديقان أعميان من الشيعتين فكانا يقعدان على جسر بغداد : هذا في طرف . وذاك في طرف . ويتسوّلان ويتوسلان باسم الصحابين الجليلين علي ومعاوية . فكان يتعصب لكل واحد منهما فريقه . وتتساقط عليهما الدراهم . وفي المساء يجتمعان ويقتسمان غلة يومها وهكذا .

اما المعتزلة فكان لهم شأن ونفوذ يومئذ : منهم وزراء وقضاة وأمراء وكانوا يشنعون على القصاص لكثرة ما يروون من الاساطير . كما يشنعون على الدين بصدقون

(١) وفي تمام الخبر ان السيدة ام المقندر كانت تجهل أن ما كلفت به القاضي من تغيير الصك وحكمه حرام حتى أخبرها كاتبها بذلك فكفت وارعوت .

بكل شيء مما لا يدخل تحت العقل . ويفتخرون بانهم هم لا يصدقون الا ما يؤيده العقل الصحيح . وكانوا يعيرون السادة الصوفية واهل السنة لكونهم يصدقون بالكرامات التي كانوا يسمونها (المعونات) : فاما لانهم يبخلون عايلها باسم (الكرامة) او لان كلمة (الكرامة) لم تكن تولدت في أوائل القرن الرابع . وكانوا يفخرون بان فرقتهم لا تعول على شيء من ذلك جميعه حتى قال أحدهم : (إن من بركة مذهبنا أن صبياننا لا يخافون الجن) وتباهوا بمجوز منهم كثيرة الصلاة والصيام وقيام الليل : كان لها ابن مسرف على نفسه في الليل و يتعاطى الكسب في النهار فكان يأتي مساء كل يوم بكيس دراهمه فيسلمه الى امه ثم ينصرف الى لهوه . وكانت أمه تقوم طول الليل لتعبد في الغرفة التي فيها الكيس . فعلم بقضية الكيس والصبي احد اللصوص فطرق العجوز ليلاً وانتظرها للننام فلم تفعل . ثم اعياه الامر فعمد الى الحيلة وقتش في البيت عما يساعده على حيلته . فالتحف بازار ابيض وأوقد بمجرة بخور ونزل في السلم وهو يتكلم بصوت أجش موهما العجوز انه ملك سماوي . قال المعتزلي راوي الخبر . ولكن العجوز كانت معتزلية جادة ففطنت للحيلة فتظاهرت بالخوف وسأله من انت ؟ قال : ملك وقد جئت انتقم من ابنك لعصيانه . فتضرعت اليه أن يرفق بوحيدها . فقال لابد من تأديبه : فانا اكنفي بأخذ دراهمه ليتوب قالت : لك ذلك وأنحت له عن الباب حتى اذا دخل الحجرة اوصدت بابها عليه فاسنفاث بها فلم تجبه وقالت انت ملك يمكنك ان تنفذ من السقف . واقبلت على صلاتها . وجعل طول الليل يستعطفها وهي لا ترق ولا ترحم حتى سلمته في الصباح الى الشرطة .

ولكن المعتزلة ما كانوا اهل جلادة في عقولهم الى هذا الحد كما كانوا يدعون : فانهم كانوا يعتقدون بالتنجيم والطالع . وقد نعى عنهما الشارع . وكان عالمهم ابو علي الجبائي يصدق المنجمين ويمارس التنجيم بنفسه . ومن الغريب ان احد (١) قضاتهم أخذ طالع مولده فعيّن سنة وفاته ويومها . ونهياً للموت فنعّص عيش اهله واصدقائه وتعبوا في صرفه عن هذه الفكرة الملعونة فلم يطعمهم حتى مات — كما رووا — في نفس اليوم . لكن من تأثير الوهم . لامن روحانية النجم . واعتقاد ذلك كفر لانه دين الصابئة عباد النجوم .

(١) هو القاضي علي بن محمد النوخى والد القاضي ابي علي الحسن النوخى مؤلف

كتاب (نشوار المحاضرة) الذي لخصنا منه هذه الاخبار .

وكان المسلمون في ذلك العصر يعنونون فضل عناية بطلاب العلم : فكانوا يواظرونهم باغداق الرزق عليهم ثم لما اشتدت الضائقة المالية أخيراً في بغداد وغلب الجمل على أهلها وتجارها حتى أن بعضهم كان يسمى الجمل (احتياطاً) وبعضهم يسميه (اصلاحاً) وكانوا يتواصون به . و يحذر بعضهم بعضاً من الاتفاق — أمسكوا عن الاحسان الا قليلاً . وكانوا قبل ذلك اذا جاءهم أحد من اهل العلم يفتحونه بالالف درهم معونة له على التحصيل .

قال احمد بن يوسف : قدم على بغداد شاب أردنا ان نرتبطه ليتعلم الحوذة فريخته ^(١) وكان يحتاج الى مئة درهم في الشر . فكلمت ابن خفيف صاحب ديوان النفقات ورجلاً آخر من اصحابنا . فاحريا عليه مئة ^(٢) درهم في الشر . فبقي بأخذها الى ان خرج من بغداد . قال : وشكنا الى بعض الفقهاء ان الطلاب الذين يخرجون حقيقة اني الحسن الكرخي احتاجوا الى اكسية اذ قد قوس الرد . ففكرت فمن اقتصد ثم اجتزت في طريق بدار . فقال لي بعض من كن معي : هذه دار تاجر ورسر من اهل الخير نشاطه . ولم اكن اعرفه . فدخلت عليه فقاء واكرم وسأني حاجتي فذكرتها له فقال كم كساء تريدون ؟ قلت خمسين ثوباً معها في الحال . ففقرتها على الطلبة . قال ثم قاتل الاحوال . وشحت النفوس بالاموال . حتى حالي رجل من اهل البيوتات فتسكا من حاجته ما أبكاني . وقال ان صلاح امره في نحو ثلاثين درهما . ففكرت فما عرفت احداً يعطينها اذا سأله ايادها . قال ولعل السبب في ذلك التسكع كسب الزمان وقلة المال : فقد حسبت يوماً ما يمكك سكان (درب ميرهيه) مبلغ اربعة آلاف ^(٣) الف دينار . أما سكان هذا الدرب اليوم فلا يوجد فيهم احد يملك وحده اربعة آلاف درهم اللهم الا (ابو العريان)

وكما كانوا يهتمون بطلاب العلوم وإدراار الرزق عليهم كانوا يهتمون بالاسارى الذين يقيمون في بلاد الروم من وقت الى آخر . ومن طريق ما حكاه أسير مسلم عن

(١) يعني انه كان نافع في الطلاب لكنه فقير . مثله يجب الاتفاق عليه لئلا ينفذ بنبوغه (٢) نحو خمسين ريالاً مجيداً من نقود زماننا (٣) اي اربعة ملايين دينار نحو مليون ونصف او مليوني ليرة .

نفسه قال : لما حمأنا الى بلاد الروم مرت بنا شدائد واهوال فكنا لا نقدر ان ننام من شدة البرد حتى كدنا نلثف . ثم دخلنا قرية فجاءنا راهب با كسية وقطف (حرامات) نقيئة دفيئة فغطى جميع الأسارى . كل واحد بكساء . فسألنا عن السبب فقالوا ان رجلاً من تحار بغداد اسمه (ان رزق الله) أرسل هذه الاكسية الى الراهب وسأله ان يغطي بها من يصل الى قريته من أسارى المسلمين . وضمن له في مقابل ذلك ان يفتح من ماله على كنيسة معينة في بغداد مادامت الاكسية محفوظة للأسارى فالراهب يعني بالأسارى كما وصلوا الى القرية كما رأيت . قال الاسير فكنا نتمنى لو صادف في كل قرية ما صادفناه في تلك القرية على يد ذلك الراهب . وكان كما قمنا الرد تذكراً (ان رزق الله) واحسانه ودعونا له ونحن لانعرفه .

لا حرم ان هذا الناجر المسلم والكاهن المسيحي كنا متالين حسنين لابناء ملتينا في عمل البر والتسامح وحسن التفاهم .

وحدث القضاة ان مكرم قال : دخلت على الوزير (علي بن عيسى) فرأيت مغموماً . قلت : مالك ؟ نالت ما تكره من الخليفة ؟ قال الامر أشد : كتب عامل النفوس اليما يقول : ان أسراننا في القسطنطينية كانوا على احسن حال حتى تولت مملكة الروم سابع طائفة فاضطدهم وأجاعهم وأعراهم . ولقد أحببت ان أجهز جيشاً ينقذهم فلم يطاء عني الخليفة المقتدر .

فقلت : أسمع الله الوزير . هنا رأي أحسن من هذا . قال وما هو يا مبارك ؟ قلت ان البطريرك الانطاكي وبطريرك القدس محترمان لدى ملك الروم وقولهما نافذ عليه بحيث يحرمه ويخلأ له ولا يمكن ان يجلس على العرش من دون موافقتهما والبطريرك كن في عهدنا . بلادنا . فعرفهما الخبر . وانظر ما يكون من جوابها . فقال قد سررت عن قلبي قليلاً جزيت حيراً . ثم افترقنا وبعد شهرين طابني فجئته وقد سمع خبر الأسارى . فوحدته مسروراً فقال يا هذا أحسن الله جزاءك عن نفسك ودينك وعني . قلت : وما الخبر ؟ قال كان رأيك في الأسارى أبرك رأي . وهذا رسوانا من القسطنطينية . وأسار الى رحل في الجبال ثم أمره أن يتحدثنا بما وقع : فقال اخذت رسالة البطريرك كين الى ملك الروم وقد كتبها له : « انك خرجت

عن ملة المسيح بما فعلته بأَسارى المسلمين . فإِما ان تكفَّ عن الظلم والا لعنك
وجرمناك » . فلما قرأ الملك الكتاب حجبي اياماً ثم دعاني وقال ما بلغ ملككم من أمر
الاسارى كذبٌ . وها هم أُدخل عليهم في دار البلاط وشاهد حسن حالهم . قال
فدخلتُ فاذا عليهم ثيابٌ جدد لكن وجوههم كأنها وجوه أموات . فقالوا نحن
للك ملك شاكرون . جزاه الله خيراً . ثم أشاروا لي برموز من حواجبهم ان الامر على
العكس . واني إِنما أُخبرت عن الاجتماع بهم ليرفها من حالهم . وسألوني من أين
علمتم خبرنا؟ فذكرتُ لهم ما كان من اهتمام الوزير (علي بن عيسى) فضجوا بالدعاء له .
وقالت امرأة كانت بين الاسارى (إمرؤ القيس) يا علي بن عيسى لا نسي الله لك هذا
الفضل) فلما سمع الوزير قول الرسول أجش بالبكا . وسجد لله شكراً .

* * *

وكان المرشحون للوزارات والوظائف الكبرى يجتهدون في الحصول عليها ولكنهم
كانوا يهتمون للاخطار بسببها . حتى كان العامل اذا عزل صادروه في أمواله .
وعنه يوه لاستخراجها منه . ولم يصرف أحد هذه الحالة مثل ما وصفها به (ابو الحسين
ابن عياش) مذحكي عن نفسه قال :

كان لي اختصاص بسلطان بن الحسن قبل ان يتولى الوزارة . فلما وليها قصده
يوم الموكب . واذا باباه عطاء المملكة محبوبون . فلما رأي حاجبه ادخلني على الوزير
وهو في حجرة خلوته . يريد الركوب الى المقدر . فطاولني في الحديث الى ان فرغ
وشد سيفه ومنطقة ونجر والي عليه سواده ^(١) وخرج وانا معه . فتلقاه الناس بالتجميل
وساروا خلفه واختلطت بهم . واذا واحد من اصدقاء ابي يجذبي من طيلسافي .
فالتفت اليه . فاشار علي ان اتبعه خارج الموكب . وقال يا فلان أفى بيتك خمسون
الف دينار ؟ قلت لا والله . قال : أنقوى على خمسين الف مقروعة وصفعة ؟ قلت
لا . قال : فلم تدخل الى الوزير وعلى باب العطاء أمثال فلان وفلان محبوبون يتمنون
الوصول اليه . ثم تخرج معه من خلوته وليس معه غيرك وغدا اذا نُكب نُكبت معه

(١) سواده اي لباسه الرسمي و يكون اسود عادة لان شعار بني العباس السواد

وعنهم اخذه العثانيون .

بداعي انك من خواصه . وليس معك خمسون الف دينار تفدي نفسك بها . ولا تطيق خمسين الف مقربة . فقلت : يا عم ! لم أعلم . انا رجل فقيه . ومن اولاد التجار ولا عادة لي بالتردد على هؤلاء العظماء . فقال يابني لا تعاود . فان هذا يجر عليك نقا . قال فمن يومئذ جعلت أتجنب الدخول على صديقي الوزير في مواعيد العامة . ولكن كانوا مع هذه المخاطرة في طلب المناصب لا يضيعون فرص الاستفادة وجر المغانم .

ومن شواهد ذلك ان ابا بكر السافعي كان من أخصاء (علي بن عيسى) الوزير فلما عزل عن الوزارة ونولها ابن الفرات أمسك ابا بكر المذكور ونكل به . ثم عاد صاحبه علي بن عيسى الى الوزارة فكانت له عنده منزلة عظيمة بسبب ما وقع به من التثكيل . وجعل ابو بكر يستثمر تلك المنزلة . ويتوسط لدى الوزير بالشفاعات وتقديم رقايع أصحاب الحاجات . فكان يوقع فيها . ويغض عن كثرتها . الى أن قدم اليه يوماً رقايعاً كثيرة جداً أصبحت الوزير وظهر الضجر في وجهه . قال ابو بكر : فقلت له (ايها الوزير ! اذا كن حظنا من اعدائك في ايام نكبتك الصفع . وحظنا منك في ايام وزارتك المنع . فمتى ياترى يكون النفع ؟) قال فضحك الوزير . ولم يعد يضجر منه مهما كثرت الرقايع .

وهكذا كان العاقل منهم يستفيد بجاه صديقه بعد ان يكون أحلص في خدمته . ومساعدته في نيل بغيته : فقد حدث ابن ابي عوف قال : اختبأ عندي (عبيد الله بن سليمان) فمآزحته يوماً قائلاً : خبي لي هذا المعروف الى وقت انتفع به . وبعد ايام استوزره المعتضد . فقال لي اعلي اذهب اليه . قلت كلاً لا اطلب ثمن معروف صنعته . ولو كان في الوزير خير لدعاني اليه . فلما كانت يوم الاحفال بالخلع طلبني فدخلت عليه فقام الي . وعانقني أمام جمهور المحتفلين وقال في أذني : هذا وقت ننتفع فيه بقيامي لك . ثم أجلسني على طرف الدست^(١) فقبلت يده وهنأته . لكن لم ألبت ان رأيت حاجب الخليفة يطلبه اليه . فذهب . وامتدت الي عيون الناس وخاطبوني بأجل خطاب ثم عاد الوزير ضاحكاً واخذ بيدي الى دار الخلوة . وقال : ويحك يا فلان !

(١) الدست للوزير كالعرش الملك والمنبر للخطيب .

ان الخليفة استدعاني بسببك وذلك أنه كتب^(١) يخبر قياي لك في مجلس الوزارة وقال لي :
 «تبدل مجلس الوزارة بالقيام لتاجر !! ولو كان قيامك لاحد عمال الاطراف لكان محظورا
 بل لو كان لولي العهد لكان كثيرا» فقلت اعرف هذا يا امير المؤمنين ولكن حكايي مع
 الرجل منذ استترت بداره كيت وكيت . وقد قال لي وقلت : كيت وكيت . فقال
 اما الآن فقد عذرتك واما بعد ذلك فلا تعاود . فقلت نعم وانصرف . ومع هذا
 فقد بقي الوزير يحسن الى صديقه .

وكانوا يذهبون كل مذهب في الوصول الى الغرض من طريق السمات .
 وأخذ كتب التوصيات . ولكن كان بعض المتهورين لا يمانى ترويض كلب على اسان
 الوزراء لاجل نبل الأمانة وقضاء الوطر . ورووا في ذلك حكايات غريبة :
 منها ما حكاه القاضي ابو الحسن بن عباس . قال : رأيت صديقاً جالساً على
 زورق مربوط بحجاب حسر بغداد على نهر المدحله في يوم ريح سديدة . وهو يكتب
 فقلت له ويحك !! أي من هذا الموضع ؟ ومثل هذا الوقت ؟ فقال أريد ان أوزير
 كتاباً على رجل مرتعس الأيدي . ويدي لا تساعدني . فعمدت الخلوس ههنا لتقربك
 الزورق بالموج في هذه الريح فيسيء حظي مرتعساً يتدحطه .

ومع هذا التدليس والدري الذي كان يقع في تقليد الوظائف كانت الوزراء
 وكبار القضاة يتدرون في انتقال العال وبتدرون الوسع في البحث عنهم : فكانت
 القضاة منلاً لا يقبلون شهادة كل أحد . فهم يعينون من قبلهم اسماً من كمين بينهم .
 و يعلنون أنه من أراد ان يعقد عقداً من عقود المبايعات وسائر المعاملات فعليه ان
 يشهد احد هؤلاء : اثلاً يشهد غيره فلا يكون مركزى عدلاً . وتسمى هذه الطائفة
 المعينة للشهادة بالشهود والعدول . ولكن ما أشد عناية قضاة ذاك الزمن بانتخاب هؤلاء
 العدول .

قال ابو القاسم الخاتمي : قد مل الناصي ابو شهر سهادتي وأعلن اني من العدول .
 ثم بعد ذلك حلوت به مرة . فجاء ذكر الملاهي . فقلت : ان فلاناً يضرب بالرباب

(١) اي انه كان للخليفة في مجلس الوزير عيون وجواسيس يتقنون اليه الاخبار حتى
 حبره شاة الوزير وحفاوته بصديقه . وكان هؤلاء الجواسيس يسمون (اصحاب الاخبار)

فصاح قائلاً : هو ذا تهزأ بنا ! هو ذا نخس ^(١) علينا ! ما هذا الكلام ؟ قلت ما الخمر
أبتدأه القاضي ؟ قال : نقول (يضرب الرباب) كأنك لا تعلم أن الرباب يُجر
جرّاً ولا يُضرب ضرباً (يعني أنك تنظاها أمامي بورعك وأنت لا تسمع الملاهي) .
فخلفت له بآيانه مغالطة ألي ما رأيت الرباب قط . فقال : أنت هذا آفة وسبيل
الصالح أن يعلم طرق الفساد ليحذرها على بصيرة لا على جهل ^(٢) . قال فعدت إلى داري
وقلت أساس دابتي : وياث ! اطلب لي رباباً : فجاء به فخرمه بين يدي . فاذا هو كما
قال مولانا القاضي . يجر جرّاً . ولا يُضرب ضرباً .

إلى هذا الحد بلغ نظرهم في الأمور . ودقّتهم في إدارة الأعمال . فالمحتسب ^(٣)
مثلاً كان يدور في الأسواق بنفسه ويهتم حد الاهتمام بإيفاء وظيفته .
ولما تولى (أبو التماسم الجهني) الحسبة في البصرة قال المسنون من أهلها إنهم
ما رأوا ولا سمعوا من بلغ مبلغه في ضبط العامة . ورفع الغش . ونقص البضائع
والامتنعة . وتد طالب الناس بمطالبات صعبة . فانتشر له حديث جميل في البلد .
وهبة في قلوب العامة . ومما انفق له أن اجتاز يوماً في بعض السكك . وبين يديه
أعوانه . وكان هناك مؤذن يؤذّن . فتصارع الناس الجهني الجهني !! فتطلمع
المؤذن فراه فقال : الحمد لله الذي لم يجعل لك عليّ ضيقاً ولا يبتسأ معاملته .
وأقبل على أذانه . أكن الجهني كان سمع قوله . فقال لرجاله خذوه إلى الدار (دائرة
الحسبة) فنجح المسكين ونجح حيرانه . وذهبوا معه إلى الدار . وقالوا للجهني : أمرت
بالحضار هذا المؤذن المسكين فإي طريق لك عليه ؟ فلم يرد عليهم . والنفت إلى
المؤذن وقال : (أريد أن تخاف لي أنك لا تدخل المسجد بأفعل الذي تدخل به

(١) التمس التمس والحداد . (٢) على حد قول الشاعر :

(عرفت الشر لا أنا - شر أكن لتوقيه)

(ومن لم يعرف الحق - ير من الشر يقع فيه)

(٣) وهو الذي يتولى الحسبة أعني ملاحظة ما يقع في الأسواق من أمور
البايعات والمكاييل والموازين والأسعار وحمل العامة على التزام الحدود الشرعية
والأدبية وتشبه هذه الوظيفة قديماً أعمال المجلس البلدي اليوم .

الكنيف . وان لا تؤذن الا بطهارة — «ولا لتطلع الى الجيران من فوق المنارة» .
فتضرع اليه المؤذن ان يعفيه من هذا الشرط . قال لا ! أوانك لا تؤذن . فإزال
الجهني به حتى حلف . فلما اراد الانصراف قال له : يا شيخ أعلمت ان لي اليك طريقاً ؟
وان بيننا معاملة ؟ فقالت : أخطأتُ أيدك الله ولا أعلم هذا . فقال : لا تعاود
الكلام فيها لا تحتاج اليه . فان الفضول مضرّة . والثروة معترّة .

نكن في مقابل هذه الشدة على الناس . والتشدد في ضبط العامة نجد من وزراء
ذلك العهد وكبرائه كرمًا وسخاء وتواضعًا وحياء : فقد وقفت يوماً امرأة في طريق
الوزير (حامد بن العباس) وشكت اليه الفقر ودفعت اليه قصة (اي استدعاء) فوقع
لها فيها بمائتي دينار . ولما ذهبت الى (الجيهن) ^(١) انكر المبلغ واستكثره (لانه قريب من
مئة ليرة وهي ترضى باقل من ذلك) وراجع الجيهن الوزير . فقال الوزير هو ما ذكرت .
لكنني لما اردت ان اوقع لها بمائتي درهم جرى قلبي بمائتي دينار . ولن أرجع . فأعطها
الدنانير . فأعطهاها اياها . وبعد ايام رفع رجل الى الوزير قصة . يقول فيها : إني وامرأتي
فقيران . ومنذ ايام جاءني امرأتي بمائتي دينار تقول ان الوزير حفظه الله وهبها اياها .
واخذت من يومئذ تستطيل عليّ وتكبر واقول انها هي غنية وانا فقير معدم لا أصلح
لها بعلا وكلفني طلاقها إذ لم يعد بطيب لها العيش ولا العشرة مع مسكين مثلي .
فان رأى الوزير ان يكتب الى القاضي يأمره بحلب زوجتي وزجرها والنصح لها بطاعني
فعل . فضحك الوزير ثم وقع له بمائتي دينار أخرى . وقال له الآن صرت غنياً مثلها فلم
يعد حاجة للقاضي . فاستلم الرجل دنانير الذهب . ثم ودع القوم وذهب .

(المغربي)



(١) كلمة فارسية كانوا يريدون منها ما نريده نحن اليوم بكلمة الصراف

مصانع الشام^(١)

« منذ عرف التاريخ »

ان قطراً كهذا القطر البديع ، تعاقب الحكم عليه الحثيون والمصريون والبابليون والاشوريون والفرس والفينيقيون والاسرائيليون والرومان واليونان والعرب والترك والتر والجر كس ، وأعجب الفاتحون بخبراته ، واغتنبوا بالاستيلاء عليه ، لموقعه الممتاز بين الاقطار والقارات ، فجعلوه محط رحلهم ، ومجازاً الى فتوحهم ، لا يستغرب منه اذا رأينا فيه مصانع تشهد لبانيها بسلامة الذوق ، وجودة الابداع ، وعظمة الباني . ان الشعوب التي انشأت مصانع البتراء « وادي موسى » وجرش وعمات ومادبا وبعليك وتدمر والرقة وأفاميا ودمشق وحلب والقدس كانت ذات معرفة بالهندسة لا تقل عن اهل هذا العصر بها ، لان ما شادوه صارع الايام وصرعها ، وبقيت منه هذه البقايا على كثرة ما لناولها من الهدم والتخريق بايدي المخربين من الظالمين والمظلومين ، وسطا عليها من عوامل الطبيعة القاسية .

يتناول — بحثنا الآن آثار الشام قبل الاسلام وبعده . ونعني بالشام ما عرفه العرب من البلاد الممتدة من عريش مصر الى نهر الفرات ومن سفوح جبال طوروس او الدروب الى البادية . وتنقسم هذه المصانع قسمين : مدني وديني فالمدني كالقلاع والحصون والابرار والمناور والمراسد والقصور والجسور والسكرور والاقنية والمواني والطرق والدور والقبور والمستشفيات . والديني كالمعابد والبيع والاديار والكنائس والجوامع والمساجد والمدارس والربط والخطاهاات والملاجي وما شاكلها . نتكلم على الهندسة المتبعة في هذا القطر السعيد اجمالاً بحسب ما انتهى اليها من كتابات العرب والافرنج . ولا نستفنج الاحيث بصح الاستنتاج ، ونقدم القول بنصوص العلماء من اهل

(١) أُلقيت في ردهة المجمع العلمي يوم ٢٩ كانون الاول سنة ١٩٢٢ م .

الاخصاء في العاديات والبناء ، ونقف عند حد ما رسموه لانهم المرجع وعلى كلامهم الفتوى .

لم يحدثنا التاريخ والحثيون والاسرائيليون من أقدم الشعوب السورية انه كان لهاتين الامتين هندسة خاصة ، بل كان الحثيون يقتبسون عن جيرانهم الاشوريين اصول بنائهم وليس فيه ما هو خارق للعادة في اشكاله ووضعه ، بل هو محرف عن الطراز الاشوري تحريفاً مهزجاً . ولم يتمكن الاثريون الى اليوم من العثور على عاديات حثية حقيقية ليقفوا حق الوقوف على اصول هندستهم وبنائهم . وما اكتشف من هذا القبيل من الصور النصفية وغيرها لا ينم عن ذوق سليم ولا عن إبداع في حسن الهندسة .

ولقد انشأ الحثيون قاعة لهم على الفرات في كركميش (جرابلس) بقيت حسكة في حلق نينوى الى نحو سنة ٧١٠ ق . م حتى استولى الاشوريون عليها وكانت هندسة مصانعهم على مثال مصانع الاشوريين والبابليين مقتبسة اقتباساً رديئاً لا تخلو من جفاء وسذاجة .

وبنو اسرائيل كالحثيين لم يتركوا في فلسطين منبتهم ومطعمهم ، سوى آثار ضئيلة ساروا في صنعها على تقاليد الاشوريين والمصريين ، وقلدوا المصريين في الاكثر اقرب فلسطين من مصر ، بل لان مصر استولت زمناً على فلسطين . وأهم ما بقي من آثارهم معبدهم في القدس او معبد سليمان الذي جمع اليه الصنائع والمهندسين من صور بمساعدة الملك حيرام سنة ١٠١٣ ق . م وقد حرق هذا المعبد فرم غير مرة على عهد ملوك يهوذا سنة ٥٨٨ ق . م ولما عاد اليهود بعد اثنين وخمسين سنة من أسرهم في بابل جددوا المعبد على مثال الاول في الجملة وكانت دثرت محاسنه الاولى ثم وقع ترميمه في ادوار مختلفة ولم يصب هذا المعبد باذى على عهد السلوقيين خلفاء الاسكندر المقدوني في الشام ولا في زمن يومبيوس الروماني لانه كان من عادة اليونان والرومان ولا سيما الرومان ان لا يقاتلوا الامم التي يدخونها على اربابها . وربما اقتبسوا ممن غلبوهم على امرهم عباداتهم من غير تكبر .

وسع هيرودوس ملك اليهود الذي نصبه الرومان معبد سليمان ، وانتهى على عهد

نيرون ، وكان عمل فيه الف كاهن والوف من العملة دهرأ طويلاً . وقد قيل ان سليمان خزن من غنائه ابناء معبده مئة الف وزنة من الذهب ومليون وزنة من الفضة قُدرت بسكة زماننا بثمانمائة وتسعة وثمانين مليوناً ونصف مليون جنيه ، وذلك ما عدا الحديد والنحاس والخشب فكل بناؤه سنة ١٠٠٥ ق . م وكان فخر أورشليم واجمل بناء في العالم . وقد شيد بجانب الهيكل الشرقي رواق من السواري اي العمد فادار الملوك المتأخرون هذا الرواق حول جميع البناء وبقي هيكل سليمان ٤٢٤ سنة الى ان خربه ملك بابل . والهيكل الذي رمه هيرودوس في محل الحرم الشريف تحيط به عدة دور منها دار الامم وهي الدار الخارجية ثم دار النساء ثم دار اسرائيل ثم دار الكهنة ثم الهيكل . وهدم الرومان هذا الهيكل سنة ٧٠ م ولا يزال الباحثون منذ ثلاثة قرون ينقبون عن كل ما له علاقة بهذا المعبد وكان غاصاً بالخشب الثمين الذي جيء به من ارز لبنان وغيره ومموهاً بالذهب والفضة ومحلىً بالعاج والاحجار الكريمة وفيه من الاواني الثمينة والمدى والاحواض وادوات البهوت ما صح ان يعد خلاصة علم الفينيقيين باصنائع والفنون النفيسة . والفينيقيون هم في الحقيقة البانون للهيكل ولا غرو فمدينة صور مسقط رأس أقليدس المهندس كما ان دمشق مسقط رأس بولودر المهندس الذي اقام عمود تراجان في رومية وبني حسراً هائلاً على الدانوب (الطونة) . هذا مع انه لم يستمر الفينيقيون بانهم عنوا بالبناء والهندسة عنايتهم بالريج والكسب وازدياد القاصية ، وكانوا كالاسرائيليين والكنعانيين والخثيين ينقلون هندسة مصانعهم عن الاشوريين والمصريين . ولقد اعجب الغربيون لعهدنا بالمكاتب الدارية التي اقامها الفينيقيون في سواطي يونان وايطاليا وصقلية وغاليا وابيريا وافريقية ، بيد ان هذا الشعب لم يحلف من آثار مدينته ادنى ما خلفته الشعوب القديمة . وربما كان الباقي منها بل ما نبت قيامه على عهد حضارتهم ، اقل مما خلفته تدمر والبتراء . ولم ينبت ان بقي للفينيقيين معبد من معابدهم الى عهدنا على كثرة ما بنوا منها كما يقول التاريخ .

اما آثار الفينيقيين المدنية كالخصون والقبور وغيرها فان الباقي من اساس حصن صور الذي اعجز اقتحامه قدماء الفاسطيين كمراغون وبخنصر والاسكندر لا يدل

على كبير امرء ، وقد بنى الاسكندر بين البر والجزيرة فيها سده الغريب ، وكان بناء صور الى عصر ابن بطوطة « ليس سيف الدنيا اعجب واغرب شأناً منه » وقال ابن جبير : انه يضرب المثل بمحصانتها وذلك انها راجعة الى بابين احدهما في البر والاخر في البحر وهو يحيط بها من جهة واحدة ، فالذي في البر يفضى اليه بعد ولوج ثلاثة ابواب او اربعة كلها في ستائر مشيدة محيطة بالبواب ، اما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدتين الى ميناء ليس في البلاد البحرية اعجب وضعاً منها يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ويحديق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجنب . ولا يزال سور بانياس بين طرطوس واللاذقية قائماً ولكن لا يعرف اذا كان من صنع الفينيقيين او البلاسجيين لانه اشبه بعمل البلاسجيين سكان ايطاليا ويونان القدماء . وهكذا يقال في اسوار بيروت وصيدا وجزيرة ارواد وحمريت ومعبد هذه على رأي رنان اقدم معبد بل يكاد يكون المعبد الوحيد الذي بقي من آثار العنصر السامي اما قبور الفينيقيين فهي اهم ما اكتشفت في بلادهم ، وكما نقر بها تقرت في الصخر وهي مثلها في بلاد يهوذا والعرب ، اي عبارة عن عقود كبرى جعلت فيها النواويس لأسرة برأسها . والقبور التي ظهرت في حمريت هي اهم ما عرف من نوعها وكذلك ما ظهر في جبيل وصيدا ولا سيما النواويس الاربعة التي وجدت في هذه المدينة ولا تزال محفوظة في متحف الاستانة .

قلنا ان المصريين والاشوريين ادخلوا ايام استيلائهم على فينيقية عاداتهم واصول هندستهم ومصانعهم وكل ما هو من خصائص مدنياتهم ، فكانوا اساتذة الفينيقيين ولكن هؤلاء لم يحسنوا التقليد ، وعلى عهد الاسكندر فقط دخل سيف البلاد روح جديد في البناء اي اصول الهندسة اليونانية .

ولقد بحث الاثريون في فلسطين عن المعاهد الدينية في الاكثر وامتدوا في حفر ياتهم الى بلاد العرب للعثور على مدنية يعتد بها سبقت الرومان واليونان ، وكل ما عثروا عليه تافه في الحقيقة . وقد تبين لم ان البيوت كانت كقصور الملوك تحتوي على دائرتين : دائرة الرجال او الثوي وهو المكان المهدد للضيف « السلامك » ودائرة الحريم شأن قصور الشرق الاسلامي لهذا العهد . وما قصر هركان في عراق

الامير ، وحصون القدس ، و برج انطونينا ، الا من بقايا الهندسة اليونانية الرومانية .
ونقل في فلسطين وشمالى غربي بلاد العرب القبور التي يرد عهدها الى الزمن الذي
يسبق العصر اليوناني . وقبور مدائن صالح التي فُتحت في الصخر ، لا يستدل منها الا انها
مثال من امثلة البناء الاشوري . وقد اختلفت الظنون في هذا الشأن والاثريون
يوالون حفرياتهم ليكشفوا شيئاً يستدلون منه على مدينة اقدم امة نزلت
الارض المقدسة .

وأقيمت عدة انصاب في الشام لملوك الرومان منها ما عثر عليه الاثريون فقد ذكر
وادنكتون كتابة وجدها في السويداء كأنها كتبت تحت نصب اقيم لاحد ملوك
الرومان فيه « للملك اليوس قيصر ادر يانوس انطونينوس بيوس العاهل » ووجد مع
كتابة في قرية ام الجمال في حوران كتب فيها « للعاهل القيصر مرقس اورليوس
انطونينوس اغسطس قاهر الارمن والبرتهين » . ولهذا القيصر كتابة أخرى في
سهوة الحضر من جبل حوران وأخرى في التهبة المسماة فيليبولي نسبة الى الملك
فيلبس العربي ووجد في السويداء ايضاً كتابة يونانية مؤذنة باقامة اثر تكرمه للملك
كومود اقامه له دوميتيوس بروكستر والى العربية ذكرى جلب الماء الى المدينة
وضواحيها سنة ١٨٧ ووجد في جنوبي اللاذقية على مقربة من عدوة النهر الكبير كتابة
تدل على محطة عسكرية . وفي دير القلعة في لبنان على الصخر الذي في جانب البئر
كتابة فيها « بسلامة مولانا القيصر لوستيوس سبتيموس ساو يروس برتينكس اغسطس
اقام هذا النصب بومبايوس اينجيوس نذراً للمشتري » .

وبعد فان البحث في مصانع الشام وحدها يحتاج الى مجلد قد يضطر مؤلفه الى ان
يرمي الكلام على عواهنه لصعوبة الحكم على كل اثر بعينه ونسبة كل بناء الى الامة
التي اقامته وكل واحدة منها تركت على الاغلب اثراً مغلداً متلداً تفاخر به . فالطرق
الرومانية التي أنشئت من القدس الى بلاد النبط جنوبي بحيرة لوط ومن شمالها وطريق مادبا
الى البتراء والعقبة حتى البحر الاحمر وطريق جرش — وادي موسى والطريق المبلط
شرقي صرخد الممتد الى العراق وكان يسمى بالرصيف هي من الآثار المهمة كالمسكوك

الروماني في أذرح قرب معان وآثار قتوات وشهبة وسالة ودامية العليا ولبن .
 عدت البتراء في الجنوب رصيفة لتدمر تباريها بضروب مرافقها ومنها الهياكل
 الجليلة والدور الفخمة والاندية والمجالس والقصور والحمامات والمسارح والمدافن
 والمسلات وقد رأى فيها دوماً فسكي آثار الهندسة المصرية واليونانية والرومانية
 والسورية . واهل البتراء عرب من النبط شيدها حوالى القرن السادس ق م
 وارثقت على عهد الرومان بعد المسيح بقرنين الى ان زاحمتها تدمر في القرن الثالث للميلاد .
 ومن اجل ما في وادي موسى اليوم خزنة فرعون وهي دار الحكم نقرت في الصخر
 وجعلت ثلاث قاعات وبهواً . ومن مفاخرها الملعب العظيم النحوت في الصخر قطره
 ١١٧ قدماً وفيه ٣٣ صفاً من المجالس يسع من ٣٠٠٠ الى ٤٠٠٠ من المتفرجين وكن
 الملعب الروماني في عمان اي ربة عمون هو اكبر الملاعب في الشام وهو مركب من
 ثلاثة مراتب جعلت المرتبة الاولى خمسة صفوف من المقاعد والمرتبة الوسطى اربعة
 عشر صفاً من المقاعد والمرتبة الثالثة ستة وعشرون صفاً من المجالس وهو يسع اربعة آلاف
 ناظر ايضاً . وفي اسفل الملعب حجرتان كبيرتان لسجن الاسود والنمورة والتامسج .
 ويرد تاريخ ارتفاع جرش الى القرون الاولى للمسيح وتاريخ ابنتها الى امبراطرة القرنين
 الاول والثاني وهي شاهدة بتأثيرات الطراز الروماني حتى في الاصقاع البعيدة .
 وكانت جرش من جملة المدن المهمة للغاية من بين مدن بلاد العرب وعمدها المائلة
 للعيان ومنها ما بلغ طوله ١٤ متراً وقطره خمسة اقدام وملاعبها وهياكلها وساحاتها
 وحماماتها تذكر بما كان للرومان من مثلها في بعض البلاد المهمة التي تولوا الحكم عليها .
 وصف شيخ الربوة خرائب جرش وعمان في القرن الثامن بقوله : « ذكروا ان بدمنة
 مدينتي عمان وجرش بالشام ملعين ، فاما جرش فمنها تلال وجبال وحجارة منقولة ،
 وبعض بناء ابوابها قائم في الهواء نحو خمسين ذراعاً ، وبهذه الدمنة موضع كصورة
 نصف دائرة مقطوعة بحائط وذلك الحائط به مجلس للملك ، واما النصف المستدير
 فانه مدرج درج بعضها فوق بعض ، وهي دوائر وكل دائرة فوقانية اوسع من السفلى ،
 وبين هذه الدرج الدائرة ابواب ومسالك وكل درجة وعليها مرتبة من الناس وكلهم
 ينظرون الى الملك وهو ينظر اليهم كلهم لا يحجبون عنه ولا يحجب عنهم في ذلك

المجلس وكانما هو ليوم الحكم العام فقط ، وبالقرب من هذا الملعب ايضاً ملعب وفيه عمود طوال قائمات وفي كل منهن بكرة وهن مستديرات المراكز كصورة دائرة وكانما كان على رؤوسها من الحجارة عتبات من عمود الى عمود وفوق ذلك ابنية لاهلها وآثار شاهدة ولا يعلم في الشام من الآثار مثل هاتين المدينتين الا بمدينة بعلبك وبباب البريد بدمشق اهـ» .

وذكر بعض الاثرين ان مدينة تدمر بناها سليمان ليأمن على طريق التجارة حتى اصبحت في اوائل النصرانية احدى المدينتين اللتين جمعتا بين تجارة اوربا وآسيا واعني البتراء وتدمر . قال ياقوت واهل تدمر يزعمون ان ذلك البناء قبل سليمان بن داود عليه السلام باكثر مما بيننا وبين سليمان ولكن الناس اذا رأوا بناءً عجيباً جهلوا بانيه اضافوه الى سليمان والى الجن . قلنا وكان القدماء يعتقدون ان بعض مدن ساحل سورية بناها الالهة قال المعري :

وقد كانت ارباب الفصاحة كلما رأوا حسناً عدوه من صنعة الجن

وقال النابغة الذبياني :

الا سليمان اذ قال الاله له قم في البرية فاحدها عن الفند

واختس الجن اني قد امرتهم يبنون تدمر بالصفايح والعمد

وقد كان من جملة التصاوير التي بتدمر صورة جارتين من حجارة من بقية

صور كانت هناك فربها اوس بن ثعلبة التيمي صاحب قصر اوس الذي في البصرة

فنظر الى الصورتين فاستحسنهما فقال :

فتاتي اهل تدمر خبراني ألما تسأما طول القيام

قيامكما على غير الحشايا على جبل اصم من الرخام

فكم قد مر من عدد الليالي لعصر كما وعام بعد عام

وانكما على مر الليالي لابق من فروع ابني شام

وقال محمد بن الحاجب يذكرها :

اندمر صورتاك هما بقلبي غرام ليس يشبهه غرام

افكر فيكما فيطير نومي اذا اخذت مضاجعها النيام

اقول من اتجيب اي شيء
 امُلكتنا قيام الدهر طبعاً
 كانهما معاً قرنات قاما
 يمر الدهر يوماً بعد يوم
 ومكثهما يزيدهما جمالاً
 وما تعدوها بكتاب دهر
 اقامها فقد طال القيام
 فذلك ليس يملكه الانام
 ألجها لدى قاض خصام
 ويمضي عامه يتسلوه عام
 جمال الدر زينه النظام
 سجيته اصطلام واخترام

وقد اقام الرومان بين دمشق وتدمر الى الفرات اثنين وخمسين حصناً او قلعة
 بعد كل منها عن الاخرى ثلاث ساعات ولا شك في ان الحرس الروماني كان
 في بعضها وبنى الرومان عدة حصون على الطريق الممتد بين بصرى ودمشق ليأمنوا عيث
 البادية و بعد ان فتحت الزباء او زينب او زنوبيا سلطنة تدمر المشهورة القطر المصري
 عمرت الابنية التي جلبت اليها الامم من اقطار الارض ولا سيما اليونان وما كان من
 الامبراطور اورليانوس الروماني الا ان داهمها سنة ٢٧٢ وخربها وبعث ابنيتها وقوض
 هبا كلها ودك اسوارها وهدم قلاعها فاصبحت كأن لم تغن بالامس الى ان جاء
 بوستنيانوس سنة ٥٢٧ فجدد بناء الاخرية وشيد ابنية أخرى فيها وجعل لها سوراً ثم
 سطت عليها الزلازل كثيراً وما يرى اليوم من الاثر الضئيل الباقي من عادياتها شاهد
 على ما كان هناك من عمران ممتد الرواق وما استخرج ولا يزال يستخرج من ارضها من
 التماثيل والانصاب والشواهد يدل على فضل ذوق وحسن هندسة وقد كان لهؤلاء
 الرومان اغراب كما قال الثعالب في خرط التماثيل والابداع في عمل النقوش
 والتصاوير حتى ان مصورهم يصور الانسان ولا يغادر شيئاً الا الروح ثم
 لا يرضي بذلك حتى يصوره ضاحكاً ثم لا يرضي بذلك حتى يفصل بين ضحك الشامت
 وضحك الخجل وبين المتبسم والمستغرب وبين ضحك المسرور وضحك الهازي فيركب
 صورة في صورة وصورة في صورة . او كما وصف الارجاني شبنير وعلى مثل هذه
 التماثيل يصدق وصفه :

ومن كل انواع الانام مصور
 ومجلس انس يفسح الطرف ملؤه
 شباب وشمط يمرحون وشيب
 قيان تغني وسطه وشُروب

وصرعى وقتلى في قتال عساكر
فمن جانب اصبحت تصب مدامة
خليطان هذا للقراع معبس
وقد حققوا التصوير حتى وجوههم
وكل يماني شغله غير انه
ملاعب فيها الملك رام بطرفه
وعاشوا طويلاً ثم فرق شملهم
فلولا مكان الدين قلّ لفقدهم
ملوك اقاموا ما اقاموا اعزة
وخيل للرائي ليذكر عهدهم
خيال لهم يهدي الى كل امة

تحويل حصون دونهم ودروب
ومن جانب اصبحت تشب حروب
يصول وهذا للسماع طروب
يبين لنا بشر بها وقطوب
على فمه دون الكلام رقيب
وكل ان دنيا ان نظرت لعوب
زمان اكل للانا تروپ
بكاء لنا في اثرهم ونحيب
وقد شعبتهم بعد ذاك شعوب
خيال لعمرى ان رأيت عجيب
لقصد اعتبار ان رآه لبيب

وان بقايا هيكل الشمس او المستري وهيكل الزهرة وهيكل باخوس ودار المذبح
او البهو الكبير انماثلة الى اليوم في قلعة بعلبك لا كبر دليل على ارتقاء فن الهندسة حتى
في العصور التي سبقت الرومان واليونان . وفي بعلبك هيكلان كبيران طول اصغرهما
٢٢٥ قدماً وعرضه ١٢٠ قدماً وكان محاطاً باعمدة كبيرة الحجم طول الواحد منها
٤٥ قدماً وطول هيكل الشمس ٣٢٤ قدماً وكان محاطاً باربعة وخمسين عموداً يبلغ
قطر الواحد منها ٧ اقدام وعلاوه من قاعدته الى قمته ٨٩ قدماً وقد بلغ طول بعض
الحجارة المبنى منها الهيكل ٦٤ قدماً وسمكه ١٢ فالواو كانت هياكل بعلبك تضاهي
هياكل اليونان بمظمة بنائها وكنها دونها بالترتيب والزخرفة .

قال شيخ الربوة وبقلة بعلبك بيت محكم من الحجر طوله خمسون ذراعاً وهو من
كل جهة ثلاثون ذراعاً وسقفه حجر وفي وسط السقف نسر حجر فارس اجنحته وفيه
اربعة قرن السقف اربعة اصنام واسماؤها ردة وسواع ويغوث ويعوق وبمقطع الحجارة
حجر رابع للثلاثة التي بالقاعة متروك الى وقتنا هذا والى ما يشاء الله مثال للناس يعني ان من
ههنا حملنا الاحجار الثلاثة المبنية بالقاعة — وهو الحجر المعروف اليوم بحجر الحبلى —

وبالحصن ايضاً عمد طول كل عمود نحو عشرين ذراعاً وفي الارض منها نحو اربعة اذرع ودوره نحو ذراعين واكثر وعددها نحو ستين عموداً وكان على رؤوسها عتبات وفوق العتبات البناء المحكم . وان آثار بعلبك بما فيها من العمد الضخمة ومنها من النوع المعروف بالحبيب الذي جلب من بلاد السودان على ما يظهر وما جاء عليها من القرون ولم تنته تدل دلالة صريحة على ان كل هذا من صنع الرومان وبايدي مئات الالوف من العملة المتخزين المذتعبدين وهكذا قامت جميع آثار الرومان بارهاق الانسان للانسان .

و يمدق على قلعة بعلبك في الوصف ما قاله عبد اللطيف البغدادي في امرام مصر انها صبرت على عمر الازمان بل على ممرها صبر الزمان ، فانك اذا تجررتها وجدت الازهان الشريفة قد استهاكت فيها والعقول العافية قد افرغت عليها بمجودها والانفس النيرة قد افاضت نليها اشرف ما عندها لها، والملكات الهندسية قد اخرجتها الى الفعل مثلاً هي غاية احكامها حتى انها تكاد تحدث عن قومها وتخبر بحالم ولنطق عن علومهم واذهانهم وتترجم عن سيرهم واخبارهم . او ما قاله في براني مصر : فالحكاية عن عظمها وانقان صنعتها واحكام صورها وعجائب ما فيها من الاشكال والنقوش والتساوير والخطوط مع احكام البناء وجفاء الآلات والاحجار مما يفوت الحصر . ومن اجل ما وصفت به خرائب بعلبك قول صديقنا خليل مطران من قصيدة :

خرب حارت البرية فيها	فئنة السامعين والنظار
معجزات من البناء كبار	لاناس ملء الزمان كبار
البستها الشمس نفويف در	وعقيق على رداء نزار
وشملت من الليالي بشاما	ت كمنقيط عنبر في بهار
وسقاها الندي رشاش دموع	شربتها ظوامي الانوار
زدها الشيب حرمة وجلالاً	توجتها به يد الأعصار
رب شيب اتم حسناً واولي	واهن العزم صولة الجبار
معبد للاسرار قام ولكن	صنعه كان اعظم الاسرار
مثل القوم كل شيء عجيب	فيه تمثيل حكمة واقنصار
صنعوا من جماده ترمياً يح	ننى ولكن بالعقل والابصار

وضروباً من كل زهر انيق لم تفتحها نضارة الازهار
 وشموساً مضيئة وشعاعاً باهرات لكنها من حجار
 وطيوراً ذواهباً آهيات خالطات الغدو والابكار
 في جنان معلقة زواه بصنوف النجوم والانوار
 وأسوداً يخشى التحفز منها ويروع السكوت كالنزار
 عابسات الوجوه غير غضاب باديات الانياب غير ضواري
 في عرائنها دخان مثار وبالحاظها سيول شرار
 تلك آياتهم وما برحت في كل آت روائع الزوار
 ضمها كلها بديع نظام دق حق كأنها في انتشار
 في مقام للحسن يعبد بعدال يعقل فيه والعقل بعدالباري
 منتهى ما يجاد رسماً وابهى ماتحج القلوب في الانظار

هذا اجمال في المصانع الكبرى في هذه الديار وهندستها ومن أهم آثارها انطاكية
 التي بناها انطيوخوس واكمل زخرفها سلوقس سنة ٣٠٠ ق م وكان فيها عجائب من
 الهندسة اليونانية ما لم يكتب ليونان ان تحمل مثله في ارضها ولولا ان الزلازل تحيبتها
 سيف ادوار مختلفة لكانت اليوم من أهم ما يقصد للزيارة . وكانت انطاكية عاصمة
 الشرق ايام اغسطس قيصر كما كانت رومية عاصمة الغرب . ومن يدخل انطاكية
 ويذكر ما كان فيها من القصور والدور والمعابد والهياكل والحمامات والاقنية ودور
 التمثيل يبكي لبلد التفت الآفات السماوية والارضية على تخريبه ولم يبق من عظمتها
 التاريخية سوى بعض جدران قلعتها القديمة .

ومن جملة آثار الهندسة الرومانية او اليونانية بحيرة قدس او خزائن حمص
 وقناة سلمية وجسر قنوات وآثار سبسطية ومنها مصانع حلب وهي صورة تامة من
 نشوء الهندسة وقد غنيت هذه المدينة بالمصانع ذات الهندسة العسكرية والدينية
 والمدنية وما برج معظمها بحاله . ومن أهم ما في شمالي سورية ملعب أفامية (قلعة
 المضيق) وملعب دفنة وكان فيها معبد ابولون رب الشمس والنور والصنائع والآداب
 والطب عند قدماء اليونان ونصب فيها برياكسيس المهندس الاثيني تمثالاً للرب

اشتهر بين العارفين بالصنائع الجميلة وهو قابض يده على قيثارة وقد صورت صورته على نقود انطاكية وفيها معبد ديان والزهرة وغيرها من الارباب . ومن اهم الآثار القديمة بدمشق الشارع العظيم الذي كان يحرقها من الشرق الى الغرب اي من الباب الشرقي الى باب الجابية وطوله ١٦٠٠ متر وعلى جانبيه رواقات من العمد وهو اليوم مستور مردوم قامت عليه الدور والحوانيت وكنت مقسومة الى ثلاثة اقسام الوسط للدواب والمجلات والرصيفان بجانبه للذاهبين والجائين والباب الشرقي اليوم على ما يرى هو احد الرصيفين فقط بحيث يستدل من ذلك ان الشارع لم يكن عرضه اقل من خمسة وثلاثين متراً .

ولا تزال خرائب بصرى عاصمة حوران واحصن مدن باشان ومقل الرومان شرقي الاردن شاهدة بما كان في تلك المدينة من الفخامة والعظمة وكان طولها داخل السور كما قال بورترميلاً ورسم ميل وعرضها ميلاً ويحيط بالسور ربض كبير المباني ومحيطها خمسة اميال لها سور عالي الجدران ونيق البنيان وقاعة للاحصن منها في عامة بلاد الشام ويقطع المدينة شارع كبير على طولها يمر في وسطها له بابان جميلان على طرفه وشوارع رحبة وفيها ما يفوق الوصف من غرائب الصناعة وبدائع البناء والاليب النقش في الهياكل والكنائس والقبور والمذابح وركام الانقاض وبهوت الاقدمين وقوس نصر اقيم للقائد فيليبس الذي صار امبراطوراً وهو من اهالي بصرى والمشهد نصف دائرة قطره ٢٧١ قدماً وهو مكشوف من الاعلى مثل كل المشاهد الرومانية وفيها مشهدان وستة هياكل وعشر كنائس او عشرة مساجد عدا القصور والحمامات والسبل والقنوات واقواس النصر وغير ذلك من المباني الكثيرة وبعضها ما يصلح ان تزدان به اعظم عواصم اوربا الآن .

ولقد شوهد في معظم المدن التي بنىها الرومان في هذه الديار وفي غيرها انها متشابهة في مرافقها الا قليلاً ففي كل مدينة ساحة عامة (فوروم) وما يتبعها من المرافق ومعبد الكبتول او معبد المشتري وجونون ومينرفا (ربة الحكمة والفنون والحرب) وكانت في المدن الرومانية بمثابة البيع الكاتدرائية في مدن اوربا الحديثة وفيها اسواق ذات نضائد من الحجر وفوارات ومقاسم ماء ذات اقنية لا تزال ترى

الى اليوم آثارها ومراحيض عامة وخاصة واما كن للاستحمام فيها مغاطس باردة وحارة وبهوت للتعريق وفئات للرياضة والمخادنة ومماش للنزه وافران واقواس نصر وابواب تغلق ليلاً ودور تمثيل لا يزال في اكثرها مصاطبها المدرجة ومساكن خاصة .

ومن أهم الآثار في سورية جسر المعاملتين وجسر جبيل بين البلدة ومدافنها القديمة ومنها قناتان تمتدان بين نهر الكلب وجونيه والثانية القاة الكرى التي كانت تنقل مياه الجبل الى بيروت وهي من عجائب الآثار القديمة . ومنها هيكل دير القاعة بالقرب من بيت مري في لبنان وهيكل افقا عند منبع نهر ابراهيم وهيكل فقرا فوق مزرعة كفر ذبيان في سفح جبل صنين وفي لبنان هياكل رومانية أخرى كهيكل بزيزا وناوس في جهات اميون قرب طرابلس وتماثيل كثيرة . بعثرة وفي البترونة حصن منيع وملعب . وفي بيروت مسرح ومن قلاعهم قلعة صربا وفقرا ويحمور ومن اجمل حماماتهم حمام شبة الذي يذكر بخرائبه الضخمة كما قال ري بحامات كراكالا في رومية وكنيسة السويداء التي تشبه كنيسة القديس بولس في رومية قال ولا شك انها اجمل قطعة من هندسة روم القسطنطينية في جميع بلاد حوران .

لما انتشرت النصرانية في هذه الديار اخذ من دابواها في بناء الكنائس والاديار على اسلوب الابنية القديمة ومالت الهندسة السورية الى السذاجة واجتناب كل زينة زائدة لتؤثر بمتانة البناء المحمول بالحجارة الضخمة وجمال الحجم وترتيب الاجسام . وقد نشأت بين القرن الرابع والقرن السادس للميلاد في الشام هندسة متينة راقية مختلفة عن الهندسات الاخرى تعرف حالتها من خرائب المدن العديدة في سورية العليا وحوران . قال جلابرت : ومن المصانع المتنوعة في الهندسة السورية شيتان يلتفتان الطر خاصة وهما البع والابنية ذات السطوح وكان المهندسون السوريون فيها عالة على الشرق ويسترشدون بأراء مهندسي فارس وقد أثرت الهندسة السورية اذ ذاك في هندسة كثير من الامم ولا سيما في بيزنطية واخذت بيزنطية من سورية او من طريق مصر عن سورية اصول كثير من الابنية . وقال ايضاً والحق يقال

الت في سورية الوسطى مجالاً واسعاً للأبحاث العلمية ودرس العاديات فان فيها ما لا يحصى من الابنية العادية كالمباني كل الوثنية والكنائس المسيحية ودور الخاصة والاندية العمومية من اواخر القرن الاول قبل المسيح والقرن السابع للميلاد ولاكثرها كتابات تاريخية تزيل الريب في زمانها وهذه الآثار ثنوا الى سنة بعد سنة حتى لو جمعت على سباق متواصل لما وجدت عشرة اعشار من السنين خالية من آثار او آثار همة وبجمل رأي بوتلر احد اعضاء البعثة الاميركية التي بحثت في آثار سورية الوسطى بين عامي ١٨٩٩ — ١٩٠٠ بعد معاينة كل هذه الآثار المتعددة واتخاذ اقيستها وتدوين رسومها انه كان لاهالي شمالي سورية الوسطى هندسة قائمة بذاتها مبانيتها لفن البناء الذي اشاعه الرومان في سورية وهو بناء قد يدعى بالطرز السوري لا اثر فيه للطرائق البنائية الرومانية والشرقية المحضة لكن له علاقة ظاهرة بالهندسة اليونانية الشائعة في انطاكية وهذه العلاقة اُبين وأظهر في اول استعمالها ثم امتزجت به على توالي الاجيال عناصر شرقية حتى نجم اخيراً عن اختلاطها طرز مركب شاع في القرون الاخيرة . واذا حولت رائد البصر الى الجنوب وامعنت النظر في ابنية حوران وجدت طرائقها البنائية مختلفة اختلافاً عظيماً عن الهندسة الشمالية نعم ان فن البناء الروماني ليس يمتثل على ابنية تلك الانحاء الا ان آثار نفوذ الفنون البنائية الشرقية اوفر واعظم وبذلك قد تألف طرز وطني سبق عهد دخول حوران في اقليم سورية مع مبانيتها للطرز اليوناني الذي ادخله السلوقيون .

* * *

عدّ ابن خرداذبة من عجائب البنيان ملعب فاميه وتدمر وبعلبك ولدت و باب جيرون قال والروم نقول : ما من بناء بالحجارة ابهى من كنيسة الرها (اورفة) ولا من بناء بالخشب ابهى من كنيسة منبج لانها بطاقات من خشب العناب ولا بناء بالرخام ابهى من قسيان انطاكية ولا بناء بطاقات الحجارة ابهى من كنيسة حمص . وببعة القسيان في انطاكية هيكل طوله مائة خطوة وعرضه ثمانون وعليه كنيسة على اساطين وكان بدور الهيكل اروقة يجلس عليها القضاة للحكومة والطلبة للدرس وعلى احد ابواب هذه الكنيسة فنجان للساعات يعمل ليلاً ونهاراً اثني عشرة ساعة وفيه

اعلاه خمس طبقات في الخامسة منها حمامات و بساتين ومناظر حسنة تحترق منها المياه وهناك كنائس كثيرة معمولة بالذهب والفضة والزجاج الملون والبلاط المجزع . وكنيسة حمص كما قال المسعودي من بناء هيلانة وهي احدى عجائب العالم . ومن العجائب آثار عسقلان واشتهرت الشام بطرايلها اي صوامعها وكانت في الشام اديار كثيرة ذكر بعضها ياقوت منها دير باعنتل من جوسية على مرحلة من حمص وفيه عجائب منها أزج - بيت بني طولاً - فيه صور الانبياء محفورة منقوشة فيها وهيكل مفروش بالمرمر وصورة مريم في حائط منتصبه كما ملت الى ناحية كانت يمينها اليك . وبظاهر انطاكية دير سمعان وهو مثل نصف دار الخلافة يبعد عن كان له من الارتفاع في كل سنة عدة قناطير من الذهب والفضة . وكان دير مران المطل على دمشق من جهة حدائق الصبار مبنياً بالجص واكثر فرشته بالبلاط الملون وهو دير كبير في هيكله صورة عجيبة دقيقة المعاني وفي الجبل المشرف على كفرطاب قرب معرة النعمان دير آخر اسمه دير مران وبقرى المعرة دير النقيرة . ودير مار مارون شرقي حماة وشيزر كان ذا بنيات عظيم حوله اكثر من ثلاثمائة صومعة كان فيه من آلات الذهب والفضة والجواهر شيء عظيم .

قال ابن بطريق : ان كنائس الغوطة ودير مران كان المسلمون ينزلونها ويسكنون فيها . وفي الشام اديار وبيع كثيرة لم يحدث التاريخ عنها الا اجمالاً . ومن اهم الكنائس كنيسة القيامة بالقدس وكنيسة بيت لحم ومنها كنائس الناصرة وفي لبنان اديار كثيرة قديمة واقدمها على الغالب لا يرتقي الى اكثر من مائتي سنة تراها كما قال لامنس اشبه ببيوت القرى لا تختلف عنها الا بسعيتها وليس لها طرز هندسي وكان للبنان في القديم طريقة هندسية لبناء كنائسه الا انها دثرت والنقوش والتصاوير فيها كلها من الشكل البيزنطي . وقال ابن الهندسة والتصوير والنقش وفنون الزينة اخذت تسير في طرق مستقلة عن النماذج اليونانية والرومانية التي كانت منذ عهد السلوقيين مؤثرة في جميع الصنائع النفيسة وانشأ المهندس السوري يرفض استعمال الملاط بين الاحجار ويكتفي بحسن وضعها على صورة متوازنة تقوى بها بدون لجة بين اجزائها واستعاض عن الآجر المألوف على عهد الرومان واليونان

بالحجر النخيت وبني الكنائس ذات قباب فكثرت في البلاد البيع البديعة التي يحجب
بجرائبها العظيمة اليوم الاثريون وعنها اخذ بناء الكنائس الرومانية .
ومن الكنائس المهمة كنيسة مريم في دمشق كانت ذات شأن قال ابن جبير
في القرن السادس ان لها عند الروم في دمشق شأنًا عظيمًا وليس بعد بيت المقدس
عندهم افضل منها وهي حفيلة البناء لتضمن من التصاوير امرًا عجيبًا تُميت الافكار
وتستوقف الابصار ومراها عجيب . وليس في دمشق الآن كنيسة اقدم من ستين
سنة لانها حُرقت كلها في حادثة سنة ١٨٦٠ م وكذلك لا ترى في حلب كنيسة
يرد عهد بنائها الى اكثر من خمس وسبعين وفي الشام اديار كثيرة وبيع مثل اديار
جبل الكرمل والطور واريحا وطبرية ودير الروم والروس وكنيسة الالمان في
القدس ودير صيدنايا ومعلولا في جبل قلمون وكلها حديثة الا قليلاً ليست ذات شأن
معم وكذلك الحال في اديار شمالي الشام وسواحلها .

* * *

كان العرب قبل الاسلام يختلفون الى بلاد الشام ينزلونها ويتجرون مع اهلها
ويقنون المزارع والقرى فيها بل كان النبط وهم عرب هم الذين انشأوا آبار جرش
والبتراء والغسانيون واليهيم نسب آثار كثيرة في الشام الوسطى ومنها قصر النعمان
ان المنذر في السويداء وفي حارب . وبني جنة اول ملوكها جلق والقرية وعدة
مصانع وبني ابنه عمرو دير حالي ودير ايوب ودير الدهناء وبني ثعلبة بن عمرو عقة
وصرح الغدير في اطراف حوران مما يلي البلقاء وبني جبلة بن الحارث من ملوكهم
القناطر واذرح والقسطل وبني الحارث بن جبلة وكان مسكنه البلقاء — الحفير في
البلقاء ومصنعه بين دعبان وقصر ابيرو وبني المنذر بن الحرث صربا ورزقا قربا من
الغدير وبني جبلة بن الحرث قصر حارب وكان منزله بحارب ومحاربا زمبعة وبني
اليهيم بن الحارث الادبار دير ضخم ودير النبوة وسعف وبني عمرو بن الحارث قصر
الغضا وصفاء العجلات وقصر منار وكان منزل جبلة بن النعمان بصفين وهو صاحب
عين اباغ واصلح النعمان بن الحارث صهاريج الرصافة وكان بعض ملوك ظم خريها
وكان الضجاعم قبل الغسانيين ملوك الشام وهم عرب ايضا . وحكم النوخيون شمالي

سورية قبل ان يجيشها جيوش العرب بقرون ولم نعرف للفجاعم والثنوخين آثاراً تذكر . وآثار الصفا ولغتها المأخوذة من الحميرية العربية بخط سبأ وآثار بني سميذع العرب في السويداء من جملة الشواهد على ذلك . قال البكري : ان اهل ثلاث بيوتات من العرب كانوا يتبارون في البيع وزيبها : آل المنذر بالحيرة وغسان بالشام وبنو الحارث بن كعب بنجران ويعتمدون بينائم المواضع الكثيرة الشجر والرياض والمياه وكانوا يجعلون في حيطانها وسقوفها الفسافس والذهب . وقد نسب دوسو عدة ابنية في سيف البادية الى الغسانيين . كتب ايليا بطريرك بيت المقدس الى انسطاس ملك الروم قد بعثت اليك بجماعة عبيد الله ورؤساء رهبان بريتنا وفيهم سابا الفاضل الذي قد صير بريتنا مدائن واعمرها وهو نجم فلسطين . وفي سنة احدى وعشرين من ملك يوستنيانوس الملك ثار بفلسطين اهل السامرة وهدموا الكنائس كلها واحرقوها وقتلوا النصارى وعذبوهم عذاباً شديداً فاناد يوستنيانوس الكنائس وكتب الى عامله في فلسطين ان يعفي اهلها من الخراج ويعمر بها الكنائس والديارات وبنى بيارستاناً للغرباء في القدس

قال هوار : « ان القوافل عند عودتها الى الحجاز من سورية وقد سرحت الطرف في المصانع العظيمة على العهد الامبراطوري كانت نقص احاديث عجيبة مما رأت فأثريت النفوس تلك القصص وكانت منها ان انشؤا في صحاري شمال بلاد اليمن جنات النعيم وارم ذات العماد الغربية وقد بنيت في غالب الظن على مثال دمشق وتدمر وبعليك » . على انه من الثابت انه كان لمخير سكان اليمن الخضراء هندسة معمة قبل العهد الامبراطوري فان قصر غمدان في صنعاء من اعجب القصور انشاء ازال ابن قحطان بامر اخيه يعرب عشرين طبقة بعشرين سقفاً بين كل سقف عشرين ذراعاً وجعل فيه مائة مسكن وكان اعلى غرفه ممرداً بانزجاج وقد بني على اربعة اوجه وجه احمر ووجه اصفر ووجه ابيض ووجه اخضر وقيل بني في داخله قصر على سبعة سقوف بين كل سقفين منها اربعون ذراعاً وجعل في اعلاه مجلس بالرخام الملون وجعل سقفه رخامة واحدة وصير على كل ركن من اركانها تمثال اسد من شبه كأك عظم ما يكون . فالامة التي تبني هذا كانت لها ولا جرم عناية بلغة بالبناء وبراعة في

نقديرها وهندستها وسواء اخذت العرب عن سورية الهندسة واخذ السور يون عن
عرب الحيرة واليمن فان المم ان يعرف ان العرب ليسوا كلهم بادية بل كان منهم من
يشيد المدن امثال اليابانيين والى اليوم ظاهرة آثارهم البديعة على الانحطاط الذي طرأ
على ذلك القطر العجيب بعاديته وخيراته .

جاء العرب المسلمون الى الشام ولم يكن لهم هندسة خاصة واختراروا باديء بدء
ان يسكن جيوشهم في الخيام وكان جمهور من الروم في دمشق تحلوا عن دورهم ولحقوا
بهرقل فنزلها الفاتحون ثم اخذوا في كل بلد ينزلونه يرمون ماعور من بنائه وربما بنوا بالمدر
اي باللبن والطين اولاً ولكن عادوا الى استعمال الحجر فقد روي ان عمر بن الخطاب
رضي الله عنه لما بلغه ان سعداً واصحابه بنوا بالمدر كتب : اكره لكم البنين بالمدر
فاما اذا فعلتم فعرضوا الحيطان واطيلوا السمك وقاربوا بين الخشب وقد كان لبعض
الصحابة الكرام ممن فتحوا دمشق دور وقصور منتشرة في انحاء المدينة مثل دار ابي
عبدة بن الجراح وخالد بن الوليد وفضالة بن عبيد والعباس بن مرداس وابي العزيز
الازدي ووابصة بن معبد وطلحة بن عمرو وخالد بن اسيد والنعمان بن بشير الانصاري
ووانلة بن اسفح وهبار بن الاسود وعمرو بن العاص واوس بن اوس ويزيد بن نبيشة
وعبد الله بن عامر الى امثالهم ولا نعرف الا مكاتب دار ابي عبيدة وكان في محلة
حجر الذهب اي المحلة التي نعرف اليوم بالبيمارستان وكانت اجل حي في دمشق وقد
اقام بعضهم مساجد في جوارهم . وكان معاوية يقيم احياناً في غوطة دمشق وينصب
الابنية والاروقة والفساطيط قال اليعقوبي كان معاوية اول من بنى وشيد البناء وسخر
الناس في بنائه ولم يسخر احد قبله . ولما بنى معاوية داره بدمشق المعروفة بالخضراء لقبة
خضراء بناها عليها عرفت الدار بها وذلك قبلي الجامع الاموي دخلها وفد الروم فقالوا :
ما احسن ما بناها للعصافير وفي رواية اما اعلاه فلاعصافير واما اسفله فللنار فهدمها
وبناها بالحجر . والغالب انها ظلت عامرة الى القرن الثالث بدليل ما قاله ابن واضح من
ان في دمشق خضراء معاوية وهي دار الامارة . ولما استخلف عبد الملك بن مروان طلب
من خالد بن يزيد بن معاوية شراء الخضراء وهي دار الامارة بدمشق فاشتراها باربعمين
الف دينار واشترى منه اربع ضياع باربعة اجناد الشام اختار من فاختر من فلسطين

عمواس ومن الاردن قصر خالد ومن دمشق الاندر ومن حمص دير ركا .
وقد بنى الامويون بعده بيوتاً لهم كانت بجوار الجامع ومنهادار عمر بن عبدالعزيز
مكان المدرسة السيمساطية الآن ودار هشام مكان تربة نور الدين وقصر سليمان بن
عبد الملك مكان سقاية جيرون ودار مسلمة بن هشام بباب البريد قال الذهبي بنى سليمان
ابن عبد الملك دار السلطنة وعمل بها قبة صغرى عالية بدمشق بدرب محرز وكان
لعاتكة ابنة يزيد بن معاوية قصر خارج باب الجابية بدمشق وقال ابن عساكر
كانت دار هند بنت معاوية في درب القبلي . وقصر حجاج منسوب الى الحجاج بن
عبد الملك بن مروان وقد بنى الامويون قصوراً لهم في الغوطة لانهم كانوا يملكون
جانباً عظيماً منها ولكن لم يظهر لها اثر ولا خبر .

وفي ايام الوليد بن عبد الملك كانت الناس تشكّم في البناءات والعمائر لزيادة
رغبته في البناء فبنت الناس المجالس الحسان وذلك لان الخليفة كان يرغب في
البناءات وانتاق المصانع وفي عهده دخلت دمشق في طور العواصم والناس على
دين ملوكهم .

قال احد المؤرخين وكان الوليد عند اهل الشام محبوباً لانه صاحب عمارة وبناء
عمر الضياع ووضع النار في الطرقات واعطى الجزّين وافردهم وقال لا تسألوا واخدم
كل مقعد خادماً واعطى كل ضرير قائداً وكتب الى جميع البلاد بهدم المساجد
والزيادة فيها وتسهيل الطرق وحفر الانهار وان تعمل البيمارستانات التي تعالج فيها
المرضى وهو اول من فعل ذلك وهو اول من اجرى على القراء وقوام المساجد الارزاق .
كان الامويون اذا ارادوا اقامة بناء عظيم تقدم مملكة بيزنطية الصنائع والرسوم
التي يراد النقل عنها . ذكروا ان الوليد لما اراد في القرن الاول ان يعمّر جامعي بيت
المقدس ودمشق استقدم روماً من القسطنطينية للقيام بهذا الغرض فبدأت الهندسة
العربية بالانتباس عن الامم الاخرى فلم تأت بابداع جوهرى في مبادئ البناء
وقد استخدم العرب باديء بدء من المهندسين وارباب الصنائع من وجدوهم في البلاد
التي افنتحوها فكانت أسلوب البناء الاسلامي في اول الامر سورياً في الشام
وقبطياً في مصر .

قال سنيوبوس لم يكن للعرب كما للرومان صناعات وطنية خاصة بهم فكانوا اذا احتاجوا الى قصور او جوامع يعمرونها اولاً على الطرز الفارسي او البيزنطي مثل جامع دمشق ولكن ما لبثت الصناعات الفارسية والبيزنطية ان اختلطت ونشأ منها صناعة جديدة هي الصناعة العربية واجمل هذه الصناعات الجوامع والقصور . وقال احد علماء الافرنج ان التقليد في الحضارة الاسلامية محسوس بيد انه تقليد غير اعمى لان تأثيرات الاساندة الاقدمين لا تمنع من البحث العلمي والاختراع الحديث كما ان مشهد البندائع القديمة ودرسها لا يحولان دون التفنن ولطافة الابداع والاختراع . وفي الشرق نشأت هذه المدينة وكانت دمشق احدى مراكزها ومنبعث انوارها ولم يخلف العرب في النقش ولا الرسم آثاراً خارقة للعادة وما بقي مع هذا من آثارهم وعادياتهم الحجرية وانواطهم المنقوشة وعاجهم ومجوهراتهم يشهد باستعدادهم الفني اهـ . وقال هوار : كان بذخ ملوك المسلمين من الدواعي للصناع ان يرقوا الاساليب التي كانوا يأخذونها تقليداً عن اجدادهم شفاهاً فجددوها وثفننوا فيها فارثقت مع عدة اشكال قديمة بعضها من اصل بيزنطي وهي وارثة اليونان ورومية والآخر ساساني من احلاف الدولة الاخمانية او اشوري او بابلي فارثقت عدة فروع من الصنائع الاسلامية وهي ليست من اصل بيزنطي ولا فارسي . ولقد تفنن العرب في التزيين الجميل في كل اجزاء البناء . وحسن الصناعة عند العرب يبدو في جوامعهم . فان ما يتجلى على الجدران والسقوف من ضروب الزخرف والخطوط المتلوية قد دعا الافرنج الى تسميته باسم ارابسك اي النقوش التي تمثل النباتات والاشجار ونسبوا للعرب حتى ان حروف الكتابات التي زبرت على الاجمار والعاديات تشبه صورة من صور الزينة اكثر مما تدل على اصل من اصول الخط . ولم يكتفوا بتصوير الاشجار الحسنة المثمرة والمزهرة وغير ذلك في الجامع الاموي بل صوروا البلدان والاقاليم .

* * *

ومن اهم الآثار التي نتم عن ذوق عربي في هذه الديار المسجد الاقصي وقد جرى ترميمه في اوقات مختلفة والقليل الذي بقي من آثار نقش العرب وتصويرهم

يبدل على ما كان هناك من فكرة وقادة ويد صناع . وقد غشَّى الوليد قبة الاقصى بالنحاس اخذه من كنيسة في بعلبك وكذلك فعل مروان في قبة الصخرة مدة ولايته وكان صناع هذه القبة من الروم . فهندسة الجامع الاموي والمسجد الاقصى مقتبسة اذاً من الهندسة اليونانية وممزوجة بأشياء اسلامية .

بعث ملك الروم الى الوليد كثيراً من البنائين والمقدرين اي المهندسين مع ما بعث اليه من المقصص اي الفسيفساء والذهب نال المقدسي : ان الوليد جمع لبنائه حذاق فارس والهند والمغرب والروم . وروى ابن شداد : ان الوليد اقتلع من كنيسة انطاكية عمداً عجيبة من المرمر والرخام لمسجد دمشق حملت في البحر الى ساحلها . ولما كان البناء من صنع بنائين مختلفين ساغ ان تقول انه جمع اجمل ما في الهند وفارس وآثينة ورومية . اما طرز البناء فالغالب ان بعض الجدر بقيت بحالها كما كانت يوم كونها بيعةً او معبداً للصابئة . ومساجد الشام ومصر مبنية على شكل الكنائس التي قال المؤرخ ارسابيوس انها ذات افنية واراوين وفساقي ومساكن للقسس .

ولقد بلغ من ثفنن الوليد بزخرفة الجامع الاموي ونقشه وتصويره ما يعجب منه ولا يكاد يكون له نظير في هذه الديار فقد قال ابن كثير : ان ارض الجامع الاموي كانت مفضة كلها وان الرخام كان في جدرانها الى قامات وفوق ذلك كرمة عظيمة من ذهب وفوقها الفصوص المذهبة والخضر والحجر والزرق والبيض وسقته مقرنص بالذهب والسلاسل المعقدة فيه من ذهب وفضة . وقد أنق في خراج الشام سنين وفي رواية اربعمائة صندوق كل صندوق ثمانية وعشرون الف دينار وكان خراج الشام على عهد بني أمية الف الف دينار ومائتي الف دينار . وذكر بعضهم ان الوليد اخذ ربع أعطيات اهل دمشق تسع سنين وكانوا خمسة واربعين الفا يستعين بها على عمارة جامع دمشق . قال المقدسي والجامع جامع دمشق احسن شيء للمسلمين اليوم ولا يعلم لهم مال مجتمع اكثر منه ومن اعجب شيء فيه تأليف الرخام المجزع كل شامة الى اختها ولو ان رجلاً من اهل الحكمة اختلف اليه سنة لافاد كل يوم صنعة . وقال المقدسي : رأى الوليد الشام بلد النصارى ورأى لهم فيها بيعة حسنة قد

أفن زخارفها وانتشر ذكرها كالقمامة وببسة لد والرُّها فاتخذ للمسلمين مسجداً في دمشق شغلهم به عنهن وجعله احدى عجائب الدنيا .

ومما رواه صاحب مطالع البدور ان اليونان لم يزالوا يعمرون دمشق و بينون فيها وفي معالماتها من حوران وغيرها البنايات الغربية العجيبة حتى كان بعد المسيح عليه السلام بمدة نحو من ثلثمائة سنة فتنصرت اهل الشام على يد قسطنطين بن قسطنطين الذي بنى المدينة المشهورة في بلاد الروم وبنى لهم هذا الملك التي نسب اليه الطائفة الملكية منهم كنائس كثيرة بدمشق وغيرها حتى يقال انه بنى في زمانه اثني عشرة الف كنيسة . وقد غلب حب البناء على بني امية فكان منزل سليمان بن عبد الملك قبل الخلافة الرملة وهو انشأ مسجد جامعها ونقل الناس اليها من لدّ وكانت المدينة التي ينزلها الناس فاخذ بهدم منازلهم بلدّ والبنيان بالرملة وعاقب من امتنع من ذلك وهدم منازلهم وقطع الميرة عنهم حتى انثقلوا وخرب لدّ .

دخل المؤمن مرة جامع دمشق ومعه اخوه المعتصم ويحيى بن اكرم فازدادوا عجباً فقال المؤمن لها : اي شيء يعجبكما من هذا المسجد فقال المعتصم : ذهبه فاننا نضعه في قصورنا فلا تمضي عليه عشرون سنة حتى يحول وهذا بحاله مع طول الزمن كأن الصانع فرغ منه الآن . فقال المؤمن : ما أعجبنى هذا . فقال يحيى بن اكرم الذي اعجب امير المؤمنين تأليف زخارفه فان فيه عقوداً ما يرى مثلاً . فقال المؤمن : كلا بل اعجبنى انه بنى على غير مثال شوهده .

ومع ان تلك الآثار الجميلة في الجامع ذهبت في الحريق الاول سنة ٤٦١ هـ ثم الحرائق الخمس التي حدثت في اوقات مختلفة وآخرها سنة ١٣١٠ هـ فقد بقي في الغالب سوره الاول . وصف ان جبير قبة الرصاص في الجامع الاموي فقال انها من اعظم ما شاهده من مناظر الدنيا الغربية وهياكلها الهائلة البنيان وقال انها مستديرة كالكرة وظهرها من خشب قد شد باضلاع من الخشب الضخام مؤلفة بنطق من الحديد ينعطف كل ضلع عليها كالدائرة وتجتمع الاضلاع كلها في مركز دائرة من الخشب اعلاها وداخل هذه القبة وهو مما يلي الجامع المكرم خواتيم من الخشب منظم بعضها ببعض قد اتصل اتصالاً عجيباً وهي كلها مذهبة بابدع صنعة من التذهيب مزخرفة التلوين

بديعة القرنصة وفي الجدار حجارة يزن كل واحد منها قناطير . مقنطرة لا تنقلها الفيلة فضلاً عن غيرها فالعجب كل العجب من تطليعها الى ذلك الموضع المفروط السمو وكيف تمكنت القدرة البشرية لذلك فسجانات من ألهم عباده الى هذه الصنائع العجيبة اه .

اما المسجد الاقصى في القدس فقد كاد المؤرخون والجغرافيون من العرب يجمعون على انه احسن من جامع دمشق عثر عبد الملك بن مروان سنة ٦٥ الحرم والقبة الكبرى التي فوق الصخرة على اسلوب جميل لم يسبق اليه . قال بعضهم ان شكل قبة الصخرة مستعار من الهندسة البيزنطية ثم هدم الكنيسة التي كان شيدها يستنياس وبنى موضعها المسجد الاقصى ولذوق في تنقيقه واكمل البناء سنة ٧٢ وقللوا ان اساس المسجد الاقصى من عمل داود وهو على غاية الحسن والايحكام كما قال ياقوت مبني على الاعمدة الرخام الملونة والفسيفساء التي ليس في الدنيا احسن منه لا جامع دمشق ولا غيره . وروي ابن العديم ان جامع حلب كان يضاهي جامع دمشق في الزخرفة والرخام والفسيفساء وان سليمان بن عبد الملك هو الذي بناه وتأنيق في بنائه ليضاهي به ما عمله اخوه الوليد في جامع دمشق .

وصف يزيد بن المهلب دار ولي عهد سليمان بن عبد الملك بدمشق فقال : دخلتها فاذا هي دار محصنة حيطانها وسقوفها وفيها ووصائف عليهم ثياب صفر وحلي الذهب ثم ادخلت داراً أخرى فاذا حيطانها وسقوفها خضر واذا ووصائفها ووصيفاتها عليهم ثياب خضر وحلي الزمرد وان ولي العهد قاعد على سرير معه امرأته . ووصف حماد الراوية دار هشام بن عبد الملك في دمشق فقال انها دار قوراء مفروشة بالرخام وهو في مجلس مفروش بالرخام وبين كل رخامتين قضيب من ذهب وحيطانه كذلك وهشام جالس على طنفسة حمراء وعليه ثياب حمراء من الخبز وقد تضخخ بالمسك والعنبر وبين يديه مسك مفتوت في اواني ذهب يقلبه بين يديه فتفوح رائحته وفي المجلس جاريان لم ير مثلهما قط . والله اعلم اكان ذلك حقيقة ام خيالاً .

وقد ادعت ميس بل انه لولا حوادث القرن السابع اي لولا دخول العرب

الفاحين لبلغ السور يون طريقة في هندسة الابنية خاصة بهم مستقلة عن غيرهم وان امتزج بها شيء من هندسة الام الاخرى فرداً عليها لامنس بان هذه المدينة مدينة دمشق لم تسم عاصمة كبرى الا في عهد بني أمية وبهمتهم . قلنا ولو لم يُحَفَّر بنو العباس آثار بني أمية في الشام لرأينا فيه احسن صورة تامة من صور بنائهم . وكان منه ما هو في المدن ومنه ما هو في البادية او ما يقرب منها لان الامو بين كانوا على الاغلب يتحامون نزول دمشق لطوبتها وحمياتها فمنهم من نزل قصر الموقر او المقور وقصر المشتى والزيزاء والفدين والازرق والاغدف والبخراء والابيض والقسطل والرصافة وازيتونة والجابية وحوَّارين والصبرة ودابق وبطنان حبيب وأباير سيفي البلقاء وشمالى سورية وشرقها وبني هشام حصن المثقب على يد حسان بن ماهون الانطاكي وحوله خندقاً وحصن بوقا من اعمال انطاكية وبعض هذه القصور لاتزال أسسه ماثلة للعيان مثل قصر الموقر والمشتى لم ينسفها العباسيون كما نسفوا آثار المدن ونقضوا مثلاً سور دمشق يوم فتحوها حجراً حجراً واخربوا ايضاً قصور الامو بين في حلب مثل قصر سليمان بن عبد الملك بالحاضر وقصر مسلمة بن عبد الملك بالناعورة بحلب ومنازل هشام بن عبد الملك في القطيفة من جبل سنير وقصري هشام في الرصافة وابقوا في الغالب على قصر خناصر من ارض الاحص لعمرو بن عبد العزيز لانهم احتراموه ولم يبقوا على غير قبره من قبور بني أمية . والظاهر من كلام المقدسي المعروف بالبناء الذي ولد سنة ٣٣٦ ان آثار بني أمية كانت موجودة في عهده خلافاً لما هو المعروف من ان العباسيين اتوا عليها كلها والغالب ان بعض الابنية لم تعور كثيراً ورمّت فاطلق عليها اسمها الاصلي ونسبت الى بانيتها الاول .

قال الجاحظ : من شأن الملوك ان يطمسوا على آثار من قبلهم وان يميمتوا ذكر اعدائهم فقد هدموا بذلك السبب المدن واكثر الحصون كذلك كانوا ايام العجم وايام الجاهلية وعلى ذلك هم في الاسلام كما هدم عثمان صومعة غمدان وكما هدم الآطام (الحصون) التي كانت بالمدينة وكما هدم زياد كل قصر ومصنع كان لابن عامر وكما هدم اصحابنا (يعني العباسيين) بناء مدن الشامات (قد تسمى الشام بالشامات) اما بنو العباس فلم تبق الايام من آثارهم مصنعا يعتد به في الشام لتحكم على عظمتهم

وكان من أهمها قناة قرية منين التي جرها المأمون الى معسكره بدير مران في جبل قاسيون . وهذا عمل مهم مما بلغنا خبره لان الطريق من مدين الى قاسيون يحتوي على اودية وشعاب ونجاد كثيرة ذكر ذلك ابن عساكر . وقد بني للتوكل العباسي قصر بين داريا ودمشق فلم يعثر له على اثر وفي سنة ٢٦٢ هـ بنى الامير النعمان داراً عظيمة في بيروت وحصن سور المدينة وقلعتها اما المنغلبة على الملك في زمن العباسيين مثل الفاطميين والطولونيين والحمدانيين والسلجوقيين فاننا لانعرف عن آثارهم كبير امرايضا ولا سيما بنو طولون وبنو عبيد فانهم آثروا ان يجعلوا مصانعهم في معمر مقرر ملكهم كما آثر العباسيون ان يجعلوها في العراق وخراسان ومما بناء ختكين والي دمشق للحاكم بامر الله جسر الحديد تحت القلعة قلعة دمشق على نهر بردى وسخر الناس لاجل عمله واخذ اموالهم .

ومن اجمل ابنية دمشق دير مران كان عامراً الى القرن الثالث وكان فيه قصر خمارويه وفيه قتل وللشعراء فيه قصائد جميلة . ذكر ابن عساكر ان حمزة بن الحسن المعروف بفخر الدولة قاضي دمشق من قبل الفاطميين جدد في دمشق مساجد ومنابر وقنوات واجرى القوارة التي في جيرون . وذكر انه وجد في تذكرته سبعة آلاف دينار صدقة في كل سنة وهو الذي انشأ القيسارية المعروفة بالفخرية توفي سنة ٤٣٤ وكان شمس الدين بن المقدم من كبار امراء الدولتين النورية والصلاحية (٥٨٤) دار كبيرة بدمشق الى جانب المدرسة المقدمة ثم صارت لصاحب حماة ثم صارت لقراسنقر المنصوري ثم للسلطان الملك الناصر وله تربة ومسجد وخان وكان الملك الامجد صاحب بعلبك يقيم بداره التي داخل باب النصر بدمشق المعروفة بدار السعادة وهي التي ينزلها النواب ولعلها دار المشيرية اليوم .

وقد نشأت في القرن الرابع وما بعده في سورية حركة مباركة في العمران قام بها مهندسون من العرب انتهت اليها تراجم بعضهم وقليل من اعمالهم مثل ابي بكر البناء المهندس الذي ابنتى ميناء عكا لابن طولون . قال المقدسي ولم تكن عكا على هذه الحصانة حتى زارها ابن طولون وقد كانت رأى صور ومنعتها واستدارة الحائط على مينائها فاحب ان يتخذ لعكا مثل ذلك الميناء فجمع صناع الكورة وعرض عليهم

ذلك فقيل لا يهتدي احد الى البناء في الماء في هذا الزمان ثم ذكر له جدهنا ابو بكر البناء وقيل ان كان عنده احد علم هذا فعنده فكتب الى صاحبه على بيت المقدس حتى انهضه اليه فلما صر اليه وذكر له ذلك قال هذا امر هين عليّ بفلق الجميز الغليظة فصفا على وجه الماء بقدر الحصن البري وخيط بعضها ببعض وجعل لها باباً من الغرب عظيماً ثم بنى عليها بالحجارة والشيد وجعل كما بنى خمس دوامس ربطها باعمدة غلاظ ليستند البناء وجعلت الفلق كما ثقت نزلت حتى اذا علم انها قد جلست على الرمل تركها حولاً كاملاً حتى اخذت قرارها ثم عاد فبنى من حيث ترك وكما بلغ البناء الى الحائط القديم داخله فيه وخيطه به ثم جعل على الباب قنطرة فالمرآكب في كل ليلة تدخل المينا وتجر السلسلة مثل صوراه . قلنا وبني احمد بن طولون قلعة يافا ولم يكن لها قلعة من قبل .

ومن المهندسين الذين رأينا اسماءهم مكتوبة على المصانع التي عمروها ابراهيم ابن غنائم المهندس الذي بني القصر الابلق في الميدان القبلي بدمشق وهو قصر عظيم مبني من اسفله الى اعلاه بالحجر الاسود والاصفر بتأليف غريب وإحكام عجيب بناء الظاهر بپيرس البندقداري وعلى مثاله بني الناصر محمد بن قلاوون القصر الابلق بقلعة الجبل بمصر . قال ابن فضل الله : وامام هذا القصر اي ابلق دمشق دركاه^(١) يدخل منها الى دهليز القصر وهو دهليز فسيح يشتمل على قاعات ملوكية مفروشة بالرخام الملون البديع الحسن المؤزر بالرخام المفصل بالصدف والقص المذهب الى سقف السقف وبالدار الكبرى به ايوانان متقابلان تطل شبابيك شرقيهما على الميدان الاخضر وغربيهما على شاطئ واد اخضر يجري فيه نهر وله رفارف عالية بناغي السحب تشرف من جهاتها الاربع على جميع المدينة والغوطة . قال شيخ الربوة

(١) الدرگاه البيت المستطيل امام الدار يرتفق به وهو فارسي اخذه العرب من الفرس كما اخذوا لفظ الهنداز بمعنى الحد عن اندازه ومنه المهندس المقدر مجاري القني والابنية واخذوا البركار ايضاً وكما اخذوا الشاذروان للفؤارة تشتق منها فوارات كثيرة والايوان والدهليز والبازار والحركاه والبيمارستان والخانقاه وكثيراً غيرها ومن ذلك يستدل على كثرة تأثير الاوضاع والهندسة الفارسية في الاوضاع والهندسة العربية .

سمي بالقصر الابلق لكونه مبنياً بالحجارة البيض والحجارة السود . وقد بقي هذا القصر عامراً الى عهد العثمانيين رآه ابن طولون المتوفى سنة ٩٥٣ وقرأ تاريخه ٦٦٨ وقال ان على أسكفته ضرباً من رخام ابيض وسطه مكتوب عمل ابراهيم بن غنائم المهندس . وقد قال العارفون ان التكية السلجمانية قامت على انقاض ذاك القصر . و ابراهيم بن غنائم هذا هو الذي هندس ايضاً المدرسة الظاهرية بدمشق ونقش اسمه على يسار الداخل من الباب في الزاوية الشمالية هكذا « عمل ابراهيم بن غنائم المهندس » . ولا تزال اسماء بعض المهندسين ظاهرة في بعض آثار طرابلس على عهد المالك منهم المعلم محمد بن ابراهيم المهندس والمعلم عمر بن نجيم والمعلم محمد الصفدي . ومن بلغنا خبره علم الدين قيطر المعروف بتعاسيف المهندس بنى للملك المظفر في حماة ابراجاً وضاحوتاً على العاصي وعمل له كرة من الخشب مدهونة رسم فيها جميع الكواكب المرصودة وعاونه في عملها المهندس القاضي جمال الدين بن واصل .

وصف بهاء الدين الموصللي قصر الابلق بدمشق فقال : وقصرها الابلق ليس بالعقوق من شاهد بديع معانيه سها عن العاشق والمعشوق قد شام في غمده مشهور غمدان، واسبل على ايوان كسرى ستر النسيان، يبهو الناظر حسن معناه، ولا يقدر على وصف محاسنه من يراه ، الماء مرفوع في اقطاره ونواحيه ، فتصب في فوار بركة لتميز ناظريه ، يتكسر جمعه على شاذرواناته مجروراً باضافته الى مجاريه ، فقد اجتمع لقاطنه اضافة المعنى والحسن الباهر ، ولم يكمل ذلك البهاء الا بكمال جمال الظاهر ، اعين شبابيكه الى ميدانه الاخضر ناظرة ، قد جمع الصادح والباغم واللافظ والطاعم به الطباء الاوانس ، والمها الكوانس ، اقطاره عريضة طويلة لا ترجع الابصار من السفر في دمنه الا كليله ، اخجلت خمائله الايك والغصون ، ولاذ القائف بالسوان عن اقتفاء اثر السلوك في معانيه التي كلها عيون ، وقف الابلق حين جرى الى منتهاه ، وادر كذا الاعياء فسكن باقصاه ، وشاهد الشقراء ترح في ميدان واديتها فاراد الوصول اليه فعاوده الاضطراب ، فقطعت عليه الانهار الطريق وضرب بينهما بسور له باب .

ولما قويت حركة العمران في عهد الدولتين النورية والصلاحية بدمشق وحلب والقدس وحماة وطرابلس والمرة وبلبك وغيرها واخذوا ينشئون فيها المدارس

والجوامع والرُّبُط والمستشفيات والقلاع والجسور كانت منها ما هو مثال الهندسة العربية مثل واجهة بناء هذه المدرسة العادلية التي شرع ببنائها نور الدين ولم يتمها ولما ولي العادل ازال ما بناه نور الدين وبنائها كما قال صاحب الروضتين هذا البناء المحكم الذي لا نظير له في بنيات المدارس . ومن البدائع واجهة مدخل المستشفى القميري في صالحة دمشق وهندسة مدرسة الصهبية في حلب وكذلك المدرسة التي كانت بجوار الشهباء وصفها ابن جبير قال ومن اظرف ما يلحظ فيها ان جدارها القبلي مفتوح كله بيوتاً وغرفاً وله طيقان يتصل بعضها ببعض وقد امتد بطول الجدار عريش كرم شمرعنباً فحصل لكل طاق . من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متديلاً امامها فيمد الساكُن فيها يده ويحنيته متكئاً دون كلفة ولا مشقة . وقد قيل ان منارة جامع حلب المثال الوحيد من الهندسة الاسلامية .

ولقد بنى الملك الاشرف بن الملك العادل بدمشق قصوراً ومباني فخمة وكانت عمارة اللاذقية في الحروب الصليبية من احسن الابنية واكثرها زخرفة مملوءة بالرخام على اختلاف انواعه كما قال ابن الاثير فخرت المسلمون كثيراً منها ونقلوا رخامها الى دمشق وغيرها وخرّبوا البيع التي قد غرم على كل واحدة منها الاموال الجليلة المقدار ولما تسلمها نقي الدين عمر حصن قاعتها وكان عظيم الهمة في تحصين القلاع والفرامة الوافرة عليها كما فعل بقلعة حماة .

وبعد ان كانت دمشق في القرن السادس اكثر مدن الارض سكاناً كما قال ابن جبير وكانت في القرن الثامن كما قال ابن تغري بردي اجمل مدينة في العالم بل اغنى مدينة احرق تيمورلنك بعض احيائها ومدارسها وغرّمها ملايين من الدنانير وحمل معه المهندسين والبنائين والنقاشين في جملة من حمل من ارباب الصنائع الى سمرقند كما فعل السلطان سليم العثماني في مصر لما فتحها في الربع الاول من القرن العاشر فحمل الى القسطنطينية كل صاحب صنعة وعمل نافع وجردها من بدائعها وصناعاتها النفيسة .

وكان في دمشق في القرن التاسع مائة حمام افردها ابن عبد الهادي في رسالة

كما كان في عصره الف جامع ومسجد في دمشق وضاحتها وناهيك ببلدة فيها هذا
القدر من آثار العمران ولا غرو بعد هذا ان قال فينا ابو الفضل بن منقذ الكناني
يوم كان لنا القدح المعلى في العائر :

واذا مررت على المنازل معرضاً عنها قضى لك حسنها ان تقبلا
ان كنت لا تسطيع ان تُمثل القر - دوس فانظرها تكن متمثلا
واذا عنان الالحظ اطلقه الفتى لم يلق الا جنة او جدولا
او روضة او غيضة او قبة او بركة او ربوة او هيكل
او وادياً او نادياً او ملعباً او مذبذباً او مجذلاً او موثلاً
او شارعاً يزهو بربع قد غدا فيه الرخام مجزئاً ومنفصلاً

ومن قصور حلب في القرن الثالث دار واليها زكا الاعور ودار حاجبه فيروز
ودار سيما الطويل ودار كورة الخراساني ومنها قصر السلطنة بدمشق . قال ابن الجوزي :
هدم اهل دمشق قصر السلطنة في القرن الخامس ودرسوه وكان عظيمًا يسع الوقا
من الناس . وقصر بطناس في حلب كان عامراً الى عهد ابن العديم في القرن
السادس . وقد خربت محلة الفراديس المعروفة اليوم بمحلة العمارة في فتنه القرامطة
سنة ٣٦٣ وكن فيها على رواية ابن القلانسي من البنيان الرفيع في الحسن والبهاء
ما لم ير مثله وهو احسن مكان كان بظاهر دمشق . وقال ابن شاكر : ان اللؤلؤتين
كانتا منظرتين ظاهر دمشق مما يلي باب الحديد غرباً وكانتا من أعجب البناء .
احرقها المصريون لما حاصروا دمشق . وقنطرة سنجة التي قال فيها ابن حوقل ليس
في الاسلام قنطرة احسن منها ويقال انها من العجائب وسنجة بالقرب من منبج . وقال
ابن القلانسي من اقتراحات شمس الملوك صاحب دمشق الدالة على قوة عزيمته ومضاء
همته ومستحسن ابتدائه ما احدثه من البابين المستجدين خارج باب الحديد من القلعة
بدمشق الاوسط منها وباب جسر الخندق الشرقي منها وهو الثالث لها الشيء ذلك
في سنة ٥٢٧ مع دار المسرة بالقلعة والحمام المحدث على قضية اخترعها وبنيه اقترحها
وصفة آثرها فجاءت في نهاية الحسن والطيبة والتقويم والاعتدال .
من المدن ما نبه ذكره بعد خموله في عهد الدولة الاتابكية والابوبية مثل حماة

فلم يكن لها في القديم نباهة ذكر وكان الصبت لمحص دونها فلما آلت الى ملك بني ايوب مصروها بالابنية العظيمة والقصور الفسائقة والمساكن الفاخرة وفي جوامعها اثر من آثار الصنائع في القرون الوسطى وما قبلها . ومنها ما قام على انقاض الكاتدرائية القديمة ومنها ما حرق وخرب واستعيب عنه مكاناً آخر مثل طرابلس في سنة ٦٨٨ فتحت طرابلس واخرب سورها وكان من الاسوار العظيمة وامر السلطان بتجديد مدينة على مثل طرابلس فبنيت ثم سكنها الناس وكانت في يد الفرنج من سنة ٥٠٣ ومثل ذلك يقال في غزة فقد قال الظاهري في القرن التاسع للهجرة : ان فيها من الجوامع والمدارس والعمارات الحسنة مايورث العجب وتسمى دهليز الملك . وكان سور عسقلان عظيم البناء بحيث كان عرضه في مواضع تسم اذرع وفي مواضع عتس اذرع . وقال ابن فضل الله في بعلبك : انها مختصرة من دمشق في كمل محاسنها وحسن بنائها وترتيبها بها المساجد والمدارس والربط والخوانق والزوايا والبيمارستان والاسواق الحسنة . وقال آخر وبقلعة بعلبك من عمارة من نزل بها من الملوك الايوبية آثار ملوكية جليلة . وكانت منبج ذات مدارس وربط عليها سور بالحجارة المهندسة حصينة جداً . ومن هذه المدن ما اصبح الآن كآقري مثل قيسارية التي قال فيها المقدسي ليس على بحر الروم بلد اجل ولا اكثر خيرات منها ومثل المعرة معرة النعمان التي ترى الى اليوم مسافة ما بين ابوابها ساعة على السائر .

وقد انشأ جامع طرابلس الاشرف خليل ٦٨٩ - ٦٩٣ على عهد حكومة عز الدين ايبك الخزنه دار وازهرت طرابلس على عهد سيف الدين اسنمدر الذي بنى القلعة وحماماً وسوقاً وانشأ فيها مجاري المياه الغربية في تقسيمها الى جميع طبقات الدور ليأمن ساكنوها من الحى في الطبقات الارضية وقد عمر فيها هذا الملك سنة ٧٠٩ حماماً عظيماً اجمع من رأوه انه ما عمر مثله في البلدان وعمر قيسارية وطاحوناً وانشأ للماليكه بها مساكن حسنة البناء تجري المياه اليها بالقنوات ومنها ما يطلع الى اعلاها وتجري في طباقها وعمر ايضاً بعض القلعة وأقام ابراجاً وهذه القلعة مجاورة لدار السلطنة بطرابلس - قاله النويري .

في بر الشام، كثير من القلاع من بناء القرن الخامس والسادس والذي بعده مثل قلعة صرخد . قال ابن تغري بردي : في حوادث سنة ٤٦٦ وفيها بني حسان ابن مسمار الكاكي قلعة صرخد وكتب على بابها أمر بعمارة هذا الحصن المبارك الأمير الأجل مقدم العرب عز الدين نغر الدولة عدة أمير المؤمنين يعني المستنصر صاحب مصر وذكر عليها اسمه ونسبه ومثل قلعة حلب وإن كان تاريخها يرد إلى أبعد من هذا القرن والمعم من إبنيتها بدأ في عهد الاسلام .

وكذلك قلعة دمشق التي سميت « الاسد الرابض » وهي من بناء تاج الدولة نتش سنة ٤٧١ هـ جعل بها دار امارة وسكنها ثم زاد الملوك بعده فيها وسكنها كثير منهم . وكانت دار الامارة قبله تسمى « القصر » بناها العباسيون بعد ان دكوا الخضراء وقصور الأ . وبين نغرب القصر في بعض قنن الفاطميين .

وفي سنة ٦٩١ كمل بناء الطارمة وما عندها من الدور والقبعة الزرقاء في قلعة دمشق فجاءت في غاية الحسن والكمال والارتفاع وانشي فيها قاعة اسمها قاعة الذهب وفرغ من جميع ذلك في سبعة اشهر وجاء في غاية الحسن . وصف ابن حجة الحموي قلعة دمشق عندما حوصرت في الوقعة المشهورة : ونظرت بعد ذلك الى القلعة المحروسة وقد تامت قيامة حربيها حتى قلنا أزفت الآزفة وقد ستروا بروجها من الطارق وهم يتلون : (ليس لها من دون الله كاشفة) واستجليت عروس الطارمة عند زفتها وقد تجهزت للحرب ولم ترض بغير الارواح مهراً وقد عقدت على رأسها تلك العصائب وقد توثعت بتلك الطوارق وادارت على معصمها الابيض سوار الذر وغازات بحواجب قسيها ورمت القلوب من عيون مراميها بالنبال واهدت الى العيون من مكاحل نارها الحمالاً كانت السهام لها اميال وطلبها كل من الحاضرين وقد غلا دست الحرب وشمخ وهو على فرسه بنفسه الغالية وراموا كشفها وهم في رقعة الارض كأنهم لم يعلموا بان الطارمة عالية وتالله لقد حرس بقوم لم يتورعوا بغير آية الحرس في الاسحار وقد استيقظوا لحمل قسيهم ولم نثم اعينهم عن الاوتار فاعيد رواسيها التي كالجبال الشاسخة بن اسس المحجوج واحصنها قلعة بالسما ذات البروج .

واشتهرت في القرن الخامس دار ابن بني عقيل صاحب صور (٤٦٥) دخلها أسامة
ابن منقذ فرآها وقد تهدمت ونغير زخرفها فكتب على لوح من رخام هذه الايات :

احذر من الدنيا ولا تغتر بالهمر القصير
وانظر الى آثار من صرعته منا بالغرور
عمروا وشادوا ما ترا من المنازل والقصور
وتحولوا من بعد سكنها الى سكنى القبور

وذكر سبط ابن الجوزي ان أسامة الحلبي بنى داراً بدمشق بانقراض يهوت الناس
فغربت على يد ايوب بن الكامل محمد في سنة ٦٤٧ وكان أسامة قد غرم عليها اموالاً
عظيمة واخذ اراضي الناس والآلات بدون الطفيف وصح فيه قول القائل الحجر
المغصوب في البناء اساس الخراب وكانت هذه الدار سبب هلاك أسامة .

ومن جملة قصور الحكومة في الدولة الجركسية دار السعادة وكانت مكان دائرة
المشيرية امس ودار حكومة دمشق اليوم . ومن القلاع المهمة قلعة بصرى بنيت على
مثال قلعة دمشق . وهي اقدم من الاسلام جدد فيها من استولوا عليها بعد في ادوار
مختلفة دع القلاع والحصون الكثيرة في الشمال والجنوب مثل شقيف ارنون وشقيف
تيرون وهونين وتبنين و كوكب وعجلون وفاقون والصيبية والصلت والهارونية وبيت
لاها وحصن ابي قبيس وصافيتا وعريمة ولوقا وتل باشر وعكار وحارم وصهيون
وبغراس ودر بساك ودر كوتس واسفونا وبسرفوت و بلاطس وحصن الاكرادوشيزر
والمنيطرة والشفر و بكاس وارسوف وبيت جبرين وحبرون وارتاح والاتارب وبارين
وبارة واعزاز وصرفند وعدلون و برج الرصاص وحصن الاسكندرونة والتينات
وحلبا وعرقة وبرز به و خناصره وقسطون وتل اعدى وحصن الحبيس والقدموس ومصيات
والكهف والعليقة والخواجي وغيرها من القلاع المعروفة بقلاع الدعوة اي الدعوة
الباطنية او الاسماعيلية . هذا الى قلاع المدن المشهورة مثل قلعة طرابلس وقلعة حماة
وحمص وعكا والكرك والشوبك وصرخد وصفد وشميس . ومعظمها لناطح السحاب
بعلوها وتشبه الجبال بمبائنها وما احلى ما قاله القاضي الفاضل في وصف حصن كوكب :
ووردنا حصن كوكب وهو نجم في سحاب ، وعقاب في عقاب ، وهامة ، لها الغمامة عمامة ،

وانملة ، اذا اخضبها الاصيل كان الهلال لها قلامة . ووصف شهاب الدين محمود حصناً فقال : حصن قد نفرط بالنجوم ، ونفرط بالغيوم ، وسما فرعه الى السماء ، ورسا اصله الى النجوم ، تحال الشمس اذا علت انها لنثقل في ابراجه ، و بظن من سها الى البها انها ذبالة في سراجها ، لا يعلوه من نسر السما غير نسر السما وزمامه ، ولا يرمق متبرجات بوجهه غير عين الشمس والمقل التي تطرف من انجمه ، وحوله كل شامخ تهيب عقاب الجو قطع عقابه ، وثقف الريح حسرى اذا تعرقلت في هضابه ، تحفق العيون اذا رمقته سلوك مادونه من المهاجر ، ويحيل الفكر صورة الترقى اليه لا يبلغها حتى تبلغ القلوب الحناجر ، وحوله من الاودية خنادق لا تعلم منها الشهور الا بانصافها ، ولا تعرف فيها الالهة الا باوصافها .

وبدا منذ القرب الخامس الغرام ببناء القلاع والحصون لان المدينة او الموقع الحربي اذا خليا من حصن يسهل على العدو كل حين ان يمتاحها ومن كتاب فاضلي في وصف حصن بيت الاحزان : « وقد عرض حائطه الى ان زاد على عشر اذرع وقطعت له عظام الحجارة كل فص منها من سبع اذرع الى ما فوقها وما دونها وعدتها تزيد على عشرين الف حجر لا يستقر الحجر في مكانه ولا يستقل في بيانه الا باربعة دنانير فما فوقها وفيما بين الحائطين حشو من الحجارة الصم المرغم بها انوف الجبال الثم وقد جعلت سقيته بالكس واحاطت قبضته بالحجر مازجه بمثل جسمه وصاحبه باوتق واصلب من جرمه واوعز الى خصمه من الحديد بان لا يتعرض لهدمه »

وكثيراً ما كان سلاطين هذه الديار منذ استولى عليها الاتابك زنكي الى اواخر عهد المماليك يهربون الحصون التي استولوا عليها او التي كانوا بنوها اثلاً يعود اعداؤهم فيستولوا نايها ويتقدموا في داخلية البلاد . وقد ألف جمهور الناس ان ينقضوا البنيان القديم ويعمروا به بناءهم الحديث ولهذا امتلأ كتيرة في تاريخ العمران في هذه البلاد خاصة . فقد ذكر الماد الكاتب ان اللاذقية لما استخلصت من ايدي الصليبيين وقع من عدة من الامراء الزحاه على الرخام ونقلوا منه احمالاً الى منازلهم بالشام « فسوها وجوه الاماكن ومحووا سنا الحماسن » وبظاهر اللاذقية كنيسة عظيمة نقيصة قديمة باجزاء الاجزاء مرصعة وبالوان الرخام مجزعة واجناس تصاويرها متنوعة ولما دخلها الناس اخرجوا رخامها وشوها اعلامها .

وذكروا ان سيبي كافل الشام في الدولة الجر كسية لما اراد بناء جامعه في باب الجابية بدمشق خرب عدة جوامع ومدارس واتى باحجارها فسمى العلماء ما بناء « جمع الجوامع » ولما ارادوا في اواخر القرن الماضي بناء رصيف على طول نهر بردى من صدر الباز الى داخل مدينة دمشق حملوا اليه من ضخام الاحجار التي كانت في قائمتها . وربما هدم بمثل هذا العامل ما كان في اكثر مدن الشام من دور الضيافة التي ابتدعها عمر بن عبد العزيز وهو اول من اتخذ من الخلفاء الخانات للمسافرين كما اتخذ دار ضيافة وانشأ معاوية قبله البريد . وقصر الفقراء الذي بناه نور الدين في ربوة دمشق ووقف عليه قرية داريا ليصطاف الفقراء الى جانب الاغنياء ردار العدل التي بناها نور الدين ايضاً في دمشق وهي اول واحدة من نوعها بناها لكشف الظلمات وسماها دار العدل كان يجلس فيها لفصل المحرمات مرتين في الاسبوع وعنده القاضي والفقهاء . وبنى نور الدين جسر كامد اللوز في سهل البقاع (على الليطاني) كما جدد كثيراً من الجسور والخانات وقنوات السبل في اعمال دمشق وغيرها . وما كان في قم الجبال من المناور التي كانت توقد فيها النيران للاعلام بحركات العدو في الليل وما كان شيد في البلاد من ابراج حمام الزاجل لنقل الاخبار في النهار . ومن ذلك دمنة القبتين المائتين في قنة جبل قاسيون وكان فيه مرصد فلكي بناء المأمون فدر في جملة ما دثر . ومما اشتهر جسر منبج اتخذ في زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه للصوائف ويقال بل كان له رسم قديم .

دخلت سورية في القرون الوسطى هندسة جديدة عسكرية وغيرها وهي هندسة الصليبيين للقلاع والحصون والدور والكنائس ولا سيما في طرابلس وبيروت وعكا واهتم الصليبيون ببناء القلاع والكنائس في البلاد التي احتلوها من ارض الشام ولا سيما طرابلس وصور وانطاكية وعكا والقدس حتى قال بعض الباحثين : اذا استثنينا الدور الروماني فانه لم يأت على الشام زمن توفرت لهم على البناء مثل عهد الصليبيين فان كل مستعمرة تجارية في المواني البحرية كانت تحاول ان يكون لها على الاقل كنيسة وخانات وحمامات ومن ذلك العهد يرد تاريخ الكنائس الكثيرة وبعضها عظيم

ثم القلاع التي غصت بها البلاد وهي احسن نموذج للهندسة المربية في القرون الوسطى . وانشاء الكنائس في الشام يرد الى عهد قسطنطين في سنة ٣٣٠ م فكثرت بكثرة عنايته ورفع من شأن الكنيسة وقال فان برشم ان على طرابلس صبغة المدن الايطالية اثر فيها منذ الحروب الصليبية كما اثرت هندسة المدن الايطالية الكبرى على جميع المواني البحرية في سورية وكان للطراز الايطالي التقدم على غيره لان الطليان اهل البندقية وبيزة وجنوة وطسقانا كانوا اسبق امم الغرب الى الاختلاط بسكان الشام للقرب وللعلاقة الدينية بين رومية ونصارى الشرق العربي قبل الحروب الصليبية وكان عدد الصليبيين من جمهوريات ايطاليا اكثر من غيرهم من الامم قال الاثري فان برشم : لما كانت سواحل سورية محط رحال الصليبيين ونقطة حركاتهم الحربية تشبعت ابنتها بالروح الايطالي خصوصاً لان الطليان كانوا اذ ذاك اكثر عدداً في هذه الحملات من العنصر الفرنسي . ومن هذه المدن ما اثر مثل طرطوس وصيدا وصور وقيسارية وعسقلان ومنها ما هو باق مثل انطاكية وبيروت واللاذقية وعكا . وفي مدينة طرابلس من بين المدن كلها يتجلى الروح الايطالي الباقي من القرون الوسطى في ابنتها وهدستها ولا تزال قلعة الحصن او حصن الاكراد والكرك كما يدعوها فرسان الصليبيين محفوظة منذ عهد الصليبيين على ما هي عليه وهي آية في باب الهندسة العسكرية في القرون الوسطى ناطقة باسان حالها بان الصليبيين نزولوا الارض المقدسة .

قلنا فاذا كن الطليان يبيعون هندستهم في البناء ونقشهم ورسمهم من الامم الغربية حتى اليوم فاحر بهم ان يبيعوها من اهل القرون الوسطى هنا . ومن هندسة الصليبيين جامع خليل الرحمن وجامع بيروت وطرطوس الكبير وارواد وصور وصيدا ودير البلمند قرب طرابلس وكنيسة مار يوحنا في جبيل وكنيسة مار شربل في معاد وكنيسة انفة هذا الى غير ذلك من البيع في شمالي لبنان وجوار البترون وقد بنوا نحو خمسين قلعة وحصناً في البلاد التي احتلوها .

قال رنان الظاهر ان البنايات المربعة الشكل الضخمة الحجم هي من عمل الطليان وفرسان الهيكلين . وان البنايات ذات البرج المدور هي من صنع الفرنسيين وفرسان الاسبتاليين وكثيراً ما كانت تأتير هندسة اليونان البيزنطيين لقلاعهم — وكانت

البلاد خاصة بها — تعدل ذوق الافرنج الخاص في هذا المعنى . قال وفي طرطوس قامت اهم هذه الآثار واستدل مما فيها ان منزل الصليبيين في هذه البلاد لم يكن منزل قلعة بل وطدوا انفسهم على احتلالها احتلالاً دائماً وان في طرطوس بيعة هي اجمل مصنع من المصانع التي بنيت على الطراز الغوتي في هذه الديار .

ونجست الهندسة الايطالية في الابنية الحديثة التي أنشئت منذ ستين سنة في بيروت ولبنان وطرابلس وحيفا ويافا وصيدا وغيرها من مدن الساحل فان معظمها من الطراز الايطالي لا تحوي شيئاً من روح الهندسة العربية الا كونها نامت في صميم بلاد العرب . لا جرم ان علاقة سورية بايطاليا اقدم من الاسلام . علاقتها ببلادنا منذ كنا ولاية رومانية تحكمنا رومية عاصمة تلك الامة العظيمة .

برع مهندسو العرب في هذه الديار في علم عقود الابنية وهي ما يتعرف منه احوال اوضاع الابنية وكيفية شق الانهار وتقنية القنيّ وسدّ البثوق ونشيد المساكن ولولم يدروا في كيفية ايجاد الآلات الثقيلة لنقل الثقل العظيم بالقوة اليسيرة لما تمكنوا من عمارة المدن والقلاع والمنازل والجوامع والمدارس هذا التمكن الذي بهرنا اليوم مع علمنا بقلّة الآلات المحركة في عهدهم وفقدان وسائل الفن . ولو كان مؤلفو التراجم يعنون باخبار المهندسين والفلكيين والكياو بين مثلاً عنايتهم بالنقاط اخبار الشعراء والمتأدبين والمتزهدين لجاء لنا منهم سلسلة طويلة واعلمنا من اسباب نفنهم وعلومهم الشيء الكثير وما ندرى ان كانت هذه الموضوعات افردت بالتأليف فضاغت في جملة ما ضاع في الفتن في بغداد ودمشق وغرناطة .

لم يبلغنا ان في البلاد دوراً يرد تاريخها الى الف سنة حتى نعرف حق المعرفة كيف كانت هندسة المساكن في عهد ارتقاء البلاد على عهد الحكومات العربية كما بقيت مثلاً بعض دور قنوات في جبل حوران محفوظة كما كانت بنوافذها وابوابها الحجرية . ولكننا على مثل اليقين من ان طرز البناء في دمشق هو كما كان منذ بضعة قرون بل منذ دخول العرب الفاتحين وقبلهم بعصور وان هذا الطراز في بناء هوت دمشق خلاصة أسلوب قديم ارتقى مع الزمن حتى بلغ ما بلغ في القرون الاخيرة

ومنه مثال حي من مدارس المذاهب الاربعة ودور القرآن والحديث والمستشفيات والرُّبُط وغيرها في دمشق . وعن هذا المثال نقل الأُمويون أسلوبهم في بناء البيوت بقرطبة وغرناطة واشبيلية وطليطلة وغيرها من مدن الاندلس اقتبسوا أسلوب بناء الدور من دمشق على ما يظهر كأن لا تكون الدار اكثر من طابقين احدهما شتوي وهو الاعلى والاخر صيفي وهو الادنى وللدار مدخل او دهليز يتصل بفناء واسع فيه حوض ماء وفي صحن الدار اشجار وازهار وفوارات . قال احد المهندسين المعاصرين ان التشابه مؤثر بين هندسة دار قديمة ودار عربية فقد كانت الدور تشاد ولا تجعل لها نافذة على الشارع ويكتفى بطيقتان للتهوية ولها فناء داخلي تحف به غرف ومخادع وفي وسط الفناء او الصحن فوارة او حوض ماء . لا جرم ان المسلمين قد اخذوا عن الرومان هذا الطراز في البناء الذي ينطبق مع هذا على مناخ البحر المتوسط ولا تزال نجد فيه مثالا في اسبانيا حيث يسمى الفناء الداخلي باسم « باتيو » او الفناء المبلط .

وكانت دمشق تعتمد في ابنيتها على الحجر غالبا . وزاد الاعتماد على الخشب والطين في الادوار الاخيرة . قال المقدسي : ان منازل دمشق ضيقة وازقتها غامة واكثر اسواقها مغطاة ولهم سوق على طول البلد مكشوف لا ترى احسن من حماماتها ولا اعجب من فواراتها . هذا في القرن الرابع للهجرة . وقال ابن جبير في القرن السادس ان اكثر ابنيتها بالقصب والطين . وقال ابن فضل الله في الثامن ان غالب بناء دمشق بالحجر ودورها اصغر مقادير من دور مصر لكنها اكثر زخرفة منها وان كانت الرخام بها اقل وانما هو احسن انواعا قال وعناية اهل دمشق بالمباني كثيرة ولهم في بسايتهم منها ما تفوق به وتحسن باوضاعه وان كانت حلب اجل بناء لعنايتهم بالحجر فدمشق ازين واكثر رونقا لتحكم الماء على مدينتها وتسلطه على جميع نواحيها ويستعمل في عمارتها خشب الحور بدلا من خشب النخل الا انه لا يغشي بالبياض ويكتفى بحسن ظاهره واشرف دورها ما قرب واجل حاضرتها ما هو في جانبها اه .

قلنا وهذا ينافي ما كان يراه العرب في تخير اما كن بيوتهم فقد كانوا اصطلمحوا على ان الاطراف منازل الاشراف قال المجتري :

عجب الناس لاعتزالي وفي الاطراف تلتفي منازل الاشراف
ولذلك كنت ترى سيفه سفع جبل الصالحية والربوة والشرف الاعلى الشمالي
والشرف الادنى الجنوبي من ظاهر دمشق قصوراً أنيقة ينزلها القضاة والحكام وكبار ارباب
الاملاك والاشراف ولكنها دثرت بالفتن المتواترة ولم تقو على عوادي الايام حتى
نحكم على ما عمله الدمشقيون وأسلوبهم سيفه هندسة مصانعهم على العهد الاسلامي
الاولى وقد خربت هذه كلها في عهد العثمانيين . ويقول كاتب جلبي : انه كان في
المرجة بدمشق قصور عالية مشهورة في الآفاق لا يتأتى ايفاؤها حقها من الوصف
لا سيما ابنية البرامكة وآثارهم فانها لم تنزل باقية الى هذا العهد (القرن الحادي عشر)
وروى الظاهري : ان دمشق تشتمل على سور محكم وقلعة محكمة وبها طارمة مشرفة
على المدينة بها تنعت الملك مغطى لا يكشف الا اذا جلس السلطان عليه وقال ايضاً :
ان ما في الميدان الاخضر في دمشق من القصور الحسنة عجيبة من العجائب وهذا
في القرن العاشر .

وآثار العثمانيين في هذه العاصمة التكيان السليمانية والسلمية والجامعان السنانية
والدرويشية . بنوها على الاسلوب التركي البيزنطي ولهم مثل ذلك في حلب ومنها
المدرستان البديعتان مدرسة الحسروية والمدرسة العثمانية . قال سوبرنيم الاثرية
ان عدداً عظيماً من مصانع حلب يرد الى زمن المماليك والعثمانيين وما عدا الجوامع
الكثيرة مثل جامع الاطروش والطون بغا والطواني ومناراتها المختلفة الهندسة
— وبفضلها تذكر حلب بصورة القاهرة في هذا المعنى — فان حلب قد احتفظت
بالمستشفى الجميل الذي بناه ارغون سنة ٧٥٥ وبكثير من المخازن والخانات والحمامات
والدور والسبيلات . وفي هذا المستشفى افاريز ونقوش من اجمل ما نقش النقاشون
تزيينه فتجعله بهجة للناظرين . ومدينة حلب غنية بمصانعها الجيدة الهندسة ومنها
العسكري والديني والمدني وكما زبر عليها من الكتابات مادة واسعة لمن يريد ان
يتصور اصول الهندسة لا في حلب فقط بل في شمالي سورية اهـ . ومن اجمل آثار
الهندسة في حلب محراب مدرسة الفردوس التي بنتها خاتون التي ملكت حلب
ست سنين وهي ابنة ابي بكر بن ايوب الملك العادل ولو كتب البقاء على الاقل للقصر

الذي بناه بقرية بطياس من ضواحي حلب صالح بن علي العباسي وقصر الدارين الذي بناه عبد الملك بن صالح خارج باب انطاكية وقصر مرتضى الدولة احد موالى بني حمدان وقصر سيف الدولة بن حمدان الذي بناه بالحلة من ضواحي حلب ولناهي في حسنه وعمل له اسواراً وقد احرقه الروم في احدى غزواتهم فلم يهر بعد ذلك . او قصر آخر من قصور الحمدانيين — لو كتبت الاقدار ذلك لساغ لنا ان نحكم حكماً صحيحاً على هندسة دور الشهباء في القديم . والغالب ان هذا الطراز المعروف اليوم منها منقول كما هو الحال في دمشق عن الطراز القديم . ويقول الظاهري ان الميدان الاخضر في دمشق كان فيه من القصور الحسنة ما هو عجيبة من العجائب . وفي سنة ٦٩٢ كان الفراغ من بناء جسر نهر الكلب الذي شرع بينائه سيف الدين ارقطاي المنصور الناصري كافل السلطنة ايام الملك المنصور بن قلاوون وكان بناؤه بعدما خرب الجسر الذي اقامه السلطان انطونيوس الحلبي الذي تملك على رومية بعد المسيح بمائة واربعين سنة وهو الذي قطع الصخور وبنى البرج ومشى في الطريق الذي على شاطئ البحر الموصل الى مدينة بيروت كما هو مكتوب على الصخر قبال الجسر القديم مما يلي قبله على هذه الصورة مكتوب: الامير ادوار قيصر مارقوس اورليوس انطونيوس الحلبي السعيد اغسطس كبير الجرمانين الحبر الاعظم قطع الجبال المستتلة على نهر ليقا ونهج الطريق مهلاً ولقبه بالطريق الانطونياني وهذا النهر تلقب بالكلب لكونه بعدما صلحه انطونيوس الملك نصب به قائمة (نصباً) من حجر كبير على صورة الكلب وقيده بسلسلة حديد في الصخر وجعلوا قدامه تقيراً لاجل الطعام .

لما اراد نائب الشام في اواخر النصف الاول من القرن الثامن عمارة جسر الدامور الجاري بين صيدا وبيروت بعد ان لم يبق في السواحل مثل هذا النهر بغير جسر وكان عمّر مرة فاقام سننين فاخذ السيل ثم عمّر ولم يبق الا بعض الشتاء لضعف الاساس انتدبوا لذلك مهندساً خبيراً بالاعمال الاحلية يقال له ابو بكر بن البصيص البعلبكي وهو الذي عمر جسر نهر الكلب وله غير ذلك من الاعمال الثقال ببلاد طرابلس فعمله على صورة متينة . وكذلك جسر الظاهر يرقوق الذي بناه على نهر الأردن اي الشريعة وطوله مائة وعشرون ذراعاً وعرضه عشرون . وقالت فيه

السيدة عائشة الباعونية الدمشقية :

بني سلطاننا برقوق جسراً بأمر والالانام له مطيعه
مجاز في الحقيقة للبرايا وأمر بالمرور على الشريعة
وعمر قاضي دمشق سنة ٩٣٢ سوقاً تجاه باب جيرون بدمشق فبنى اقواساً
يحملون فيها قباب مبنية بالآجر اذ رآه احكم في البناء لانه لا يحتاج الى طين
ويؤمن من حرقه .

من القاعات في دمشق وحلب ما يرجع تاريخه الى القرن التاسع والعاشر
والحادى عشر والثاني عشر ومنها نعرف كيف كانت هندسة القوم فمنها القاعة
المشهورة بباب جيرون وباب السلسلة انشأها الامير محمد بن منجك الذي عمر العمارات
الفائقة بدمشق فانه تأنق في عمارتها بالقاشان والرخام وعمر القصر المعروف به في
الوادي الاخضر (١٠١١) ومنها عمارات الامير منصور بن الفريخ امير البقاع المقتول سنة
١٠٠٢ بقرية قب الياس وكانت له دار عظيمة خارج دمشق قبلي دار السعادة قال
الحبي لم يرسم مثلها جعل بابها بالرخام الابيض والحجر الاحمر المعدني ونقل لها الرخام
من بلاد السواحل والحجارة من البقاع واستعمل فيها العملة بالسحرة . وفي سنة ١٠٣٤
بني الامير منذر بن الامير سليمان بن علم الدين بن محمد النوحى سرايا عظيمة في قرية عبيه
في الشحر من الغرب في لبنان وبقى مدة اربعين سنة ولم يكملها لزيادة اتساعها وكان
البنائون من اسلا مبول . وأمر الوزير احمد باشا الكوبرلي الذي ولي دمشق سنة ١٠٧١
بعمارة قاعة معظمة داخل دار الامارة بدمشق فبنيت كما قال الحبي على اسلوب عجيب
 ووضع غريب . وقال المؤرخون ان الامير بشير الشهابي كان كالامير نجر الدين المعني يحب
البذخ والرفاهية وتنظيم اصطبلاته وبيطرته حتى اصبح مضرب الامثال في ذلك وعمر
في بيت الدين قصراً ملوكياً وجلب اليه الماء في ساقية طولها ثلاثة فراسخ . قال
بعض المؤرخين جر الامير بشير بواسطة رجل دمشقي قناة ماء من ينبوع القاعة بجانب
نهر الصفا الى منزله في بيت الدين من بعد ثلاث ساعات وغرّم على ذلك زهاء مائتي
الف درهم وكانت جميع اهل البلاد تحضر في كل سنة يومين تعمل في هذه القناة

بغير اجرة اكراماً له ومدة العمل اثنان وعشرون شهراً وعمر الامير بشير بايعاز من والي عيدا جسراً على نهر الدامور في طريق صيدا الى بيروت فجمع اهل الصناعة اليه فكانوا اكثر من مائة وخمسين رجلاً فاقمه في شهرين وغرّم عليه نحو مائة الف درهم . ومن الابنية التي اشتهرت في عصرها قاعة حسين بن قرنق في صالحيّة دمشق عمرت سنة ١٠٧٧ وكان يضرب بها المثل وهي على الارجح في رأس العقبة مكان دار بني الشريف دثرت في القرن الماضي . ومن محاسن دمشق في هذا القرن الداران اللتان عمرهما في القنوات الامير المنصور الشهابي امير وادي التيم وابن عمه الامير علي وذلك على اسلوب متقن محكم وزخرفاهما بانواع الزخارف والنقوش وجلبا اليهما الرخام من بلادهما قال المحبي : ولعمري انهما ابداعاً ونوعاً واجادا في صنعهما .

وذكر المؤرخون ان الامير نجر الدين المعني جاب مهندسين من الغرب ولعلمهم من ايطاليا ليضعوا له خطط قصوره في بيروت وصيدا وذكروا ايضاً انه بنى عدة بنايات وقلاعاً وحصوناً كثيرة ولما حدث اختلاف بينه وبين بيت سيفا واتى بنو سيفا اصحاب طرابلس فاحرقوا ونهبوا الشوف قيل انه اقسم هكذا : وحق زمزم والنبي المختار لا عمرك يا دير بجبر عسكار . وهكذا لما فاز على بني سيفا وحاصر قلعة الحصن واخذها وهدمها جعل الجمال بالالوف تحمل الحجارة من قلعة عكار الى دير القمر وبني جميع الدور القديمة في دير القمر ووزع في جدرانها من حجارة عكار وهي الحجارة الصفراء الموجودة في الحرج وفي جميع بنايات بيت معن القديمة وهي باقية الى الآن . ومن امثلة البناء الجميل دار اسعد باتا العظم في جوار جامع بني أمية بدمشق شرع بانشائها سنة ١١٦٣ وانتهت سنة ١١٧٤ قيل ان ما انفق عليها اربعمائة كيس كل كيس بخمسماية قرش وهذا اجور العملة واما الخشب والبلاط والتراب وغيره فكله من املاكه وبساتينه عدا من سخرهم للبناء من الناس وكان عدد العملة ثمانمائة قيل ان داخل الدار اما كن عديدة لا تشبه الواحدة الاخرى وجميعها بماء الفضة والذهب واللازورد والبلاط والرخام العظيم ونقل بعض السائحون ان ليس مثلها في ملك بني عثمان حتى ولا سراي الملك المعظم . وهذه الدار بما حوت من الفناء والقاعات والردهات والاياء والفساقي والفوارات والحمام من الطف ما هندس المهندسون في

ذلك القرن وكذلك يقال في قصره في حماه وهو على مثال داره في دمشق على صورة مصغرة . والنقوش وانواع الزينة فيها فارسية فاستدل من ذلك ان النقاشين كانوا فرساً او تأثروا بالاسلوب الفارسي ومن اجل ما فيه صورة حماة في القرن الثاني عشر تبين منها انها كانت عامرة اكثر من اليوم . ودار اسعد باشا العظم في دمشق اشترتها فرنسا ورمتها وجعلتها متحفاً وداره في حماه اشترتها جمعية وجعلتها مدرسة وهي عامرة ايضاً . ومن اجل الآثار في دمشق ايضاً خان اسعد باشا العظم وواجهته ورتاجه «بوابته» وقد عمر هذا الباشا جسر الكسوة من الرأس الى الرأس وعرضه ومن اجل آثار ذلك القرن جامع الجزار في عكا وداره في البهجة على مقربة منها نسج فيها على مثال الهندسة المصرية في ذلك القرن . وسراي بيت الدين انشئت في اوائل القرن التاسع عشر ومهندسوها ايطاليون والبناءؤن دمشقيون وحلبيون واتراك من الاستانة وهي على الطرز التركي الممتزج بالطرز الايطالي . ومن البيوت الجميلة قصور بني جنبلاط في المختارة في لبنان وفي الهلالية قرب صيدا وقصر بني شهاب في حاصبيا وسرايهم في راثميا . فان هذه القصور مثال من فنن اعيان ذلك الزمان في تفجيد بيوتهم وحسن هندستها . وقد تبين مما سلف ان الهندسة في الشام اصححت في القرون الاخيرة سورية عربية وانب اذا شاهدت ما سادوا ونفذوا ونقشوا ورصعوا رأيتهم يبنون كما قيل بناء الجبابرة وينقشون نقش الصياغ .

وانا اذا تأملنا الابنية التي قامت في النصف الثاني من القرن الثالث عشر للهجرة في مدن الشام نراها طرزاً طليانياً في الاكثر فد لا ينطق مع روح البلاد ومعطلمها في اشادة البيوت منذ القرون الاولى وقد انتشر هذا الطراز في مدينة بيروت ولبنان اولاً ثم امتد الى طرابلس ويافا وحيفا والقدس ودمشق وحلب وحمص وغيرها من المدن وما دور بني مرسق في بيروت وصوفر ودور بني بسترس والبويني وغيرها في بيروت والدور المعلقة في مدينة طرابلس ودور الجميلية والعريزية في حلب ومصايف لبنان في عاليه وصوفر وبكفيا وغيرها . بعض الدور المحدثه في دمشق الامثال منها ومن ام ابنية الشام المحدثه دير الكزانوفنا في الناصرة ودير الالمان ودير الروس في القدس ومدرسة اليسوعيين والجامعة الاميركية ودار المفوضية العليا في بيروت ومحطة السكة الحجازية في دمشق ومحطة سكة بغداد في حلب وغير ذلك من القصور الخاصة

والفنادق والمدارس والملاجئ والمياه والمستشفيات في القدس وطبرية وبيروت ولبنان وغيرها ومن أهم دور القرن الماضي في دمشق دار القونلي وشامية وعنبر وشمعايا واستانبولي والحلبوني ويسرع البلى الى ما كان بناؤه منها من الخشب والطين او بعضها منها على الاغلب واكثر دمشق كانت كذلك ظاهرها ثنبو عنه العين والزخرف في داخلها قال البحري :

وتأملت انت تظل ركابي بين لبنات طلعا والسنير

مشرفات على دمشق وقداع - روض منها يباض تلك القصور

ومع ان المقالع قريبة من دمشق وفيها ضروب الحجر الجليل من ابيض ومائل الى الصفرة او الحمرة فان القوم يستسهلون او يسترخسون البناء بالخشب واللبن او الحجر الاسود الناري فيبنون به كما يبني اهل حمص . واجمل الحجر الحجر الرملي في بيروت وحجر حطب ولم يزل بناء بيت المقدس - كما قال القاضي الفاضل - من الرخام الذي يطرد ماؤه ولا ينطرد لآلؤه قد نطف الحديد في تجزيعه ، وانفن في توسيعه ، الى ان صار الحديد الذي فيه بأس شديد ، كالذهب الذي فيه نعيم عتيق ، فما ترى الامقاعد كالر يابض لها من يابض الترخيم دقراق ، كالأشجار لها من التبت اوراق . وان بعض القاعات اذا كتب لها البقاء فلانها بنيت بالحجر الصلب وتعاورتها ايدي العقلاء فرمتها يوم احتاجت الى الترميم بطاريء طرا عليها .

فذت في الشام قصور افراد الناس من القمار والصناع والزراع كما تشاهد في الغرب مثلاً لان اهل البلاد كانوا يفتنون في كبرائهم فلم يكن شأن من مظاهر النعمة والغبطة مدة قرون لغير ارباب الدولة او من كان يعد في جهاتهم وكان سائر الناس يحاذرون ان تنشأ لهم شهرة في الثروة والثروة تعجل في الدار والفرش والداية واللباس فيتظاهرون بالقر ليتنجوا من محالب العمال الذين كانت مصادرة الاموال اسهل سيء عليهم وقتل من يريدون استصفاء ارضهم وعقارهم وعروضهم من المباحات . ولذلك كان ذو الغنى كثيراً ما يدفن امواله في مكان مجهول من داره ودكانه وربما خاف من زوجه وولده فكتم عنهم ما يملك وقد يموت وتبقى دفينته مجهولة حتى يجيء بعد دهر طويل من ينش الارض او الجدار ويعثر بالعرض على ما جمعه ذاك الغني المخروم . والناظر الى مدارس دمشق وصالحيتها وهي لا تقل عن زماء ثلاثمائة مدرسة

ومدارس حلب وهي تربو على مئة يدرك انها من عمل السلاطين والعمال وقليل من التجار واهل الخير وكان منهم من يتوخى منها ان تكون توليتها ابنه من بعده ليعيشوا منها اذا صودرت املاكهم . وقل ان رأينا جماعة انفقوا على اقامة عمل من هذا القبيل يفخر به اللهم الا قليل من المساجد ولو فعلوا لامنت اعمال الجماعات من اعتداء المعتدين ولما استصفيت واستحل هدمها او تغيير معالمها من لا يحافون الله ولا عباده ولبات ممثلة العظمة الحقيقية في الامة . انشأ المسلمون هذا القدر من المدارس في اكبر مدن القطر دع مدارس حماة وطرابلس وبلبك والقدس والمرة ومنج بدأوا في القرن السادس وانهوا في القرن التاسع فجاء من بعدهم من ينسفها واحدة تلو الاخرى فتداعت واكلوا اوقافها فاخرجوها عن الغاية الشريفة التي وضعت لها :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومزل وحى مقفر العرصات
هكذا كان حظ المدارس والجوامع فما بالك في غيرها من المصانع . وكم ادركنا وادرك آباؤنا واجدادنا في هذه الديار من اثر بديع سطت عليه يد خرقاء لنسل حجارته وكم من كتابة تاريخية عني اثرها جهلا وغباوة . اجناز القاضي ابو يعلى المعري ببدة شياث ظاهر معرة النعمان والناس ينقضون بنيانها ليعمروا به . موضعاً آخر فقال :

مررت برمم في شياث فراعني به زجل الاحجار تحت المعاول
تناولها عبل الذراع كأنما رمى الدهر فيما بينهم حرب والى
انلقها شلت يمينك حلها لمعتبر او زائر او مسأل
منازل قوم حدثتنا حديثهم ولم ار احلى من حديث المنازل
وبعد فقد علمنا بما مر بنا من العبر ان الشام لا يحفظ بآثاره وبنيها الا يوم نلتأ
فيه ادارة للعاديات يكون سلطانها نافذاً على الكبير والصغير كما فعلت مصر منذ امد
قاحتظت بالبقية الباقية من اعمال الغابرين وخدمت احباب الآتار وغلاة الهندسة
من المحدثين . واهم من هذا ان يتربى في الامة الذوق في الجمال وينتشر العلم
بالصنائع النفيسة حتى بين الاطفال ويعرف كل وطني معنى هذه التذكارات المطبوعة
بطابع الاجداد والاجيال وعندئذ يصبح التام كله متحفاً نفيساً دونه اجمل المتاحف
وانغم بهوت المفاخر والمآثر .

محمد كرد علي

فهارس كتاب المحاضرات

« الجزء الاول »

الفهرس الاول في اسماء المحاضرات

صفحة	
٠	الفاتحة
١	معلقة طرفة بن العبد
١٧	الحسبة في الاسلام
٢٥	الوبالة (الملا ر يا) وكيفية الوقاية منها
٣٨	الجباية في الشام
٧٤	القضاء في الاسلام
١١٢	العلم
١٣٠	الحقوق المدنية في العالم القديم ومنابعها الثابتة
١٤٠	حقائق تاريخية عن دمشق وحضارتها
١٦٧	أحيحة بن الجلاح
١٧٨	كيف تحقق الآثار التاريخية
٢٠٠	العمل بالعلم
٢٢١	ارتباط البلاد على اصول الاتحاد
٢٣٧	طرفة أدب من آداب العرب
٢٥٩	الكتب والمطالعة
٢٨٠	صناعات دمشق القديمة
٣١٣	صفحة من تاريخنا الاجتماعي
٣٢٩	مصانع الشام منذ عرف التاريخ
	للشيخ عبد القادر المغربي
	للسيد محمد كرد علي
	للدكتور مرشد خاطر
	للسيد محمد كرد علي
	للسيد نارف النكدي
	للسيد انيس سلوم
	للشيخ سعيد مراد الغزي
	للسيد عيسى اسكندر المعلوف
	للشيخ عبد القادر المغربي
	للسيد عيسى اسكندر المعلوف
	للسيد انيس سلوم
	للسيد فارس الحوري
	للشيخ عبد القادر المغربي
	للسيد انيس سلوم
	للسيد عيسى اسكندر المعلوف
	للشيخ عبد القادر المغربي
	للسيد محمد كرد علي

❦ الفهرس الثاني في اسماء المحاضرين ❦

اتيس سلوم	صفحة ١١٢ و ٢٠٠ و ٢٥٩
سميد مراد الغزي	= ١٣٠
عبد القادر المغربي	= ١ و ١٦٧ و ٢٣٧ و ٣١٣
عارف النكدي	= ٧٤
عيسى اسكندر المعلوف	= ١٤٠ و ١٧٨ و ٢٨٠
فارس الخوري	= ٢٢١
محمد كرد علي	= ١٧ و ٣٨ و ٣٢٩
مرشد خاطر	= ٢٥

❦ الفهرس الثالث في موضوع المحاضرات ❦

اثريه فنية	(١٧٨ و ٣٢٩)
اجتماعية	(٣١٣)
ادبية علمية	(١١٢ و ٢٠٠ و ٢٥٩)
ادارية	(٢٢١)
اقتصادية	(٣٨)
تاريخية	(١٤٠)
تاريخية ادبية	(١ و ١٦٧ و ٢٣٧)
حقوقية	(١٣٠)
صحية طبية	(٢٥)
صناعية	(٢٨٠ و ٣٢٩)
قضائية	(٧٤)
مدنية	(١٧)
هندسية	(٣٢٩)

* اصلاح أم الخطأ المطبعي *

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٨	١٨	التجرد	المتجرد
١٠	٢١	لا ينفذ	لا ينفذ
١١	١٠	أخمل	أخمل
١١	١٩	المعتد	المعتد
١٣	١٢	فعم	مم
٣٠	٢٤	غارة وجه الحجر	غاب وجه الحجر
٢٨	١٥	صيقى	صيفى
٢٩	١	واليمين على ادعى	من ادعى
٨٢	١	واجتهاد	واجتهاده
٨٣	٨	والمذاهب	المذاهب
٨٣	٨	رضيها	رضيتها
٨٤ السطر (٢) من الحاشية ^(١) يرشح			يرجع
٩٣	١٧	ومع هذا في فقد قضي عليه خصومة	ومع هذا فقد قضي عليه في خصومة
٩٥	آخر سطر	ملخم	ملخم
١٠٠	١٤	او الحق الالهي	الحق الالهي
١٠٢	آخر سطر	بين امر المتنازعين	بين المتنازعين
١٠٣	٢٢	ضرب الاول	ضرب للاول
١٠٥	٧	في	نفي
١٠٦	١٦	لا يكون مداراً	لا يكون الاقرار بالاكراه مداراً
١٠٦	٢٤	واوجبوا في	واوجبوا التبرئة في
١٠٨	٥	يجنس	يجبس
١٠٨	٢٤	يقام له الحد	يقام الحد
١١٣	١	جميع	جمع

صفحة	سطر	خطأ	ضواب
١١٥	٢١	منا	مناب
١١٦	١٤	يمكن	مكن
١١٦	١٥	ممن	من
١٢٤	٢٢	والحديد من	والحديد اقل من
١٢٦	٢٣	عليهم	علمهم
١٢٨	٢	ونشيط	ونشط
١٢٨	٢٣	يراسلون	يرسلون
١٨١	قبل الاخير بسطر	بيروسيوس	بروشيوس
١٨٢	١	ما علامة الآثار	ما علاقة الآثار
١٩٩	٨	شؤونها	شؤوننا
٢٠٢	٤	حيلة	حلية
٢٠٥	٢٢	يكون	يكونوا
٢٠٦	١٩	الفر يقين	الغربين
٢٥٢	١٠	لا خافن	لا خالفن
٢٥٩	١	حين الدهر	حين من الدهر
٢٦٤	١٢	بجميع	بجمع
٢٦٩	١٩	مثلا	وما مثلاً
٢٧٢	١٢	المزلفة	المؤلفة
٢٧٤	١٨	بعضهم	بعضها
٢٧٧	٨	عند	عنه
٢٧٨	٢٢	وهنت	وهبت
٢٩١	١١	ابن العربي	ابن عربي
٣١٨	٩	قصره	لقصره

هذا عدا حروف ونقط ساقطة او زائدة مما لا يخفى امره عن اللبيب .

To: www.al-mostafa.com